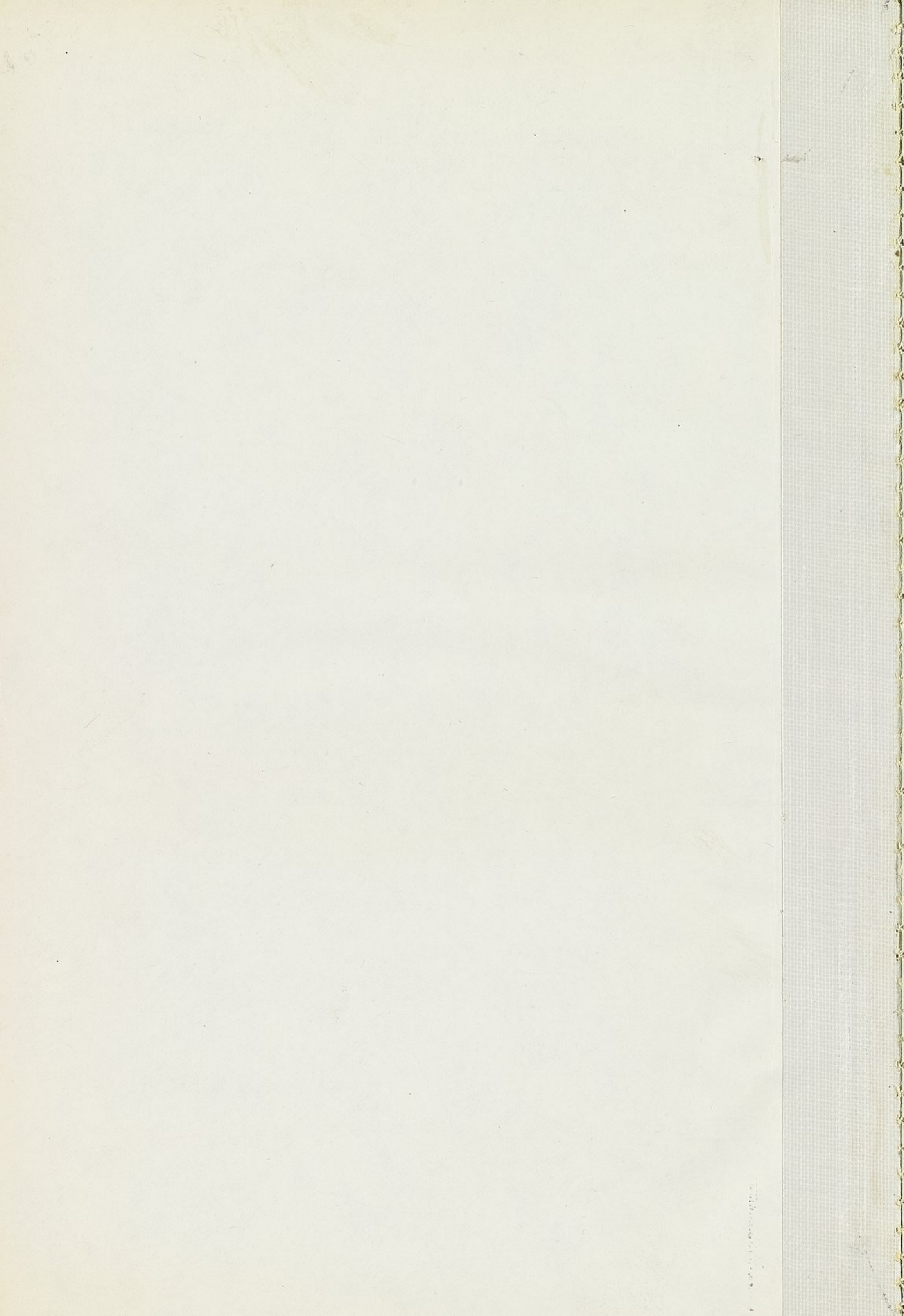
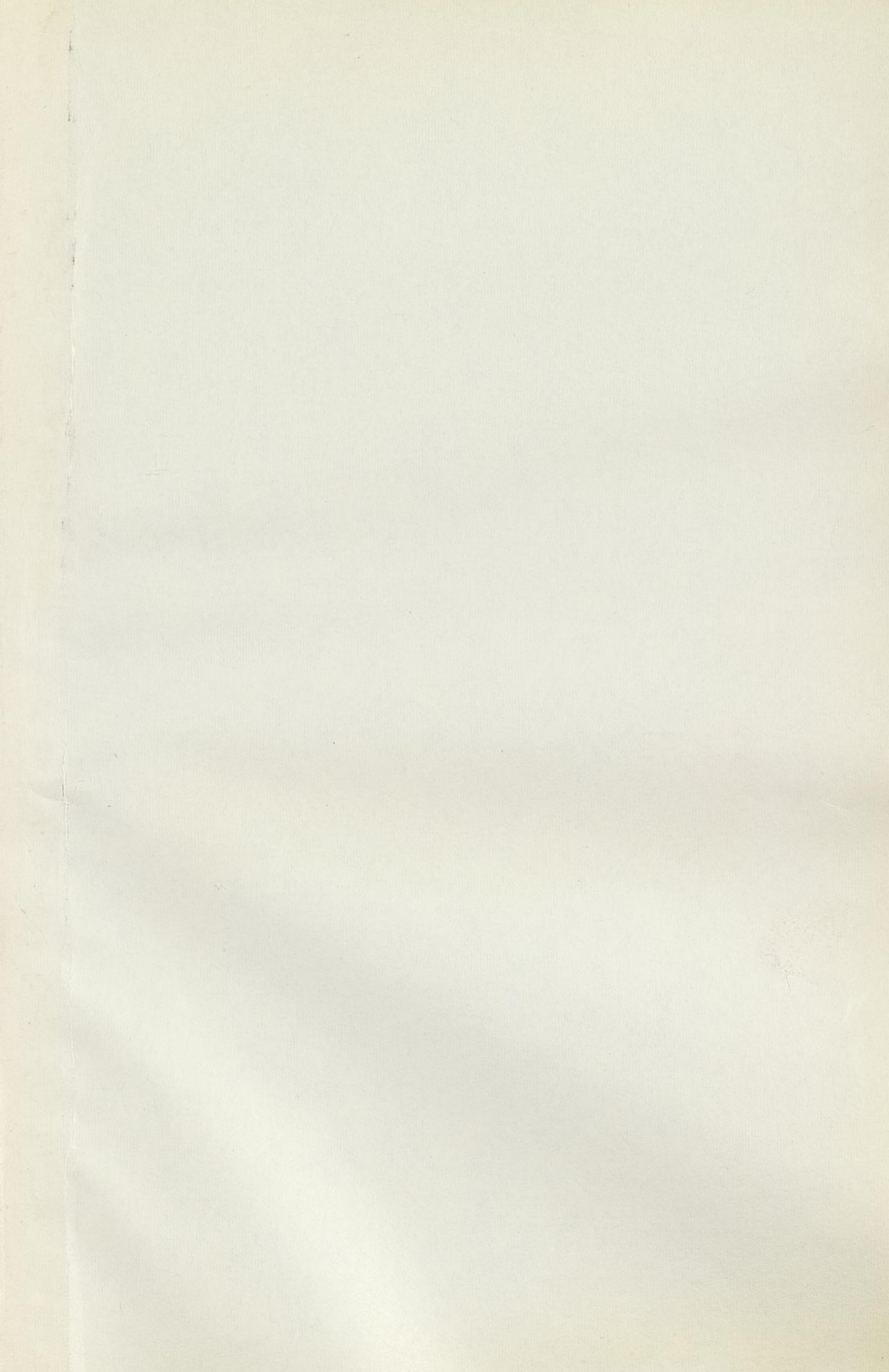
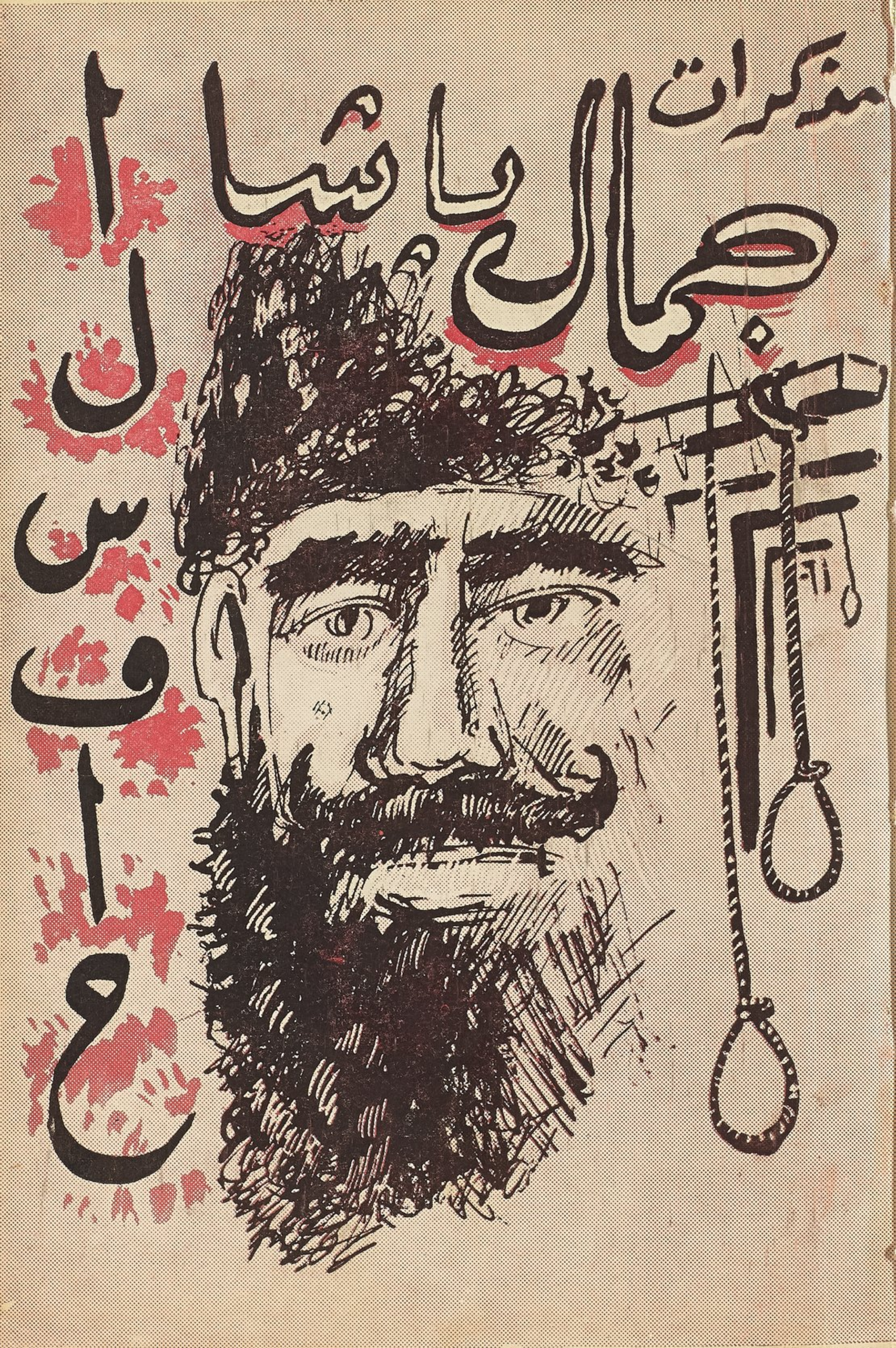


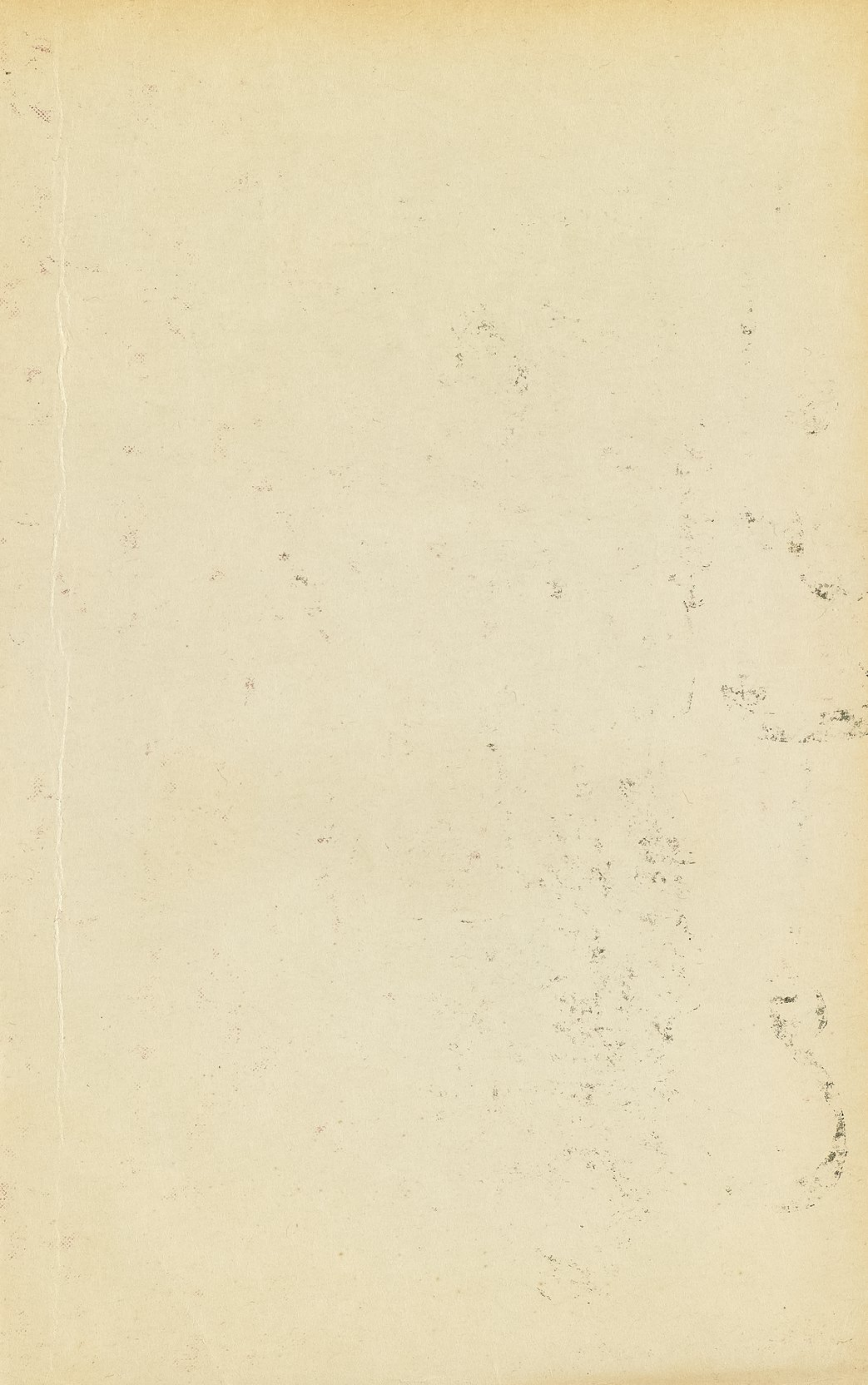

Princeton University Library
32101 084760477







مذكرات
جمال باشا
السفاح



منشورات دار البصري

مذكرات جمال باشا السفاح

تعريب ـ علي احمد شكرى

تحقيق ـ عبد المجيد محمود

١٩٦٣

مطبعة دار البصرى ـ بغداد (تلفون ٨٩٢٧٩)

استهلال

بقلم الزعيم المتقاعد محمود بهجت سنان

فى شهر آب سنة ١٩١٤ اعلنت الامبراطورية العثمانية التعبئة العامة فى جميع ارجاء امبراطوريتها تمهيداً لخوض غمار الحرب العالمية الاولى فى جانب الالمان عملا باحكام معاهدة التحالف المعقودة بينهما . مما جعل رجال العرب يطيلون البحث والتفكير فى الخطة التى يسيرون عليها خلال المرحلة الجديدة . فرأوا بعد انعام النظر والاحاطة بالموقف العام . ان يؤيدوا الدولة فى نضالها ويشدوا ازرها فى كفاحها . متغافلين عن كل اعتبار حزبى ونزعة قومية جاعلين مصلحة الوطن فوق كل مصلحة . وشملت التعبئة العامة للجيش فى بلاد العرب من دون حادث يذكر . وقد اقترح زعماء الاتحاديين وفى مقدمتهم جمال باشا نفسه على ارسال وفود من رجالات العرب الى البلاد العربية يضمنوا للحكومة ولاء العرب واقبال شبانهم على التجنيد ، وقد قسمت الامبراطورية العثمانية الى ست قيادات بالنسبة الى مناطق تحشدها . فكان الجيش الرابع مقره فى دمشق . وكانت دائرة نفوذه العسكرية والادارية تشمل البلاد المتحدة من جنوبى طوروس حتى اليمن اى انها كانت تضم ولايات اطنه وحلب والشام وبيروت وجبل لبنان والقدس والحجاز اى (مقاطعة كيليكيه وسورية ولبنان وفلسطين والحجاز) وتولى الفريق زكى باشا الحلبي وهو عربى قيادة هذا الجيش فى ابتداء الحرب فتمت التعبئة فى عهده ووضعت الخطط العسكرية تحت اشرافه ، على انهم ما لبثوا ان ابدلوه باحمد جمال باشا وزير البحرية يومئذ واحد اقطاب الاتحاديين . فغادر الاستانه يوم ٢١ / تشرين الثانى سنة ١٩١٤ قاصداً دمشق ، فبلغها يوم ٥ / كانون الاول ودخلها باحتفال رسمي . واما زكى باشا فعين مرافقــاً للامبراطور غليوم .

كان احمد جمال عضواً بارزاً من اعضاء (تركية الفتـاة) الذين يمثلون جمعية الاتحاد والترقى وكان بطلا معروفاً من ابطال الدعوة الاسلامية . فكان يخالف الداعين الى الوحدة الطورانية . ويجاهر عن اخلاص بايمانه بمزايا القومية العثمانية المبنيه على التضامن الاسلامى وبمستقبلها . وكان يميل الى فرنسة وقد اشتهر بكرهه للالمان .

وكان لوصول جمال باشا الى دمشق وقع حسن فى النفوس فقد جاء عاقداً العزم على كسب السكان العرب لموالاة تركية وموازرتها وعلى استمالة المسلمين الى المشاركة الفعالة فى الجهاد . وكان يريد ان يستخرج من الدعوة الى الجهاد اقصى ما يستطيع من فوائد . ولذلك كان من الطبيعي ان يولي وجهه شطر مكة يطلب التأييد . وقد ارسل هو وانور باشا رسائل الى شريف مكة بهذا الصدد .

وتقرب جمال باشا من الاصلاحيين وسعى لاستمالتهم في اول عهده . فاتصل برجالهم وزعمائهم وقربهم اليه وادناهم منه ، فاتخذ الدكتور عبدالرحمن شهبندر طبيباً خاصاً له كما فتح ابوابه فى وجه عبدالكريم الخليل . ونفح محمد كرد على مبلغاً كبيراً من المـال باسم جريدة (المقتبس) وجاد بمثل ذلك على عبد الغنى العريس . صاحب جريدة (المفيد) وكلتا الجريدتين من اعظم صحف الاخلاصيين يومئذ فانظمتا الى الحكومة عملا بالخطة المرسومة .

واخذ جمال يعمل جاهداً فى توطيد التضامن التركى العربى بجميع الوسائل الممكنة لمجابهة الحرب . وقد جاء فى احدى خطبه « نورد بعض مقتطفاتها » « ان البرنامج الذي عقد حزبنا عزيمته على تنفيذه لاصلاح حالة العرب لاوسع كثيراً مما يخطر ببالكم » ثم قال : واليوم اراني قادراً على ان اؤكد لكم ان الامانى التركية والامانى العربية لاتتعارضان . فالترك والعرب ليسوا سوى

اخوان فى غايتهم الوطنية ربما اكمل بعضهم جهود بعض (١) وبينما كانت الاحوال تسير على هذا المنوال وكان الهدوء يرفرف على بلاد العرب والتعاون على اتمه بين الحكومة والشعب فوجىء الناس فى اواخر شهر حزيران ١٩١٥ بنبأ اعتقال البعض من زعماء العرب المقربين الى جمال ثم احالتهم الى « ديوان الحرب العرفى » وفى صباح يوم ٢١ آب ١٩١٥ شاهدت بيروت الرعيل الاول من زعماء العرب وعلقوا على اعواد المشانق ، وعللت بعض المصادر اقدام جمال على ركوب هذا المركب باعتبارات سلبية وايجابية نلخصها بما يلى :

(١) - ميل زعماء تركيا الى التخلص من الحركة العربية والقضاء عليها وهى فى المهد . وفرصة الحرب هى خير الفرص السانحة لتحقيق ذلك .

(٢) ما اثبتته الوثائق السرية التى نشرها البلاشفة سنة ١٩١٨ من سجل وزارة الخارجية الروسية عن وجود صلة بين جمـــال باشا والارمن فى تلك الايام وتوسيطه اياهم لحمل الحلفاء على الاعتراف به سلطاناً على تركيا مقابل قضائه على الدولة .

واما الاسباب الايجابية ففى مقدمتها المخابرات السرية الجارية بين حقى العظم ومحمود المحمصانى بعد اعلان الحرب العالمية الاولى والتى صادرتها المراقبة وسلمتها الى قائد الجيش .

وجملة القول اننا من الذين يعتقدون بان جمال لم يعمل ماعمله الا ليتخلص من العنصر العربى المنور . فلنترك القول الى جمال السفاح فى مذكراته ليشرح فيها الحوادث تبريراً لسياسته فى حق الابرياء من العرب .

---

(١) القيت الخطبه فى النادى الشرقى بمناسبة تكريم الشيخ عبد العزيز شاويش فى اوائل كانون الثانى ١٩١٥ ، الثورة العربية الكبرى .

مقدمة المعرب

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

وبعد فهذه مذكرات المرحوم أحمد جمال باشا التي كشفت الستار عن ألاعيب السياسة الأوروبية فى تركيا قبل الحرب وخلالها .

وسيلاحظ القارىء ان صاحب المذكرات لم يكن همه الأول عند وضعها الدفاع عن نفسه أو نفى ما عزي اليه من التهم بل ذكر الوقائع التاريخية كما هى. فاذا وجد بعينها مايشم منه رائحة الدفاع فليس ذلك الا من قبيل الاستطراد فقط . واذا كان المؤلف لم يتعرض للدفاع عن نفسه فليس لنا نحن أن ننبري للدفاع عنه . بيد ان هذا لا يمنعنا من ابداء ما يعن لنا من الملاحظات .

(الثورة العربية)

مسئولية الحسين وأولاده

كثيراً ما عزا الناس الى جمال باشا أعمال الغطرسة والعنف والقتل والتعذيب وعدم المبالاة وغير ذلك حتى ان بعضهم سماه (بالسفاح) ولكن القارىء بعد استيعاب هذه المذكرات سيحكم معنا بان المؤلف تساهل اكثر مما كان ينبغي فى كثير من المواقف التي كانت تقضي باستعمال الحزم والشدة وانه حسب حساباً كبيراً لما سماه (الوحدة الاسلامية) مما جعله ينخدع بحيل الدساسين ويستعمل الرأفة مع من باعوا أنفسهم وضمائرهم للعدو فى حين ان الحكمة كانت تقضى بالتشدد خيفة الفتنة والأخذ بالأحوط .

خذ مثلا لذلك مسلكه مع (الحسين) وأولاده . فبالرغم من أن القرائن

العديدة كانت تشير الى قرب انتفاض بلاد العرب على دولة الخلافة بعد أن لعب الذهب الانكليزي بعقول أولئك الاشراف الذين كانوا حرباً ووبالا على دينهم فانه سمح لفيصل بالعودة الى المدينة المنورة فى الوقت الذي اشتد فيه تذمر واليها (بصري باشا) من مسلك (الشريف علي) حياله : نعم ان المؤلف ارسل القائد (فخري باشا) على أثر مغادرة (فيصل) له ليدبر مع بصري باشا وسائل الدفاع عن المدينة اذا ما هاجمتها : (جنود الشريف حسين) ولكن ألم يكن الأجدر به أن يعمل بهذه الكلمة المأثورة (الوقاية خير من العلاج) فيبقي (فيصلا) وكذا أخوه علي اذا استطاع أيضا - كرهائن للقضاء على دسائس أبيهما ؟ ان برقية (الشريف حسين) الى (أنور باشا) التي اشترط فيها فى مقابل وقوفه على الحياد اعتراف تركيا باستقلال الحجاز من تبوك الى مكة والعدول عن محاكمة من أظهرت المحاكم العسكرية خيانتهم من السوريين والعرب كانت دليلا ظاهراً على ان الرجل أصبح بحيث لا ينبغي للسياسي الحازم الركون اليه بحال ما . ثم ان تموين الانجليز لشواطىء الحجاز وثغوره ومهاجمة العرب للطرادة الالمانية (امدن) وما عثر عليه (خلوصى بك) حاكم سورية العام من الوثائق الرسمية .

فى القنصلية الفرنسية التي أدانت الكثيرين من الزعماء السوريين والعرب كل ذلك كان فى نظرنا كافياً لتنبيه (جمال باشا) الى الخطر المنتظر واتخاذ الوسائل الحاسمة للقضاء على الثورة العربية فى مهدها .

على ان افراط المؤلف فى الثقة (بالشريف حسين) وأولاده واستبعاده ان يقدم أولئك الأدعياء الذين يزعمون انهم من سلالة الرسول عليه الصلاة والسلام على مناوأة دولة الخلافة وهى مشتبكة فى حرب نتيجتها الحياة أو الموت أو يمالئوا العدو عليها ويشقوا عصا الاسلام ويشطروا العالم الاسلامى الى شطرين ينبرى كل منهما لسفك دم الآخر واغفاله اتخاذ التدبير الكافية

لكبح جماحهم اذا غررت بهم الوعود الاجنبية - تقول - ان ذلك كله لايخلي
(الشريف حسين وأولاده) بحال ما من المسؤولية العظمى التى سيحاسبون
عليها غداً بين يدي الله تعالى حساباً عسيرا . ولم يكن للشريف عذر ما فيما
جناه اذ مهما كان محضاً فى شكاواه وتبرماته فقد كان خليقاً به أن يمهل تركيا
الى أن تضع الحرب أوزارها ثم يطالبها وقتئذ بما يشاء لأن يطعنها غدراً
تلك الطعنة النجلاء التي كادت تودي بالاسلام - لولا أن قيض الله تعالى
أولئك الأبطال الأماجد (مصطفى كمال باشا وجماعته) فرأبوا الصدع الذي
احدثته ثورة الشريف ومزقوا بشفار سيوفهم وأسنة رماحهم - معاهدة سيفر -
العاتية وحطموا الأغلال التي أراد العدو تطويق الاسلام بها . على اننا لو
سلمنا جدلا بوجاهة مطاليب الشريف وانه كان محقاً فى تذمره من مساوىء
الحكم التركي - فهل كان يخطر بباله ان دولة مستقلة ذات سيادة تسلم بمطالب
أحد رعاياها العاصين بلا مناقشة أو مفاوضة ؟ - هذا غير معقول طبعاً .
فهاهي ارلندا مثلا - التي جاهدت نيفا وسبعة قرون للتخلص من الحكم
الانجليزي ما كادت تنتهز فرصة اشتباك الامبراطورية الانجليزية فى حرب
الابادة وتقوم بثورتها المشهورة فى عيد الفصح سنة ١٩١٦ - حتى تحول
عطف الشعب الانجليزي عليها وعلى مطالبها الى سخط شديد اعتقاداً منه - ان
مثل هذا العمل ليس الا غدراً وخيانة لا نظير لها فاطلق يد وزارة المستر
اسكويث لقمع تلك الثورة بمنتهى القسوة والعنف . فقامت هذه الوزارة
بمهمتها خير قيام وقبضت على الزعماء الارلنديين أمثال السر روجر كيسمنت
وشنقتهم شنقاً بتهمة الخيانة العظمى . كل ذلك لأنها كانت ترى أن سلامة
الامبراطورية الانجليزية - هو أول ما يجب الاهتمام به بقطع النظر عما اذا
كان الثوار الارلنديون محقين أو غير محقين فى مطالبهم . فهل لامها أحد
على فعلها ؟ وهل اتهمها أحد بالقسوة والعنف ؟ وماذا عسى ان يكون مصير

الامبراطورية الانجليزية اليوم لو أنها توانت فى قمع تلك الثورة أو سلمت بمطالب ارلندا ؟ اما كانت على الاقل ينتظر ان تحذو حذوها سائر المستعمرات البريطانية الأخرى فتحل تلك الامبراطورية ؟ اذن فكيف كان ينتظر الشريف حسين وأتباعه أن تلبي تركيا مطالبهم بلا مناقشة ولا جدال ؟ ولماذا يلام (جمال باشا) لأنه شنق من شنق من الثوار السوريين والعرب بعد أن اثبتت المحاكم للعسكرية خياناتهم محتذيا حذو انجلترا حيال الثوار الارلنديين ؟ وهل لو سلمت تركيا بمطالب الشريف أكان ثمة ضمان أن لاتنهج أرمينيا وسورية والعراق والولايات الأخرى نهج الحجاز وتطالب هي بدورها الانفصال عن الامبراطورية العثمانية ؟ الا ان التاريخ ما كان ليفتخر (بجمال باشا) اهماله لو توانى فى محاكمة أولئك الخونة الذين ثبتت صلتهم الدنيئة بالعدو .

(فالشريف حسين) اذن كان يعلم جيد العلم ان المطالب التي طلبها من تركيا لا يمكن أي دولة ذات سيادة تلبيتها الا بالطرق الدستورية وهذه متعذرة فى زمن الحرب . فاصراره عليها ليس الا أعناتاً مقصودة بل مؤامرة قديمة يدل عليها اعترافه نفسه فى جريدة القبلة فى الخطاب الذي أرسله الى احد الزعماء العرب حيث اعترف بأن رغبته منذ تبوئه عرش الأمارة هى تحرير العرب من الحكم التركي .

فهو واولاده وأشياعه من الثوار السوريين والعرب مسئولون عما أصاب الاسلام من المصائب والارزاء .

ومع ذلك فهل حقق لبلاده أمانيها بعد ثورته المشؤومة ؟

لقد تخلص من (النير التركي) وتمتع بنوع من الاستقلال لم يزد فى شيء عما كانت تتمتع به بلاده من قبل وبدلا من أن يستفيد من تصريح تركيا الأخير بالاعتراف باستقلال بلاد العرب استقلالا تاماً نراه يزج بنفسه الى أحضان الانجليز فيستعيض عن الاستقلال بلقب الملك الاكبر للحلف العربى

المزمع انشاؤه تحت الاشراف البريطانى ! - أفلهذا حارب تركيا وشق عصا الاسلام ؟ ألا ! ليغتبط جلالته بهذه النتيجة !؟

(دخول تركيا الحرب)

(مسئولية انجلترا)

ولننظر الآن فى اشتراك تركيا فى الحرب ضد الحلفاء .

فلطالما سمعنا المستر (لويد جورج) و (المستر اسكويت) وغيرهما من الساسة الانجليز و (المسيو بومبار) أخيراً فى مؤتمر لوزان يندون بدخول تركيا الحرب فى جانب المانيا ويعتبرون اغلاقها البواغيز خيانة تستحق عليها العقاب الشديد . وان تعجب فعجب أمر أولئك الساسة الذين يعرفون الواقع ويتجاهلونه - فان الأخير كان سفيراً لفرنسا فى الاستانة سنة ١٩١٤ واطلع بنفسه على ما بذلته تركيا من المساعي العديدة للتقرب من دول الاتفاق الودى حتى انها ارسلت المؤلف الى فرنسا بناء على دعوة منها سلمها اليه (المسيو بومبار) نفسه لادراك تلك الغاية . ولكن ماذا كانت نتيجة كل هـــذه المساعي ؟ - لاشيء ! فهل أبدت انجلترا وفرنسا رغبة ما فى انضمام تركيا اليهما ؟ كلا - بل الأمر بالعكس . اذن فلا لوم على تركيا بعد رفض الدولتين السابقتين مصادقتها فى التحالف مع المانيا . وقد شرح المؤلف هذه المساعي باسهاب فى سياق مذكراته . على ان المسئولية عن تحول تركيا الى جهة دول التحالف الثلاثى انما تقع على السياسة الانجليزية وحـــدها . فقد كانت سياسة (دزرائلى) قائمة على التقرب من تركيا أولا بصفتها دولة الخلافة وثانيا لأنها الدولة الوحيـدة فى جنوب أوروبا الشرقى التي يمكن الاعتماد عليها فى الوقوف فى أوجه المطامع الروسية فى البحر الأبيض المتوسط . فحرب القرم التي طالما من الساسة الانجليز على تركيا بها لم تدخلها انجلترا حبا فى

سواد عيون الأتراك بل لتقليم أظافر روسيا ومنعها من التطلع الى البحر المتوسط أو الى الهند .

ولكن (مستر غلادستون) - المشهور بنزعته الصليبية - قلب تلك السياسة رأساً على عقب ووضع لوزارات الأحرار التي أعقبته سنة للجري عليها ألا وهى طرد الاتراك من أوروبا بقضهم وقضيضهم .

ففى خلال وزارته فى أواخر القرن الماضي تحرشت اليونان بتركيا ومع أن جيوش (ادهم باشا) اجتاحت تساليا ودنت من اثينا رأينا (المستر غلادستون) يقف فى مجلس العموم معلنا بأن ما أخذه الصليب من الهلال لا يعود الى الهلال بحال ما ! وبهذا خرجت تركيا المظفرة من الحرب صفر اليدين .

ثم ما كادت تبزغ شمس القرن الحاضر حتى شهدنا سلسلة اعتداءآت مروعة على أملاك الامبراطورية العثمانية مما ينافى العهود المقطوعة فى مؤتمر برلين بعدم مساس سلامتها . ومع ان جزيرة قبرص استولت عليها انجلترا فى مقابل الوعد بحماية الأراضى التركية فان ايطاليا - دون أن تحسب حساباً لمعارضة انجلترا - انقضت على طرابلس بلا مسوغ وحرمت تركيا من الانتفاع بالمادة الواردة فى معاهدة لوندرا فى سنة ١٨٤٠ - التي تخولها حق المرور فى الاراضى المصرية واستخدام الجيوش والسفن المصرية على أثر اعلان مصر حيادها بعد تعيين (اللورد كتشنر) معتمداً سياسياً فى مصر بثلاثة أيام ! فتسنى بهذا لايطاليا ابتلاع تلك الولاية الغربية .

ولما أعدت حكومة الاتحاديين العدة وأبقت على الحدود البلقانية من الجيوش ما يكفى لصد غارات ولايات البلقان اذا حدثتها نفسها بغزو تركيا فى خلال الحرب الطرابلسية بادرت وزارة (كامل باشا) بتسريح تلك الجيوش اعتماداً على وعد من السير (أدورد غراى) وتأكيده (لكامل باشا)

ـ صديق انجلترا ـ بان لاخطر مطلقاً على تركيا من جيرانها ـ . ولـكنها ماكادت تسرح جيوشها حتى انقضت عليها الولايات البلقانيـــة فأعلن (السير غراى) ـ وكان يتوقع هو وغيره فوز العثمانيين ـ بأن خريطة البلقان لن تتغير . ولـكن ما أسرع ما صرح بعد انتصارات البلغار (بأن ليس من العدل حرمان الظافر من ثمار ظفره) ورفع (المستر لويد جورج) عقيرته قائلا ـ (ان الحرية ينبغي توسيـع حدودها) يريد بذلك توسيـع الولايات البلقانية على حساب تركيا . فلما سقطت وزارة (كامل باشا) واسترد الاتحاديون مدينة اورفه انهال (المستر اسكويث) فى خطاب القاه فى مدينـــة برمنجهام بالطعن على تركيا وهـــددها اذا هى لم تتنازل للبلغار عن ادرنه ـ كما قررت الدول العظمى ـ بان انجلترا تحبس عنها مساعـــدتها ولا تمدها بالموظفين الانجليز الذين وعدتهم بها . بل انه عرض فعلا ان تقوم الدول الأوروبيـة بمظاهرة بحرية ضد تركيا . ولـكن خابت مســاعيه لرفض المانيا والنمسا وايطاليا الاشتراك فيها .

وفيما كانت تركيا تصفى حسابها مع اليونان فى أواخر الحرب البلقانيـــة ابتاعت من انجلترا البارجتين (السلطان عثمان) و (رشادية) لتضمن لنفسها الغلبة على اليونان بعد ما اشترت هذه من السفن من انجلترا والولايات المتحدة . ومع انها دفعت ثمنها فوراً قبل ان تشترك انجلترا فى الحرب فان هذه انتهزت فرصة اعلان الحرب العالمية فوضعت يدها على البارجتين المذكورتين . فـكأنما أرادت بعملها هذا ابقاء تركيا تحت رحمة عدوتها اليونان . فانتهزت المانيا تلك الفرصة وبادرت بعرض البارجتين (جوبن) و (برسلاو) على الحكومة التركية وهذه ابتاعتهما منها لانقاذ الموقف . فهل تلوم انجلترا الا نفسها حيث أعطت المانيا تلك الفرصة النادرة فأصبحت لها الـكلمة النافـــذة فى دوائر الاستانة ؟ وان فيما ذكره المؤلف هنا من المفاوضات التي دارت بشأن

البارجتين (السلطان عثمان) و (رشاديه) لدليل على ان السياسة الانجليزية فى عهد وزارة (المستر اسكويث) خليفة (غلادستون) - لم تكن مشربة بروح العواطف الودية نحو تركيا .

أما فيما يتعلق بالبواغيز فلا ندري كيف يسوغ لساسة الحلفاء أن يعتبروا اغلاق تركيا لها بمثابة نكث للعهد مع انها لم تكن مرتبطة بمعاهدة مع احدى دول الحلفاء ! ولم تغلقها الا دفاعا عن حياتها فلا يمكن اذن اتهامها بالخيانة ولكن الغرض يعمي ويصم .

نعم - ان الحلفاء عرضوا على الحكومة العثمانية فى مقابل وقوفها على الحياد حماية أراضيها لمدة ثلاثين عاماً ولكن التأريخ علمنا ان السياسة لاتعرف عهوداً .

ولقد أخبرنا (جمال باشا) - بأن تركيا عرضت فعلا الانضمام الى دول الاتفاق الودي فى مقابل بضعة شروط ولكن هذه الدول طلبت اليها ارجاء المناقشة فيها الى مابعد الحرب وعوضاً عن أن ترحب باقتراح انضمام تركيا اليها طلبن اليها الوقوف على الحياد .

على اننا لو افترضنا ان تركيا التزمت الحياد ووثقت من وعود الحلفاء بسلامة أراضيها مدة ثلاثين عاماً - وتاريخ الحلفاء فى حفظ العهود وليس مما يمكن المباهاة به فماذا كان يمنع روسيا غداة انتصارها على المانيا من شق طريقها الى الاستانة عاصمة تركيا المحايدة والاستيلاء عليها نهائياً تنفيذاً لوصية بطرس الأكبر ؟ أكان من المحتمل ان فرنسا وانجلترا - حليفتى روسيا بالأمس - تجردان الحسام فى وجهها اليوم دفاعاً عن تركيا بدعوى انها كانت محايدة وان العهود أعطيت لها بسلامة أراضيها ؟! كلا لم يكن مثل ذلك محتملا قط . هذا فضلا عن ان سياسة وزارات الأحرار بما فيها وزارة المستر اسكويث كانت ترى - تنفيذاً لسياسة غلادستون - ان خير وسيلة لحل المشكلة

الشرقية هى ابادة تركيا من الوجود وهو ما قام عليه الدليل فى معاهـدة سيفر واحتلال الاستانة واطلاق يد اليونان الى غير ذلك من الأمور التي تناقض هدنة مودروس مناقضة تامة . هذا عدا المعاهدات السرية المبرمة بين انجلترا وروسيا لتمزيق تركيا وهى المعاهدات التي نشرتها حكومة البولشفيك على اثر سقوط القيصرية .

فيتبين من هذا ان السياسة الانجليزية فى عهد الأحرار هى المسؤولة عن تحول تركيا الى جهة المانيا وانضمامها الى التحالف الثلاثى فى الحرب العظمى ويظهر ان المستر لويد جورج لم يع هذا الدرس - بدليل خطبته الأخيرة فى مانشستر - بل ظل بعناده المشهور يؤازر اليونان فى مطامعها تنفيـذاً لوصية غلادستون الى أن ظهر بطل الأناضول وفخر الاسلام الغازي مصطفى كمال باشا فقضى على أحلام الحالمين بانشاء دولة بيزنطيةعلى أطلال الامبراطوريةالعثمانية. وفضح للعالم سياسة الأحرار الانجليز العدوانية مما جعل الشعب الانجليزي نفسه يضيق ذرعاً بالمستر لويد جورج . والآن وقد اختفت وزارة هـــذا الزعيم الصليبي وانهار نفوذ الاحرار الموالين للمستر اسكويت - هل تعـود انجلترا الى سياسة درزائيلي فتخطب ود تركيا - ام أنها تلج فى اتباع سياسة العدوان العتيقة واذن لاتلوم الا نفسها - اذا رأت تركيا نفسها مضطرة من جديد الى الانحياز الى روسيا والمانيا ؟ لقد انذرت ولا عذر لمن أنذر .

فالسياسة الانجليزية هى وحدها المسؤولة عن خطة تركيا فى خلال الحرب وما بعده وقد تصبح مسئولة عنها فى المستقبل اذا هى لم تبادر بالاقلاع عن سياسة التحرش والعدوان .

نعم اننا نلاحظ الآن شيئاً من التصلب فى سلوك فرنسا حيال تركيا ونسلم بانها كانت تطمع منذ زمن بعيد فى ابتلاع سورية ولـكن يجب ألا يغرب عن البال ان معظم اهتمام السياسة الفرنسية فى الخمسين عاماً الماضية كان منصرفاً الى السرين - وان انجلترا وروسيا هما اللتان قامتا باكبر دور فى الشرق الأدنى .

(المشكلة الارمنية)

(مسئولية روسيا وانجلترا)

بقيت المشكلة الأرمنية - فصاحب الترجمة مع علمه بما ارتكبه الأرمن من المذابح ضد مواطنيه كما شهد بذلك الضباط الروس أنفسهم لا يلوم الا السياسة الروسية ويعتبرها مسئولة عن الشحناء الموجودة بين الاكراد والاتراك والأرمن أولئك الشعوب الذين عاشوا نيفاً وخمسة قرون فى اتم صفاء واهنأ عيش . فهل يمكن بعد ذلك اتهام المؤلف بأنه مسؤل عن ذبح الأرمن الذين نفوا من بلادهم الى العراق ؟ مسكين هذا الشعب الأرمني ! فهو يطلب المستحيل ثم يتمسح بالدول الاجنبيــة رأجيا تأييدهن له وقبل الحصول منهن على وعد صريح بالمساعدة ظهر بقلب المجنى لشعبين آخرين عاشا معه قروناً طوالا فى صفاء وهناء .

لقد لعبت السياسة الروسية برؤوس كثيرين من زعماء الأرمن الى حد ان الجيش الروسي لم يكد يزحف فى خلال الحرب على أرضروم حتى ذهبت لمساعدته الوحدات الأرمنية الفارة من الجيش العثمانى . ومثل هــذا العمل كان جديراً بأن يثير سخط العثمانيين على الأرمن خصوصاً بعد اعمال العرقلة التي قام بها مشاغبو الأرمن فى مؤخرة الجيش العثمانى . وهو ماحصل بالفعل وأدى الى سفك كثير من دماء الفريقين .

ولكن هل استفاد الأرمن شيئاً من ذلك الدرس القاسي ؟ كلا ! بل لايزالون يطالبون بما يسمونه وطناً قومياً فى داخل تركيا وهو حلم يستحيل تحقيقه مادام هناك تركى واحد على قيد الحياة . فالشعب الأرمنى انخدع فى الماضى بالسياسة الروسية وينخدع اليوم بالسياسة الانجليزية والنتيجةفى الحالين وبال عليه ولسوف يعرف فى المستقبل القريب ان خير وسيلة له هي فى مصالحة الأتراك والاكراد جيرانه الطبيعيين .

على ان المؤلف اذا كان قد القى على السياسة الروسية المسئولية عما نزل بالأرمن فى خلال الحرب فانه سكت عن الدور الذي لعبته السياسة الانجليزية وما حاق بالأرمن فى خلال المذابح المعروفة التي وقعت فى عهد عبدالحميد سنة ١٨٩٣ وسنة ١٨٩٦ .

وانا نسند للقارىء شيئاً مما كتبه المستر (ولفرد بلنت) المشهور فى مذكراته . فقد كتب فى اليوم الثانى من مايو سنة ١٨٩٣ ص ١٣١ مانصه بالحرف الواحد .

(يوجد الآن معي فى القطار (المستر طومسون) معتمد الولايات المتحدة فى الاستانة . فقدمنى اليه صديقى (السير فورد) سفير انجلترا فى تركيا فحدثني (طومسون) ملياً عن ارمينيه - قائلا انه ارسل الى حكومته منذ أيام تقريراً ضافياً عن احوالها . واكد بأن هناك مايثبت ان الأرمن دبروا القيام بثورة فى يوم ٥ يناير سنة ١٨٩٣ ولكن أحد المتآمرين الأرمن أفشى السر . وكانت الاعلانات الحاضة للاهالي على العصيان مطبوعة كلها فى انجلترا وليس لتركى ما ضلع فيها . ثم اخبرنى أيضا ان عدد الأهالى الأرمن المحليين يقل عن ثلاثة أرباع المليون فى مقابل خمسة ملايين من المسلمين . اما الولاية الوحيدة التى للارمن فيها أغلبية فهي ولاية قيصرية أصغر الولايات جميعاً حيث يبلغ عددهم ثلاثة أضعاف عدد المسلمين . وقد كان لهم بعض الحق فى الشكوى من الاجحاف الذي لحق بهم من جراء استبداد (خورشيد باشا) أحد قطاع الطرق السابقين الذي أصبح رئيساً للشرطة . أما الاجراآت التى اتخذتها الحكومة ضد الثائرين فلم تكن قاسية أو عنيفة بحال ما . وقد أفرجت عن جميع المعتقلين عدا مائتين وهؤلاء وعدته الحكومه العثمانية بعدم معاقبتهم معاقبة صارمة وأبقتهم قيد المحاكمة . وكان (طومسون) يوالي مساعيه فى هذا السبيل بالاتفاق مع (فورد) وقد أخبرنى بلهجة التأكيد بأن

أرمينيا ليس فيها المادة الكافية لجعلها أمة بين الأمم بالرغم من رغبة مسيحييها في ذلك . وان اخوانهم في روسيا لا يحجمون عن رفع راية العصيان لو استطاعوا لذلك سبيلا . وان الكاثوليك الأرمن يشاركون اخوانهم في رغبة الحصول على الاستقلال وان الحركة كلها مدبرة في انجلترا ولم تقم الا بالمساعدة الانجليزية .

وقال في صفحة ٢٣٢ بتاريخ ٤ اوكتوبر سنة ١٨٩٥ مانصه :-

(... اخبرني (فيليب كري) سفير انجلترا في الاستانة .... بان لا جدال في ان الأرمن انما يعملون بأيعاز جمعية ثورية وهذه في رأيه تعمل بدورها بارشاد حزب النهليست الروسي . وان الشغب انما نشأ بسبب القبض على بعض الأرمن التابعين للجمعية وتعذيبهم في السجن . ومن جهة أخرى فان الجمعية قررت قتل كل أرمني يفشي أسرارها . ويظهر ان الأرمن يعولون كثيراً على مساعدة انجلترا ويتحدثون بايجاد دولة أرمنية مستقلة تحت اشراف أحد أمراء الانجليز وكل هذا بالطبع ليس الا ضرباً من المستحيل غير ان اللوم واقع لا محالة على رجالنا الذين يشجعون امثال هذا العصيان دون أن يكون في وسعهم تأييده .... فالابطاء في حل المشكلة الأرمنية وهو ما تطالب به انجلترا وهو الذي دفع الجمعية الى اعمال اليأس وهي ورطة غريبة يرى فيليب استحالة التخلص منها الا بأحد أمرين - اما بخلع عبدالحميد أو موته - .

وفي صفحة ٢٣٤ من المذكرات لخص (المستر بلنت) في يوم ١٠ - اكتوبر سنة ١٨٩٥ وهو عائد من الاستانة الى الاسكندرية المشكلة الأرمنية فيمايلي :-

أولا - (ليحول السلطان دون ادراك ارمينيا استقلالها الذاتي بدعوى تفوق الاهالي المسيحيين في العدد في ولاية من الولايات شجع المسلمين القاطنين في الولايات الأرمنية على الاساءة الى الأرمن لحملهم على المهاجرة .)

ثانيا - (رفض مسيحيو الأرمن بايعاز جمعية سرية أسمها حزب النهليست الروسي دفع الضرائب فى جهة - صمصون - وهذا اعتماداً على عطف انجلترا)

ثالثاً - (اصدر السلطان أمره بقمع مقاومتهم هذه كلفه ما كلفه) .

رابعاً - (قمع الحاكم العسكري التركي تلك المقاومة بمنتهى الوحشية) .

خامساً - (تدخلت فى الأمر الحكومة الانجليزية برئاسة (روزبرى) وبايعاز من انصارها الأحرار وطلبت فى رسائل عديدة الى (فيليب غراي) الاهتمام بالمسألة .

سادساً - (رأت التيمس) ان الفرصة سانحة لتحول الانظار عن المسألة المصرية فشرعت تضرب على النغمة الأرمنية) .

سابعاً - (أرسلت الحكومة الانجليزية دعوتين للحكومتين (الفرنسية والروسية للاشتراك معها وهذا بناء على طلب (فيليب غراي) .

ثامناً - رحبت الحكومتان المذكورتان بدعوة الاشتراك اعتقاداً منهما بان انجلترا تريد حقيقة تجزئة تركيا) .

ملحوظة - يظهر ان (روزبرى) يرغب فعلا فى هذه التجزئة .

تاسعاً - (سقطت وزارة (روزبرى) . اما من حيث روسيا فقد انتقل (البارون جيرس) الى العالم الآخر وخلفه (ليبانوف) ومن ثم طرأ تغيير على سياسة روسيا) .

عاشراً - (الآن وقد أصبح - اللورد سالسبري - فى وزارة الخارجية فان روسيا وفرنسا ترفضان الموافقة على تقسيم تركيا أو القيام بعمل مشترك مع انجلترا) .

احد عشر - لكيما يجتنب (سالسبرى) الاسئلة فى البرلمان ويكتسب الوقت استمر فى طريقه منفرداً) .

اثنى عشر - أبدى السلطان شيئاً من المقاومة بعد أن وصلته التشجيعات

السرية من باريس وبطرسبورج وبطؤ سير المفاوضات التي كانت دائرة في الاستانة) .

ثالث عشر - القى غلادستون خطبته الشهيرة عن أرمينيا في مدينة (تشيستر) وافتتحت الاكتتابات في انجلترا .)

رابع عشر - أمر (سالسبرى) بارسال الاسطول الانجليزي الى الدردنيل للابرام بأنه جاد في نواياه .

خامس عشر - اعتماداً على اقتراب الاسطول الانجليزي واعتقاداً بان (سالسبرى) غير مازح وظناً بان انجلترا في استطاعتها وحدها ارغام السلطان على الاذعان دبرت الجمعية الأرمنية مظاهرة في الاستانة بعلم - فيليب -).

سادس عشر - أمر السلطان بتفريق المتظاهرين الأرمن) .

سابع عشر - فرقت مظاهرة الأرمن بالاستانة بمنتهى الوحشية والقسوة).

ثامن عشر - ملحوظة : والذي ثبت في نفسي مما قاله (فيليب) لي هو

أولا - انه لم يكن راغباً في التدخل في بداية حادث صمصون - ولكنه فعل ذلك بناء على أوامر (روزبري) الخالصة .

ثانياً - انه مسئول عن فكرة الاشتراك مع فرنسا وروسيا .

ثالثاً - بانه بعد ان زج بنفسه في المسئلة جعلها خاصة بشخصه .

رابعاً - انه منذ الاشهر الستة الماضية على الاقل كان على تمام الاتصال بالجمعية الثورية وربما كان يعمل بالاتفاق معها .

خامساً - ان مظاهرة ٣٠ سبتمبر كانت بعلمه وبتشجيعه ولو انه لم يكن مسئولا عن تسليحها . وينبغي أن أسجل انه هو الذي اخبرني بان تلك الجمعية الأرمنية أسسها حزب النهليست الروسي وان غرضها لم يكن الاتحاد مع روسيا بل استقلال أرمينيا تحت الحماية الانجليزية) - انتهى هذا قليل من كثير لكنه كاف على كل حال لاقامة البرهان على ان مسئولية السياسة

الانجليزية لاتقل عن مسئولية السياسة الروسية فيما نزل بالأرمن من الكوارث والمتاعب .

وانا لنشارك صاحب الترجمة فى النصيحة التي أسداها للأرمن فى آخر مذكراته وهى الاقلاع عن سياسة العدوان نحو تركيا وطنهم القديم ومصافاة الأتراك والاكراد والعودة الى سياسة الملاينة التي كانت ديدنهم في الماضي أولى من الاغترار بالدسائس الأجنبية التي انما تستخدمهم لقضاء لبانات استعمارية .

وقبل أن نختم هذه المقدمة نرجو القراء الصفح عن التحريف اللفظي فى اسماء بعض الأشخاص والمدن العربية أو السورية أو التركية لأننا انما نقلناها عن الانجليزية .

(علي أحمد شكري)

ملاحظة

نشرنا فيما تقدم نص كلمة المترجم ولم نشأ ان نغير اي كلمة منها وذلك خدمة للتاريخ : راجين من الباحثين الكرام درس هذه القضية التاريخية التي تمس كيان الامة العربية ، درساً وافياً ونحن على استعداد للنشر مايرد الينا من المباحث فى كتاب مستقل .

ـ الناشر ـ

دار منشورات البصري

مقدمة المؤلف

يرجع أول عهد اشتغالي الشخصي بسياسة الامبراطورية العثمانية العامة الى الانقلاب الحكومى فى يوم ٢٣ يناير سنة ١٩١٣ .

ففى عشية ذلك اليوم خرجت من دار تفتيش المواصلات (١) ويممت بوجهي شطر الباب العالي حيث تدفقت اليه الجماهير فى سيل غير منقطع .

وقد عاد وقتئذ محمود شوكت باشا ـ الذي عين صدراً أعظم منذ بضع ساعات ـ من سراى المابين فالتقى بى عند مدخل سراى الصدر الاعظم .

وما كاد بصره يقع علي حتى صاح بي « هلم ياجمال بك فانني أريد أن تستلم فى الحال منصب حاكم الاستانة العسكري فلا تتوان لحظة واحدة فى اتخاذ سائر الوسائل التي تظنها الازمة لحفظ النظام والثقة فى العاصمة) .

فتقلدي ذلك المنصب الرفيع ذى المسئولية العظيمة ـ منصب حاكم الاستانة العسكري كان معناه ـ كما قدمت ـ اشتراكى بطريقة مباشرة فى سياسة وطني العزيز . ولهذا أرى نفسي مضطراً الى بدء مذكراتى من تلك النقطة .

جمال

---

(١) كنت وقتئذ مفتشاً عاماً لخطوط المواصلات فى شطالجة

(الفصل الاول)

حاكم الاستانة العسكري تسلم زمام الحكم سنة ١٩١٣

عندما عهد الي محمود شوكت باشا القيام باعباء ـ حاكم الاستانة العسكري ـ كانت جثة ناظم باشا ـ لاتزال مطروحة فى غرفة ياور الصدر الاعظم ـ بينما الصدر الاسبق كامل باشا ـ وكذلك شيخ الاسلام جمال الدين ووزير الداخلية رشيد بك ووزير المالية عبدالرحمن بك قد وضعوا فى احدى حجر الصدارة بعيداً عن الاعتداء .

فبعد محادثة قصيرة مع طلعت بك الذي عهدت اليه وزارة الداخلية موقتاً قررنا أن ننقل جثة ناظم باشا الى المستشفى فى جيلهان وأن يرسل كل من كامل باشا وجمال الدين أفندي الى منزله وأن نستبقى كلا من رشيد بك وعبدالرحمن بك فى دار الحاكم العسكري عدة أيام لانقاذهما من الغضب الذي امتلأت به صدور الثوار .

وفى هذه اللحظة كان الليفتننت كولونيل ناجي بك صهر كامل باشا وصديقي من أيام التلمذة موجوداً بدار الصدارة . فتلقيته بقولي : ـ هون عليك فليس ثمة مجال للقلق ان حماك فى أمان ويمكنك استصحابه الى المنزل فاذا أراد الا تمتد اليه بأذى يد بعض المتحمسين من عامة الشعب نخير له ان يغيب عن الاستانة مدة من الزمن ويذهب الى أوروبا .

فشكرني ناجي بك بحرارة ووصل كل من كامل باشا وجمال الدين افندي الى منزله دون وقوع حادث مكدر .

اما رشيد وعبدالرحمن فتمد جيء بهما الى الحاكم العسكري كما نقلت جثة ناظم باشا الى المستشفى فى جيلهان . وقد ذهبت بنفسي الى دار الحاكم

العسكري حيث قضيت سحابة الليل وانا مشتغل باتخاذ كل الوسـائل التي اقتضتها الحال لحفظ النظام . ولكيلا تقل قيمة قصتي بالتفاصيل التافهة لاارانى بحاجة الى وصف تلك الوسائل وصفاً تاماً . ثم طلبت الى أطباء المستشفى أن يوافونى بتقرير عن حالة ناظم باشا كما أمرت باعداد تقرير مفصل عن حادثة مقتله .

دفن ناظم باشا

وفى اليوم الثانى ووري ناظم باشا التراب تنفيذاً للتعليمات التى أصدرتها واهتممت بأن تكون الجنازة بالغة منتهى التعظيم والاكبار فلذا أصررت على أن يشترك فى تشييعها كبار رجال العسكرية والوزراء والموظفون الملكيون وكذلك الملحقون العسكريون الأجانب .

وكان الجو رديئاً ذلك اليوم وكنت فى أشد حالات الانقباض والكآبة فان البلغاريين كانوا مرابطين أمام خطوطنا فى شطالجة والاسطول اليونانى كان محاصراً الدردنيل . كل ذلك فى حين ان بوارج الدول العظمى كانت راسية امام بشكطاش متأهبات لاحتلال الاستانة فى اي لحظة . أما نحن الذين لم نستطع لسوء الحظ ان ننزع بالطرق القانونية مقاليد الحكم من تلك الأيدى الضعيفة فقد راينا أنفسنا مرغمين ارغاماً على القيام بانقلاب حكومى ضاعت فيه ويا للاسف روحا وزير الحربية الاسبق وقائد جيشنا العام . وبالرغم من كل مجهوداتنا وتضحياتنا العظيمة كان مستقبل وطننا لايزال محفوفاً بأشـد الأخطار . ذلك هو ما جال بخاطري عندما شيعت رفات ناظم باشا الى قاع الضريح .

وفيما نحن نخترق ميدان جامع أياصوفيا التفت عفواً الى الماجور ماكور الملحق العسكري الفرنسي وكان سائراً بجانبي وقلت له : ـ (انظر ياصاحبي!)

ان الأوربيين وحدهم هم المسئولون عن هذه الضحية فان سلسلة أعمال الجور والاجحاف التي قمتم بها حرضت الشعب التركى على دخول المعمعة ودفعته الى القتال ليعيش عيشة حرة وينجو من العبودية والذل . وليت شعري هل تدري كم جنازة أخرى سنشيعها ؟ وقد لايكون من الغرابة فى شيء ان تسير فى الغد خلف نعشى .

وقد تظاهر بعدم فهم ما أقصد وسألنى أن أزيده ايضاحاً فلم أشأ ان أعرج على الدسائس الفرنسية من باب المجاملة وأفضت فى شرح الدسائس الانجليزية والايطالية وخصوصاً الروسية مما اثار روح الثورة فى جميع أطراف البلاد.

فشرحت له - كيف دفعت هذه الدسائس اهالي البلقان لعقد تحالف وأضفت الى ذلك قولى والآن حيث لايزال من الممكن ان تنقذنا أية مساعدة مهما كانت ولو طفيفة سواء من انجلترا أو من فرنسا فهما لم تكتفيا بأن تضنا فقط بها بل نراهما لاتحجمان عن التشهير بنا على ألسنة رؤساء حكومتيهما مما دفع أولئك الاتراك المساكين بعد توالى هذه المحن والضربات الى قتل بعضهم بعضاً . وكان الملحق العسكري الانجليزي تيريل يتتبع مناقشتنا باهتمام زائد ولو انه لم يشترك فيها . فأجاب موكور (انك لعلى صواب) وكان جوابه بلهجة لم يخامرنى معها شك فى صدقه . ثم عدنا الى سكوتنا وتبعنا ناظم باشا الى مقره الأخير .

العضو العام

وفى عشية يوم الانقلاب الحكومى قام رئيس الشرطة بعمل من الأعمال الاحتياطية بان قبض على أشهر أعضاء المعارضة وجاء بهم الى ادارة الشرطة وبالطبع كان يتعين ان يضع بصددهم قرار معجل وخصوصاً أن رشيد أو عبدالرحمن كانا لايزالان محجوزين فى دار الحاكم العسكري .

فبعد بحث المسألة مع عدة أصدقاء وخصوصاً مع طلعت قررنا أن لاتتخذ ضدهم اجراآت قامعة وكذلك قررنا أن نسعى للوصـــول الى تفاهم معهم . وقد أيد محمود شوكت باشا ذلك القرار تأييداً كليا .

وعلى ذلك أرسلت فى طلب عبدالرحمن بك الذى أراد محادثتى . فأكدت له ولاخوانه ان لاخطر عليهم وان اعتقالهم ليس الا وقتياً لا لغرض آخر سوى حمايتهم من أن يعتدى أحد على أرواحهم وانهم سيعودون الى منازلهم بعد يوم أو يومين . وزدت على ماتقدم نصحي لهم بمغادرة الاستانة والمعيشة فى الخارج لمدة من الزمن . وسمحت لهم باحضار الفراش والطعام من منازلهم. وبعد مرور يومين أصدرت تعليمات بنقلهم الى منازلهم بحراسة ثلة من رجال الشرطة وبعد يوم غادروا الاستانة كما غادرها كامل باشا وجمال الدين أفندي .

وفى اليوم التالي لتقلدي منصب الحاكم العسكري ذهبت الى الدار التي كانت الحاميـــة ترابط فيها وزرت علي كمال بك ورضا نور واسماعيل بك نواب سينوب وكانوا معتقلين هناك . فأكدت لهم كل التأكيد أن لاخطر عليهم فيما لو اقلعوا عن فكرة المعارضة فى غير أوانها وقلت لهم ان الوطن فى مثل هذه الظروف الحرجة ينتظر مساعدة كل العقلاء ذوي النيات الحسنة وانهم اذا وثقوا من حسن نيتي سيجدون بما أستطيعه ميداناً شريفاً للعمل .

فطلب علي كمال بك تعيينه فى احد المناصب فى أوروبا . وسألني الدكتور رضا نور أن أمده بالمال اللازم لاتمام دراسته الطبية فى باريس . اما اسماعيل باشا فأقسم بشرفه ان لو سمح له بالاقامة فى البلاد لأحجم عن معارضة الحكومة الى أن تعود الأحوال العادية .

ثم ارسلت الدكتور رضا نور الى باريس بعد حصولى على الموافقة اللازمة على النفقات التي طلبها . أما كمال فارسلته الى فينا بعد أن وقعت له تعويضاً مالياً عن نقله . وقد وصلت الي منه عدة مكاتبات .

ولم تمر خمسة ايام على هذه المفاوضات مع زعماء المعارضين حتى صفا الجو السياسي ولكن وزارة محمود شوكت لم تستقر وتوجه اهتمامها الى المجهود الهائل الذي كان ينتظرها .

وبصفة كوني حاكماً عسكرياً للاستانة أصبح محتماً علي أيضاً أن أشغل منصب القائد المشرف على أعمال قاعدة الجيش المرابط فى شطالجة ولكى أقوم بأعباء هذين المنصبين جعلت همي الأول حفظ النظام فى المدينة ومنع تكرار الانقلاب الحكومي ضد وزارة محمود شوكت باشا مهما كلفنى ذلك من المجهود.

ويجب ألا اغفل ذكر أمرين احتياطيين رأيت من الضروري اتخاذهما

الأول : ـ كان بالاستانة رهط من المهربين يبيعون التبغ المهرب (فى علب حكومية) فى شوارع المدينة فى جهات حمام السلطان وسركه جى وتل محمود باشا وميدان بايزيد .

فلحظت علناً افلاس سلطة الحكومة فى صيحة هؤلاء المهربين وندائهم (أبو قرشين بقرش) ـ أضف الى ذلك ان هؤلاء الناس جرأوا على عرض بضاعتهم فى علب يستطيع الانسان أن يرى تحت قمها ولو بشكل غير واضح ـ خيوط التبغ الأصفر . فلكى أظهر للاهالى الملكيين بأس الحكومة لجأت الى السلطة التي خولتها الاحكام العرفية للحاكم العسكري وأصدرت منشوراً هددت فيه كل متجر بتجارة محظورة بالقبض عليه ونفيه من الاستانة .

وفى الاسبوع التالى أبعدت خمسة على الاكثر من هذه الطائفة وأصدرت المحكمة العسكرية حكمها على بعض مهربين ضبطوا متلبسين بجريمتهم فى كشك لا يبعد كثيراً عن السراي . وكانت النتيجة أن اصبح النصب والاحتيال اللذين كانا من الأمور العادية من الشواذ ومن ثم امكن لسكان الاستانة والضواحي أن يتمتعوا بالطمأنينة التامة .

الثانى . كان بالاستانة عدد من الناس تمكنت من نفوسهم تلك العادة

الخبيثة عادة ابداء نظرات غرامية للسيدات المسلمات كلما مررن بهم في المتنزهات أو فى الفلك أو على القناطر أو فى الطرق أو فى الاسواق . وكان من بينهم عدد من النسوة الطاعنات فى السن اللائى لم يحجمن عن التلفظ بعبارات غير لائقة بل أمسكن بتلابيب السيدات المتأنقات ذوات البزة الحسنة .

وكنت على الدوام أبغض كل البغض مثل ذلك الاعتداء على السيدات كما انني لم استطع فهم السر فى اغفال اتخاذ الوسائل الشديدة لوقفه من قبل والحقيقة ان انتشار هـــذه الرذيلة واختفاءها كانا متناسبين على الدوام مع ضعف الحكومة وقوتها . فلما أصبحت حاكماً عسكرياً طلب الي عدد من الآباء الذين لهم الحق فى الشكوى أن اتخذ الاجراآت اللازمة لتغيير هـــذه الحال . رأيت نفسى مضطراً مرة أخرى الى الالتجاء الى السلطة المخولة من الاحكام العرفية للحاكم العسكري .

فأصدرت منشوراً هددت فيه الرجال الذين يستعملون ألفاظاً مهينة أو يضايقون السيدات ـ بالنفى الى خارج البلاد . وبعد التمثيل باربعة أو خمسة من هذا القبيل اصبحت نساؤنا احراراً فى عبور الطرقات دون أن يخشين أي اعتداء . وكانت هذه أول خطوة معينة أخذت فى سبيل وضع تحرير المرأة التركية على اساس ثابت .

وقد برهنت فى خلال تقلدي منصب الحاكم العسكري على أنني من أشد أنصار تحرير المرأة أو بالأحرى انى شـــديد الاعتقاد بأهمية الدور الذي يطلب من المرأة أن تلعبه لا فى الحياة الاجتماعية فحسب بل فى الشؤون العامة. والحقيقة ان تشيعي لذلك التحرير استهدفنى لتمائم عـديدة مشى بها أشخاص معينون فيما بعد . ومع ذلك فان الحركة النسائية التي بدأت فى عهدي لم تعش فقط بمرور الزمن بل انتشرت وتطورت باستمرار وأدت اكبر خدمة للوطن فى خلال الحرب وانى مقتنع تماماً بأن خير الوسائل وأسرعها لنشر عوامل

التمدين فى أي بلد من البلاد لا يتاتى الا عن طريق المرأة . وان الشعوب التي تبقي نساءها فى حالة العبودية والاسترقاق انما تخطو خطوات واسعات فى سبيل الانحلال الذي لامفر منه .

محاولة قلب الحكومة

وبعد تعييني حاكماً عسكرياً للاستانة دعوت محرري الصحف المهمة التي تصدر فى العاصمة لمقابلتي واخبرتهم ان صحفهم ستوضع تحت نوع من الرقابة المخففة هذا فيما لو تعهدوا ألا ينشروا مقالات تخـل بالنظام العام . وطلبت اليهم أن يكتبوا مقالات عامة باعثة على المساعدة وأن ينيروا الطريق للرأى العام ويستثيروا القوات الجديدة التي يحتاج الوطن اليها للخلاص من الأخطار المحدقة به . ولقد سمحت حتى بظهور احد الصحف المعارضـة التي يرجع عهد وجودها الى الوزارة السابقة . وقد تجاوزت صحف المعارضـة أحياناً التعليمات الصـادرة اليها ولكن قصرت نفسى على لفت نظر محرريها أو مديريها المسئولين .

وقد عملت الحكومة بهمة وعزم على بعث الروح العسكري الكامن فى نفس الشعب وتشكيل جيش يتمكن من صد البلغاريين المرابطين أمام خط شطالجة فى الحرب الثانية ضد الحلفاء البلقانيين . فأسست من جهة لجنة الدفاع القومى وسعيت لحشد كل ما استطيع حشده من المواد الممكنة والموارد العسكرية وعملت من جهة على رفع مستوى القوة المعنوية فى الجيش وبذلت كل مجهود فى ايجاد رأى عام لمصلحة تركيا بين الدول العظمى .

وفى ذلك الوقت والى الساسة الأنجليز والفرنسيون والروس الذين هبطوا الاستانة خصيصاً مساعيهم لحملنا على عقد الصلح مع دول البلقان على قاعدة قبولنا لخط اينوس ميديا والتخلى عن جزر الأرخبيل .

ولما ذهبت يوما لزيارة السفارة الفرنسية اختار السفير المسيو بومبار الذي كانت علاقتي معه ودية منذ كنت حاكم أطنه ان يجعل هـذا موضع مناقشتنا .

فالتفت الي قائلا : ـ (عزيزي جمال بك) لم كل ذلك التشبث فى سبيل الاحتفاظ بأدرنة والجزر ؟ لقد نجحتم فى قلب الحكومة وأصبحتم القابضين على أعنة الحكم . اننا نعلم جيد العلم ان حزبكم هو أقوى الاحزاب فى البلاد العثمانية وانكم على العكس من الحكومة السابقة لاتترددون فى اتخاذ وتنفيذ القرارات التي نظنها نحن انها تخدم مصالح تركيا اجل خدمة . فعليكم ان تهتموا الآن اكثر من اهتمامكم فى الماضى بتوطيد أركان السلام والنظام فى بلدكم . ألا تظن ان الحكمة تقضى بأن تخصصوا الموارد المادية والأدبية التي تزمعون بعثرتها للاحتفاظ بأدرنة فى سبيل الاصلاحات التي ترغبون ادخالها ؟ ان كل مالديكم فى تلك المدينة لايتعدى بضعة المساجد التاريخية الشهيرة واما من حيث الجزر فقد كان سكانها على الدوام من اليونانيين فقط .

وهنا شرعت أجيب السفير على أسئلته فأخذته من يده وذهبت به الى الحائط حيث علقت عليه خريطة الامبراطورية العثمانية . فبينت له ان الدفاع عن الاستانة لايتأتى الا باشراف على شقة أرض دفاعية تمتد الى أدرنة . كما ان حماية الأناضول من هجمات اللصوص اليونانيين تقتضى حتما الاستيلاء على الجزر الواقعة بالقرب من شواطئنا .

ثم ختمت جوابى بهذه العبارة ـ (عزيزي مسيو بومبار اننا نعتبر مسألة ادرنة والجزر مسألة حياة أو موت لمستقبلنا وسنكون الى الأبد مدينين بالجميل لأية دولة أوروبية تنهض لمساعدتنا فى هـذا الأمر بل ان مثل تلك الدولة يمكنها دائماً ان تعتمد على صداقتنا . ان ذلك يكون انقلاباً عظيما تتمكن بواسطته فرنسا من احراز السيطرة الأدبية فى الشرق .

وهكذا فبينما الحكومة كانت تواصل السعي لانقاذ ادرنة كانت الأخبار تصل الي كل يوم دالة على أن المعارضين يدبرون انقلاباً حكومياً . وفى النهاية اصبحت تلك الأخبار متعددة وخطيرة حتى رأيت نفسى مضطراً الى القيام بعمل حاسم فى هذا الصدد .

فساق القدر الى أيدينا ذات يوم شخصاً يدعى سردار صدقي أفندي من أرضروم . وقد قبض على هذا الرجل وآخر معه متلبسين بطبع منشورات فى احدى المطابع بجي بيرا .

وكان زعماء هذه العصابة يعملون تحت رعاية البرنس صباح الدين بك ويتلقون تعليمات مباشرة من سكرتيره الخاص صدفت لطفى بك وهو من اهالي البوسنة . أما غايتهم فكانت قلب الحكومة وجعل البرنس صباح الدين بك صدراً أعظم .

فقبضنا عليهم أجمعين . ولم نعثر على صدفت لطفى بك الا بعد مضى زمن حيث وجدناه فى النهاية فى منزل الهر لازار مترجم قنصلية النمسا والمجر . فأمرت بالقبض عليه واعتقاله . ولما كانت هذه الاجراآت مخالفة للامتيازات رأيت نفسى مضطراً الى الحصول من محمود شوكت باشا على الأوامر اللازمة فذهبت بصفتي اكبر ممثل مسئول للسلطات التنفيذية الى سفارة النمسا والمجر مرتدياً ثيابى العسكرية وقدمت اعتذاري للكونت بلافيسني .

وقد دونت هذه الحادثة فى السجلات تحت هذا العنوان (محاولة قلب الحكومة) . أما الوثائق الرسمية التي وضعت بكل عناية ودقة فمحفوظة فى دار الحاكم العسكري ورئيس البوليس ووزارة الحربية . اما المعتقلون فصدرت عليهم احكام مختلفة . وقد تركت الأمير صباح الدين جانباً مؤقتاً لأن طلعت بك الذي كان وقتئذ سكرتيراً عاماً لجمعية الاتحاد والترقي والذي كان باذلا كل جهد للوصول الى تفاهم مع الأمير طلب الي أن أوجل القبض

عليه ريثما نحصل على بينة لاتقبل الجدل فى تهمته .

ولكن الأمير صباح الدين بك بالرغم العقاب الذي حاق بصدفت لطفى بك وشركائه وأصل دسائسه . وقد أفضى هذه المرة الى صديقه الحميم الدكتور نهاد رشاد بك بالقيام بتدبير الخطط اللازمة . فبادر نهاد رشاد بك الى الاتصال بطلعت بك للوصول الى حل وسط بين حزبنا وحزب الأمير صباح الدين وفى الوقت نفسه كان يدبر مؤامرة ترمى الى قتل طلعت بك ومحمود شوكت باشا واشخاص آخرين . بيد ان المعلومات عن دسائسه كانت تصل الي كل يوم وهكذا كنت ارقب اعماله خطوة فخطوة . أما لعبة الدكتور المزدوجة فكانت مختفية تحت ظاهره الانيق حتى ان طلعت بك الذي كان يتفاوض معه لم يستطع أن يقتنع بدسائس هذا السيد على الرغم من انني كشفت له الستار عن سائر تفاصيلها . بل انه اتهم قلم الاستعلامات التابع لادارتى بالرغبة فى خديعتي الى أن اقنعته تماماً فى النهاية ببينة دامغة لاتقبل الجدل .

ففى ذات يوم تقرر ان يجتمع طلعت بك بالدكتور . وقد سبق هذا الاجتماع اجتماع آخر رتبه الدكتور مع شركائه . وكأنما الدكتور ارتاح أشد الارتياح لسير المفاوضات مع أصدقائه حتى انه لما استأذن منهم فى الانصراف ابتسم لهم ابتسامة ماكيا فيلية وقال : (الآن سنحادث طلعت فى صدد التفاهم) . وقد عنيت جد العناية ان يرى هذا المنظر شخص لايرتاب طلعت بك فى صدقه بل يثق فيه كل الثقة . ومنذ تلك اللحظة فصاعداً لم يعد طلعت بك يشك فى أقوالى .

ولا ريب فى ان الخبر نمى الى الدكتور نهاد ففر قبل أن القي القبض عليه أيضا ولكننى أمرت بالقبض على بعض أشياعه فكانوا ثاني عصابة وقفت أمام المحكمة العسكرية .

ثم اختفى الأمير صباح الدين من على المسرح . وقد علمت فيما بعد انه تمكن بفضل حماية الميستر فتزموريس المترجم الأول للسفارة الانجليزية والماجور يتريل الملحق العسكري من الالتجاء الى دار تقيم فيها أسرة انجليزية وبذلك أصبحت أيدينا مكتوفة .

ولم استطع أن أفهم كيف اختفى الأمير فجأة وتعلق بأذيال الفرار مع انه هو الذي دبر هذه المؤامرة وبكل جرأة . وبينما كنت فيما بعد عائداً مع طلعت بك من سياحتنا من الاستانة الى برلين وقد شرع يتكلم عن هذه الحادثة اذا ابتسم فى وجهي وقال : - (لما جئتني بالبينة الدامغة على دسائس الدكتور والامير تحققت انك لابد ان تصدر الأمر بالقبض عليهما فحذرت الأمير بطريق بعض كاتمي اسراره ونصحت له بأن يختفي باسرع فرصة . ذلك هو السر فى فراره .

ومن عجائب الاتفاق اننى أنا الذي أطلقت سراح الأمير فى حوادث ١٣ - أبريل بعد أن القى جيش الاعمال القبض عليه وجاء به الى وزارة الحربية فاننى لم اكد اسمع باعتقاله حتى بادرت بالذهاب الى محمود شوكت باشا ولفت نظره الى أن هذه الاجراآت ضد الأمير غير مسموح بها . وقلت له حيث اننا قد جئنا الى الاستانة لمكافحة المشاغبين ومقاومة المساعي الخبيثة التي يقوم بها ساسة الشوارع فليس من العدل فى شيء ان نعامل هذه المعاملة الأمير وبعض الافراد الذين يخالفوننا فى الارآء والاعتقادات السياسية . فلم يتوان الباشا فى اصدار الأمر باطلاق سراحه فى الحال . فذهبت من هناك الى غرفة الانتظار الكبرى التي كان الأمير جالساً فيها مع أمه السلطانة وأخبرت بعد الاعتذار انه أصبح طليقاً . ولكن بينما التحقيق فى اعمال صدقت بك لطفى واخوانه كان مستمراً وبينما نحن كنا نوالى البحث عن شركاء الدكتور نهاد اذا بالانباء تأتيني - بان الأمير كان احد المسئولين عن حوادث ١٣ - أبريل

اما هذه المرة فقد تمكن من الفرار تحت حماية طلعت بك ولو لم يكن ثمة شك فى اشتراكه فى المعدات التي كانت تدبر للانقلاب الحكومى .

وفى ذات يوم بينما أنا أتخذ الاجراآت ضدالأمير وأشياعه (قبل فراره) اذ حضر الى دار الحاكم العسكري أخوه الأمير لطف‌الله بك يطلب مساعدتى فى امر شخصي وفى سياق الحديث بدأت أتكلم فى شأن صباح الدين بك فقلت له : - (أريد أن تصنع معي معروفاً صغيراً وهو أن تبلغ أخاك صباح الدين رسالة مني . فان الأمير فى كل دفاعه‌سواء أكان هنا أو فى اوروبا يؤكد ان زعماء الاتحاد والترقى سفاكون يقطر الدم من أيديهم ومع ان هذه التهمة يناقضها الواقع تماما لنفرض ان لها نصيباً من الصحة . وانى من جهة اخرى اعتقد ان جميع المعارضين ومنهم الأمير صباح‌الدين يقطر من أيديهم الدم كما يقطر من أيدينا .

ولنبدأ القصة من أولها . فهم هم الذين دبروا حوادث ١٣ - أبريل فالمسئولية عليهم فيما سال من الدماء وقتئذ وما سال بعد ذلك عند دخول الجيش الاستانة . زد على ذلك ان الأمير اشترك فعلا فى تشكيل (عصابة الضباط الشهيرة) وكان له ضلع فى ثورة البانيا فسموه يتحمل بعض المسئولية عما سال من الدماء . ومن جهة أخرى هو يصفنا بالقتلة . وانى اطلب الى الأمير أن يعترف بهذه الحقائق ويتفضل بالاعتراف بأن هؤلاء الذين يلقبهم بالقتلة لم يتخذوا هذه الاجراآت الاحتياطية الا بظروف خطيرة . وعليه أيضاً ان يعترف ان حزبه هو الذي اتخذ الاجراآت القامعة فليعد نفسه ان أراد لوضع حل وسط يضمن لكلا الحزبين الاحتفاظ بارآئه السياسية والعمل فى الوقت نفسه لمصلحة الوطن العامة كما يقضى عليه برنامجه الحزبى) .

وبالطبع انبرى لطف‌الله بك للدفاع عن أخيه بشدة وأقسم انه أعجز من أن يغمس يديه فى الدم وانه ليس له ضلع مافى كل هذه الحوادث . فقلت له

(اذن لا يمكنني أن أبحث الامور معك لأنك تجهلها ولكن أرجو أن تخبرني هل تستطيع حتى ان تبلغ اخاك هذه الرسالة ؟ . ذلك كل ما أطلبه منك) .

فوعد بذلك وقال (ربما استطعت القيام بما فيه الخير فى هذا السبيل) وقد مر يومان أو ثلاثة ثم حضر الأمير لطف‌الله بك فأخبرني انه بلغ أخاه رسالتي وهذا أجاب بأن التهم التي وجهتها اليه تناقض الحقيقة تماماً فاما انني أردت تلويث سمعته واما انني لم أتحر الحقائق عنه . اما أنا فما كنت أؤمن الا بمبدأ سياسي لاثاني له وهو المبدأ الذي جعل الأمير يناضل لأجل تحقيقه بكل الوسائل السلمية . وقد انتفض جزعاً من ذكر الدماء المسفوكة ولم يستطع أن يفهم كيف يدور بخلد انسان ان يعتبره من أنصار الثورة الدموية بل مدبرها . فلم يجد مناصاً بعد سماع ملاحظاتي كما بلغت اليه ـ من أن يعتقد ان هناك جواً مملوءاً بالعداء نحوه والحقد عليه فرأى ان خير ما يفعله هو الانسحاب موقتاً الى مكان أمين . فاجبته بقولي ـ « عندي اقتراح اريد عرضه على صباح الدين بك وهو أن نختار ثلاثة من عظماء المحامين الانجليز فأطلعهم على ما عندي من الأدلة والبينات على الأمير التي استطيع ابرازها وعندئذ يحكمون اما أن يكون الأمير أحد مدبري حوادث العصيان والحركات الثورية أو لايكون . فاذا ثبتت ادانة الأمير قدمته للمحاكم العثمانية » .

وبعد مضى أيام عاد الأمير لطف الله بك واكد لي أنه لم تتح له فرصة لمقابلة أخيه لعرض اقتراحي عليه . ولكن الحقيقة هي ـ ان الأمير صباح الدين اختفى في الليلة السالفة .

(آبك أحمد باشا)

وفي غضون التحقيق فى الانقلاب الحكومي الذي كان اعداؤنا يدبرونه اذا بقلم الاستعلامات يلفت نظري فجأة ـ الى ان آبك احمد باشا الذي كان

وقتئذ قائداً عاماً لجيش شطالجه له ضلع فى المؤامرة وانه أرسل الى ابن أخيه الأمير صباح الدين ورفاقه ووعد بمساعدتهم . وكنت على الدوام أعتقد أن أحمد باشا هو رجل شريف بل لا أزال أظنه كذلك للآن وانني اعتقد أن عظمة الوطن ورخاءه كانا أجل ماتمناه وانه وجه كل اهتمامه لادراكهما فلم احفل كثيراً لهــذا السبب بالتقارير العــديدة التي وضعها أمامي قلم الاستعلامات وظللت لا أتحول عن رأيي هذا حتى بعــد استقالته وتعيين ـ أنور باشا وزيراً للحربية ـ عندما طلب اليه أن يعيش فى دمشق . ولا أزال أتمسك بهذا الرأى الى الآن بالرغم من أن ـ آبك باشا ـ أصبح وزيراً فى وزارة تضم بين اعضائها أمثال المارشال شاكر بك حضرة صبري وآخرين من زعماء الأحرار الائتلافيين واكثرهم نفوذاً وهم الذين دبروا حادث الاعتداء على محمود شوكت باشا .

(الداماد صالح باشا)

وكان قلم الاستعلامات يبدي نشاطا تاما . فظل يجيئني بالتقارير الضافية عن وجود مؤامرة ترمى الى قلب الوزارة وقتل محمود شوكت باشا وطلعت بك وشخصي بصفة خاصة أما المتآمرون فكانوا فى هذه المرة تحت حماية وادارة فتزموريس المترجم الأول للسفارة الانجليزية والماجور تيريل الملحق العسكري وقد علمت أيضا ان محب بك مدير القسم السياسى فى ادارة الشرطة على عهد وزارة كامل باشا والصاغ جركس كاظم والصاغ الاسبق شوكت اسماعيل من كوملجنة واشخاصا عديدين لهم ضلع فى المؤامرة . فكلفت الشرطة السرية بمراقبة أولئك الاشخاص مراقبة دقيقة . وقد استلمت تقريراً أقنعني تماما أن الداماد صالح باشا ورشيد بك وزير الداخلية الاسبق كانا من زعماء العصابة ولما كنت أعرف ان الداماد صالح باشا عضو فى جمعية الأحرار الائتلافيين

استبعدت ان يكون له ضلع فى مثل هذه الجريمة . وعلى كل حال قد اهتممت بحماية شخص يمت للاسرة المالكة بالنسب وأحيل بينه وبين الاشتراك فى مثل هذه المؤامرة .

وأرسلت اليه أحد رجال الياور وطلبت اليه تحديد موعد لمقابلتي فى دار الحاكم العسكري . فحضر فى الميعاد المضروب . فبعد ان احسنت وفادته وقلت له : ـ « أتسمح لي سعادتك أن أخبرك بصراحة بما يجول بخاطري ؟ ـ ان بعض الناس الذين يريدون الانتفاع بالمزايا المادية والأدبية التي تصحب اسمك الكبير وشخصك وصلتك بالأسرة المالكة يشتغلون سراً بدس الدسائس والاساءة الى اسمك . فقد قيل ـ ان جمعية سرية شكلت تحت رئاستك وانها تسعى لايجاد أنصار لها فى الدوائر الملكية والعسكرية وان غايتها عزل زعماء الحكومة الحاضرة فى المستقبل القريب والقيام بحركة ثورية فمن الواجب علي أن اعتبر أن لا علم لسعادتك بكل هذا على الاطلاق ولكن أرجو ان تعتقد ان اولئك الاشخاص حقيقة يعملون كما قصصت عليك وبذلك يلقون على عاتق سعادتك مسئولية خطيرة . فأرجو أن تقتنع بأنى أرى من وجبي المقدس أن أحميك من مساعيهم خصوصاً بالنظر الى قرابتك للاسرة المالكة التي اخلص لها كل الاخلاص . ولهذا فانى اسألك بكل احترام أن تغادر الاستانة وتقيم فى اوروبا مدة من الزمن حتى لاتحوم الشبه حول اسمك اذا رأت الحكومة اتخاذ وسائل فعالة ضد زعماء تلك المؤامرة . وفوق ذلك ان رحيلك هذا يحرم هؤلاء المتآمرين من العضد القوي الذي يبنون عليه آمالهم .

فأجاب على هذه الكلمات التي لم أقصد بها سوءاً بلهجة لاتتفق فى شيء مع آداب اللياقة وشرف المحتد . اذ قال : ـ اصغ أيها البك الأفندي ـ سأحادثك بمنتهى الصراحة .

انى بفضل عظمة السلطانة أعيش هنا عيشة الهناء الخارقة للعادة وهى

حياة توافق مزاجي ولا احب أن تفوتني منها دقيقة واحدة . ولذلك أراني مضطراً لرفض اقتراحك (ذهابي الى أوروبا) . زد على ذلك انني لو اتبعت نصيحتك وذهبت لأوروبا لاعتبر الناس ذلك بمثابة اعتراف مني فيبدأون بتوجيه كل تهمة شنعاء الي . فها أنذا وهنا سأقيم . فلا تتردد مطلقا فى أن تفعل ماتظنه صواباً ولست آسف لشيء . الا لأنك أمرت باحضاري اليك لتخيفني بهذه التهديدات .

وبعد أن طلبت الى الباشا ألا يتناسى بالكلية آداب المحادثة قلت له ـ (يخيل الي يا باشا انك عظيم الثقة بقوة جماعتك الذين اعرفهم حق المعرفة وانك مقتنع بأن أملك سيتحقق فى القريب العاجل . انك تحدث نفسك بانك تستطيع أن تنتظر تحقيق هذه الآمال دون التعرض لخطر ولكني أؤكد لك ان لدي قلم استعلامات شديد الانتباه فلا فائدة من المؤامرات . وقد تنجح بعض الاعتقادات الفردية ـ أما قلب الحكومة فأمر مستحيل . ولذا فاني أنصح لسعادتك ان تقبل اقتراحي . أما عظمة السلطانة فيمكنها أن تصحبك الى أوروبا اذا رأت وجوب ذلك . فليس من الصعوبة بمكان أن اسأل عظمة الصدر أن يحصل على موافقة جلالة السلطان وما يتبع ذلك من الاجراآت . فان أبيت الا ان ترفض نصيحتي الخالصة فان الواجب يحتم علي أن اتكفل بمراقبتك أشد مراقبة من الآن فصاعدا . واذن أرجو أن لا تشكو أو تتضجر بقولك ان الحاكم العسكري يرسل الينا عيونه لمراقبتنا .

فانتفض قائماً والشرر يتطاير من عينيه وقال : ـ (لا تتردد لحظة فى أن تفعل ما تظنه صواباً . فلست بالرجل الذي يغلب على أمره بهذه السهولة) .

ثم تركني وانصرف . ومنذ ذلك اليوم أصدرت الأمر بمراقبة صالح باشا باستمرار حتى انى لم تفتني فائتة مما كان يفعله .

وبعد مرور أربعة أيام أو خمسة حضر لزيارتى مسيو ويل المدير العام

لشركة الريجى . فحيانى بقوله انه عاد من أثينا فى اليوم السابق وان أول زيارة قام بها هى هذه . وبعد تبادل الـكلام فى أمور تافهة ابتدرنى بقوله (جمال باشا حقاً انني حانق عليك اليوم . فلقد أهنت أحد اصدقائي له فى نفسى منزلة لاتقل عن منزلتك وعاملته بطريق لاتتفق بحال ما ومقامه الرفيع . انني أعني الداماد صالح باشا . انك اتهمته بانه زعيم مؤامرة ـ ونصحت له أن يذهب الى أوروبا . فليت شعري ما الذي حملك على توجيه هذه التهمة اليه . انني أعرف صالح باشا جيداً كما أعرف نفسي وانني واثق تماما بانه لن يشترك مطلقاً فى مثل هذا العمل الشنيع) .

فبعد أن أصغيت لأقواله بكل سكون أجبته بقولي : ـ « دع عنك هـذا التحمس يامسيو ويل . أنا أدرك جيـداً انني فهت بكلمات قاسية للداماد صالح باشا بيد انني لم أفعل ذلك الا بعد روية وانعـام نظر وان اهتمامى به ليس لمجرد شخصـــه كلا بل احتراماً لصلته بالأسرة المالـكة التي يجب علي المحافظة على شرفها . ولـكن يظهر ان الباشا ويالأسف واثق بنجاح رفاقه فهو لا يريد أن يعير نصيحتي الخالصة اذنا صاغية . فيتعين علي من الآن فصاعداً أن آمر بمراقبة صالح باشا مراقبة تامة . ولـكيما تعرف ان العيون تترصده انى احدثك بأمر . فأسأله هل هو لم يستلم حديثاً خطابا من شخص مجهول وانه طلب اليه أن يذهب الى حي بيرا . وبالطبع لم يذهب الباشا . ولـكن لماذا ؟ لأنه عرف أنه مراقب فلم يشأ أن يدلني على مغاور شركائه . ان الباشا اذا لم يغادر الاستانة فانني أرخص لنفسي ان اتخذ من الاجراآت ما أراه واجبا لمعاملته بما يستحق . واذن لايكون لك مجال للشكوى فى هـذا الصـــدد » .

أما المسيو ويل الذي أصغى الي تمام الاصغاء فقد استأذن وانصرف . ولـكنه عاد فى اليوم التالى فأخبرنى ان الباشا حقاً وصل اليه خطاب من

شخص مجهول . وقد جاء فيه الاقتراح الذي أشرت اليه ولما كان يجهل المكان ومرسل الخطاب خشي أن يكون فى الأمر دسيسة فرفض الدعوة . ولكنه مع كل ذلك كان مصراً على البقاء فى الاستانة . ثم قال المسيو ويل : - « انني لا أريد ان تكون لى أية علاقة بهذه الأمور الغامضة فان صداقتى للباشا هى وحدها التي دفعتني أن اتكلم بشأنه بمثل ماتكلمت مع صديق آخر . أما وهو يرفض بتاتاً استماع نصيحتك فلن اتدخل ثانية لمصلحته . وكل ماأسألك فعله هو ألا تجعله يذهب ضحية الدسائس والنمائم . وبالطبع ان ثقتي برجاحة عقلك وحزمك لاحد لها » .

أما المنزل الذي دعي اليه صالح باشا فقد كان للصاغ جركس كاظم الذي وصل الى الاستانة قبل حادث الاعتداء باسبوع وكان نزوله تحت حماية فيتز موريس والماجور تيريل . وبالطبع كان الباشا يعلم ذلك ولكنه كان يعلم أيضا أنه مراقب فلم يذهب الى الميعاد فى ذلك المساء .

والحقيقة انى كنت شديد الاهتمام بانقاذ صالح باشا بيد انه رفض نصيحتي بهذا الاصرار الذي يلازم الواثقين من النجاح . ولكن تعنته أدى فى النهاية الى حتفه . انى شديد الأسف لوقوع هذه المأساة وخصوصاً نظراً لفرط ولائى للاسرة المالكة فلابد انى تسببت عن غير عمد فى ادخال مثل ذلك الحزن المروع فى قلب احدى الأميرات ولكن ماذا كنت افعل ؟ فان جريمته كانت اكبر من أن يغض الطرف عنها فلو انه عفا عنه بعد الحكم عليه لتزعزع نظام البلد وسلامه الى الأبد .

اسماعيل حقي بك الكومبلجينى

وفى هذا الوقت كان البوليس السري يراقب احد زعماء المعارضين ألا وهو اسماعيل بك الكومبلجينى فقد كنت مقتنعاً تمام الاقتناع ان ذلك الشخص

الجري يثير الريب وان البلاد ستجد منه متاعب خطيرة . بيد ان مشروع العمل الذي خططته اقتضى ان استخدم هذا الرجل بمهارة وحذق فلا اقبض عليه الا متى حصلت على البينة الدامغة التي تثبت ادانته . وثبت عندي ان أعواني من رجال البوليس السري لابد أن يكونوا ضيقوا عليه المسالك ذلك لأنه جاءني ذات يوم في رئاسة أركان الحرب في حالة تهيج شديد (وكان ذلك قبل مصرع محمود شوكت باشا باسبوع) فقال : ـ

(نظراً لأن عيونك تراقبني يحق لي أن أقول ـ ان الحكومة ترتاب في . فاسمع الي ياجمال بك . انني احادثك بصفة كوني رجلاً شريفاً وانني أؤكد لك انني سأحفظ الوعد الذي قطعته على نفسي عندما كنت معتقلا . ولست أفوه بكلمة اعني بها سوءاً . كما انني لاضلع لي في السر أو في العلانية في أية حركة موجهة ضد الحكومة . وبما ان أعوانك يذيعون عني أنباء لا أساس لها من الصحة وقد يكونون أرادوا خديعتك رأيت أن أحضر بنفسي لمحادثتك بصراحة . وانني اقسم لك بشرفي انني لا اشترك في أي عمل عدائي للحكومة ولا صلة لي بأولئك الذين يعملون ضدها » .

ولما كنت أعلم علماً ليس بالظن ان ذلك الشخص هو أحد زعماء المؤامرة التي اخذت الآن شكلا معينا ضد محمود شوكت باشا عجبت بل اشمأزت نفسي كل الاشمئزاز من حيث الرجل . واني اذكر انه عندما أطلق سراحه من السجن بواسطتي بعد قلبه الحكومة في يناير أقسم بشرفه وبضميره أن يحجم عن المعارضة الى أن يتم عقد الصلح ويستتب النظام . فلم يكد يمر شهر حتى كان الرجل يعمل صباح مساء وبكل مافي استطاعته لاتيان جريمة مروعة . فلم أتمالك نفسي عندما سمعته يكرر الأيمان الكاذبة من ابداء التذمر والاشمئزاز وقلت له : ـ كفى ايمانا واقساما يا اسماعيل بك فيمكنك أن تثق انني لا أتهم احداً الا اذا قامت عليه البينة التي لاريب فيها . والا لما فككت اعتقالك كما

فعلت . بيد انى أسديك محض النصح حقيقـــة بالا تتصل بيضعة اشخاص جعلوا همهم تدبير الدسائس والا يصبح قلم الاستعلامات غير مرتاح لأعمالك. اما الآن فيمكنك أن تنسحب » .

فشكرني ومضى . وأرانى اخطأت فى ذلك . فلو اننى كنت اكثر حزماً واصدرت الأمر بالقبض عليه فى تلك اللحظة لما تمكن من الفرار بعد مقتل محمود شوكت باشا . بل لما كان هناك أي شك فى سوقه للمحاكمة بعد الحقائق التي أظهرها التحقيق فى حادثة الاعتداء على شوكت باشا ولتخلصت البلاد الى الأبد من رجل رشاه اليونان للايقاع بوطنه .

وبينما انا أخط تلك الاسطر اذا بعينى تقـــع فى الصحف على نبأ تعيين اسماعيل بك حقي الكومبلجينى وزيراً للداخلية فى وزارة الداماد فريد باشا بل انه تعين رئيساً لمحكمة فوق العادة تشكلت لمحاكمة زعماء جمعية الاتحاد والترقي وكل ما أقوله الآن هو اننا ربما رأينا فى زمن وجيز كيف كان تعيين هـــذا الرجل فى ذلك المنصب الكبير خطراً على الوطن .

وبالرغم مما بذلته من المجهودات فان اسماعيل بك هذا تمكن من الفرار بعد مصرع شوكت باشا .

« كامل باشا »

وفى صبيحة ذات يوم قبل مصرع محمود شوكت باشا باسبوع أو عشرة أيام حضر الي مبكراً مدير الشرطة عزمى بك واخبرنى ان كامل باشا على ظهر احدى بواخر شركة المساجيرو ماريتيم . وقد وصلت الباخرة فى جنح الليل ولكن الباشا لم ينزل الى الشاطىء فسألنى عزمى أن أصدر له الأمر بالقبض عليه فكلفته بأن يرسل مدير القسم السياسى الى الباشا فى الحال ويرجـــوه ألا ينزل الى الشاطىء بل يعود الى القطر المصرى على الباخرة نفسها . ولم

يمضى أكثر من نصف ساعة حتى حضر عزمى بك فأخبرنى أن كامل باشا قد نزل الى الشاطىء فعلا أثناء الليل وذهب توا الى منزله بحي استانبول . وكنت أعرف أن المتآمرين اعتزموا اعادة كامل باشا الى الاستانة ولكنى ما كنت اتوقع أن يكون لديه الشجاعة الكافية لتلبية دعوتهم . فوصول الباشا فى الاستانة كان دليلا اكيداً على ان الثورة أصبحت على الأبواب . وبذلك أصبحت الحالة تتطلب أشد الاحتياطات المعجلة . فارسلت فى طلب عزمى بك وكلفته أن يسير على البرنامج الآتى :ـ

سأرسل الى منزل كامل باشا ضابطاً من مركز قيادة الجيش ومعه بعض رجال الشرطة العسكرية وسأضع تحت تصرفكم أحد معاونى البوليس وعدداً كافياً من رجال الشرطة الملكية ثم يذهب الضابط والمعاون ورجالها الى منزل كامل باشا حيث توزع الرجال لمراقبة المداخل بحيث لايستطيع شخص ما سواء كان من الأهالى أو من الأجانب ان يتصل بسكان المنزل . ثم يطلب الضابط والمعاون مقابلة الباشا لتبليغه قرار الحكومة هذا وهو ان الحكومة ترجو دولته أن يعود للقطر المصري على ظهر الباخرة التي جاء عليها وحتى لو رست الباخرة هنا ثلاثة أيام فالمرجو منه أن يعود اليها بعد مضى اثنتى عشرة ساعة على اكثر تقدير والا فترى الحكومة نفسها مضطرة الى اتخاذ الوسائل الاحتياطية التي قد يراها دولته مزعجة لخاطره ، ثم يعود الينا الضابط والمعاون بجواب الباشا . أما انت شخصياً فيجب أن تقيم داخل المنزل وتحول دون دخول أي شخص مهما كانت حيثيته .

وقد نفذت هذه التعليمات فى الحال . واجاب الباشا بأنه متعب جداً ولا يستطيع تحمل متاعب سياحة أخرى فى مثل هذه الفترة الوجيزة . على انه لم ير سبباً ما يحمله الى اتباع هذا الأمر الحكومى غير القانونى . فلما وقفت على هذا الرد أصدرت الأوامر بتشديد المراقبة على المنزل بحيث لايسمح لشخص

ما أن يدخل أو يخرج الى أن يغادر الباشا الاستانة .

وبينما هـذه التعليمات كان معمولا بها اذ حضر المترجم الأول للسفارة الانجليزية فتز موريس الى منزل الباشا لتحيته باسم السفارة . بيد ان رجال الشرطة منعوه من الدخول . فاستقر رأى ذلك السيد على اتخاذ وسائل اخرى لمنع نفي كامل باشا من الاستانة فولى وجهه فى الحال شطر الصدارة حيث قابل محمود شوكت باشا باسم السفير وهناك أبدى دهشته من الحيلولة بينه وبين رؤية كامل باشا وهو صديق قديم للسفارة وان مثل ذلك العمل خليق أن يؤثر أسوأ تأثير فى الرأى العام الانجليزي . فانكشف بعمله هـذا عداؤه الشديد لنا . ولم ينتصف النهار حتى طلب محمود شوكت باشا بالتليفون أن أذهب لمقابلته فى الحال .

وكان جالساً فى غرفة الصدر الأعظم ومعه شوروك سولون محمود باشا وزير البحرية وكان خليل بك أيضا ينتظر مقابلة الصـدر الأعظم . فدخلنا معاً . فالتفت الي شوكت باشا مكتئبا وقال : ـ « ما أطيب هذا الموقف الذي تقفه ! » يظهر أنك أبقيت كامل باشا أسيراً فى داره فهل اعتزمت اكراهه على مغادرة الاستانة ؟ ـ

« ـ أجل ياصاحب الدولة . ان واجبي يقضى علي باتخاذ الاحتياط الذي تشير اليه » .

« ولكن آمرك ان تقف مراقبة منزله فى الحال وتدعه وشأنه . وليترك للباشا حرية الاختيار فى الاقامة هنا أو فى الخارج » .

« انى أرى ياصاحب الدولة ! ان من الخطورة بمكان أن تلغي التعليمات التي أصدرناها و .... » .

فصرخ فى وجهي « انك جندي ألست كذلك ؟ وها أنا اصدر لك أمراً فنفذه فى الحال والا عاقبتك أشد عقاب .هل تريد أن تجعل الانجليز اعداءً لي؟

فلو أنك سمعت ما نطق به المترجم الأول لتحققت أنك مخطىء » .

وقد كان من المستحيل علي ان اسائل الباشا عن الحق الذي يخول أحد ممثلي دولة أجنبية أن يتدخل فى عمل تقوم به الحكومة ضد زيد أو عمرو من رعاياها لأن الباشا كان متهيجاً ولا يمكن مناقشته . فاغتظت أشد الغيظ لهذا السخط الغير العادل على الاحتياطات التي رأيت من الضروري اتخاذها ضد كامل باشا نظراً لدسائسه الخفية فأجبت وقد اغرورقت عيناي بالدموع (سأصدع بأمرك ياصاحب الدولة وغادرت الغرفة) .

وتبعنى شوروك سولون باشا وقد رأى شدة غيظي وصحبني الى غرفة الانتظار المعدة للسفراء . فوقفنا صامتين بجانب النافذة نحو خمس دقائق وأخيراً قلت : ـ

« أرأيت كيف عوملت ؟ أيستطيع أي انسان تحمل مثل هذه المعاملة الا اذا كان حب الوطن عالقاً بقلبه ؟ » .

فأجاب محمود باشا « انك مصيب ولكن لاتتعجل »

وبعد أن عادت الي سكينتي شكرت الباشا وأستأذنت فى الانصراف . وعدت الى دار الحاكم العسكري وأرسلت فى طلب عزمى بك وقلت له : ـ

« تنفيذاً لأمر صاحب الدولة الصدر الأعظم يجب استدعاء رجال الشرطة الذين يراقبون منزل كامل باشا وان تترك له الحرية التامة للاتصال بمن يشاء ولكن واجبي يحتم علي اتخاذ احتياط واحد وهو ان يظل قريباً من المنزل أحد الشرطة العسكرية ومخبر سري لملاحظة من يدخل الدار ويخرج منها .

ثم كتبت خطابين لمحمود شوكت باشا . ذكرت له فى أولهما ـ ان أوامره الخاصة بكامل باشا قد نفذت فعلياً . وفى الثانى طلبت اليه أن يقيلني من منصب الحاكم العسكري للاستانة نظراً لتضعضع حالتي الصحية من جراء العبء الثقيل الذي يصحب هذا المنصب . وكنت أعلم تمام العلم ان هذا الطلب

كان مضاداً لمصلحة الوطن ولكن لم يكن لدي سوى هـذا الحل لأنني اذا لم اكن مطلق الحرية فى اتخاذ مايلزم من الوسائل أصبح عاجزاً عن حفظ الأمن فى العاصمة .

أما الباشا وكان قد ساوره الأسف على لهجته القاسية التي خاطبني بها فقد طلب الي تلفونيا أن أذهب لمقابلته حتى قبل استلام خطابى . ولما كنت غير راغب فى مقابلته قبل أن يستلم استقالتي قد اعتذرت عن الحضور لأسباب مهمة ورددت عليه بأني لا استطيع أن اكون تحت تصرفه الا فى المساء فى الوقت الذي يلائمه . فكلفني أن اذهب الى قصر الصـــدر الأعظم حوالي الساعة التاسعة مساء .

وفى ذات اليوم عرضت استقالتي على مجلس الوزراء وسأل الباشا زملاءه ماذا يفعل . فنصحوا له بصراحة أن يصر على بقائي في منصبي . وقال الباشا ـ ان هذا هو رأيه ايضاً بيد انه لا مفر من تحرج الحال اذا تشبثت بابعاد كامل باشا وعلى كل حال هو يرغب فى محادثتي أولا . وفى هذا المساء قابلت ابراهيم بك نخيانى بقوله ـ « ما هذا الذي سمعته من انك لو فعلت لاستقلنا جميعاً . وعارض أيضا كل اصدقائي أما أنا فلم اجد الا أمرين لا ثالث لهما . اما أن اكون مستقلا وأتحمل كل المسئولية عما أصدره من الأوامر واما اعتزل العمل . فان الحالة الدقيقة فى العاصمة ومسئوليتي عن الأمن العـــام يتطلبان منى الحرية المطلقة فى العمل .

وفى الساعة التاسعة ذهبت لمقابلة الباشا فى قصر الصدر الاعظم فقابلني مقابلة ودية .

ثم قال : ـ « لماذا أخذت الأقوال التي فهت بها بهذه الطريقة الجدية :ـ ألا تعرف انى أحبك كولدي . ومتى كان الأب قلق البال فلا يستطيع معاملة أبنائه المعاملة التي يريدها . فأرجو أن تعتبر الحادثة كمجرد محاجة بين والد

ووالده تخل عنك غضبك علي » .

فقلت : ـ (ياباشا حاشا أن تشك فى اننى حملت ما وجهته الي الا على ماعنيته أنت . انني اعتبر نفسي ولداً لك ولما كنت أعرف قدرك حق المعرفة فاننى أتحمل منك أي معاملة ولو قاسية . وما حملنى على طلب الاستقالة عنفك معي بل الذي حملني عليه هو استحالة العمل فى الظروف الحاضرة . ان دولتك لاتعرف مايدبر فى طي الخفاء ولا تحيط علماً بالمؤامرات الثورية السرية . ولم أشأ أن أقلق بال دولتك بمسائل تختص بأعمال الشرطة بل اننى لا أزال أرى هذا الرأى حتى الآن . ولكنى أؤكد لدولتك ان كامل باشا لم يحضر الى الاستانة الا ليرقى الى كرسي الصدارة على جثتك . فمجيء الباشا ليس الا دليلاً اكيداً على ان الثورة أصبحت على الأبواب . فارغامه على مغادرة الاستانة لايراد به الا قص أجنحة المؤامرة . ان دولتك تعلم جيداً أن أولئك الذين يجب عليهم اتخاذ الاحتياطات اللازمة ضد التهديدات السرية ومحاولة الاعتداء لايعطون حرية اختيار الوسائل . انك لتذكر انك لما عينتني فى منصبي الحاضر وعدتني باطلاق يدي من كل قيد ـ وها أنت الآن نظراً لتدخل السفارة الانجليزية تدخلا غير مقبول تحظر علي اتخاذ الاحتياطات المهمة فى هذه الحال أرانى عاجزاً عن مواصلة العمل » .

فأجاب بعد تفكير طويل ـ (حسن !) انى أطلق يدك ولكن لا تأخذ ضد كامل احتياطات أشد مما يلزم ولتسمح له بالبقاء هنا ثلاثة أيام » .

وعلى ذلك سحبت طلب الاستقالة . ولما عدت الى دار الحاكم العسكري طلبت الى عبدالله بك ابن كامل باشا وأحد أعضاء مجلس الدولة أن يقابلنى فى اليوم التالى . فلبي الدعوة فقلت له ـ : « ان الباشا على كل حال يجب ان يغادر الاستانة وان من المستحيل سحب الأوامر الصادرة وانه يجدر به ألا ينتظر أية مساعدة من السفارة الانجليزية أومن أي ممثل أجنبي ثم زدت على ذلك بانه

ان لم يغادر المدينة يوم الجمعة على اكثر تقدير فلابد من القبض عليه حيث يحتمل ارساله الى الاناضول .

وبعد مناقشة طويلة وافق عبدالله على ما قلته موافقة تامة وغادرني بعد أن وعد أن يبذل جهده لحمل والده على الاقلاع عن معارضته السقيمة . ثم عاد فى المساء ليخبرنى ان الباشا سيسافر بحراً فى اليوم التالى . والحقيقة انه غادر منزله فى اليوم التالي - وكان يوم جمعة - ومعه السير جيرالد لوثر السفير الانجليزي فمر بالباب العالى وصعد الى الباخرة عند غلطة وفى مساء هذا اليوم اقلعت الباخرة وكانت الأنوار تتألق بها وهو على ظهرها .

مصرع محمود شوكت باشا

كانت الشواهد كلها - بقطع النظر عن تقارير أعوانى المخبرين - تشير الى ان المتآمرين قد اكملوا عدتهم وان الهجوم العمومى سيبدأ فى بضعة الأيام المقبلة .

وقد بكرت بالذهاب الى وزارة الحربية يوم الأربعاء ١٥ تموز سنة ١٩١٣ م وهو يوم القتل لأخذ التعليمات من الباشا ولفت نظر ياوره الى ضرورة المحافظة عليه بنوع خاص عند ذهابه الى الباب العالي . ثم حادثت الباشا نحو نصف ساعة وكان يبدو عليه الارتياح ذلك الصباح وشعر بطمأنينة عظيمة من جراء الاحتياطات التي اتخذتها . ولما كنت أحب ألا أزعجه قلت له عرضا - ان محاولة الاعتداء متوقعة فى ذلك الوقت على بضعة اشخاص فى اليوم التالى أو اليوم الذي بعده . وزدت على ذلك قولى - ان هـــذه الاحتياطات كلها لايمكن معها منع الهجمات الفردية فلذا يجدر به أن يكون على اتم الحرص أثناء اجتيازه الطرقات العامة . ثم شددت على ياوره بأن يكون شديد اليقظه والحذر عليه .

فقال : « أنا فاهم والأمر لله » .

فتركته وذهبت الى الطابق الاعلى لمحادثة الماجور سعد الله والماجور كيفل بك فى القسم الثالث من هيئة اركان الحرب . وأخذنا نبحث بعض القواعد . ولم يمض خمس عشرة دقيقة حتى سمعنا من ناحية ميدان وزارة الحربية - خمس ضربات متوالية أشبه بقرع أحد الطبول الكبيرة . ولما كنت أتوقع حدوث محاولة اعتداء فى أي وقت سألت كمال بك هل هذه طلقات مسدس ؟ .

فقال : - « لا اظن ذلك وأحسب بعض الناس ينفض سجادة أو يدق مسماراً » .

ولكن لم أرتح لهذا الجواب وتوقعت وصول أخبار سيئة بين لحظة واخرى . وما هى الا خمس دقائق حتى دخل خادمى الأمين رمضان مهرولاً وصاح - (لقد قتل الباشا ! لقد قتل الباشا الآن ! وكنت جالساً فى مؤخرة الحجرة فصحت به « أي باشا تعني ؟ » ، ومن قتله ؟ وأين قتل ؟ « فى ميدان بايزيد . فى طريقه الى الباب العالي . ولا أعرف من القاتل » .

وما كنت أهرول الى الدور الأسفل حتى رأيت محمود شوكت باشا محمولا والدم يسيل منه على درج السلم المؤدي الى حجرته . ولا تزال تقرع اذني حشرجته وهو فى سكرة الموت . فوقفت هنيهة فى الردهة وعلقت نظري بوجهه وقد علاه الاصفرار . ثم سألت نفسي الى أين يذهب بى الواجب ؟ فوضعت خطة العمل فى الحال . وكان أول واجب هو اللحاق بالجناة والقبض عليهم ثم الاسراع الى رئاسة الجيش لحفظ النظام فى العاصمة . وبعد هنيهة حضر الي ياوري حلمي فصحت به « هلم » ثم هرولنا الى وزارة الحربية . فذهبت الى دار الحامية لتعرف الأخبار الأولى . وما كدت أصل الى منتهى الطريق حتى قابلت ضابطا من رجال الشرطة العسكرية فصرخت فيه « هل قبض على الجناة ؟ » فقال : - « لا أعرف ، يا أفندي انني أبحث عن عسس »

فصحت « وماذا تريد أن تصنع بالعسس . عد فى الحال واقبض على الجناة قبل ان يتمكنوا من الفرار أو الاختباء » فدهش الضابط لعنف الأوامر التي اصدرها وعاد يهرول الى مكان الجريمة .

وما وصلت الى مكان الحادث بعد بضع دقائق على سيارتى حتى اخبرنى انه القى القبض على شخص يدعى توبال توفيق الذي كان بلا ريب احدا الجناة. ولكن الآخرين - كما يقال - تمكنوا من الفرار فى احدى السيارات . وعلى ذلك أضطررت بادىء ذي بدء الى الاكتفاء بهذا النبأ الأولى ثم يممت شطر دار الحاكم العسكري واتخذت بضعة احتياطات عسكرية فى حي بير واشقودرا واستانبول .

ولم يكد يمر على ارتكاب الجريمة نصف ساعة حتى ظهر فى شوارع العاصمة العسس العسكري البعض على ظهور الخيل والبعض على الأقدام وبعد ساعة صدر منشور يخبر الجمهور بوقوع الجريمة ويعلن اشتداد حالة الحصار فى العاصمة . وخول العسس حق اتخاذ أشد الوسائل ضد من يحاول العبث بالنظام.

ولما كنت أتوقع أن يذهب المتآمرون الى المابين فيزعجوا جلالة الملك خاطبت السكرتير الأول بالقصر تلفونيا واعطيته تعليمات معينة وطلبت اليه ان يخبر جلالته بأننا اتخذنا كل الوسائل اللازمة .

وفى الوقت نفسه خاطبت تليفونياً عزت باشا نائب القائد العام فى خادم كوى ولخصت له الحالة . ثم اخبرته بالخطوات التي اتخذناها لحفظ النظام وطلبت اليه أن يضع مؤقتاً تحت تصرفى كتيبتين من الفرسان كانتا معسكرتين فى ثكنة داود باشا وان يرسل كتيبتين من المشاة من خادم كوى الى كوجك جكرجي للاشتراك فى حفظ النظام العام . ثم خاطبت سعيد حليم باشا فاعلمته هو والوزراء الآخرين باسرع ما يمكن لاتخاذ القرارات اللازمة .

بضعة قرارات احتياطية

ونظراً لكوني كنت أتوقع وقوع مثل هذا الحادث الشنيع كلفت موظفي ادارة الشرطة من قبل ان يكتبوا لي بياناً باسماء جميع الاشخاص الذين كانوا من المحتمل أن يستغلوا الموقف الحاضر من جميع الطبقات فينزعوا الى خلق الشغب فى سائر أنحاء المدينة . فأصدرت الأوامر الى عزمى بك مدير الشرطة بأن يقبض فى الحال اذا وقع اقل اضطراب أو ثورة على الاشخاص المذكورة اسماؤهم فى البيان فأخبرنى عزمى بك بأن هذه التعليمات الصادرة اليه من زمن بعيد نفذت الآن وسألني أين يذهب بالاشخاص المقبوض عليهم . فقر الرأي بيني وبين سعيد حليم باشا الصدر الاعظم الموقت والحاج عادل بك وزير الداخلية على انه يجب لكيما تبقى العاصمة هادئة ابعاد أولئك المعتقلين الى سينوب واعطاؤهم المال الكافى لهم .

فطلبت الى ادارة السفن أن تعد باخرة لنقلهم فى الحال وكلفت عزمى ان يقبض على الباقين منهم فى أثناء الليل حتى يمكن ابعادهم على ظهر الباخرة فى المساء التالى كما انى أمرت بالقبض على الداماد صالح باشا وآخرين ممن عرفت ان لهم ضلعاً فى المؤامرة وتفتيش منازلهم بواسطة الشرطة .

دفن محمود شوكت باشا

وقد أردت أن تكون جنازة محمود شوكت باشا بالغة الحد الاعلى فى الفخار والجلال لأظهر للملأ ان السكينة والنظام تامان فى العاصمة بالرغم من مصرع الصدر الاعظم فطلبت الى كل السلطات المختصة ان ترسل خبر نعيه مع رقاع الدعوة لتشييع جنازته الى علية القوم وكبار موظفى الدولة وضباط أركان الحرب الذين كانوا موجودين فى العاصمة . وأمرت ان تتبع الجنازة ثلة كبيرة من الجنود . وارسلت الدعوة لتشييعها الى سفراء الدول الاجنبية وربابنة

وضباط البوارج الحربية التي كانت راسية فى الميناء كما أرسلت أيضا الى الملحقين العسكريين والبحرين وغيرهم . وزاد عدد المشيعين على خمسة آلاف شخص وكان الجو صحواً وقد اكتظت الشوارع بالاهالى . ومما زاد فى رهبة الموكب ان كثيراً من النسوة تأثرن بجلاله فأخذن بالبكاء والعويل . وقد أدركت الغاية التي رميت اليها من تشييع الجنازة بهذه الصورة . أما أنا شخصياً فكنت أوثر أن اجوس خلال شوارع استانبول على رأس عسس من الفرسان ولكن نظراً لرغبتي فى ان انظر نظرة عامة الى المشهد دخلت بسيارتى من شاطىء غلطة وتنقلت من طريق الى آخر مخترقا حي بانكالدى الى أن لحقت بالجنازة بالقرب من كنيسة نوتردام دى سيون . أما التأثير فكان كما رجوت ولكن ما كانت عيناي تقع على نعش السياسي الراحل الذي كنت أبنى عليه كثيراً من الآمال حتى ساورتني الهموم وتملكنى الحزن واليأس .

وبعد تشييع الجنازة حضر القائد سارو الفرنسي مدير الجندرمة لتهنئتي على النظام التام الذي تمتعت به العاصمة . ثم قص علي فحوى مناقشة دارت بين أمير البحر للاسطول الايطالي القائد باومان (الذي عهد اليه بتنظيم الجندرمة) وقد سمعها على تل الحرية عندما كانوا فى انتظار مرور المشهد . فقد قال أمير البحر لبلومان ما نصه : ـ (ان جرأة ذلك الرجل المسمى جمال بك خارقة للعادة . ان المرء لابد ان يكون من الشجاعة والاقدام بمكان وان يكون له ثقة عظمى فى الاحتياطات التي اتخذها لاعداد مشهد كبير مثل هذا يحتشد فيه سفراء الدول وربابنة البوارج الحربية وفى مكان ضيق ولم يمر بعد على ارتكاب الجناية اكثر من يوم واحد بينما المجرمون لايزالون بعيدين عن طائلة القانون . فلو خطر لأحد الثوريين أن يلقي قنبلة فأصابت واحداً أو اكثر من كبار المشيعين لاحتلت العاصمة التركية فصائل من جنودنا المرابطة فى البوارج . على ان هذا الاحتمال عرض بالفعل على بساط البحث وأعدت لتنفيذه المعدات

اللازمة . ومع ذلك لم يقع مايكدر . فلو اتيح لجمال بك أن يلقي القبض على المجرمين فى خلال يوم أو يومين لقام لبلاده بأجل خدمة ولاستطاع الاستفادة من هذه النتيجة أن يطلب انسحاب أساطيلنا من العاصمة ومن البوسفور . وفى رأيى ان مقامنا هنا يدل على الفضول .

وقد وقعت الجريمة يوم الأربعاء وشيعت الجنازة يوم الخميس وما جاء يوم الجمعة حتى استطعت ـ بعد تضحية ياوري حلمي بك الذي قتل ـ العثور والقبض على زعماء المؤامرة وهم كاظم الجركسي وآخرون واحضارهم امام لجنة التحقيق التابعة للمحكمة العسكرية .

وقد أسفر التحقيق عن اتجاه الحزب بأجمعه وأعضائه فرداً فرداً الى ادارك غاية واحدة هى حرمان البلاد من حكومتها والتخلص من زعماء جمعية الاتحاد والترقى بواسطة هذه الاعتداءآت الشخصية وبالضغط على جلالة السلطان لتعيين المارشال شاكر باشا لمنصب الصدارة العظمى فاذا تم ذلك يشكل المارشال تحت رئاسته وزارة وقتية ثم يسعى فى خلال ثلاثة أيام أو أربعة أن يقضي القضاء المبرم على كل المنتمين لجمعية الاتحاد والترقى حتى اذا خلا الجو منهم تشكلت وزارة جديدة فيما بعد برئاسة كامل باشا أو الأمير صباح الدين .

ولست أخشى أن يشك أحد فى صحة هذه البيانات . فانها تتأيد بشكل قاطع متى نشر التقرير الذي وضعته لجنة التحقيق والنتائج التي وصلت اليها . ولو قرأ الناس اعتراف صالح بك مترجم شركة الترام الذي كان له ضلع فى الأعمال التي قام بها ذوو الحيثيات الذين اشتركوا فى المؤامرة لما بقيت ثمة حاجة الى أدلة أخرى .

ولا يزال صالح بك هذا على قيد الحياة وهو رجل شريف ونزيه . وقد تغلبت علي الرغبة فى توطيد أركان السلام فى البلاد بصفة نهائية حتى بعد معاقبة قاتلى شوكت باشا وشركائهم فأرسلت صالح بك هذا الى أوروبا ببضعة

اقتراحات للاشخاص العديدين الذين صدر عليهم حكم الاعدام جزاء خروجهم على الحكومة . اما الاقتراحات فكانت بسيطة جداً . وهي تلخص في أن يكتبوا بخطهم فيشرحوا طريقة اشتراكهم منذ اعلان الدستور فى الحركات الثورية المختلفة واعمال الاعتداء حتى اذا فعلوا ذلك استصدرت عفواً عاماً لهم. وقد كنت بالطبع أرمى بعملي هذا الى اثارة الرأى العام فى تركيا وفى الخارج واقامة البرهان على سخافة التهم التي تعزى الى رجال الاتحاد والترقى . ولما عرض عليهم هذه الاقتراحات صالح بك (الذي كان يعرف معرفة تامة مبلغ اشتراك كل منهم فى المؤامرة) بدت عليهم الدهشة ولم يسعهم الا رفضها بعد ان اتهموا صالح بك بأن الحكومة رشته . ولكننى اكرر هنا اننى لم اعط صالح بك قرشاً واحداً . ويدل اعترافه على ان المارشال شاكر باشا قبل منصب الصدارة بصفة وقتية وهو يعلم جيد العلم الغاية المقصودة من وراء ذلك وان بين الذين كان ينتظر منهم التأثير فى جلالة السلطان لتعيينه لذلك المنصب نفراً من ذوي الحيثيات والمناصب الرفيعة فى الدولة ولم تكن ثمة فائدة فى اتخاذ اجراءآت قانونية ضد أولئك الاشخاص ذوي الحيثيات اذ ان مثل ذلك العمل ربما زاد الحالة ارتباكاً فضلا عن انه غير منتج .

وزارة سعيد حليم باشا

وقد تقرر بعد مصرع محمود شوكت باشا ترشيح الامير سعيد حليم باشا عن الحزب لمركز الصدارة . ولست أفهم السر فى انتخاب جلالته لسعيد حليم باشا للصدارة بصفة مؤقتة ولافى اصداره الأمر بان تسير الوزارة دفة الأمور موقتاً . وعلى كل حال ما لبثت وزارة سعيد حليم باشا ان عدلت بعد بضعة أيام بدخول طلعت بك الذي عين وزيراً للداخلية .

خروج عن الموضوع

أما وقد بلغت هذه النقطة فانى اسأل السماح بخروج قصير عن الموضوع لوضع الاساس لبضع ملاحظات سياسية معينة ستتناولها هذه المذكرات فيما بعد .

فقد قامت ضجة كبيرة حول حكم الاعدام الذي صدر على الدامادصالح باشا وكانت المحاكمة قد انتهت ولكن الحكم لم يصدق عليه بعد من جلالة السلطان فسألني ذات يوم مستشار السفارة الفرنسية المسيو بوب الذي كان قائما باعمال السفير فى اثناء تغيبه بالاجازة أن أذهب الى السفارة لمحادثته فى مسألةعلى جانب عظيم من الأهمية .

فابتدرنى بقوله (عزيزي جمال بك لقد استلمت هذه اللحظة برقية من المسيو بيشون وزير الخارجية . ولست فى حاجة لأن أعرفك صداقة بيشون لتركيا وانى على يقين من ميولك الودية نحو فرنسا ولذلك أردت الأئتناس برأيك فى الخطة التي اريد اتباعها » .

أما البرقية التي سلمتها فكانت : ـ

« نمى الينا الآن ان صالح باشا بن خير الدين باشا التونسي قد اعتقل وحكم عليه بالاعدام . وقد أحدثت هذه الأنباء ضجة كبرى فى تونس نظراً للمركز الرفيع الذي يشغله صالح باشا بين الأهالى . والحكومة الفرنسية متأكدة ان اعدام أحد رعاياها لابد أن يحدث قلقاً عظيما فى تونس ولهذا لا مندوحة لها عن التدخل فى مصلحة صالح باشا . فقابل الصدر الاعظم فى الحال واطلب اليه بالحاح أن يطلق سراح صالح باشا وألا يقيم العقبات فى سبيل ذهابه الى تونس . فوجمت عند تلاوة تلك البرقية وادركت الآن السر فى رفض صالح باشا الاصغاء الى نصائحي له بالعدول عن تنظيم المؤامرة .

وكلما تجلت الحقيقة امام عيني تملكني الاسف على بلادنا المسكينة . وبعد طول التفكير قلت للمسيو بوب (انك تعلم عطفي الشديد على فرنسا كما تعلم أيضا انني بالرغم من الانتقادات المرة التي امتلأت بها الصحف الفرنسية على سياستنا حديثاً بذلت كل مجهود لاحياء روح الصداقة لفرنسا . فاذا أردت أن تنفر الرأى العام فى الاستانة بل فى الشرق بأسره ليس أسهل عليك من التدخل . ويجب أن اعلمك الآن بأن تدخلك لن يصادف نجاحا ما فان صالح باشا لم يحكم عليه الا بعد ان قام على ادانته الدليل القاطع . أما تنفيذ حكم الاعدام عليه وعلى شركائه فينتظر التصديق الشاهانى . اننا وايم الله سئمنا ان نرى الحكومة تخضد شوكتها بارتكاب أمثال هذه الجرائم . وقد اعتزمنا هذه المرة ان نوقع الجزاء على مرتكبي الجناية مهما عظمت حيثيتهم . ولنا وطيد الأمل فى أن يكبح تشددنا ذلك جماح الذين تحدثهم نفوسهم بارتكاب مثل هذه الجريمة فى المستقبل . فالضغط الذي تزمع استعماله مع الصدر الاعظم لن ينقذ صالح باشا من مخالب الموت فضلا عن ان الرأى العام سيتهم السفارة الفرنسية بتشجيع الساعين لقلب الحكومة فى الاستانة وهذا لابد أن يتولد منه نفور دائم بين البلدين وعندي ان خير ماتفعله هو ان تنصح المسيو بيشون بالعدول عن فكره . »

فوافق المسيو بوب على هـذا الرأى وفى الواقع لم يذهب مطلقا الى الصدر الاعظم .

وبعد أن صادقت الارادة الشاهانية على الحكم تقرر ان يكون التنفيذ فى اليوم التالى . وما حانت الساعة الحادية عشرة مساء حتى دعانى المسيو بوب لمقابلته بالذات فى الحال . وماكاد بصره يقـع علي حتى سلمنى وهو متهيج تهيجاً شديداً برقية اخرى من المسيو بيشون . ويظهر ان وزير الخارجية أغضبه رد القائم باعمال السفارة بعدم التدخل فأصدر أوامره الصريحة بمقابلة

الصدر الاعظم فى الحال وانقاذ صالح باشا مهما كان الثمن . ولما كنت غير ميال فى أن أزيد تهييج المسيو بوب قلت له : ـ (لقد أزف الوقت ياعزيزي فان الارادة الشاهانية صادقت على الحكم الذي سينفذ فى وقت الشروق . ولقد فات وقت مخاطبة الصدر الاعظم فى هذا الصدد هذه الليلة . لأن الحكم سيكون قد نفذ بالفعل قبل أن يمكن استصدار امر آخر بالغائه. على انني لا أستطيع أن أفهم السر فى عناد المسيو بيشون وما هو الدافع له على توجيه قوارص اللوم اليك بدلا من شكرك على نصيحتك الغالية »

وهنا أخذ المسيو بوب على عاتقه كل المسئولية فرفض مرة أخرى أن يتدخل تدخلا كان يعرف تماماً انه عقيم . وفى اليوم التالي نمى اليه ان الحكم قد نفذ . وقبل اعدام صالح باشا بأيام أمرت بالقاء القبض على أخويه طاهر ومحمود خيرالدين بك لأنني كنت واثقاً من ان طاهر وخيرالدين بك كانا أشد ختلا وخطراً من صالح باشا . فأرادت السفارة الفرنسية التدخل لمصلحتهما . وقد علمنا ان لذلك التدخل صبغة شبيهة بالرسمية فاشترطنا فى مقابل الافراج عنهما ألا يتدخل هذان الرجلان مطلقا فى الشؤون التركية وأن يتركا الجنسية التركية ويعتنقا الجنسية الفرنسية وأن يذهبا الى فرنسا . وقد تمت الاجراءآت الرسمية المعتادة على هذا الأساس .

وكانت هذه آخر ما قدمه أولاد خيرالدين من الخدمات للشعب التركى . واني أؤمل الا نسمع بذكرهما الى الأبد (١) .

ولم هبط الينا هذان السيدان من تونس ؟ ألم يكن الأجدر بهما أن يقفا مواهبهما على تحرير وطنهما من النير الفرنسي ؟ ولسوف نرى ـ هل فى استطاعة المسيو بيشون أن يتدخل لانقاذهما من الجيلوتين (المشنقة) .

---

(١) علمت فيما بعد ان طاهر خيرالدين عاد الى الاستانة وعين وزيراً للزراعة بعد منحه لقبه مير ميران (فيا للعجب) .

وقبل أن اختم هذه العجالة يجب أن أضيف كلمة واحدة . وهى ان الاشاعة الدنيئة الذائعة بأننى ذهبت أنا وطلعت بك الى المابين للضغط على جلالته اذ كان متردداً فى التصديق على الحكم ليست الا فرية لانصيب لها من الصحة . فقد أرسل فى اليوم نفسه الى الباب العالى تقرير الصدر الأعظم وملحقاته مضافا اليه التصديق الشاهانى .

(الفصل الثانى)

نشوب الحرب البلقانية الثانية وانتهاؤها

(استرجاع ادرنة)

لم يضطر محمود شوكت باشا فى افتتاح وزارته الى توقيع الصلح الابتدائى وقبول خط انيوس مبدئياً الا بعد فشل هجوم شاركوى وسقوط قلعة أدرنه ويانيه واشقودره فى البانيا . ولم يمر على مصرع الباشا الا زمن قصير حتى اندلعت ألسنة الحرب البلقانية الثانية حتى زحفت الصرب واليونان ورومانيا على بلغاريا .

فتحتم علينا أن نستخدم هذا الموقف الجديد لمهاجمة البلغاريين بأنفسنا لنسترجع أدرنه وكان اعضاء الحزب على بكرة أبيهم يظنون ان الحكومة قد وصلت بالفعل الى هذا القرار وأملوا بحق ان يتحرك الجيش فى الحال لادراك تلك الغاية فبذل السير أدورد غراى - وزير خارجية انجلترا - الذي كان واقفاً على حقيقة ميول الاستانة فى هذا الصدد كل مجهود وتدخلت السفارة الانجليزية لاقناع الباب العالى بالعدول عن تلك الخطة . بل أنه لجأ الى استعمال التهديد فى مجلس العموم . وكانت وزارتنا نفسها مختلفة فى الرأى .

ولن تبرح من ذهنى الحادثة الآتية : فقد ذهبت مساء يوم جمعة الى سعيد حليم باشا فى يني كوي وكان الوزراء جميعا عنده حيث كان مجلس الوزراء

منعقداً . وقبل وصولي تناولوا بالبحث عدة أمور ثم خرجوا الى شرفة القصر الحجرية المطلة على البحر لترويح النفس فقال عثمان نظامى باشا لزميله محمود باشا وزير البحرية وكان واقفاً بجانبه : (اننى اذا استطعت اقناع الحاضرين هنا بالعدول عن فكرة استرجاع ادرنة أكون قد قدمت لبلادي أجل خدمة) فتأففت من سخافة هذا الرأي الذي يناقض تماماً مصلحة الوطن .

وفى احدى الحجر وجدت سعيد حليم باشا ومعه طلعت بك وقد علتهما الكآبة . فالتفت إلي سعيد حليم باشا قائلا : (لقد فشلنا كل الفشل فى حمل الاغلبية على الموافقة على التدخل فترانا فى حيرة لا ندري ماذا نفعل ؟) .

واخبرنى طلعت بك انه يستطيع تسوية المسألة المالية فى اليوم التالي بعد اجتماعه بالمسيو ويل المدير العام لشركة الريجي . وفعلا بحث الامر معه فى اليوم الثانى بحضوري فوعد المسيو ويل باقراض الحكومة مليوناً ونصف مليون جنيه فى مقابل مدة امتياز الريجي مدة خمسة عشر عاماً وبناء على قرار من مجلس الوزراء قبل وزير المالية رفعت بك ووزير الداخلية طلعت بك هذه الشروط . وهذا يفسر مسألة مدة امتياز شركة الريجي وهى المسألة التى ظل مجلس النواب مدة عامين أو ثلاثة يعتبرها احدى جرائم جاويد بك .

وانى واثق تماماً بأن الحكومة التى تقبل تلك الشروط فى مثل ذلك الظرف العصيب لا تستطيع بحال ما أن تنقض ما ارتبطت به .

وذهب طلعت بك فى سيارته فى اليوم نفسه الى خادم كوي لاستطلاع رأي عزت باشا نائب القائد العام فى وزارة الحربية .

فصرح عزت باشا بأن هناك مسألتين على جانب عظيم من الاهمية بيد أنه مستعد لاصدار الامر للجيش بالزحف اذا اطمأنت نفسه بصدد هاتين المسألتين وهما :

أولا : أيحتمل أن يؤدي الارتباكات السياسية التى تنشأ عن زحف الجيش

الى ايقاع البلاد فى خطر شديد ؟) .

ثانياً : ألدينا المال الكافى لمؤونة الجنود ؟

وعندئذ انبرى طلعت بك فشرح موقف الاقلية فى الوزارة حيال النقطة الأولى وأضاف الى ذلك أن المسألة المالية قد سويت بسبب مد امتياز شركة الريجي . ثم عاد فى اليوم التالي بعد مصادقة عزت باشا . وبالرغم من كل ذلك كان اغلب الوزراء يعتقدون ان الزحف ستنشأ عنه عواقب وخيمة لتركيا .

وفى صبيحة اليوم التالي ذهبت مع مدحت شكري بك لمقابلة الوزراء الذين كانوا لا يزالون مترددين . فاوضحت لهم اننا نضيع حقنا الادبى فى ادارة دفة الحكومة بل يجب علينا تقديم استقالتنا فى الحال اذا تركنا هذه الفرصة لاسترجاع أدرنة تذهب دون انتهازها لأن ذلك كان عين السبب الذي حملنا على قلب الحكومة السالفة والذي من اجله قتل نائب القائد العام ووزير الحربية .

فاقتنع البعض واعلن البعض عزمهم على الاستقالة . فقلنا لهم ان الواجب يقضى عليهم بأن يظهروا اخلاصهم لقضية الوطن بالبقاء فى مراكزهم . وبعد لأي ما امكن احراز اغلبية قبل التئام مجلس الوزراء . وفى هذا القسم من مذكراتى لم أخول حق التصريح بالاسماء .

ولم يكن اشتراكى فى هذه المسألة إلا بصفتى أحد زعماء حزبنا ولأننى كنت على اتم اتصال وامتن صداقة مع الوزراء التابعين للحزب . ولم يكن كما ادعت احدى الصحف فيما بعد بقصد التأثير واستعمال القوة ضد الوزراء فكما اننى لم اسمح للغير بالتدخل فى شؤون ادارتى سواء كانت صغيرة أم كبيرة كذلك لم اشأ التدخل فى شؤون لا تخصنى وقصرت نفسى دائماً على الاعراب عن رغباتى أواسداء النصح الودي لزملائى . وبهذه الوسيلة استطعت الاحتفاظ بمودتهم . ويمكننى بهذه المناسبة أن ادحض فى أي وقت كل ما قيل مناقضاً

لذلك وحسبك المثل الآتي : فان الوجوه المبتسمة التى عاد بها الوزراء من مجلس الباب العالي الذي كانوا يخشونه ملأتنا جميعاً بالثقة . ولما صدر لجيشنا الامر بالزحف لاحتلال أدرنة اخبر وزير خارجيتنا الدول العظمى فى مذكرة ارسلها الى سفرائنا فى الخارج بأن غاية الجيش هى تحرير ادرنة وان الزحف سيقف متى تحققت هذه الغاية وانه لن يعبر الشاطيء الايمن لنهر مارتيزا بحال من الاحوال . وعندي أن هذه المذكرة كانت خطأ سياسياً أولا لاننا لا يمكننا أن نقنع باسترجاع ادرنة لأن الضرورة تقضى أن يبقى المارتيزا نهراً تركياً كما يتعين أن ترد الينا ده ده أغاج بصفتها الحد الطبيعي على ساحل بحر ايجة .

وثانياً ان سلامة ادرنة تقتضى أن يبقى بايدينا ديموتيكا وسافانتى والاراضى المجاورة . واذا تذكرنا أيضاً ان ٨٥ بالمائة من سكان كوميلجينة واسكتش وما جاورهما مسلمون علمنا ان واجبنـــا المقدس يقتضى السعي لاسترداد هذين المكانين . وبالطبع لم يكن من المستطاع التأكد من نجاح هذا المشروع ولكن اصدار هذه المذكرة التى قيدت الحكومة من اول الأمر بوعد صريح لا يدل بحال من الاحوال على بعد النظر .

وسأبين فيما بعد كيف أن المندوبين العثمانيين فى مؤتمر الاستانة حاولوا للتغلب على خصومهم أن يبنوا قضيتهم على اساس الموقف الحاضر ولكن الوعد الصريح المعطى من قبل لم يمكنهم من ابداء سبب منطقي معقول للرفض

(سياسة انجلترا)

وما كادت الحكومة العثمانية تعتزم تحرير أدرنة وتصدر الاوامر للجيش بالزحف حتى القت السياسة الانجليزية القناع عن وجهها وظهرت بمظهرها الحقيق . فواصلت مجهوداتها عن طريق السفارة الانجليزية للباب العالي لمنع الجيش العثمانى من عبور اينوس ميديا . واعلن السير ادورد غراي فى مجلس

العموم بأن الاتراك لو حاولوا استغلال هزيمة بلغاريا بواسطة الضرب لاسترداد أدرنة بالرغم من معاهدة لوندرا لسوف يجازون أشد الجزاء ويستهدفون لخطر فقد باقى املاكهم فى اوربا لاجل الاستانة نفسها .

وقد ظهر جلياً من المذكرة المرسلة الى الباب العالي ومن الخطب التى القاها السير ادورد غراي ان سياسة انجلترا كانت عدائية نحو الحكومة التركية وانها كانت تنتهز كل فرصة لتعقيد الامور فى وجه الاتراك وانها اعتزمت أن تستفيد من العقبات التى حالت دون الاتحاد الداخلي فى تركيا .

ولابد أن يدهش القارىء اذا علم ان روسيا وقت احتلالنا لأدرنة كانت ميالة الينا كثيراً . وقد قضيت وقتاً طويلا للوقوف على الاسباب التى حدت بروسيا أن تعمل بهذه الطريقة العلنية ضد مصالح بلغاريا .

فلما عهد إلي بوضع اساس صالح للتفاهم بين تركيا وبلغاريا وشرعت ذات يوم احادث المندوب البلغاري توشيف أشرت الى تلك العبارة وسألته رأيه فيها فقال : (ان الروس يعتبرون الاستانة ميراثهم الطبيعي فاول شيء يهتمون به هو أن تسقط الاستانة فى ايديهم ومتى سقطت وجب أن يكون الى جانبها جزء كبير من الارض يكفل حمايتها . فلو ظلت أدرنه فى ايدي الاتراك فان الروس سيستولون عليها أيضاً فاذا ما ارادوا غزو بلغاريا فسيكون لجيشهم المدى الواسع للمناورة . (وقد ظهر لي ان هـذا التفسير معقول ومقنع) .

وكانت فرنسا ضمن من عارض فى استردادنا لادرنة لأن السياسة الفرنسية كانت خاضعة للسياسة الانجليزية . فارسل السفير الفرنسى الى الباب العالي مذكرة شفوية أعرب فيها عن عدم موافقة الحكومة الفرنسية على زحف الجيش التركى وفى الوقت نفسه اندفعت الصحف الفرنسية الى استهجان المشروع بأشد لهجة . ولكننا ولله الحمد تمكننا من احتلال ادرنة برغم كل هذة العقبات وفى

النهاية اضطرت بلغاريا ان تعترف بالامر الواقع فى معاهدة الاستانة .

(الحكومة الموقتة فى تراقية الغربية)

فلما زحف الجيش على أدرنة أصدرت الحكومة مذكرة اكدت فيها بصريح العبارة بأن الجنود لا يعبرون المارتيزا . ولكن بالرغم من هذه الحقيقة تمكن بضعة اشخاص بما لهم من النفوذ الكبير فى الجيش من اقناع الحكومة وهيئة اركان الحرب بأن ذلك الوعد ليس فى أوانه وحملوهما على أن يغمضا اعينهما عن اعمال تلك الهيئة غير الرسمية المسماة (التشكيلات المخصوصة) وبهذه الوسيلة اصبحت يد تلك الهيئة مطلقة فى ضفة النهر البعيدة فنجحت تلك التشكيلة بواسطة الزحف السريع مع حسن القيادة فى احتلال تراقية الغربية باسرها الى حد سهل قرهصو .

أما تراقية الغربيـــة فاقليم شاسع يحتوي على قضائى - اورطه كوي وكيريديا علي وسنجقي دهده أغاج وكوميلجينه وولاية أدرنة ويدين ٨٥ فى المائة من سكانها بالدين الاسلامى . وكان زعيم تلك التشكيلة المخصوصة التى احتلت ذلك الاقليم سليمان بك العسكري الذي توفى فى ذلك الحين . واما اركان حربه فكانوا الصاغ جركس رشيد وازميرلي أشرف واخاه سامياً وفهمي بك (الذي مات) وآخرين .

فدعا سليمان بك العسكري أعيان المسلمين الى عقد مؤتمر وهـــذا أعلن انشاء حكومة اسلامية موقتة فى تراقية الغربية وجعل عاصمتها مدينة كوميلجينة وعين رئيس كوميلجينة المشترك رئيساً للحكومة الجديدة . ووضعت القوات المسلحة تحت تصرف سليمان بك العسكرى .

وقد ظل نظام الاقضية الذى كان على عهد الحكم التركى معمولا به وعين لكل قضاء رئيس وقائد للجيش . أما رؤساء الاقضية فكانوا تابعين لرئيس

الحكومة الموقتة بينما القواد المحليون كانوا يتلقون التعليمات من سليمان بك العسكرى . وقد كان هذا الرجل أدارياً نشيطاً لولا أنه كان على شيء من صلابة الرأى وشدة التفاؤل .

وقد عاد علينا مشروع تراقية الغربية هذا ـ الذى ندين بتحقيقه لذلك الرجل الممتاز ذو الشجاعة النادرة والاخلاص المتناهى ـ باعظم الفوائد فى مؤتمر الاستانة ثم عندما جاء دور البحث لوضع أساس التحالف التركى البلغارى فيما بعد .

ثم انحلت هذه الحكومة الموقتة فى منتصف شهر سبتمبر بعد أن لبثت مدة شهرين وذلك بناء على القرارات التى وضعت فى مؤتمر الاستانة . ولم يكن حلها إلا بعد مصاعب كثيرة .

فقد أراد بعض زملاء سليمان بك العسكرى بالرغم من تعهدات حكومة الاستانة ان تظل (الحكومة الموقتة) باقية بل فكروا فى الالتجاء الى السلاح لمقاومة الاحتلال البلغارى . وكانت الحكومة التركية وعدت بلغاريا من جهة اخرى أن تتدخل لتحتل جنودها اقليم تراقية الغربية بلا مقاومة . وفى مقابل ذلك منحت بلغاريا مسلمي تراقية الغربية امتيازات قانونية واسعة وتعهدت بألا يكونوا عرضة للاعمال الوحشية أو الانتقامية . ووعدت أيضاً باعلان العفو العام فى الحال .

فمقاومة المسلمين بالسلاح للاحتلال البلغارى لم تكن لتعود عليهم بالخسران فقط بل كان يخشى معها ضياع تلك المزايا السياسية والاقتصادية العديدة التى احرزناها لهم .

ولما يئس سليمان بك من التغلب على معارضة زملائه ارسل الى الاستانة الخطاب التالي :

(إذا لم يستطع جمال بك حاكم الاستانة العسكرى الذى يثق فيه زملائى

والذي يمكنه أن يستعمل نفوذاً أدبياً عظيما عليهم أن يحضر هاهنا فى الحال ليشرح خطة الحكومة وتعهداتها فلابد من أن تصطدم الجنود البلغارية التى تزحف الى تراقية الغربية بالمقاومة المسلحة . واذن لا مفر من سفك الدماء).

وعند وصول هذا الخطاب الى الاستانة بخمس ساعات حضر سليمان بك العسكري شخصياً الى العاصمة . وبعد اجتماعه بوزير الخارجية ووزير الحربية ووزير الداخلية تقرر أن أذهب بنفسى الى كوميلجينة واسكتش لاقنع الضباط بنظرية الحكومة . وفى الوقت نفسه اخطرنا الحكومة البلغارية بحقيقة الحال بواسطة توشيف الذي كان قد عين مندوباً وكان موجوداً فى الاستانة . فطلبنا الى توشيف أن يرسل أمراً الى قائد الفرقة المكلفة باحتلال تراقية الغربية بألا يبدأ أعماله العسكرية قبل انفاذ كل وسائل الاقناع مع (الحكومة الموقتة) أي أن يصبر ريثما تصل اليه انباء معينة منى .

ثم غادرت الاستانة وسافرت عن طريق أدرنة وديموتيكا ودده‌أغاج الى كوميلجينة واسكتش . وفى اليوم التالي قابلت سليمان بك العسكرى وحادثت قواد القوات الوطنية . فسوينا كل الشروط التى يسير عليها الاحتلال البلغارى ثم ارسلت هذه الشروط رأساً الى القائد البلغارى فقبلها بأسرها وبذلك بدأ الاحتلال وبعد اسبوع عدت الى الاستانة .

(مؤتمر الاستانة)

بعد استردادنا أدرنة ارسلت بلغاريا التى ألفت نفسها وحيدة فريدة المسيو ناشيفتش الى الاستانة يستعلم بطريقة شبيهة بالرسمية شروط الصلح التى نميل لمنحها . وكان ذلك الهرم الوقور - وهو من أنصار ستامبولوف من اقدم المتشيعين واكثرهم ميلا لفكرة الوصول الى التفاهم بين بلغاريا وتركيا . وبعد عدة مباحثات شبيهة بالرسمية تبين لنا أن ذلك السيد ليس لديه تفويض تام

باجراء مفاوضات الصلح وما هو الا قليل حتى حضر الى الاستانة وفد بلغارى لبدء مفاوضات معاهدة الصلح بين تركيا وبلغاريا . وكان الوفد بزعامة القائد سافوف وبعضوية المسيو توشيف وناشيفتش . أما الوفد التركى فكان برئاسة طلعت بك وعضوية تشوروك سولون محمود باشا وخليل بك . والتحقت بالوفد البلغارى لجنة استشارية مكونة من الخبراء العسكريين والماليين والقانونيين كما التحقت بالوفد التركى لجنة مثل هـــذه ولها مثل اختصاصاتها فعينت أنا وعصمت بك (١) البكباشي بهيئة اركان الحرب مستشارين عسكريين . فعهد الوفدان المنوطان بتعيين الحدود الينا بوضع التفصيلات . ويجدر أن اذكر هنا انى بذلت أقصى جهد لابقي لتركيا ديموتيكا مع قطعة كبيرة من الارض وراءها واحصل على عدة حقوق لمسلمي تراقية الغربية وخصوصاً الاتراك الذين توطنوا فى بلغاريا .

(المعاهدة الدفاعية الهجومية)

(بين تركيا وبلغاريا)

وقد أظهر أعضاء الحكومة البلغارية روح التسامح الذي يستحق الاعجاب وبينما أنا ابحث عدة شؤون مع طلعت بك فى بدء المؤتمر الثالث اذا بالقائد سافوف التفت الينا قائلا : (لنسرع ايها السادة بانجاز أعمالنا لننتقل الى بحث شؤون أخرى اكثر أهمية . فانى لم آت هنا للمساومة فى عدة امتار من الارض أو فيما اذا كان من الضرورى أن تبقى بيد تركيا أو بيد بلغاريا . فان لمهمتى ارتباطاً بمشروع خطير كان تحقيقه امنيتى العظمى خلال السنوات العديدة السالفة واعنى بذلك عقد معاهدة تركيـة بلغارية . وقـــد جئت الى هنا لتحقيق المشروع) .

---

(١) هو نفس عصمت باشا بطل الاناضول . (المعرب)

فهز المندوبان البلغاريان الآخران رؤوسهما موافقة له ولما كنا نعرف أن القائد طبعه المساومة لم نعر كلماته اهتماماً كبيراً وجعلنا نحاول عند وضع شروط الصلح أن تنص بقدر استطاعتنا على عدة مزايا وفى النهاية ادركنا غايتنا

ولما قاربت المؤتمرات دور الانتهاء عاد القائد بشكل اوضح الى مسألة المعاهدة والمزايا المتبادلة التى تعود على كلا الطرفين اذا طبقت حرفياً فوافق سعيد حليم باشا وطلعت بك وخليل بك عند ختام مؤتمر الصلح على أن أصحب القائد سافوف الى جزيرة الامراء وهناك نضع النصوص الاساسية لمعاهدة هجومية دفاعية بين تركيا وبلغاريا .

وخوفا من اثارة الشكوك تقرر أن تعلن ان القائد الذي اضناه التعب من جراء الحروب البلقانية ـ طلب الى الحكومة التركية أن تسمح له بالاستشفاء زمناً قصيراً فى جزيرة الامراء وانه سينزل فى احد فنادق تلك الجزيرة ضيفاً على الحكومة .

وتقرر أيضاً أن أذهب ذات يوم الى الجزيرة وادعو القائد لتناول الغداء فى منزل نجي الدين ملا ومن ثم ننسحب بعد الغداء الى احدى الحجر المنعزلة ونبحث الاساس لعقد معاهدة التحالف .

وقد نفذت هذه الاجراءات وشرعنا مع القائد سافوف فى وضع الهيكل الذي تقوم عليه معاهدة هجومية دفاعية بين تركيا وبلغاريا .

وبعد بضعة أيام ذهبنا ذات ساعة الى منزلي فى جهة شيشلي لبحث المواد المختلفة الواردة فى مسودة المعاهدة وادخال التعديلات اللازمة ووضع صيغتها النهائية . وكان حاضراً عن بلغاريا القائد سافوف والمسيو توشيف بينما أنا وطلعت بك وخليل بك مثلنا تركيا .

أما المعاهدة الدفاعية فتلخصت فى هذا المبدأ وهو : (اذا هاجمت أحد الطرفين المتعاقدين دولة أو اثنتان من دول البلقان فعلى الطرف الثانى أن ينهض

بلا شرط ولا قيد لمساعدته بكل ما لديه من الموارد .

وأما الهجومية فقضت : (انه إذا قام أحد الطرفين المتعاقدين بعد موافقة الطرف الثانى بمهاجمة احدى دول البلقان وهاجمته فى اثناء القتال دولة اخرى فعلى الطرف الثانى ان يقدم كل المساعدات اللازمة . أما اذا اضطر أحد الطرفين المتعاقدين الى اعلان الحرب على دولة واحدة من دول البلقان فعلى الثانى أن يتبع سياسة الحياد الودي نحوه) .

أما من حيث المزايا الارضية التى يمكن الحصول عليها فى حرب مشتركة فقد تم الاتفاق على النقطة الآتية : (اذا استولت بلغاريا على قوله ودراما فتكون دهده أغاج لنا . واذا مدت بلغاريا حدودها الى نهر ستروما فتحصل على موناستير واوشريدا من جهة واسكوب من جهة اخرى فتكون لنا تراقية الغربية حتى وادي قره صو واذا استولت بلغاريا فى النهايـة على سلانيك وكارافيريا وفودينا نأخذ خط ستروما فيجري خط حدودنا بين نفروكوب وأزليك بدلا من اتباع أعالي النهر الى مضيق كريسنا فنضم الينا قضاء رويدجوز السابق ونصل الى الحدود التركية البلغارية القديمة عند دوسيات) .

وقد وقع الاتفاق كل من الفريقين مع ابداء التحفظ الآتى : وهو ان الاتفاق تعوزه الصيغة الالزامية بعد .

ثم عاد القائد سافوف الى صوفيا ليبحث نصوص المعاهد مع رئيس الوزارة رادوسلافوف ووزير الخارجية غناديف وليحصل على موافقة الملك . وقد أكد لنا القائد انه سيرجع الى الاستانة بعد مضى ثمانيـة أيام أو عشرة على اكثر تقدير ومعه التعديلات البلغاريـة فيكلف المسيو توشيف (الذي عين مندوباً فى الاستانة) بتسليمها الينا خفية . بيد أنه مضى على عودته عدة اسابيع ولم تصل الينا أنبـاء من صوفيا كما أن مستر توشيف لم يشر الى الموضوع بكلمة واحدة .

وبعد أن صادق الطرفان على معاهدة الصلح استؤنفت العلاقات السياسية مع بلغاريا وعين فتحي بك السكرتير العام للجنة سفيراً فى صوفيا . وكان فتحي بك عالماً بمشروع التحالف التركى البلغارى ومؤيداً له . فلم يكد يصل الى صوفيا حتى سأل الحكومة البلغارية ما هى حقيقة الموقف ازاء معاهدة التحالف التى تم الاتفاق عليها مع القائد سافوف فى الاستانة . وبالرغم من محاولاته العديدة لم يظفر فتحي بك بجواب مرض فى هذا الصدد . والحقيقة انه لم يمكن الوقوف على السر فى مراوغة بلغاريا فى هذا الامر مع انها كانت تبدى فى خلال مؤتمرات الصلح رغبة شديدة فى ابرام هذه المعاهدة .

ومن جهـــة أخرى وخلافا لنصوص معاهدة الصلح والوعود الشفوية العديدة التى وعدوها فان البلغاريين شرعوا باستعمال القسوة مع مسلمي تراقية الغربية وحاولوا رد البوماكى عن الاسلام بالقوة . فاخبرنا فتحي بك بأنه لا يستطيع ازاء هـــذا التلون المعيب أن يبقى بعد ذلك فى منصبه بصوفيا ولتسهيل المفاوضات حول هذه النقطة وانقاذ مسلمي تراقية الغربية من التعرض لقسوة البلغاريين من جديد وايضاً لبحث مسألة المعاهدة وتسويتها تقرر أن يجتمع طلعت بك وخليل بك من جهة ورادوسلافوف وغناديف من جهـة أخرى فى احدى المدن البلغارية . وقد وعد الوزيران البلغاريان فى ذلك الاجتماع بمعاملة المسلمين معاملة حسنة وأن يرسلا الى الاستانة فى القريب العاجل مندوباً خاصاً ومعه اقتراح الحكومة البلغارية .

وبعد أيام وصل الى الاستانة فى نوفمبر سنة ١٩١٣ الكولونيل جيكوف نائب رئيس هيئة اركان حرب بلغاريا . وكان الكولونيل حاد الذكاء متوقد القريحة عالي التربية ولمـــا أعلن توشيف نبأ وصوله قال انه يتمتع بثقـــة رادوسلافوف وحزبه وكنت وقتئذ وزيراً للنافعة بيد أننى - كما سبقت الاشارة الى ذلك - اشتركت مع طلعت بك وخليل بك فى المؤتمرات الخاصة

بالمعاهدة التركية البلغارية . ولمـــا حانت ساعة الاجتماع ذهبنا الى دار الوكالة البلغارية التى كانت فى حي تقسيم . وهناك فوجئنا باقتراح بلغارى مدهش من حيث علاقته بالمزايا الارضية وهو :

ما دام ذلك الجزء من مقدونيا الذى يمتد الى نهر ستروما وموناستير واوشريدا لا يكون جزء من بلغاريا فلا يستطيع البلغاريون أن يمنحونا ميناء دەده أغاج كما انهم لا يوافقون على اعطائنا قره أغاج الا بعد استيلائهم على سلانيك .

وبعد عدة اجتماعات بالكولونيل جيكوف وضعنا الشروط الاولية التى يمكننا شكلا وعقلا قبولها كأساس للمعاهدة .

وكان التحالف مع بلغاريا على جانب عظيم من الاهمية لنا فقد كان من المحقق أن تشب الحرب بيننا وبين اليونان عاجلا أو آجلا . ذلك بأن من المستحيل أن نرضى بالتنازل لليونانيين عن جزر بحر ايجه مثل ليمنوس ومدەللي وصاقس فكان من اللازم اذن أن نتخذ الاحتياطات الكافية بحيث لا تكون بلغاريا فى صفوف أعدائنا مرة اخرى اذا اندلعت السنة الحرب بيننا وبين اليونان . ومن جهة اخرى قد كنا نعلم أن البلغاريين غير راضين عن الحالة فى مقدونيا ولكيما يحققوا أمانيهم الوطنية فلا مناص لهم من التماس مساعدتنا ولهذا أردنا أن نستفيد كل الاستفادة المستطاعة من هذه الحالة بحيث لا نعرض انفسنا من جديد لخطر تحالف بلقانى آخر .

واذا ما استطعنا ان ندخل رومانيا الى حظيرة التحالف التركى البلغارى ان نضمن لها مثلا عدم هجوم بلغاريا ضد اقليم دوبروجا الذى اصبح بأسره فى ايدى رومانيا امكننا اذن ايجاد كتلتين متعارضتين فى شقى شبه جزيرة البلقان الشرقية والغربية وبذلك نستطيع ان نطمأن على سلامتنا فلا نصبح بعدئذ تحت رحمة اية دولة بلقانية صغيرة .

فمن هذه الوجهة التى كان تحقيقها امانى حزب تركيا الفتاة كنا نعلق اهمية كبرى على محالفة بلغاريا ولهذا السبب نفسه اردنا ان نصل الى تفاهم سريع .

ولما كانت احدى خواص السياسة البلغارية او بالاحرى احد الامور البارزة فى الطبع البلغارى ان استخلص كل فائدة مستطاعة ويستغل حتى اكثر الحلفاء اخلاصاً وامانة تبين لنا ان الحكومة البلغارية ستطيل امد المفاوضات الى اقصى حد على امل ان يأتى وقت نرى انفسنا فيه فى خطر ومضطرين الى توقيع المعاهدة فى خلال اربع وعشرين ساعة وهى المعاهدة التى اصبحت ناقصة بعد التعديلات والتغييرات العديدة التى ادخلت عليها وقد سعت بلغاريا ان تبقينا فى هذا الموقف الى وقت اعلان الحرب العالمية وبعد ان تم الاتفاق مع الكولونيل جيكوف على الشروط الاساسية لم اعد اهتم بالمسألة بتاتاً .

وقد علمت فيما بعد ان البلغاريين لما استأنفوا المفاوضات معنا ومع امبراطوريتى الوسط فى خلال الحرب رغبة فى الاشتراك معنا لم يعيروا مادة من المواد المستثناة فى الاصل اى اهتمام ولم يأبوا فقط ان تمتد حدودنا فى تراقية الغربية بل رفضوا فعلا بحث المواد الاخرى إلا بعد ان قبلنا منحهم ديموتيكا وقره اغاج ومصطفى باشا وقطعة ارض يزيد عرضها على كيلومتر واحد على شاطيء المارتيز الايسر وبما انى سأتناول موضوع علاقتنا مع بلغاريا متى جاء دوره فى هذه المذكرات ارجيء الكلام عليه الآن .

(التحالف مع السوريين والعرب)

انى اعتقد أن فى بلادنا ـ حتى بين شبابنا النابهين ـ نفر ممن قلبوا المسألة العربية على جميع وجوهها ولحظوا الغاية الشاخصة امام ابصار اولئك الزعماء المطالبين ببحث تلك المسألة . وسأبحث تلك المسألة بتفصيل متى حان وقت الكلام فى هذه المذكرات على اعمالي عندما عينت قائداً للجيش الرابع وسأقصر

بحثي الآن على بضعة امور حدثت اثناء وجودي فى منصب الحاكم العسكرى .

ففى عهد وزارة كامل باشا تمكن بعض العرب بحجة المطالبة بادخال اصلاحات فى بلادهم وبتصريح من الوالي ادهم بك من عقد مجلس وطنى فى بيروت . وقد اشاروا فيه الى نوع الاصلاحات المطلوب ادخالها فى سورية وسائر الولايات العربية . فلما تولت وزارة شوكت باشا مقاليد الحكم حلت ذلك المجلس نظراً الى التغييرات التى حدثت فى الوقت نفسه فى اشخاص الولاة من جهة والى اعتبارها ان ذلك المجلس غير قانونى من جهة اخرى . واصدرت الحكومة منشوراً قالت فيه : بما أن للبرلمان وحده حق وضع قواعد الادارة الداخلية لا يمكن النظر فى الامور التى قررها مجلس بيروت .

ثم اشتدت الدعوة للاستقلال فى سورية وبيروت وتطورت تطوراً اخذت معه سطوة الحكومة تتدهور حتى ان بعض الاشخاص بلغت بهم الجرأة الى حد كتابة اسم الحاكم العام (ابو بكر حازم) فى بطاقة ووضعها فى رقاب كلابهم . وفى دمشق ذهب شكرى العسلي ومحمد كرد علي الى الوالي مادينى عارف بك وطلبا طرد السكرتير العام للولاية بدعوى انه لم يفهم فحوى عريضة قدمت اليه مكتوبة بالعربية فطلب ترجمتها الى التركية . ولم يتركوا فرصة إلا انتهزوها للتورط فى مثل هذه الاعمال السخيفة .

وانبرت الصحف السورية على بكرة ابيها للطعن على الحكومة بأوقح العبارات وملأت أعمدتها بأحط الاهانات ضد الجنس التركى . وقد أصدر الشيخ رشيد رضا من اهالي طرابلس الشام فى مصر صحيفة ملأها بالعبارات المثيرة ضد زعماء حزب الاتحاد والترقى جعلت كل من يقرأها عدواً لتركيا . وبينما الحكومة مشغولة بالحرب البلقانية اذ صرف ضباط الفرقة العربية المرابطة فى جزيرة غاليبولي اهتمامهم الى تعضيد وسائل الابتزاز السياسى التى قام بها الوطنيون العرب فى الاستانة بدلا من القيام بواجبهم .

ثم ارادوا عقد مؤتمر عام من العرب بالرغم من رفض الحكومة ولكن لما توقعوا أن تحول الحكومة هذه المرة بينهم وبين رغبتهم وتتخذ الاجراءات القانونية ضد زعمائهم قرروا بعد موافقة - أو بالاحرى بعد اغراء الحكومة الفرنسية - أن يجتمع المؤتمر في باريس وطلبوا في منشورهم الذي اذاعوه في سائر انحاء البلاد العربية ارسال المندوبين الى المؤتمر .

وكان مدبروا هذه الحركة عبدالحميد الزهراوي - مبعوث حماة في ذلك الوقت - وعبدالغني العريسي - صاحب جريدة المفيد البيروتية - وعبد الكريم الخليل رئيس النادي الادبي . وبهذه الطريقة وتحت الرعاية الفرنسية غير المؤتمر شكله ودستوره واستقر في الاذهان وقتئذ ان تدخل فرنسا في سورية أصبح قريباً .

ولم أعبأ حينذاك في هذه المسائل العربية . بل كان كل اهتمامي أن يعرف الملأ ان الدسائس الاجنبية تبذر بذور الشقاق بين عنصرين اسلاميين كبيرين وهما العنصر التركي والعنصر العربي .

ورغبت أيضاً أن نلجأ الى بعض رجال العرب ذوي الحيثيات الكبيرة ممن نعتمد على وطنيتهم وحماسهم الديني لينبؤنا عن المطالب العربية التي يمكننا أن نقبلها من دون أن نعرض المصالح المشتركة ووحدة العالم الاسلامي للخطر ثم نتخذ بعد ذلك الاجراءات اللازمة لتنفيذ تلك الاصلاحات : ولحسن الحظ كان هذا رأي الحكومة أيضاً فارسلت الى باريس مدحت شكري بك وآخرين لمفاوضة الزعماء العرب الذين عقدوا المؤتمر على أمل ايجاد قاعدة للتفاهم . وقد التأم المؤتمر بالفعل ولكن نظراً لأن اجتماع مدحت شكري بك وزملائه بالزعماء العرب اكسب المسألة صيغة أخرى انحل المؤتمر بعد أن بسط لشكري بك بعض امانيه الغالية .

وجاءني طلعت بك ذات يوم في دار الحاكم العسكري فاخبرني اننا

مدعوان لزيارة الشيخ عبدالعزيز جاويش يوم الجمعة المقبل على أمل ايجاد قاعده للتفاهم مع العرب . وسترى رئيس الجمعية العربية السرية السياسية وبما أنني كنت من اكبر المشجعين لايجاد مثل ذلك التفاهم ونظراً لخبرتي العظيمة بالشؤون العربية حينما كنت حاكماً عاماً في بغداد قد قررت الحكومة أن اشترك في ذلك الاجتماع .

وفي اليوم المحدد ذهبت الى الاجتماع . فبرز لنا شخص قصير القامة لا يزيد عمره على الثلاثين ربيعاً اسمر اللون ذو عينين واسعتين براقتين تدلان على الذكاء والاقدام . هذا هو عبد الكريم الخليل مندوب جمعية العرب السرية السياسية . ثم بدأت المفاوضات بعد الغداء .

فقلت له يخيل الي ان جل مرادك أن يقبل بعض أفراد العرب عدة وظائف رئيسية في الاستانة ثم قلت لنفسي مكتئباً ان الاصلاحات العربية اذا حكمنا عليها بآراء اولئك الزعماء لا يكون لها معنى البتة سوى قضاء لبانة اشخاص معينين علقت نفوسهم بالمناصب والابهة . ومع ذلك شرعنا في وضع اتفاق يتضمن القواعد الآتية :

أولا تسليم الاعمال الادارية الى السلطات الوطنية طبقاً للقانون الخاص بادارة الولايات .

ثانياً : يكون التعليم الثانوي والابتدائي في المدارس الوطنية العربية .

ثالثاً : تستعمل اللغة العربية في المدارس العربية بعد اجراءات قانونية معينة

رابعاً : أن تضاف الصيغة العربية لاعلانات الحضور للمحاكم كما تضاف الى الاحكام المدنية والجنائية .

خامساً : تكون العرائض المقدمة للسلطات الرسمية باللغة العربية .

سادساً : يعين بعض العرب في مجلس الاعيان ومجلس الدولة ومحكمة الاستئناف ومشيخة شيخ الاسلام ودار الافتاء .

وقد اجتمعنا بعبدالكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي مراراً فى فندق كروكربجي بيرا وبحثنا النقاط السابقة طويلا . وقد نفذت هذه الاصلاحات بأسرها بعد أن وافقت عليها الحكومة . ولكن طلعت بك وحده كان معارضاً فى تعيين عبدالحميد الزهراوى فى مجلس الاعيان نظراً لأن كثيراً من العرب كانوا يعدونه متقلباً . وكثيراً ما حضر الي عبدالكريم وسألنى أن اسوى الامر مع طلعت بك . وفى النهاية تحققت رغبة الزهراوى ولكن نظراً لأنه كان طامحاً الى منصب شيخ الاسلام لم يقنع بتعيينه فى مجلس الاعيان .

ومن ذلك الحين فصاعداً أصبحت لعبد الكريم حيثية كبيرة وانتحل لنفسه لقب (مفتش عام الجمعية اللامركزية السورية) ولكنه لم ينجح فى الانتخابات لمجلس النواب برغم مساعي اعوانه وفاز عليه مرشح حزب الولايات العربية .

وبما انى الآن بصدد المسألة العربية لا استطيع اغفال امر اعتبره على جانب عظيم من الاهمية فقد كان انور باشا وزيراً للحربية وكنت وزيراً للنافعة وكان عزيز علي بك المصرى البكباشى فى هيئة اركان الحرب . فلم يستطع الاخير ـ وهو من أشد الناس طمعاً واكثرهم غروراً ـ أن يرى نفوذ عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوى يفوق نفوذه عندما كانت المسألة العربية معروضة على بساط البحث . فوصلت به الجرأة الى أن اعلن أن العرب لا يقنعون بالاتفاق السابق وانهم انما يطلبون الاستقلال الداخلي وان يكون لهم جيش خاص وان تكون الحكومة ثنائية بينهم وبين الاتراك على انموذج الملوكية الثنائية فى النمسا والمجر ولو أن العرب فى الواقع ذهبوا الى ابعد من المجريين فى طلبهم أن تكون لغة جيشهم الرسمية هى اللغة العربية .

ثم اضاف الى ذلك قوله (فاذا كانت هذه هى امانى العرب فلماذا لا يعملون لتحقيقها ؟ لقد ارادوا الحصول لانفسهم على مراكز سامية ولذلك

قنعوا بالاصلاحات التافهـة المنوي ادخالها ليسوا إلا خونة لبلادهم ولسوف يجزون الجزاء العادل فيما بعد) .

وكنت تعرفت بعزيز علي بك هـذا وقت تخرجه من المدرسة الحربية حوالي سنة ١٩٠٤ برتبة يوزباشي . وقدأظهر همة شديدة فىمطاردة العصابات البلغارية فى أقضية بتريك وعثمانية ومقدونيا . واشترك فيما بعدفىقتال العصابات اليونانية والبلغارية والالبانية وانضم قبل اعلان الدستور الى جمعية الاتحاد والترقى نخدمها خدمات جليلة .

ولما زحف الجيش على الاستانة بعد الثورة الرجعية فى ١٣ أبريل - نيسان كان عزيز بك على رأس احدى فصائله فهاجم ثكنة ثوبهوس بعد الاستيلاء على كبرى (جسر غلطة) واظهر مهارة عظيمة فى مطاردة الثائرين . ولم اكن الى تلك اللحظـــة أعرف ان له صلة بالعرب وانما قابلنى - قابلنى بكل وقار وخاطبنى بلهجة الادب .

وذهبت مرة الى الاستانة فى غضون وجودي فى منصب حاكم أطنـــة فقابلت عزيز علي بك فتبادلنا بضع ملاحظات عن (الخطابات الشهيرة من بيروت وسورية) التى نشرها احمد شريف بك مراسل جريدة اقدام . ولما ذكرت له ان مثل تلك الخطابات تثير عواطف مضرة بالوحدة العثمانية وسلطة الخلافة الاسلامية فى الولايات العربيـــة - أجابنى عزيز بك بلهجة الكبرياء قائلا : (ان العرب لعلى حق فليت شعري ماذا صنعتم ايها الاتراك لنا ؟ سوى سعيكم فى افنائنا واهانتنا واحتقارنا - حتى تتوقعوا المعاملة الودية من جانبنا هل نسيتم انكم فى الاستانة اذا ناديتم كلباً ناديتموه بلفظة (عربى ! عربى !) وان اردتم أن تصفوا شيئاً عويصاً غامضاً - قلتم انه - (يشبه شعر العرب) وكأنكم لم يكفكم كل هذا فتعمدتم فى اليوم التالي لاعلان الدستور اثارة خواطر العرب ، أفلم تعينوا فى الجيش السوري مشيراً من سلالة هولاكو ورجلا يحتقر

بغداد والعراق - تترياً لا خلاق له ورسول الجحيم ؟ انكم تعلمون جيد العلم كيف يسخط العرب على التتر فليس ثمة معنى لتعيين عثمان باشا لقيادة الجيش الخامس إلا اذلال العرب) .

فعرتني الدهشة لسماع هذه السخافات من رجل نابه كعزيز بك وعزوت قذفه فى عثمان باشا الى حقد شخصى قد يكون ناشئاً عن خلاف قام بينهما وهما فى مقدونيا . اذ فى ذلك الحين كان عزيز بك يعمل فى احدى المصالح العسكرية فى كوتشانا . وبينما عثمان باشا حاكم جبهة اسكوب كان قائماً باعمال التفتيش اذ خاطب عزيز بك بلهجة قاسية . ولما كان من عادة الباشا التهكم فى الخطاب أجابه عزيز بك جواباً حاداً . فذهل الباشا لصدور مثل هذا الرد علناً فقرر احتفاظاً بكرامته استعمال الشدة مع عزيز بك واصدر أمره بالقبض عليه . ومنذ ذلك الحين تولدت البغضاء فى نفس عزيز بك ضد عثمان باشا .

فاجبت عزيز بك بأن الاتراك وخصوصاً اتراك الاناضول ينظرون بعين الاكبار الى العرب وان من الخطأ الارتياب فى ذلك لمجرد ترديد بضعة أقوال مألوفة . وان اشخاصاً مثله متعلمين اذا سمحوا لانفسهم بالثأر بالضغينة الشخصية كانت النتيجة اذن أن يصبح الامر فوضى وفى ذلك الخطر كل الخطر على العالم التركى .

وبعد تلك المحادثة ارسل عزيز بك بناء على طلبه الى اليمن للالتحاق بجيش عزت باشا . وقد علمت فيما بعد انه اكثر من الطنطنة بأمانيه العربية وكان سبباً فى مشاغب كثيرة لعزت باشا كما انى علمت ايضاً انه ذهب فى غضون الحرب الطرابلسية الى سيرانيقة وقام هو وانور ومصطفى كمال بك بدفاع مجيد عن مدينة بنى غازى .

ولما كنت على يقين من ان لعزيز بك هذا حيثية كبيرة بين ثوار العرب كان جديراً بى أن الفت النظر بصفة خاصة الى خدماته واغلاطه التى لها ارتباط

بماضيه . فقد نمي الي انه لما كان بطرابلس لم يطق أن يرى انور بك رئيساً له فبذل كل ما فى وسعه لجعله مبغوضاً لدى الضباط العرب .

ولكن أنور لم يعبأ بكل ذلك . ولما ابرمت معاهدة الصلح مع ايطاليا وعاد انور الى تركيا للاشتراك فى الحرب البلقانية سلم القيادة لعزيز بك واوصاه بتكوين حكومة عربية .

بيد أن عزيز بك ما لبث أن نفر منه سيدي احمد الشريف السنوسى ثم ضباط العرب فاعتزم العودة الى الاستانة . ولم يكن له فى ذلك الوقت مأرب خاص سوى التظاهر بالعداوة لانور فى حضرة الضباط الاتراك واصدقائه الاقدمين وباثارة الخواطر ضد الاتراك بحضرة الضباط العرب .

ولما عين أنور فى النهاية لوزارة الحربية اظلمت الدنيا فى عينى عزيز بك فانه لم يستطع صبراً على أن يبقى وهو الذي كان زميلا لانور فى المدرسة الحربية وقام بأعمال نافعة وأظهر قسطاً عظيما من الوطنية بكباشياً بسيطاً فى هيئة اركان الحرب بينما منافسه صار وزيراً للحربية فادى به الى استنتاج هذه النتيجة السيئة وهى ان اشتراكه فى العمل مع الاتراك لم يعد عليه بالربح أو يكسبه مجداً . اذاً (فلتحيا الثورة العربية !!) .

وقد بلغت دسائس عزيز بك مبلغاً خطيراً حتى نفد صبر انور باشا . فاصدر امره بالقبض عليه وارسله للمحكمة العسكرية بتهمة اختلاس (٣٠) الف جنيه سلمها له انور قبل مغادرته طرابلس بصفتها من اموال الحكومة .

وما كاد يذيع نبأ القبض على عزيز بك حتى علت الضجة بين الشبان العرب فى الاستانة وكنت وقتئذ وزير العمل . فواصل اعضاء النادي العربى سعيهم لدى الوزراء وارباب النفوذ . واتانى من ضمن الوفود وفد مكون من خمسة من شبان بيروت ودمشق بزعامة الدكتور أسعد هيكر البعلبكى ورجانى ان استعمل نفوذي لاطلاق سراح عزيز المصري . وقد اكدوا لي ان اطلاقه

يؤثر تأثيراً حسناً فى شبان العرب المتعلمين . وكانت وزارة الحربية ارسلت الحكم الى الباب العالي واقترحت أن تخفف الارادة الشاهانية حكم الاعدام الى السجن المؤبد وفى مساء اليوم الذي اذيع فيه عرض ذلك الحكم المعدل على جلالة السلطان للتصديق عليه اقيمت مأدبة فخمة فى دار السفارة الفرنسية دعي اليها الوزراء وبعض السفراء الاجانب وكثير من اعيان الفرنسيين . وكنت أنا وأنور باشا من ضمن المدعوين فبعد الفراغ من العشاء انتقلنا الى غرفة الجلوس وخاض بعض الحاضرين همساً فى مسألة الحكم على عزيز بك . فجاء إلي المسيو جورج ريموند المراسل الحربى لجريدة الستراسيون وخاطبنى قائلا :

(سيدي القائد اذا حكم بالاعدام على عزيز بك لمجرد التشاحن واختلاف فى الرأي بينه وبين انور باشا عندما كان فى طرابلس فكل ما استطيع ان اقول هو أن للقانون فى هـــذه البلاد المقام الثانى بجانب العمل بالاهواء الدال على التعسف وقد بلغنى ان التهمة الموجهة لعزيز بك هى اختلاس اموال عهد اليه بها للدفاع عن الوطن لنسلم بأنه من ثوار العرب وان آراءه تخالف آراء انور باشا ولـكنه على التحقيق ليس لصاً . وانى واثق من انك تستطيع انقاذ عزيز بك من العقاب الذى لا يستحقه .

وبعد جورج ريموند جاء عـدد من اصدقائى الاتراك والفرنسيين من عسكريين وملـكيين يسألوننى التدخل لمصلحة عزيز بك ولم يكن من الصعب معرفة ما جال بخاطرهم من نظراتهم الى انور باشا (الذي كان موجوداً) فكأنها كانت تقول (ها هو الرجل الذي لا يتردد مطلقاً فى اشباع ســـورة الانتقام بالفتك بضابط جليل قاتل معه فى طرابلس جنباً الى جنب !) .

فادركت فى الحال ان الرأي العام كان اشد سخطاً على انور باشا منه على عزيز بك . فاصبح من الواجب علي أن اساجلة البحث . وفوق ذلك رأيت ان عزيز بك من اشجع الثوار العرب واكثرهم امانة . وقد خطر لي أن من

العبث ان نعلن عفواً عاماً عن جميع الثوار الآخرين ونحرم عزيز بك من الانتفاع به . فلهذا السبب اهتممت حقيقة بانقاذه . فلما عدت الى الدار كتبت الخطاب الآتى لانور باشا :

(عزيزي انور)

بالرغم من البينات العديدة التى جمعتها المحكمة العسكرية ضد عزيز بك وبالرغم من ان الحكم صدر عليه فعلا فان الرأي العام غير ساخط إلا عليك . فالسخط عليك بهذه الطريقة يحدث لك ضرراً اكثر بكثير من الضرر الذي يلحق عزيز بك من جراء سجنه بضعة سنين . فارجو أن تبذل جهدك فى الحصول على العفو الشاهانى عنه وانا ابعده عن الاستانة على ألا يعود اليها .

وفى اليوم التالي اخبرنى انور باشا تلفونياً ان جلالته أصدر عفوه عن عزيز بك ثم حضر الي اخوه وقد وصله الخبر ومعه جورج ريموند يشكرانى فاخبرته بوجوب سفر اخيه الى مصر فى الحال وعـــدم التدخل مطلقاً فى السياسة التركية .

وقد علمت فيما بعد أن عزيز بك بالرغم من حلفه بشرفه وضع نفسه تحت تصرف الشريف حسين فى خلال الحرب العالمية عندما ثار ضد الخلافة وساق عمداً العالم الاسلامى الى الموقف المزري الذي يقفه اليوم !!

(البعثة العسكرية الالمانية)

لا أظن أن هناك رجلا واحداً فى اوروبا واميريكا يعرف حقيقـــة الظروف التى جاءت بالبعثة العسكرية الالمانية الى الاستانة لتنظيم الجيش التركى .

وتدل العبارات العديدة التى ينشرها اعداؤنا على ان وصول البعثة كان فى ابان وجود انور باشا فى وزارة الحربية مما تعتبره جريمة لا تغتفر . ولكنى سأسجل الحقيقة هنا .

فان شوكت باشا لما رسخ فى ذهنه استحالة هزيمة البلغاريين وامضى شروط الصلح التمهيدية التى وضعت فى لوندرا والتى اعطتنا خط اينوس ميديا كفاصل بيننا وبين بلغاريا وكذلك اعطتنـــا جزيرتى امبروس وكينيدوس اعتزم حشد الجنود الوطنية وتحويلها لادراك الاصلاح الداخلي هذا اذا كان يراد ألا تزداد البلاد - وقد كانت متعبة - ضعفاً على ضعفها وعلى هذا خول مندوبينا حق امضاء الصلح التمهيدي .

وكان يرى اننا فى حاجة قصوى الى الاموال ولذلك فكر فى عقد قرض كبير من احدى الدول العظمى . فالتجأ اولا الى المانيا ولكن هذه اخبرته ان حالة سوق النقود فى برلين لا تسمح بعقد قرض تركى جديد ونصحت له بألا يعتمد بحال من الاحوال على المانيا فى المسائل المالية واشارت عليه بأن يلجأ الى فرنسا .

فقررت الحكومة بناء على ذلك اتباع تلك النصيحة وارسلت جاويد بك الى باريس . ولم يكن جاويد بك من اعضاء الوزارة ولكننا كنا ننظر اليه باعتباره روح المجهودات التى يقوم بها حزب الاتحاد والترقي فى سبيل التنظيم فى الدائرة السياسية المالية فعين رئيساً للوفد العالي الذي نيط به بدء المفاوضات فى المواد المالية الواردة في الصلح التمهيدي .

ولكن شوكت باشا رأى ان مسألة القروض الاجنبية لا تكفى وحدها لتوطيد مركز الدولة المالي ولهذا انصرف اهتمامه الى الغاء الامتيازات المالية وهى المسألة الوحيدة التى يمكن بها تنظيم الميزانية من جديد . واعطيت التعليمات لجاويد بك بالسعي لهذا الغرض .

وانتقل شوكت باشا بعـــد ذلك الى تسوية بعض مسائل كانت سبباً فى اختلاف الرأي بيننا وبين حكومات اجنبية معينة واخص بالذكر حكومتى روسيا وانجلترا .

ومن اهم تلك المسائل فى ذلك الحين مسألة الحدود الايرانية وهى مسألة قصدت انجلترا وروسيا أن تؤولاها تأويلا غريباً . فاهتم الباشا شخصياً يبحث المسألة بحذافيرها وطلب الى الحكومتين ان تحذوا حذو تركيا فتعينا لجنتين لتقرير الحدود وترسلاهما الى مكان النزاع .

ثم التفت الى مسألة تنظيم الجيش والاسطول . وكان لدينا فعلا بعثة بحرية انجليزية فاتصل شخصياً برئيسها وطلب اليه التعجيل باعادة تنظيم الاسطول ومن حيث تنظيم الجيش فانى اقص هنا الحقائق والتفصيلات كما بسطها امامى شوكت باشا شخصياً .

فلقد اعتاد الباشا فى أبان وزارته أن يقضى الليل بأسره بل وينام فى الباب العالي . ولما كنت انا أيضاً اقضى الليل فى دار الحاكم العسكري كان يخاطبنى تليفونياً بين آن وآخر فى المساء واحياناً كنت اذهب اليه متى فرغ من اعماله المتعبة طول اليوم . وفى غضون تلك الزيارات كان يدلي إلي بافكاره وخططه ويستطلع رأيى .

وفى ذات ليلة قال : (انى اظن ان كل ما عملناه حتى الآن لاعادة تنظيم الجيش لم يكن سوى مجرد ترقيع . وما كان اختيارنا لمن جئنا بهم لاصلاح الجيش سواء فى العهد الحميدى أو فى عهد الدستور الا اختياراً عرضياً لا على أساس معين . فلم نفكر مطلقاً فى استحضار بعثة جدية ذات برنامج حكيم كاف واف وان ينتخب اعضاؤه بنسبة مقدرتهم على تنفيذ ذلك البرنامج .

انظر الى اليونانيين مثلا : لقد كانوا أمهر منا عندما عهدوا للانجليز بتنظيم اسطولهم وللفرنسيين بتنظيم جيشهم كما ان فنزيلوس احتفظ لنفسه بوزارتى الحربية والبحرية . وقد أباد بلا رحمة كل من جرأ على اقامة أى عقبة فى سبيل البعثتين كما انه لم يأبه مطلقاً بانتقادات خصومه السياسيين وهو دائم الاتصال برئيس البعثتين ليصدع بكل ما يطلبان . فكانت نتيجة ذلك وجود

الجيش اليوناني الذي عرفنا كيف نحترمه فى غضون الحرب البلقانية والاسطول الذي لا يمكن أن يقاس به الاسطول الذي كان لليونان فى خلال الحرب التركية اليونانية .

وعندى أن اجل خدمة قدمها فنزيلوس لوطنه هى تنظيم القوات المسلحة ومواجهة السياسة بحجة دامغة . بل بالحجة البالغة الوحيــدة لتحقيق الامانى الوطنية وانى اريد أن اقوم لبلادي بمثل هذه الخدمة . فلدينا الآن فعلا بعثة بحرية انجليزية وسأسعى للاتصال برئيسها فاسأله عما يطلب لضمان نجاح بعثته وانفذه فى الحال .

(أما من حيث الجيش فلا ينبغي أن نتردد الآن فى انتهاج الاساليب الالمانية فمنذ اكثر من ثلاثين عاماً يعلم المعلمون الالمانيون جيشنا كما ان جميع ضباطنا تدربوا على القواعد الالمانية ولجيشنا دراية تامة بروح التدريب والتربية العسكرية . فمن المستحيل تغيير ذلك كله الآن . وعلى ذلك قد اعتزمت استحضار بعثة عسكرية المانية ذات سلطة واسعة واذا احتاج الامر عينت قائداً المانياً بقيادة أحد الفيالق التركية واولي الاعضاء الالمان وضباط الكتائب قيادة كل وحدة فى ذلك الفيلق وبهذه الوسيلة انشىء فيلقاً يكون بمثابة انموذج للفيالق الاخرى وعلى اعضاء وضباط كتائب الفيالق الاخرى أن يلتحقوا بهذا الفيلق المخصص لمدة معينة لاتمام تدريبهم وزيادة تمرينهم . وسأطلب أن يصحب هذه البعثة اخصائيون فنيون لتنظيم كل فروع وزارة البحرية وهيئة اركان الحرب والمدارس الحربية والمصانع . ولما كنت اعتقد ان ليس ثمة احتمال لاشتباكنا فى الحرب قبل مضى زمن طويل عزمت على تخفيض الجيش بقدر المستطاع الى العدد اللازم فى زمن السلم وبذلك نستطيع الاقتصاد الذى يمكننى أن اهدى العالم التركى بجيش سيكون بالطبع قليل العدد ولكنه من جهة اخرى سيكون على اتم نظام وتدريب . ومتى اندلعت السنة الحرب فليس من الصعب مضاعفة

عدد ذلك الجيش . وانى الآن استطلع رأي الالمان فى الشروط التى يطلبونها لارسال مثل هذه البعثة وأرى الاليق ترك تحديد الشروط لهم) .

تلك هى حقيقة الظروف التى دعيت بموجبها بعثة القائد ليمان فون سندرس للحضور الى الاستانة للقيام بمهمة تنظيم جيشنا . فليس لانور باشا يد ما أو علاقة مطلقاً بها .

وبعد انتقال شوكت باشا الى دار البقاء كان عزت باشا خلفه فى وزارة الحربية متشبعاً بهذه الفكرة نفسها فحذا حذو سلفه فى ابان وجوده بالوزارة وطلب الاتفاق الخاص بالبعثة وصدق عليه . وفى يوم وصول الجنرال ساندرس وبعثته الى الاستانة كان عزت باشا ينتظرهم فى المحطة والحقيقة ان انور لم يتقلد منصب وزارة الحربية إلا بعد وصول البعثة بستة اسابيع .

وكان انور باشا اول من اشار الى الصعوبات الواجب التغلب عليها اذا اريد أن يعهد الى الفون ساندرس باشا بقيادة الفيلق الاول . فانه استحسن جعل رئيس البعثة مفتشاً عاماً بدلا من جعله قائداً لاحد الفيالق . وقد حدث ذلك التغيير بناء على اقتراح انور باشا وحده لا طوعاً للضغط الفرنسى الروسى الانجليزى كما ذاع وقتئذ .

وكنت يوم وصول البعثة الى الاستانة قائداً للفيلق الاول وبهذه الصفة كانت بيدى السلطة العسكرية العليا فى حالة الحصار . فبعد يومين طلب إلي تسليم القيادة الى فون ساندرس ونظراً لاستحالة جعل قائد المانى حاكما اثناء حالة الحصار لجأنا الى وسيلة اخرى . وهى ان فائق باشا كان وقتئذ حاكما فتقرر تعيينه حاكما للقلعة وتخويله سلطة قائد فرقة والاشراف على حالة الحصار . وعينت موقتاً لاسباب سأشرحها فيما بعد وزيراً للنافعة . وقد صدر الامر الشاهانى بهذا التعيين فى اليوم التالي لوصول البعثة . وفى اليوم التالي ذهبت الى مركز قيادة الفيلق الاول وسلمتها رسمياً للجنرال فون ساندرس .

واحسب ان هذه التفاصيل تقضى على افتراءات السفير مورجينتاه وفى صحيفتى ٤٤ و ٤٥ من مذكراته القائمة على معلومات غير صحيحة .

وكأنما كان وصول البعثة طليعة للحملات العنيفة التى حملتها علينا روسيا وفرنسا وانجلترا . أما الحجة التى جعلتها روسية فى مقدمة اسباب احتجاجها فكانت تتلخص فى انه (اذا عهد لضباط المانيين بقيادة الجنود المعينة للاحتفاظ بالبواغيز فمن المحتمل أن يزاد تحصينها وان مثل ذلك العمل الناشىء عن مجرد الارتياب والمقصود به روسيا بصفة خاصة معناه عزو أغراض غامضة الى تلك الدولة) .

وحذا الانجليز والفرنسيون حذو الروس . واحتج السفير الفرنسى وزميله الانجليزى بحجة السفير الروسى واندفعت صحافة البلدين لخدمة الصحف الروسية . وبهذه المناسبة اسأل خصومنا السياسيين هذا السؤال وهو (ابمثل هذه الوسائل نظهر انجلترا وفرنسا نياتهما الحسنة نحونا وهى النيات التى طالما طنطنوا بها صباح مساء) .

لقد اردنا تنظيم جيشنا فطلبنا الى المانيا أن تقوم بهـــذه المهمة . اننا وضعنا الخطة لادخال وتحقيق ذلك المشروع . وقد حضرت البعثة العسكرية الالمانية الى الاستانة وكانت النتيجة زيادة موارد الجيش الدفاعية وخصوصاً فى البواغيز . على انه كان من المتوقع ان تعارض روسيا فى المشروع لانها تعتبر نفسها الوارثة الطبيعية للاستانة وكانت تعتقد أنها ستشتبك يوماً ما مع تركيا فى تطاحن مروع على مقربة من الاستانة . فهل كان عملها ذلك الذى يعتبر تدخلا فى الشؤون الداخلية ـ لدولة مجاورة ـ ممكناً بدون موافقة انجلترا وفرنسه ؟ كلا ! أفلا يحق لنا أن نعتقـــد ـ خصوصاً لو تذكرنا ان العويل الافرنسى الانجليزى فاق العويل الروسى ـ ان الاتفاق الثلاثى كان وقتئذ اعتزم اعطاء روسيا الاستانة ؟ يا الله ! وانى لاحس بقشعريرة كلما تذكرت تلك

الايام . ولا استطيع أن اصف المشاق التى قاسيتها فى المناقشات العديدة التى دارت بيني وبين فوركور الملحق العسكرى الفرنسى وبومبار السفير الفرنسى وبوب مستشار السفارة والقائد باومان مفتش الجندرمة والماجور ساروا. فقد ختمت المناقشة معهم ذات يوم بالعبارات الآتية :

(تأملوا ايها السادة كيف ان انتقاداتكم غير معقولة ! انه لاحاجة بكم لأن تدعوا انكم تعترضون هذه الاعتراضات دون معرفة حقيقة الحال . انكم تعلمون كما نعلم ان لنا الحق فى دعوة البعثة العسكرية الالمانية . اما كون الضباط الالمان اكفاء أو غير اكفاء لتنظيم جيش من الجيوش فهي مسألة جدلية لا علاقة لها بموضوعنا الحاضر لاننا نعتقد اعتقاداً جازماً فى كفاءتهم ولهذا وقع اختيارنا عليهم . ولكل دولة من الدول ثلاث قوات مسلحة وهى الجيش والاسطول والشرطة . وقد عهدنا للالمان بتنظيم الاولى وللانجليز بالثانية وللفرنسيين بالثالثة . اذن فلم النزاع ؟ أتريدون ان نعهد للروس بتنظيم جيشنا؟ انى اسألكم ان تنعموا النظر فيما يقوله الروس . انهم يقولون : (لو تولى الضباط الالمان قيادة الفيلق الاول لزادت تحصينات البواغيز زيادة كبرى) ومعنى ذلك هو اننا لو طلبنا الى انجلترا أو الى فرنسا اعطاءنا بعثة كهذه وعلى نفس الشروط فمن المحتم أن يعترض الروس الاعتراض نفسه لانى لا يمكننى أن اعتقد أن الضباط الانجليز أو الفرنسيين لو تولوا قيادة الفيلق الاول يفتحون البواغيز عمداً امام الجيش الروسى اذا اقتضى الحال لعمري ان احتجاجاتكم هذه تبعث فى نفوسنا الارتياب فى حسن نياتكم نحونا !) .

ولما لم يكن فى وسع اولئك السادة المجادلة فى هذه الحقيقة ولم يستطيعوا الجواب اعترفوا ضمناً بخطئهم بأن قالوا : (اذن فماذا تنتظر ؟) تذكر اننا قبل كل شيء حلفاء روسيا فيتعين علينا تأييد مطالبها ! ومن جهة اخرى فالالمان أعداء لنا فيتعين علينا ايضاً أن نتخوف من كل ما يعملونه بل مع

افتراض عدم وجود الخطر فان واجبنا الوطني يحتم علينا مقاومة الالمان في كل ما يدعونه لانفسهم !)

(تعييني وزيراً للنافعة)

(من منتصف كانون اول سنة ١٩١٣ — الى شباط سنة ١٩١٤)

(استلام الاعمال)

اتبعت وزارة الامير سعيد حليم باشا برنامج وزارة شوكت باشا بحذافيره أي انها قررت اجتناب الارتباكات الخارجية بقدر المستطاع وتوجيه كل موارد البلاد للاصلاحات الداخلية . ولكن لم يكن معنى ذلك ان الامير ترك فرصة استرداد أدرنة تمر دون انتهازها . كما انه نجح في عقد معاهدة الاستانة مع بلغاريا ومعاهدة اثينا مع اليونان وفيما بعد معاهدة الاستانة الثانيــة مع الصرب التي اصبحت اكثر دول البلقان طمعاً .

ولكيما تضمن الوزارة نجاح الاصلاحات الداخلية تعين عليها أن تضع حداً للمسائل التي ثار ثائرها بين آن وآخر نظراً للخلاف بين الاجناس مما هيأ لدول البلقان الصغيرة فرصة الاحتجاج الشديد .

أما فيما يختص بالبلغاريين فبعــد ضياع مقدونيا لم يبق للامبراطورية العثمانية سوى بضع قرى مبعثرة على خط الخطوط الشمالي لسنجق قره كليسة في ولاية أدرنة . وفي هذا الوقت بقي عدد من الاتراك موزعين في بضع جهات معينة من الاراضي البلغارية بالقرب من الحدود التركية . وقد اضيف الى معاهدة الاستانة ملحق معاهدة سرية وقعت عليه بلغاريا نصت على وجوب تنقل البلغاريين المقيمين في الاراضي التركية الى بلغاريا ونقل الاتراك الذين

فى بلغاريا الى تركيا وقد تم ذلك التبادل بشكل ارضى الطرفين .

وكان اهم ما شغل بالنا فى المسائل الخاصة بالجنسيات المشكلة التى اعترضتنا من جراء وجود عدد كبير من العناصر اليونانية موزعة على طول شاطيء ولاية آيدين فلم يكن ثمة ريب فى ان اليونانيين بعد انتصاراتهم السهلة فى الحرب البلقانية واحتلالهم مقدونيا لغاية دراما من جهة واستيلائهم على الجزر الواقعة بالقرب من ساحل آسيا الصغرى (مدهللى وصاقس وليمنوس) من جهة اخرى سيوجهون مجهوداتهم الى بسط نفوذهم على ولاية آيدين . فمنعاً لوقوع مشاكل داخلية اذا اشتبكنا مع اليونان فى حرب عاجلة أو آجلة (وهو امر لا مفر منه ما لم تحل مشكلة الجزر) فقد اقترحنا على الحكومة اليونانية استبدال هؤلاء الرعايا بالرعايا المسلمين الذين تخلفوا فى مقدونيا اليونانية وارادوا الهجرة الى تركيا . ولم يكن فنزيلوس ميالا لهذا الاقتراح لانه كان بمثابة تخفيف لحدة المطامع السيئة التى كان يخفيها عنا .

ثم اخذت العواطف الوطنيـــة تقوى بين القبائل التركية وبدأنا نحس النتائج وخصوصاً فى ولاية آيدين حيث شرع مئات الالوف من مهاجري المسلمين الذين ذاقوا الامرين من مظالم الصربيين والبلغاريين واليونانيين ففروا الى الامبراطورية العثمانية فى الاصطدام باليونانيين المقيمين فى تلك الجهة .

فاستنكرت الحكومة اعمالهم نظراً للمصاعب التى لابد أن تنشأ عنها فان الدول الاوربية التى اعتادت التمشدق بالعواطف الانسانية متى كان التدخل ضد تركيا ظللن صامتات حيال فظائع اليونانيين والصربيين والبلغاريين الذين ذبحوا بطرق وحشية ما ينيف على خمسمائة الف من الاتراك معظمهم من النساء والعجزة والاطفال . ولما نشرت لجنة التحقيق المسماة بلجنة كارينجي تقريرها الخاص عن هذه الفظائع لم تكن ثمـــة بين صحف اوربا واميريكا بأسرها صحيفة واحدة ـ اللهم إلا بضع صحف اشتراكية ـ فاهت بكلمة عطف واحدة

عن اولئك المسلمين البائسين الذين قتلوا كالذباب .

وقد اتخذ السفير الامريكي مورغنتاو المذابح الارمنية التي وقعت في خلال الحرب العالمية سبباً لصب اللعنات والمثالب على رؤوس الاتراك مما نترفع عن نقله هنا . وينم كل سطر في مذكراته على ما في صدره من الحقد والعداوة لتركيا . وما كان اجدره بتعيين لجنة للتحقيق في مذابح مقدونيا ثم يعيد تلاوة مذكراته ليرى اكان باستطاعته تبرير اتهاماته ؟

فلما فر الوف المسلمين بعد الذي قاسوه من الظلم والجور الى وطنهم ولم يجدوا مأوى يقيهم زمهرير الشتاء بل على العكس وجدوا أنفسهم كل يوم معرضين لاهانات اولئك الذين كانوا سبباً في شقائهم لم يملكوا انفسهم ولم يستطيعوا ضبط عواطفهم فثارت فيهم عوامل الانتقام وحملوا على متون الشطط الى حد ما . ولم تفت اليونانيين فرصة استخدام هذه الحوادث الى اقصى حد ممكن فانهم - ما لبثوا أن طنطنوا بها وملأوا العالم صياحاً وادعوا أن الاتراك يهددونهم ولاذ بعضهم بالجبال . وقد اشعل بعضهم النار في عدد من القرى الاسلامية وذبح عدداً كبيراً من المهاجرين مما اثار ثائر الحقد في صدور المسلمين وهنا بدأ فنزيلوس ينعق نعيقه الممقوت الذي دوى في انحاء العالم فتخرص المتخرصون وقالوا : (ان الاتراك يذبحون اليونانيين في ولاية آيدين برضاء الحكومة ومساعدتها) .

ولحسن الحظ أخ طلعت بك الذي كان اسرع من فنزلوس على سفراء انجلترا وفرنسا والمانيا والنمسا أن يرسلوا تراجمتهم لاجراء تحقيق مشترك في مكان النزاع . فقررت هذه اللجنة الحقائق التي لا يسع المستر مورغنتاو إلا الاعتراف بصحتها مهما كلفه ذلك . ومعنى هذا انها أقامت البرهان على ان الاهالي لم يمسهم أذى وان المهاجرين البائسين الذين اتهموا بارتكاب الجرائم هنا وهناك قد عاقبتهم الحكومة العثمانية عقاباً صارماً .

واشترط فنزيلوس ان يأخذ المهاجرون امتعتهم ويستبدلوا ما لا يمكن نقله ولكنه قبل فى النهاية رأى طلعت بك ووافق على الشروع فى المفاوضات على قاعدة ارسال الرعايا اليونانيين من سكان ساحل ولاية آيدين الى اليونان والسماح لمسلمي مقدونيا بالاقامة فيها اذا ارادوا .

وبعد أن وجدنا قاعدة للاتفاق مع الصرب كما بينت آنفاً اعتزمنا تسوية اكثر مشاكلنا الداخلية تعقداً ألا وهى المشكلة الارمنية .

وقد رأيت ان افرد باباً خاصاً فيما بعد لهذه المسألة المعقدة .

(العلاقات الاقتصادية)

(مع فرنسا وانجلترا)

حينما كان شوكت باشا صدراً أعظم ذهب حقى باشا الصدر الاعظم الاسبق الى لوندرا لتسوية عدة مسائل تختص بخليج البصرة والمناطق السبع المختلف عليها بين اليمن وعدن وفى الوقت نفسه ذهب جاويد بك الى باريس وكان الغرض من بعثته :

أولا — السعي لعقد قرض كبير .

ثانياً — الغاء الامتيازات المالية .

أما فيما يختص بالقرض فقد اشترطت فرنسا شروطاً لم يكن فى استطاعتنا قبولها بحال من الاحوال . وانى اذكر بعضاً منها :

أولا — لا تنشىء ادارة السكة الحديدية الحجازية خطوطاً جديدة فى سورية أو فلسطين .

ثانياً — تقف ادارة السكة الحجازية فى الحال انشاء الفرع من افوليح عن طريق جنائن نابلس الى القدس - (مع انه كان قد انشىء بالفعل) وهو الفرع التابع لخط حيفا درعا والذى وصل الى سيباستيه .

ثالثاً — تمنح فرنسا امتياز سكة حديد عريضة من أفوليح الى نقطة على خط - يافا - القدس لم تعين بعد .

رابعاً — تمنح فرنسا أيضاً امتياز سكة حديد عريضة يكون أحد طرفيها محطة رياق على خط دمشق - حماه - والطرف الثاني محطة افوليح ويمر الخط بشواطيء بحيرتي الحوله وطبرية .

خامساً — ليس للحكومة العثمانية أي حق في أن تقبل على خط حيفا درعا أجوراً قد تزاحم الاجور على خط بيروت - دمشق - حوران . وعلى الحكومة العثمانية أن تعطي شركة سكة حديد دمشق - حماه عوضاً عن خط دمشق - حماه .

سادساً — يبقى امتياز انشاء أي خط شرقي دمشق - المدينة - ورياق - حلب لفرنسا وحدها .

سابعاً — يبقى امتياز توسيع اوانيء السورية وهي يافا وحيفا وطرابلس للرأسماليين الفرنسيين وحدهم .

ثامناً — يجب على الحكومة العثمانية أن تشتري ثانياً حق تشغيل سكة حديد اليمن وان تدفع تعويضاً للشركة .

تاسعاً — تمنح فرنسا امتياز سكة حديد صامسون - سيواس .

عاشراً — تعفى من كافة الضرائب جميع المباني والممتلكات والضياع بكافة انواعها التابعة لمدارس الاديرة الفرنسية العديدة .

أحد عشر — يشترى بالربح المستحق على القرض السلاح اللازم للجيش من فرنسا وحدها .

على هذه الشروط وغيرها أرادت فرنسا أن تقرضنا بضعة ملايين من

الفرنكات بسعر (٩) بالمائة تدفع على قسطين .

وأما من حيث الغاء الامتيازات المالية فان فرنسا رفضت بتاتاً أن تتناقش في الامر . واشترطت أن تمنحها عدة امتيازات اخرى ثمناً لسماحها لنا بزيادة الضريبة من (١١) بالمائة الى (١٤) بالمائة على امتياز الكحول والكبريت وورق السيجاير وزيادة الاتاوة التي يدفعها التجار الاجانب والسماح بادخال تعريفة خاصة بالمدينة .

ولم تتقدم المفاوضات إلا بشق الانفس حتى اوشك جاويد بك أن يقطع الامل نظراً لبطء حكومة الاستانة في ارسال الرد وأيضاً للعقبات التي كانت فرنسا تضعها في طريقه .

وكان بين الوزراء وقتئذ عثمان نظامي باشا وزير النافعة . ومع ان معظم هذه المسائل كانت تتعلق بوزارته فقد كان من عادته الاكتفاء بتحويل كل مسألة منها على المصلحة المختصة وارسال رأي المصالح المختلفة من الوجهة القانونية والنفعية فيما بعد الى الباب العالي . ولما كانت حالة البلاد العامة تتطلب الانجاز والسرعة لم تؤد الطرق البيروقراطية التي اتبعها نظامي باشا إلا الى سخط الحكومة والحزب عليه وبما أن الحزب قرر قبول برنامج جمعية الاتحاد والترقي باسرع ما يمكن صحت عزيمته على أن تتخلص الحكومة من ذلك الرجل الذي لا اشياع له في الحزب والذي عارض في استرداد أدرنة مما دل على قصر نظره .

ومنذ تعييني حاكما عسكريا للاستانة لم اضع الفرصة في التقريب بين الفرنسيين والاتراك . ونظراً للملاقات الحبية التي تمكنت بيني وبين السفارة الفرنسية بل بين رجال الجالية الفرنسية بوجه عام اقتنع اخواني بأني لو عهد

إلي يبحث مسائل الاشغال العمومية وتسويتها لارتاح الفرنسيون جداً لارتياح فألحوا بشدة فى قبولي منصب وزارة النافعة .

فلبيت طلبهم لعلمي اني سأسلم قيادة الفيلق الاول الى القائد فون ساندرس ولتأكدي اني بدخولي الوزارة استطيع خدمة بلادي خدمة عظمى

ونظراً لاهمال نظامي باشا في تسوية المسألة الفرنسية بالسرعة المطلوبة ولعدم استطاعة الحكومة الانتظار الى اجل غير مسمى اقترح عليه البعض أن يعتزل العمل ويقدم استقالته . فوافق في الحال وعينت موقتاً فى مكانه .

ولم يمض غير شهر على استقالته حتى عينت نهائياً لوزارة النافعة .

فكان اول ما عملته أن سويت فى وقت قصير جداً جميع المسائل المعروضة على الوزارة لاستطلاع رأيها وهي المسائل التي عدتها فرنسا شرطاً اساسياً للقرض . وفي الحال عرضت الوزارة على الصدر الاعظم تسوية لا تستطيع فرنسا نفسها رفضها . فتكللت بفضل تلك التسوية مساعي جاويد بك بالنجاح في النهاية وتم عقد القرض .

(سكك حديد اضاليا)

في عهد وجودي في وزارة النافعة قامت عدة مصاعب بيني وبين السفارة الايطالية حول سكك حديد اضاليا . ويذكر القارىء ان ايطاليا كانت محتلة بعض جزرنا منذ الحرب الطرابلسية رودوس واستانكوج وغيرهما وانها تعهدت بردها للحكومة العثمانية فلما اشتعلت الحرب البلقانية نسيت ايطاليا ان تجلو عن الجزر وتذرعت بحجة منع اليونان من احتلالها . فلما ختمت معاهدة لوندرا الاولى الحرب البلقانية وطالبنا بعودة الجزر راوغت ايطاليا وأبدت

حججاً ومعاذير جديدة . فتلا ادعت ان الشريف السيد أحمد السنوسي مازال متمرداً وبما أن الضباط الاتراك ما زالوا في خدمته فانتا لم نوف عهودنا لها فاقمنا لها البرهان على بطلان دعواها وعلى ان طرابلس ليس فيها جندي تركي واحد وان الحكومة العثمانية لا تقدم مساعدة ما للسيد السنوسي . فاحالت ايطاليا الامر على الرأي العام فى بلادها وادعت انهـا لو ردت تلك الجزر لتركية بدون مقابل لكان لعملها ذلك اسوأ اثر .

فغضبنا لتلك المراوغة ثم تجـدد النزاع ابان وجودي في وزارة النافعة فحضر الي في ذات يوم الماركيز غاروني سفير ايطاليا واخبرني بأن حاجيان افندي احد الرعايا الاتراك وبعض اشخاص آخرين يعملون باسم فريق من الرأسماليين الايطاليين اعتزموا أن يطلبوا إلي أن امنحهم امتياز سكة حديد في شمالي أضاليا ومن مقري الى موغلا وقـد رجاني أن تسمح الحـكومة بالبدء باعمال المساحة الاولية للسكة المذكورة ونقوم بحماية المهندسين والعمال فاجبته بحدة ان الحـكومة لا تفكر فى الوقت الحاضر فى انشاء سكك حديدية فى شمالي اضاليا أو بين مقري وموغلا .

فاثار ذلك الجواب المسكت دهشة السياسي الحاذق فقال : (ان مسح الارض لا يعني انشاء سكة حديدية ولا نريد سوى التأكد مما اذا كان من المستطاع انشاء مثل تلك السكة . فاذا كانت النتيجة مرضية امكن الحـكومة العثمانية أن تبت في الامر فيما بعد . على أن بأيدينا تعهداً كتابياً من الحـكومة يخول للايطاليين حق مسح الاراضي . اما رفض وزارة النافعة فمن الغرابة بمكان)

فلما اجبت السفير بأن ليس ثمة مثل ذلك التعهد في سجلات الوزارة اطلعني على ورقة فيها توقيع وزير الخارجية سعيد حليم باشا ولما لم تكن لتلك

الوثيقة أية قيمة رسمية اخبرت السفير بأننا نرفض بتاتاً .

وهنا قال : (لا أظنك يا عزيزي جمال باشا مصيباً فى اجابتى بهذه الصفة فى تلك المشكلة المعقدة وفى الوقت الذي ابذل فيه كل جهد لنعيد اليكم الجزر التى احتلتها ايطالية . انك تعلم مبلغ اهتمام الجمهور فى ايطاليا لمسألة سكة حديد اضاليا . فلو اعلنا فى صحفنا ان المهندسين الايطاليين شرعوا يمسحون الارض لكف الرأي العام عن اقامة المصاعب فى وجه الحكومة بخصوص الجزر نظراً لحصول الحكومة على مزايا مادية فى مقابل التضحية التى تقتضيهـا اعادة الدوديكانيز . وبهذه الطريقة تصبح الجزر فى ايديكم مرة اخرى) .

فازددت غضباً وقلت : (انك تنسى ايها السفير ان الرجل الذي يعيد لآخر ملكا كان يديره ليس محقاً فى أن يطلب تعويضاً عن ذلك . ان على الحكومة الايطالية أن تعيد الينا تلك الجزر تنفيذاً لعهودها . ولست أدري كيف يسخط شعب على حكومة أو يقيم فى وجهها المصاعب اذا هى اخذت تنفذ عهوداً قطعتها باسمه . فليت شعري ماذا يظن الرأي العام التركى فى وزارتنا اذا رأى ان تركيا التعسة هذه التى كانت ضحية هجمات لا عـدد لها فى خلال السنين الاربعة الماضية والتى جردت من ٩٩ فى المـائة من املاكها الاوربية وسائر املاكها فى افريقيا أصبح يتعين عليها أن تعطي عوضاً مقابل استرداد جزر خولتها لها المعاهدة ؟

انى وزير النافعة ومن الواجب علي أن أحصل لوطنى الاعمال التى يعتبر تنفيذها لازماً لرفاهيته بطريقة تقتضيها الحاجة . أما فيما يختص بالمشروعات التى من قبيل العوض السياسى فليست من اختصاص وزارتى و يجب البحث فيها مع وزير الخارجية أو الصدر الاعظم . و بما أن رأيينا مختلفان فى هذا الامر فانى آسف لعدم امكانى اعطاءك الجواب الذى تريده) .

وقد ابلغت هذه المحادثة فيما بعد لسعيد حليم باشا وانور باشا وزير الحربية

وطلعت باشا وزير الداخلية . فاقروني على ما فعلت . وفى اليوم التالي جاء إلي نفر من الصحفيين الذين سمعوا بما جرى طالبين محادثتي فارسلت فى طلب يونس نادي محرر صحيفة تصوير افكار وحادثته .

وقد قوبلت المقالة الحاسمة التي ظهرت وقتئذ تحت عنوان (لا تعويضات ولا امتيازات) بالارتياح والسرور التـــام فى كل الدوائر واقبل اصحابى لتهنئتي على هذه التصريحات الجلية . وفى اليوم الذي نشرت فيه المقالة الآنفة الذكر طلب المركيز غاروني الذي قام لها وقعد مقابلة الصدر الاعظم . فشكا مر الشكوى من سلوكى معه وقال : ان تأثير المقالة فى ايطاليا سيكون سيئاً .

واجتمع مجلس الوزراء فى ذلك اليوم . وعند دخولي على الصدر الاعظم لمحت علامات القلق على وجهه . وكان طلعت باشا حاضراً . فاستقبلني سعيد باشا وخاطبني بلهجة الآمر قائلا : (اذن انت يا باشا كنت تحادث الصحفيين بصدد سكة حديد اضاليا .

فقلت : (نعم ! ولم لا ؟ فهل قلت شيئاً لا يتفق والواقع ؟) .

(كلا ! ولكني لا أظن انك محق فيما فعلت) .

(هل تسمح لي دولتكم ان اقول ان ذلك خطأ . ان الوزير له الحق أن يصدر بياناً للصحف متى استصوب ذلك فى أي مسألة تتعلق بمصلحته خصوصاً اذا كانت لا تمس اسرار الدولة أو تعرض سياسة الحكومة العامة للخطر . ان السؤال الذي سألنيه المحرر هو هذا : هل ازمعت الحكومة اعطاء ايطاليا تعويضاً فى شكل امتياز لانشاء سكة حديد اضاليا لاسترداد جزر بحر ايجه ؟) فقلت (كلا !) أفليس جوابى حقا ؟ هل للحكومة التي برئاسة دولتكم رأي غير هذا؟ كلا على ما اعلم . فاذا كان كذلك فالسفير على غير حق فى شكواه) .

فلم يحر الامير جواباً . ولا اظنه غفر لي تصريحي هـــذا للصحفيين الذين يضايقونه .

وبعد هذا الحادث بأيام قليلة حضر الى دار الوزارة السفير الانجليزي السير لويس ماليت وقال انه وصل الى علمه ان الحكومة العثمانية توشك أن تمنح ايطاليا امتياز سكة حديد اضاليا وان مثل ذلك العمل يعتبر تهجما على حقوق شركة سكة حديد آيدين الانجليزية .

فامرت بالتحرى عن ذلك . فتحققت أن الشركة الانجليزية اعطيت ـ فضلا عن الترخيص لها فى مد خطوطها الى بوردور وسبارطا وتسيير بواخرها فى بحيرة بيشير ـ وعداً صريحاً رسمياً بألا ينشأ خط آخر الى البحر المتوسط فى فى داخل دائرة معينـــة فى جنوبى تلك المنطقة وبذلك تضمن الربح الوافر بلا مزاحم .

فلما عرضت الامر على سعيد حليم باشا أعرب لي عن سروره لانى لم امنح ايطاليا شيئاً .

وفى النهاية وجدت وسيلة اخرى للتفاهم مع السفير الايطالي اذ اخبرته برغبتى فى ارسال لجنة فنية رسمية من مهندسى السكك الحديدية للتثبت نهائياً مما اذا كان من المستطاع انشاء خطوط حديدية من اضاليا ومقرى الى داخل البلاد فتظاهر السفير بالارتياح لذلك الاقتراح مع ان الحقيقة كانت على العكس من ذلك

وثم مسألة اخرى سويتها خلال وجودي بوزارة النافعة وهى وضع حد للخلاف الذي ثار ثائره بين شركة انشاء الشوارع ولجنة الوزارة الفنية . فبدلا من العمل بحزم لتسوية المشكلة حصر كل من الفريقين همه فى دحض حجج الفريق الآخر بتعنت اثار الارتياب بحجة أن المجلس البحرى لابد أن يفحصها أولا .

أما الحكومة فكانت على يقين بأن الحرب مع اليونان لا مفر منها فى القريب العاجل وان الفراغ من تنظيم الاسطول وتدريبه بمنتهى السرعة أمر من الاهمية بمكان لأن السرعة فى تنظيم الاسطول كانت الزم منها فى الجيش .

ولهذا السبب اقترح الصدر الاعظم وانور باشا وطلعت باشا ان ابادل شوروكسولو محمود باشا فقبل الباشا واصبحت وزيراً للبحرية .

(تنظيم وزارة البحرية وفروعها)

فكانت باكورة اعمالي فى تلك الوزارة مقابلة امير البحر لمبس رئيس البعثة البحرية الانجليزية مقابلة طويلة . فسألته اعطائى بياناً بالاقتراحات التى عرضها منذ تعيينه في تلك الوظيفة مع ايضاح ايها اكثر اهمية . ثم كلفت مدير دار الدفاتر أن يجمع سائر التقارير الخاصة بتنظيم الاسطول التى وضعها امراء البحار لمبس وويليامز وجامبل الموجودة فى المجلس البحري والاقسام الاخرى وشرعت فى فحصها بنفسى . أما اقتراح لمبس الرئيسى فكان متعلقاً بضرورة اصلاح فروع وزارة البحرية فوجدتنى متفقاً معه فى هذه النقطة . وقد شكا لمبس كما شكا اميرا البحر اللذان تقدماه من المجلس البحرى . واتفقت آراؤهم على أن رؤساء المصالح باحجامهم عن تحمل المسؤولية عن الشؤون المهمة التى تختص بمصالحهم يحيلونها على المجلس البحرى الذى قد تمر شهور عديدة دون أن ينعقد حتى اذا انعقد بالفعل ازعجه تكدس الوثائق المطلوب اليه بحثها فيقنع بفحص بعضها ثم يتأجل ثانية تاركا اكثرها اهميــــة فى صندوق الوثائق . وبهذه الطريقة تنحى رؤساء المصالح عن مسؤوليتهم .

فصممت على الغاء المجلس البحرى فى الحال .

وكان أشد ما شكا منه لمبس ادارة وكيل البحرية . وفى الواقع فان أمير البحر الانجليزى كان يعتبر رستم باشا وكيل البحرية أشد اعداء اصلاح الاسطول العثمانى عتواً وصلابة .

وقد اخبرنى انه طالما نجح فى ضم بعض رؤوساء الادارات الى رأيه فى أمر من الامور ثم لا يلبثون أن يعودوا بعد مقابلة رستم باشا بنتائج تتعارض

مع ما اتفقوا عليه قائلين :

انهم لا يستطيعون ابرام امر يخالف رأى رئيسهم . وقد اعرب لمبس عن سخطه الشديد على القسم الرابع ومديرى الحساب والمراجعة . فليس ثمة أمل فى عمل شيء فى وزارة البحرية قبل أن تنظم تنظيما تاماً هذه المصالح التى تتشبث تشبثاً اعمى بالوسائل البيروقراطية العتيقة .

ثم شرعت بعد هذا التحقيق الشفوى فى دراسة المشروع الوافى الذى رفعه لمبس وجامبل لاصلاح الوزارة . وبناء على الاقتراحات التى تضمنها المشروع مضافا اليها اقتراحاتى الشخصية بدأت باعــداد قواعد الاصلاح . فقررت الغاء المجلس البحرى ووكالة البحرية . كما قررت تقسيم الوزارة الى اربعة اقسام مضافا اليها قلم المفتش الطبي وقلم الحسابات . ويلقب رئيس القسم الاول بلقب رئيس هيئة اركان البحر . ويسوى كل من رؤساء الاقسام المسائل الخاصة بقسمه ويعرض على مسؤوليته الخاصة قراراته على الوزير للموافقة عليها . وفى المسائل التى قد يكون لها ارتباط باكثر من قسم واحد ولو انها تختص بادىء ذى بدء بقسم معين - يتعين على رئيس القسم تسويتها بالاشتراك مع رؤساء الاقسام الاخرى . وعلى رؤساء الاقسام أن يعلموا رئيس هيئة اركان البحر بكل المسائل الخاصة باقسامهم .

اما رئيس هيئة اركان البحر فمسؤول عن اصلاح الاسطول وجعله متأهباً للحرب وتعليم وتدريب هيئة الضباط بل باستخراج معدات الحرب وادارتها وله حق الوقوف على المعلومات اللازمة الشفوية أو التحريرية الصادرة من السلطات المختصة وان يعلمهم بآراء هيئة اركان البحر .

وبعد أن تم مشروع الاصلاح رأيت اصداره فى قالب قانون موقت . وفى النهاية تخلصت من الوكيل رستم باشا واميري بحر آخرين وفايق باشا والمفتش الطبي وبضعة يوزباشية وقواد ونائبي قواد .

فسر لمبس لهذه التغييرات الحاسمة واعرب عن ثقته فى تنفيذ الاصلاحات المرضية فى البحرية فى اسرع وقت ممكن .

ثم قسمت الموانىء التى كانت حتى الآن تحت اشراف أمير البحر المشرف على ميناء الاستانة الى ست مناطق واوجدت لاول مرة ادارة بحرية فى صامصون واستامبول وازمير وبيروت . ووضعت موانىء البحر الاحمر تحت اشراف قومندان البحر الاحمر وموانىء البصرة ودجلة والفرات تحت اشراف قومندان خليج البصرة . اما الغرض الذي رميت اليه من وراء تلك الادارات البحرية فكان وقف التهريب على السواحل العثمانية بايجاد مصلحة لخفر السواحل ثم مراقبة ربابنة الموانىء مراقبة دقيقة مستمرة وقد كانوا حتى الآن بلا مراقبة . ولادراك هذه الغاية انطت بالمدفعيات التى ابتعناها حديثاً من فرنسا والاخرى العتيقة التى كانت لنا ـ الطواف حول سواحل البحر الاسود والبحر المتوسط وشواطىء سوريا والبحر الاحمر وقد وضعتها جميعاً تحت تصرف المديرين البحريين .

ولولا شبوب نار الحرب العالمية بعد ذهابى الى وزارة البحرية بخمسة اشهر لحصلت السلطات المختصة بجمع الضرائب غير المباشرة وامتيازات الدولة على ربح عظيم من تنفيذ هذه الاجراءات ولا نقطع التهريب انقطاعاً كلياً .

وانتخبت المديرين البحريين من اكثر كبار الضباط نشاطاً ولفت نظرهم الى أهمية المراقبة التامة المتواصلة . وقد ساعدت التقريرات التى وصلت منهم على التثبت ممن يتعين عزله من ربابنة الموانىء كما حسرت اللثام عن سوء حالة السفن المرابطة فى الولايات .

ثم عينت فى مكان الربابنة الذين وردت اسماؤهم فى القائمة العامة ضباطاً من ذوى السمعة الحسنة والكفاءة فى العمل الذين لم يصل نجاحهم فى الاسطول الى المستوى المطلوب منهم .

واعتزمت تقسيم الضباط البحريين الى اقسام ثلاثة : الاول يشمل الضباط

القادرين على الخدمة فى الاسطول . والثانى : يشمل الضباط الذين يخدمون فى السفن المكلفة بحراسة الشواطيء . والثالث : يشمل الضباط المختصين باعمال الموانىء . وقررت جريان التبادل بين الضباط فى داخل هذه الاقسام . فضباط القسم الاول الذين لا يصلحون له ينقلون الى القسم الثانى وضباط القسم الثانى ينقلون الى القسم الثالث الذين لا يصلحون مطلقاً فيستغنى عنهم نهائياً .

بيد أن الحرب العالمية حالت لسوء الحظ دون تحقيق ذلك البرنامج جملة وتفصيلا . وهنا ينبغي أن اسوق بضعة امثال :

فاولها : حدث بعد ذهابي الى البحرية ببضعة اسابيع فقد كلفت احدى المدفعيات بالسفر وحددت بنفسى التاريخ والساعة . وكان الراي قد استقر فى زمن شوروك باشا على وضعها تحت تصرف قومندان البحر الاحمر . وفى عشية اليوم الذي تقرر أن المدفعية تبحر فيه صعدت بصحبة لمبس الى ظهرها وقد كانت راسية بالقرب من طريق توقين . ثم طلبت الى امير البحر أن يفحصها ويخبرنى بلا تردد هل المدفعية حقيقة فى حالة مرضية تؤهلها للسياحة الطويلة التى ستقوم بها ؟

فاخبرنى لمبس بانها ـ فيما عدا بضعة اصلاحات طفيفة ـ صالحة لتلك السياحة.

فسألت الربان ـ هل لديه المؤونة والملابس الصيفية والنقود اللازمة ؟ ـ فادى هذا السؤال الى تبين النقص فى المؤونة والملابس . وكنت ارى من الزم اللوازم أن تحتوى خزانة السفينة على ما يسد العوز المالي لمدة ثلاثة اشهر على الاقل حتى لا تعترض الضباط مصاعب مالية فى الطريق . فطلبت الى الربان أن يرسل وكيله وصرافه الى الوزارة لسد النقص اثناء الليل ليستطيع السفر فى الميعاد المضروب فى الغد . ثم عدت الى الوزارة بنفسى وطلبت فتح المخزن فى الليل وتسليم المؤونة والملابس الصيفية اللازمة وامرت بالرغم من معارضة موظفى الحسابات ـ باعطاء المدفعية مبلغاً على الحساب .

واول ما عملته عند ذهابي الى الوزارة فى الصباح هو انني سـألت، هل سافرت المدفعية فعلا ؟ فعلمت مع الدهشة الشديدة انها لم تقلع بعد . فارسلت فى طلب الربان فى الحال وسألته عن السر فى عدم سفره .

فقال : يا افندم ! ان وكيلي وصرافى لم يعودا للمدفعية بعد فلم اجرأ على السفر بدونهما !) .

فعاقبته فى الحـال بتخفيض مرتبه الى النصف وعينت آخر فى مكانه . ووضعت اسم الوكيل فى القائمة العامة وكلفت الصراف باستصحاب المدفعية مع انه كان قد عاهد نفسه ألا يذهب الى البحر الاسود بحال ما .

(مثال آخر)

كان يوم عيد قبل نشوب الحرب العالمية . فاردت ان استعرض ضباط الاسطول وبحارته فاصدرت الاوامر اليهم بالحضور جميعاً فى ساعة معينة فى الميدان المقابل لوزارة البحرية . وقـد امطرت السماء فى صبيحة ذلك اليوم فلم يمنعني ذلك من الذهاب فى الوقت المعين الى مكان الاستعراض لابساً ملابسى الرسمية ولـكن لم يحضر أحد .

وما كدت اغادر سيارتى حتى خرج طاهر بك قائد الاسطول العـام ولفيف من ضباطه من مصلحة القرن الذهبي فلما سألته السبب فى تخلف رجال الاسطول عن الحضور أجاب قائلا :

(يا افندم ! حسبت أنك ستتخلف نظراً لرداءة الجو وعلى ذلك لم آت بالرجال تفادياً من بللهم على غير طائل !) .

فامرت باعتقال طاهر بك لمدة ثلاثة ايام لتخوفه من البلل وبعد اسبوع كلفته بالاستقالة .

(مثل آخر ايضاً)

فى خلال سنة ١٩١١ زرت الاستانة لامور تتعلق بالجيش الرابع . وكانت البينة قد قامت على ارتكاب أحد الضباط البحريين جريمة النصب لاكثر من مرة ولسوء الحظ وقع ذلك فى الوقت الذي بدأ فيه تدهور القوة المعنوية فى الجيش والاسطول . فاردت أن امثل بالمجرم فسلمته للمحكمة العسكرية . وطلبت محاكمته باقصى السرعة .

ولكن المحكمة ابرأته رغم أدلة الاثبات العديدة مع انني ورؤساؤه كنا واثقين من جريمته . فاضطررت طبعاً الى احترام الحكم الذي نطقت به المحكمة العسكرية بيد انني مع ذلك قررت وضعه فى عداد المستقيلين .

ثم خفضت مرتب اسماعيل بك (رئيس المحكمة العسكرية) وبعض اعضائها الى النصف لقصورهم وعدم تقدير المسائل الخاصة بالشرف العسكري .

(المثل الاخير)

عدت الى الاستانة بعد تسريح قواد الجيش الرابع - فان الصلح مع روسيا كان قد امضى واستأنفت السفن التجارية حرية العمل فى البحر الاسود . فرأيت من اللازم اعداد المدرعة (رشيد باشا) التى كانت تستعمل من قبل مخزناً للرجال القائمين بأعمال تمرينية على ظهر السفينة (ياوس) . وبعد مشاق عديدة حصلت على السفينة من أمير البحر العام وامرت بارسالها الى الميناء الداخلية وفى الغد حضر إلي واصف باشا الوكيل واخبرنى بأن (رشيد باشا) التى اصلحت اصلاحاً تاماً منذ عدة ايام فى حالة سيئة وطلب إلي أن أضع حداً لاهمال الربابنة والقواد وإلا كان انحلال الاسطول فى القريب العاجل امراً مقضياً . فارسلت فى الحال فى طلب رئيس القسم الثانى فاكد الخبر . فكلفت رمزي باشا قومندان القرن الذهبي أن يصعد على سطح (رشيد باشا) ويكتب

تقريراً وافياً عن حالتها وان ينبئنى عن اسماء الاشخاص المسؤولين بين رجال السفينة عما وصلت اليه .

وفى اليوم التالي قدم تقريره الذي اثبت مسؤولية الربان ووكيله . فذهبت تواً الى السفينة بنفسى ومعي واصف باشا وحامد بك .

فتيقنت بملاحظتى الشخصية ان البحارة قد رسموا وخطوا أشياء فاحشة على ابواب حجر الضباط وان هؤلاء سمحوا بذلك وان حجرة طعام الضباط اصبحت فى حالة لا توصف .

فامرت فى الحال بعزل الربان واعتقال وكيله لمدة اسبوعين واذعت منشوراً بأنه لو وقع مثل ذلك مرة أخرى فى أي سفينة لكان الجزاء طرد الربان والوكيل من الخدمة فى الحال .

ان الربان حقى الذي كان ينتظر العودة الى منصب قومندان السفينة (ياوس) مع انه كان ضابطاً على جانب عظيم من الامانة والعلم والجد كان قليل الخبرة بما تتطلبه مهنته البحرية واحسب انه لم يقدر تماماً ان القومندان مسؤول عن كل شيء وعن كل شخص على ظهر سفينته .

وقد ساد بين ضباط البحرية رأي فاسد مؤداه ان الوكيل هو المسؤول وحده عن النظافة والنظام وغير ذلك مما يلزم للسفينة .

وهذا الرأي صحيح الى حد ما . بيد أن الوكيل مسؤول امام ربانه فقط وهذا بدوره مسؤول لدى قائد الفرقة أو القائد العام . ويظهر أن كثيراً من ضباطنا البحريين لم يدركوا بعد أن المسؤولية النهائيـــة اذا لم تحصر فى الربان فليس ثمة وسيلة لضمان وحدة القيادة فى البحر . وقد زعم بعض قصار النظر ان السبب الحقيقى فى عزل الربان حقى هو لصداقته المتينة مع الضباط الالمان ومن الصعب أن يتصور الانسان خرافة أشد كذباً من هذه . ومن الحمق نسبة مثل هذه التهمة إلي وانا الذي كنت اعتبر من اشد انصار النظام ومن القائلين

بضرورة توثيق عرى الصداقة بين الضباط الاتراك والالمان .

وكثيراً ما لجأت الى هذه الوسائل كلما رغبت فى رفع المستوى الادبى بين ضباط البحرية . وسأتناول تلك النقطة بتفصيل عند عودي الى داري حيث اتمكن وقتئذ من الاستشهاد بالسجلات فاستطيع اتمام مذكراتى وخصوصاً فيما يتعلق بالفترة التى كنت فى خلالها وزيراً للبحرية .

تعجيل بناء (السلطان عثمان) و (رشادية)

وتعمير المصانع والموانىء

(انشاء دار لصنع السفن في ازميت . التوصية على بوارج حربية)

لم اكد استلم زمام الاعمال فى وزارة البحرية حتى شرعت فى اصلاح مدرعاتنا (بارباروس) و (طورغود) و (مسعودية) وتجديدها بقدر ما سمحت به مواردنا الضعيفة وكنت اقوم يومياً بنفسى بالاشراف على اعمال الاصلاح ووجهت اهتمامى كله الى ازالة أي عائق قد يقف فى الطريق . وكان جل اهتمامى ان ارى (السلطان عثمان) التى أوشك أن يتم بناؤها فى احواض انجلترا تمخر عباب بحر مرمره واحدد وقتاً معيناً لاستلام المدرعة (رشادية) التى اوصينا بها قبل نشوب الحرب مع ايطاليا والتى كثيراً ما أجل اتمامها من وقت الى آخر .

ولم تستطع المصالح المختصة لاكثر من ستة اشهر أن تجيب واصف بك ورؤوف بك جواباً شافياً على طلبهما ادخال بضعة تغييرات فى (السلطان عثمان) و (رشادية) واذ كنت ارغب فى تعرف الحقيقة بنفسى طلبت الى رؤوف بك وواصف بك اللذين كانا فى لوندرة أن يحضرا الى الاستانة . وكنت قد جمعت كل الوثائق التى ارسلتها المصالح المختصة فامرت باحضار

جميع الخبراء للوزارة وبعد البحث مع أمير البحر لمبس أعطيت كلا منهم التعليمات المطلوبة ثم حررت خطاباً الى شركتي السفن وطلبت اليهما تحديدموعد تسليم (السلطان عثمان) و (رشادية) .

ولما كان رؤوف بك قد كتب إلي طالباً ارسال بعض البحارة لمعاينة (السلطان عثمان) وللتثبت من آلاتها المعقدة قمت فى الحال بانتخاب فريق من صغار الضباط والبحارة وارسلتهم الى انجلترا على ظهر (رشيد باشا) برئاسة الربان اسماعيل قومندان القرن الذهبي .

وطلبت الى رؤوف بك وواصف بك ان يكفا عن المطالبة بادخال تغييرات اخرى فى هاتين البارجتين حتى تستطيع الاحواض فى النهاية تسليمها الينا فى التأريخ المحدد ثم ارسلت الضابطين الى لوندره .

وفى مدة شوروك باشا بدأت المفاوضات مع شركتي فيكرز وارمسترونغ لتحويل دار سفن القرن الذهبي الى دار سفن حديثة وانشاء دار سفن (على أحدث طرز) واحواض عائمة فى خليج ازميت . وقد جهزت بالفعل الرسومات الخاصة بذلك .

ونظراً لاهمية هذه المسألة قررت تسويتها نهائياً فطلبت الى الشركتين أن ترسلا مندوبين عنهما الى لوندرة وعلى ذلك ذهب الى العاصمة الانجليزية المستر فنسنت كيلارد أحد اعضاء اللجنة الادارية ومدير الشركتين المذكورتين

وقد عين الكونت اوستروروج - أحد محامى اسلامبول - مستشاراً قضائياً للشركتين وعينت وزارة البحرية النائب حاجيان افندي ليكون مستشاراً لها .

وبعد اجتماعات متعددة -حضرها ايضاً مستشارونا القضائيون- وضعت صيغة العقد النهائية . ومع انني اعترف ان العقد تضمن بضعة أمور كان فيها شيء من الغبن لنا قد عظم سروري لاعتقادي انه لن يمضى وقت طويل حتى

نرى لدينا داراً لصناعة السفن وأحواضاً للبناء وموانىء ومصانع من احدث طرز . وكانت العادة التي رسخت في نفسي منذ دخولي الخدمة هي تنفيذ ما تقره الحكومة بلا توانى .

وقد تقرر بعد ابرام الاتفاق مع فيكرز وأرمسترونغ أن يعهد بتجديد مصنع القرن الذهبي الى لجنة مكونة من ممثلي وزارة البحرية والشركتين السالفتي الذكر تحت زعامة مدير عام انجليزي . وفي يقيني - برغم ما يزعمه الغير - أن ذلك المشروع لو نفذ بحذافيره لعاد على البلاد بالفوائد الجمــة . أما نزاهة المدير العام ومقدرته والكفاءة التي اظهرها فقد ملأت نفسي اغتباطاً وسروراً وكنا على اتفاق تام فيما يتعلق بالمشروعات الوقتيــة (لتحسين المصانع والاحواض) التي اعدها بعد وصوله الاستانة بقليل. ولاضرب مثلا على استقامته

فالعقد المبرم بين الشركتين والحكومة قضى أن تقدم هذه الاخيرة المال اللازم لبناء دار المصنع الجديد في خليج ازميت .

فبعد بحث استغرق شهرين التفت إلي المدير العام قائلا :

(ان موقع هـذه الدار التي في القرن الذهبي جيد بصفة خاصة حتى أني لا أرى سبباً مطلقاً لنقل دار صنع الاسطول العثماني الى ازميت . فلو انقلب البناء الحاضر الى مصنع حديث وادخلت على الاحواض بعض تحسينات لاصبح من المستطاع بناء اكبر دريدنوط (بارجة) في احواض القرن الذهبي بعد اربعة اعوام على اكثر تقدير . وعلى ذلك استحسن اغفال انشاء دار صناعة ازميت وحصر كل مجهوداتنا في تحسين دار صناعة القرن الذهبي وفي استطاعتنا ان ندرك تلك النتيجة بقليل من المال . واني اعدك بالسعي لاقناع الشركتين بهذا الرأي .

ولسوء الحظ نشرت صحفنا في بدء الحرب العالمية اشاعة كاذبة تلقتها عن الصحف الالمانية . ومؤداها ان المدير العام نزع من سفننا تنفيذاً لتعليمات البعثة البحرية الانجليزية - الاجزاء المهمة في الوقت الذي أوشك فيه أن يتم

اصلاحها وبذلك جعلها غير صالحة للعمل . وكنت حين ظهور تلك الاشاعة فى مركز الجيش الرابع . ولما كنت اعلم أنها تناقض الواقع تماماً (لأن البعثة البحرية الانجليزية وضباط الشركتين الذين تكفلوا بتنظيم دور صناعة سفننا وجعلها حديثة قد قاموا بمهمتهم بكل امانة واخلاص الى اليوم الذي غادرونا فيه) طلبت الى انور باشا أن يكذبها باسم وزارة البحرية لأنه كان وقتئذ قائماً بشؤونها موقتاً .

ولا اعلم حتى هذه الساعة ان كان التكذيب نشر فعلا أو لا . ولسوء الحظ انتشرت تلك الفرية بسرعة مدهشة وقد رأيت من ظهورها فى صحف عديدة انها كانت سبباً فى الحملات الشديدة التى وجهت ضدنا وضد الالمان .

وانى لأرانى ملزماً أدبياً أن اؤكد هنا مرة اخرى ان ضباط البعثة البحرية الانجليزية بقيادة أمير البحر لمبس والمهندسين والعمال الانجليز الذين انطنا بهم تنظيم دار صناعة السفن بالقرن الذهبي قاموا بواجبهم بمنتهى الامانة أما ثقتى بامانتهم فقد بلغت الى حد اننى عهدت اليهم وضع خطوط الطوربيل فى الدردنيل والبحر الاحمر كما كلفتهم بالبحث عن خير المناطق لملئها بالالغام وخير الوسائل لبثها . وقد الحقت بحاشية لمبس ضابطاً تركياً وضابطاً من سفن الطوربيل .

وقد وضعت خطوط الطوربيل الأولية فى الدردنيل بناء على هذا الاتفاق

واذ أردت أن يؤدي كتابى هذا الى اظهار الحقائق يتعين علي ذكر الحادثة الآتية : وهى أنه فى الوقت الذي أصبح فيه من المتوقع اقفال البواغيز حضر إلي لمبس ذات ليلة وقال:

(اذا كنتم تظنون من اللازم اقفال البواغيز بالالغام فعندى اقتراح أريد عرضه عليكم . ذلك انه يمكنكم أن تبثوا ما شئتم من الالغام عند مدخل الدردنيل ولكن يستحسن ابقاء البوسفور مفتوحاً ويتعين توزيع العوامات

فيه حتى يظن انه ملىء بالالغام ثم تصدر التعليمات لكافة السفن بأنه خطر عليها - نظراً لاغلاق البوسفور بالالغام - العبور إلا بمساعدة الدليل . أما الروس الذين لا يعرفون ان ليس ثمة الغام فلن يجرأوا مطلقاً على اختراق البواغيز . وقد لجأ الالمان فى عام ١٨٧٠ الى هذه الحيلة اذ اعلنوا انهم بثوا الالغام على طول شاطيء البحر الشمالي مع انهم فى الواقع لم يضعوا لغما واحداً ولكن ذلك الاعلان كان كافياً لادخال الذعر فى الاسطول الفرنسى فظل مبتعداً عن الشاطيء . اما اذا بثثتم الالغام فى مضايق البحر الاسود فقد يفلت احدها من مرساه بفعل التيار القوي فينحدر الى القرن الذهبي فاذا أصاب احدى بواخر النقل أو الركاب ووقعت كارثة اذن تكونون حملتم انفسكم مسؤولية عظمى فى نظر الرأى العام فى جميع اوروبا .

فشكرت أمير البحر على تحذيره ذلك واخبرته ان الانسان لا يمكنه أن يعول دائماً على نجاح مثل تلك الحيل كما انه لا يمكن مقارنة البوسفور بشاطيء البحر الشمالي فان اسطول العدو لو وصل الى علمه حقيقة الواقع واخترق البواغيز كانت النتيجة ضرراً عظيما لا يمكن اصلاحه .

ولست ابحث هنا فيما اذا كان أمير البحر عرض اقتراحه مراعاة للحالة السياسية فى ذلك الوقت أو انه كان فقط يعرب عن رأيه الفنى ولكن نظراً لثقتى بنزاهته وكونه لم يقترح الاقتراح عينه فيما يختص بالدردنيل (حيث كانت للاسطول الانجليزى القوة الساحقة) فانني ميال الى اعتقاد - ان هذا الاقتراح انما أملته الاعتبارات الفنية وحدها .

وكان الشطر الثانى من مفاوضاتنا مع مديري فيكرز وأرمسترونغ اللذين حضرا الى الاستانة التوصية على دريد نوط من احدث طرز وطرادين خفيفين وست نسافات وغواصتين .

أما الاتفاقات المتضمنة للمطالب التى طلبها خبراؤنا الفنيون وخبراء

لمبس فقد وضعتها الشركتان . ثم امضى الفريقان العقود ووزعت صور منها .
وأوصينا ايضاً بالذخيرة اللازمة لا لسفننا العتيقة فحسب بل للمناورات وتدريب جيوشنا وللحرب عليها نفسها. وسمينا الدريدنوط (الفاتح) ونيط بالقومندان حمدى بك مباشرة بناؤها . وحدد نهائياً تأريخ اختبار السرعة القصوى (للسلطان عثمان) وقوة مدفعيتها .

وكان جل غرضنا من هذه الاجراءات أن يكون لنا اسطول متفوق على اسطول اليونان فى أقرب فرصة . وقد بذلت ما استطعت من جهد فى ازالة المصاعب التى كانت تحول دون تحقيق هذا المشروع .

وحوالي هذا الوقت أبدت فرنسا رغبة فى بناء سفن لنا . وبعد مناقشة مع ممثلي شركة احواض ومصانع حديد البحر الابيض المتوسط الذين دعوتهم الى الاستانة وصينا بصنع نسافات كما ابرمنا مع شركة كريسو اتفاقاً على بناء غواصتين .

وتقرر أن يتم بناء الدريدنوط (فاتح) فى اثنين وعشرين شهراً وان تتم القطع الاخرى الموصى عليها فى انجلترا وفرنسا حوالي ذلك التأريخ تقريباً أما الدريدنوط (سلطان عثمان) فتقرر أن تسلم الينا فى نهاية تموز سنة ١٩١٤ و (رشاديه) فى افتتاح سنة ١٩١٥ . وسيكون لنا فى سنة ١٩١٦ بمقتضى هذا البرنامج اسطول جديد مكون من ثلاث سفن من طرز دريدنوط وطرادين خفيفين واثنتى عشرة نسافة واربع غواصات كما سيكون لدينا اسطول آخر من وحداتنا العتيقة واذن يصبح لنا الاسطولان أقوى بكثير من الاسطول اليونانى

وبالاتفاق التام مع لمبس أعددنا برنامجاً واسعاً لتدريب وتعليم البحارة الذين سيلتحقون بالسفن المشار اليها ولكن اتجه اهتمامنا الاول الى اصلاح سفننا القديمة وتجهيزها للبحر باسرع ما يمكن .

وكان ذلك هو أول اهتمام المدير العام الانجليزي الذى كان قد استلم زمام

العمل ، وأخيراً فى يوم ٢٢ تموز سنة ١٩١٤ شاهدت اسطولنا المكون من (المسعودية) و (بربادوس) و (طورغود) ينحدر من ميناء القرن الذهبي مع نسافاتنا القديمة وسفن الطوربيل . فارسلت السفن الى الجزر التى تقرر أن تبدأ عندها تمريناتها البحرية بقيادة لمبس .

وقد اقلقت مجهوداتنا هذه بال اليونان . فشرعت تقوي اسطولها واوصت فى فرنسا على بناء سفينة دريدنوط تسلم اليها بعد مضى عامين وفى المانيا ست نسافات وست سفن للطوربيل . ولم يكن ثمة خطر علينا من بناء هذه السفن نظراً لأن (السلطان عثمان) ستصل الاستانة فى منتهى اغسطس وبذلك يكون لنا التفوق على الاسطول اليونانى . ثم يمضى لا اكثر من خمسة أشهر أو ستة حتى يزداد هذا التفوق ونصبح الرابحين لأن (الفاتح) ستوازى الدريدنوط التى أوصت اليونان بصنعها فى فرنسا . وقد شعر اليونانيون بحرج مركزهم فبذلوا كل مجهود لمنع وصول (السلطان عثمان) الى الاستانة .

وبعد وصول (الجوبن) فى منتصف شهر مارس فى سنة ١٩١٤ ارسلت انجلترا قائدها العام لاسطول البحر المتوسط أمير البحر دى روبيك لتقديم تحياته لجلالة السلطان .

فقدم على ظهر البارجة (انفنسبل) ولست اذكر بالتحقيق - هل سألنى أمير البحر فى غضون زيارته الرسمية لوزارة البحرية أو فى الاجتماعات العديدة التى عقدت بيننا فيما بعد عن الاجراءات التى اتخذناها لوصول (السلطان عثمان) بسلام الى مياه الاستانة .

فقد أخبرنى ان اليونانيين فزعون لوصول (السلطان عثمان) الى المياه التركية . وانهم يبذلون كل ما فى استطاعتهم لحماية انفسهم من ذلك الخطر . وقد صمموا بناء على ما تلقيته من المعلومات أن يغرقوها فى بوغاز جبل طارق هذا اذا فشل مقصدهم فى تحطيمها قبل اتمام اختباراتها النهائية فى انجلترا واذا

اخفقت تلك المحاولة الاخيرة فيهاجمونها بجميع اسطولهم حال وصولها الى المياه اليونانية . اذن فعليكم بالحرص التام ان اردتم الحصول على سفينتكم .

أما اليوم فاني لا أرتاب فى أن الغرض الذي رمى اليه أمير البحر من وراء نصيحته هذه هو ادخال الذعر فى نفسي الى حد العدول عن المطالبة بحضور (السلطان عثمان) الى الاستانة قبل ان يتم بناء (رشادية) ولكني ظننت وقتئذ أن نصيحته أملتها الصداقة وانه لم يرد الا لفت نظري الى عظم المخاطر لاعداد الوسائل اللازمة للتغلب عليها .

والحقيقة ان التقارير التي وصلت الي من اعواني فى انجلترا وفى اليونان ـ بقطع النظر عن نصيحة أمير البحر ـ جعلت من اللازم اتخاذ كل الوسائل الاحتياطية لضمان سلامة (السلطان عثمان) اثناء سفرها من انجلترا الى الاستانة

وبعد البحث مع لمبس تقرر أن يطوف اسطولنا فى بدء اغسطس فى البحر المتوسط حيث يقابل (السلطان عثمان) عند خط العرض الذى يمر بجزيرة كريد .

وفى غضون زيارتى لفرنسا بمناسبة المناورات البحرية الفرنسية ارسلت فى طلب رؤوف بك من لوندرة لمقابلتى فى باريس وأسررت اليه تعليمات وضعها لمبس بصفته قائداً عاماً للاسطول . وقد عينت فى هذه التعليمات الطريق الذى تسلكه (السلطان عثمان) عند اجتيازها بوغاز جبل طارق والموعد الذى تقابل فيه اسطولنا .

ولكن الحكومة البريطانية وضعت لسوء الحظ يدها فى ٢١ تموز على الدريدنوط (السلطان عثمان) وبذلك جرى القلم فى صحيفة القدر ألا تخفق الراية العثمانية على تلك البارجة العظيمة .

(محاولة ايجاد تفاهم فرنسى تركى)

ذكرت بايجاز من قبل كيف أن جمعية الاتحاد والترقى بعد الحرب البلقانية قررت التنحي عن السياسة السلبية القديمة وانتهاج سياسة ايجابيـة فى الشؤون الخارجية والداخلية وكانت حجتها ما تبين للملأ بأن تلك السياسة هى الطريق الاوحد لانقاذ تركيا من المتاعب التى كانت تتهددها من كل جانب ولتقويتها واعطائها المركز اللائق بها بين الامم .

ويخيل إلي ان من اللازم أن آتى من جديد على النقط الاساسية فى السياسة الايجابية التى دفعت بالحكومة الى الاشتراك فى الحرب العالمية .

أما من وجهة السياسة الداخلية فقد كان اهم ما شغل بالنا تقرير حقوق الاقلية ـ وهى عبارة مألوفة ـ وايجاد تفاهم ودي بينهم وبين الاكثرية . وقد استطعنا أن نضع أساساً للتفاهم مع العرب كما اشرت الى ذلك من قبل . واذا جاز القول بأنه لم يرض سائر الساسة العرب فلا جدال فى أن غالبية مسلمي العرب الذين كانوا قلباً وقالباً منتمين للقضية الاسلامية اعتبروه كافياً .

وقد سويت مسألة الجنسية فيما يتعلق بالبلغاريين واصبح الانسان لا يرى بلغارياً واحداً فى داخل حدود الامبراطورية العثمانية :

ومن جهة اخرى فان اليونانيين الذين وصل بهم الحمق الى حد تسمية ملكهم بقسطنطين الثالث عشر وطمحوا الى احياء الدولة البيزنطية لم يتركونا فى شك ما بأن ساعة الحساب الختامى معهم قد دنت فاصبح يتعين علينا اعداد الوسائل الاحتياطية من الآن حتى اذا حانت الساعة لا نصبح تحت رحمة خونة اليونانيين فى داخل حدودنا .

فشرعنا فى استبدال الرعايا اليونانيين فى ولاية آيدين بمسلمي مقدونيا والجهات الاخرى وقررنا الدأب على تنظيم وتنمية الجيش والاسطول . ثم

سعينا لابرام الاتفاقات مع الدول الاجنبية .

ولكن المسألة الارمنية كانت أهم مشاكلنا الداخلية . ووددت لواستطيع اقناع القراء بكل ما لدي من الادلة بانها كانت المشكلة التى رغبت جمعية الاتحاد والترقى فى حلها قبل غيرها من المشاكل بطريقة ترضى الارمن وتعود عليهم بالفائدة وانى لاستطيع تقديم هذه الادلة كما يمكن أن آتى على الاسباب التى سدت طريق النجاح . ولكن أفضل ارجاء الخوض فى هذه المسألة المهمة الى فصل خاصٍ بها .

ولايكاد انسان يسمع بمشكلة ارمنية إلا ويرى من ورائها مشكلة روسية ففى اجتماع لجنة ينى كوى (المكونة من تراجمة الدول العظمى الاولين) التى نيط بها اختيار نوع الاصلاح المراد ادخاله فى ارمينيا اعتاد الترجمان الاول الروسى التشبث بالحد الاعلى بينما زميله الالمانى اشار باتباع الحد الادنى . واكتفى ترجمانا انجلترا وفرنسا من جهة والنمسا وايطاليا من جهة اخرى بالقيام بدور الوسيط . ولم تستطع اللجنة بعد اجتماعات عديدة الوصول الى نتيجة حاسمة فعرضت على السفارات التى تمثلها برنامجاً اعلى وبرنامجاً أدنى . ثم استمر البحث فيما بعد فى الباب العالي بين سفيري المانيا وروسيا وبين الصدر الاعظم بينما بقية السفراء انسحبوا من الاشتراك الجدي فى المسألة قائلين أنهم يقبلون أى قرار يصل اليه السفيران اللذان يمثلان الحد الاعلى والحد الادنى .

فاقنعتنا تلك المسألة بأننا اذا اردنا حقيقة اتقاء شر روسيا فليس لنا وسيلة سوى اكتساب عطف فرنسا وانجلترا وخصوصاً الرأى العام فيها . ولم يكن يخطر ببالنا مطلقاً أن يشب لظى حرب أوروبية وبالاولى لم يكن يدور بخلدنا ان المانيا قد تعلن الحرب على روسيا من اجلنا . بل كل ما جال بخواطرنا هو : (ماذا كانت المانيا تصنع عندما سمحت لحليفتها بالقضاء على

أو هامنا بضمها البوسنة والهرسك بعد أعلان الدستور ببضعة ايام ؟ أليست ايطاليا التى هاجمت طرابلس بغتة هى حليفة المانيا ولو لم تكن حليفة موالية ؟ ألم تعلن ايطاليا انها انما احتذت حذو النمسا ؟ ان الالمان يريدون أن يستغلونا اقتصادياً فهم لا يترددون مطلقاً - مهما عظم الثمن - لمنع ما قد يهدد مصالحهم فكل ما يرمون اليه من التدخل فى مشكلة الاصلاحات الارمنية ليس إلا منع النفوذ الروسى ان يمتد الى ما وراء سكة حديد بغداد . وفيما عدا ذلك لا يعقل أن ينهض الالمان لمساعدتنا فيما لو تهددنا خطر .

ذلك هو ما ظنناه . وفضلا على ما تقدم - ألم تعلن المانيا فى الوقت الذي أردنا فيه الحصول على المال اللازم لانعاش تركيا ونهوضها بأنها عاجزة عن مساعدتنا ونصحت الينا بالاحتفاظ بالعلائق الحسنة مع فرنسا وابقاء الباب الذي نلجه للحصول على الاموال من مصارف باريس مفتوحاً .

فلهذه الاعتبارات اعتزمنا أن نوطد العلائق الحسنة مع فرنسا أولا ثم مع انجلترا وأن نقيم لها الادلة الاقناعية على أن غايتنا الوحيـــدة هى ادخال الاصلاح فى بلادنا ولنتثبت من حمايتهما لنا اذا هاجمتنا روسيا .

وكنا شديدي الاهتمام بأن تسفر المفاوضات بين وزارة الخارجيـــة وحقى باشا عن تسوية نهائية لسائر المسائل التى كانت موضوع النزاع بيننا وبين انجلترا وكنا قد حددنا منطقتى النفوذ الانجليزية والتركية فى خليج البصرة وفى الشقة الجنوبية لشبه جزيرة العرب وسوينا مشكلة عدن بطريقة ارضت انجلترا ولم نعارض فى طلب انجلترا الخاص بمد سكة حديد بغداد الى البصرة ولا فى طرق الملاحة فى نهري الدجلة والفرات . ومنحنا شركات انجليزيـــة امتيازات البترول فى العراق وامتياز مد سكة حديد آيدين وانشاء عدة خطوط جديدة وتحسين مينائى طرابزون وصمصون وجئنا - كما ذكرت آنفاً - بمدير عام انجليزي وعدة مفتشين من الانكليز لاصلاح وزارة الداخلية وتنظيم الخدمة

الملكية . وعين المستر جريفز - الذي أقام فى تركيا زمناً طويلا - مفتشاً عاماً ونيط اصلاح نظامنا الكمركى بالسير ريشارد كروفورد وتقرر تعيين عدد من المفتشين الانجليز فى الكمارك .

ولا ننس أننا اذا زدنا نفوذ البعثة البحرية الانجليزية التى دعوناها لتنظيم اسطولنا واننا بدأنا نجنى ثمار مجهوداتها . وقد أعرب لي السير لويس ماليت السفير الانجليزي - الذي تمكنت بيني وبينه عرى الصداقة - عن شكر لمبس لي واعتقاده فى المستقبل الباهر الذي ينتظر الاسطول التركى .

وعهدنا بتنظيم دور صناعتنا الى شركتين انجليزيتين وأصبحت اللجنة الادارية تحت زعامة السير ادم بلوك وهو رجل اشتهر منذ زمن بعيد بتشيعه لمبدأ الصداقة بين تركيا وانجلترا .

وطالما أعرب لي السير بلوك عن ارتياحه لعمل وزارة البحرية بالاتفاقية المبرمة بينها وبين الشركتين بدقة تامة حتى اصبحت المسألة بسبب ذلك على أساس متين .

غير أن انجلترا أبت لسوء الحظ - نظراً لمعارضة روسيا - تلبية طلبنا بارسال موظفين انجليز لادارة الولايات التى يقطنها الارمن .

واذ كنا نعزو نفور الشعب الانجليزي من حزبنا السياسى الى الدسائس التى قام بها المترجم الأول فتزموريس والملحق العسكرى تيريل على عهد السفير الاسبق السير جيرالدلوثر بادر الامير سعيد حليم باشا بسؤال السفير الجديد السير لويس ماليت، فى التوسط فى نقل هذين الرجلين من الاستانة فوعد السفير بانجاز الطلب فى الحال وهكذا غادرا بلادنا بعد شهر . وتوطدت من ذلك الحين العلائق الودية بيننا وبين السفير الذى كان وديع الاخلاق أميناً شفوقاً

فوثقنا الروابط الخاصة وسعينا لازالة ما علق بنفوس الانجليز من سوء التفاهم حيال الاتراك مؤملين أن نجد وسيلة نعيد بها انجلترا الى سياستها

السالفة التي كانت ميالة الى مساعدة تركيا وتقويتها ثم تحولت بعد التفاهم الانجليزى الروسى .

وفضلاً عن ما بذلناه فى الاستانة من المجهودات لتوطيد العلائق الودية مع السفير وحاشيته وعدد من رجال الجالية الانجليزية لم ندخر وسعاً لايجاد صلات ودية مع رجال امثال السير توماس باركلي وهو من أشد المعارضين فى التفاهم الانجليزى الروسى ومن انصار فكرة الصداقة الانجليزية التركية وكثيرين غيره من كبار الانجليز .

وعلى العموم فان الحكومة عملت هى واعضاؤها بلا انقطاع بطرق رسمية وغير رسمية لتقوية الصداقة مع الانجليز كما انها لم تدع فرصة إلا انتهزتها لايجاد تفاهم مع فرنسا .

فقد عهدنا منذ زمن طويل الى الجنرال الفرنسى باومان لتنظيم الجندرمة ووسعنا على التوالي دائرة نفوذه . ولكيما نرضى فرنسا طلبنا اليه القيام بتنظيم الجندرمة فى لبنان الذى كان له مركز خاص .

ولما كان انشاء الطرق فى داخل الامبراطورية العثمانية نيط بشركة فرنسية استخدمت وزارة النافعة عدداً من المهندسين الفرنسيين وقررت زيادة مرتباتهم

ولكيما تنظم منزلنا المالي خولنا لجنة الاصلاح المالي نفوذاً واسعاً وهى التى قبلناها منذ عهد قريب وبذلنا ما فى استطاعتنا حتى لا يعرض على مجلس المبعوثين قانون مالي إلا بعد موافقتها .

وبما أننا قصدنا من وضع موظفينا الماليين تحت المراقبة المستمرة أن أن نغرس فى نفوسهم الشعور بالمسؤولية والواجب عينا فرنسياً اسمه المسيو جولي مفتشاً عاماً لوزارة المالية وشددنا ازره بعدد من المستخدمين الفرنسيين .

وقد بلغت بنا الرغبة فى اكتساب صداقة انجلترا وفرنسا الى حد أننا ما كنا لنتردد لحظة حتى فى أن ننوط ببعثة فرنسية تنظيم جيشنا لو ان ذلك كان

مستطاعاً بوجه ما ولكنه كان فى الواقع أمراً مستحيلا . - أولا - لأن عدداً كبيراً من ضباطنا اتموا تعليمهم فى المانيا وتمرن الباقون منهم طبقاً للاساليب العسكرية الالمانية . ومن الامور التى أجمع عليها الخبراء استحالة تغيير نظام الجيش بغتة وعلى الاخص ادخال انظمة جديدة فيه بعد أن تم تعليمه وتدريبه طبقاً لاسلوب خاص والا أدى ذلك الى فوضى كبرى . - وثانياً - لأن طلبنا رسمياً من المانيا فى وزارة شوكت باشا أن ترسل الينا بعثة عسكرية لتنظيم جيشنا . فلم يعد فى وسعنا أن نتردد بعد .

وفضلا عما سبق قد كان من الحمق بمكان أن نغضب دولة لا تقصد بنا شراً لا لشىء سوى ارضاء حكومات أخر ربما كن تفكرن فى الايقاع بنا . فلهذه الاعتبارات لم نرغب فى الغاء ما تقرر بشأن الجيش وضربنا بالضوضاء التى اعقبت وصول بعثة المارشال فون ساندرس العسكرية عرض الحائط .

وبينما نحن نقدم للحكومة الفرنسية كل المزايا المادية التى طلبتها فى مقابل القرض اذ سعينا من جهات اخرى لتحويل الرأي العام الفرنسى لمصلحتنا .

من ذلك أننا بالرغم عما قد يعترض به علينا من الوجهة الفنية من الحصول على بوارج حربيـــة من طراز مختلفة لم نتردد فى التوصية على ست نسافات فى أحواض الهافر وغواصتين فى شركة كريسوت ارضاء لفرنسا .

كما أننا بادرنا بالتوصية على صنع عدة مدافع جبلية فرنسية بعد ان أكد لنا خبيرنا القائد حسن رضا باشا تفوقها على مدافع كروب . زد على ذلك اننا عهدنا الى الخبراء الفرنسيين بانشاء مدرسة للطيران البحري وابرمنا مع شركة فرنسية اتفاقاً على صنع اثنتى عشرة طيارة مائية .

واخيراً كونت بنجاح تام جمعية سميتها (جمعية الصداقة الفرنسية التركية) وقررت ان تجتمع بالتعاقب فى الاستانة وفى باريس وكنت فى اثناء انعقادها فى الاستانة ارأس جلساتها أما فى باريس فكان يرأســها المسيو كريبى

وزير الخارجية سابقاً .

وعينت بوضع قانونها لجنة فى الاستانة سميتها اللجنة التأسيسية . وكان بين اعضائها لفيف من كبار الفرنسيين والاتراك . ولما تم وضع البرنامج وأخطرت اللجنة وزارة الداخلية بمراميها واغراضها أقامت حفلة الافتتاح فى غرف النادي بدار الاتحاد الفرنسى فى حي بيرا . وهناك بدىء فى انتخاب اللجان الفرعية . وكان البرنامج شاملا حيث لو نفذ بحذافيرا لكان خير أداة لتحسين العلاقات الفرنسية التركية تحسناً تاماً فى عام أو عامين .

وفى ذات يوم - حوالي منتصف تموز سنة ١٩١٤ - زرت السفارة الفرنسية فاذا بالسفير المسيو بومبار قد فاجأنى بهذه العبارة :

(ان الحكومة الفرنسية ترحب بالمجهودات العديدة التى بذلتها لتحسين العلاقات الفرنسية التركية وترغب فى دعوتك الى فرنسا للتعرف بك وتقديمك رسمياً الى الشعب الفرنسى . فهل تود الحكومة التركية أن ترسل اليك دعوة لحضور المناورات البحرية الفرنسية التى ستبتدىء فى منتصف شهر تموز ؟ انني أريد التثبت من موافقتك قبل عرض الامر على الصدر الاعظم) .

فأجبته بأننى اقبل الدعوة بارتياح تام فيما لو رضى الصدر الاعظم وصرح جلالة السلطان .

ولم تمض إلا أيام قلائل حتى ابلغ المسيو بومبار الباب العالي رسمياً دعوة الحكومة الفرنسية .

وفى نفس هذا الوقت حدثت جناية سيراجيفو . فسألت الصدر الاعظم تزويدي بالتعليمات اللازمة عن الخطة التى اتبعها فى باريس وخصوصاً عند اجتماعي بوزير الخارجية .

فاجابنى قائلا : (انك تعلم آراءنا السياسية جيد العلم فلا يفوتنك أن تؤكد فى كل مناسبة مقدار ما نعلق من الاهمية على صداقة فرنسا والمزايا التى

نؤمل احرازها من السياسة الفرنسية فى صدد التسوية المنتظرة لمشكلة الجزر وهى المسألة التى تهمنا أهمية حيوية . فعليك أن تبذل كل وسعك في لفت نظر وزير الخارجية الى تلك المسألة الحساسة) .

ثم غادرت الاستانة مع ضابطين بحريين فى اواخر حزيران قاصداً باريس رأساً فوصلت اليها فى اوائل تموز .

وفى باريس رأيت رؤوف بك وواصف بك وكنت امرتهما بمقابلتى ولما أعطيت رؤوف بك التعليمات لتحديد موعد اختبارات السرعة وتجربة مدفعية (السلطان عثمان) بأقرب فرصة مستطاعة أخبرنى انه لحظ وجود حالة عقلية غريبة بين الانجليز . فهم لا يفتأون ينتحلون المعاذير كل يوم لتأخير انجاز المدرعة وتسليمها . فاجبته بأن الحالة تقضى علينا باستعمال اليقظة التامة فى تلك المسألة اذ من الضروري الحصول على المدرعة بأسرع ما يمكن .

وقد ابلغتنا الشركة المكلفة ببناء المدرعة السالفة الذكر انها لا تستطيع فى الوقت السابق تعيينه تركيب مدفعين من المدافع الاربعة عشر التى تتكون منها مدفعية المدرعة . فاصدرت لرؤوف بك عـــدة تعليمات فى ذلك الصدد واجبت على خطاب الشركة قائلا : اننا نسمح باجراء الاختبات بدون المدفعين المذكورين اللذين يمكن تركيبهما فى الاستانة وكلفت رؤوف بك بالعودة الى انجلترا وأبقيت معي واصف بك .

وبعد يومين قضيتهما فى باريس ذهبت الى طولون فقابلت أمير البحر لابيرير القائد العام للاسطول الفرنسى . فاصطحبنى الى مدرعته (كوربيت) ولا انسى ما حييت تلك الايام الثلاثة بلياليهن التى قضيتها مع الاسطول بالقرب من شاطيء الريفيير البديع . كما انى لا استطيع أن اوفى امير البحر حقه من الثناء على ما اظهره نحوى من الكرم والحفاوة .

ثم استعرضنا البحارة . وبعد مضى الايام الثلاثة ودعت أمير البحر

وعدت بطريق السكة الحديدية فقضيت اربعة ايام فى زيارة مصانع المدافع والبنادق ومحال بناء الغواصات وعدت الى باريس . ولم تفتنى زيارة احواض الهافر قبل ١٤ تموز

وفى غضون اقامتى فى باريس قابلت وزير الخارجية فيفانى عدة مرات فنظر إلي فى المقابلة الثانية نظرة ذات مغزى وفاجأنى قائلا :

(يا صاحب السعادة رغماً عن رغبتى الشديدة فى مباحثتك فى عدة أمور على جانب عظيم من الاهمية - ان المناقشات الدائرة فى مجلس النواب تشغلنى الى حد لا استطيع معه الالتفات الى أي شيء آخر . فمن المهم جداً أن اصحب رئيس الجمهورية الى روسيا . بيد أن الاشتراكيين سيعارضون فى ذلك وسيرفضون حتما التصويت للاعتماد اللازم للسياحة . وقد زودت المسيو مارجيري مدير الشؤون السياسية فى الوزارة بالتعليمات الكافية وطلبت اليه أن يبحث كل شيء مع سعادتك . واكون شاكراً لك لو تفضلت بتلبية رغبته فى مقابلتك) .

فظننت أن آمالي ورغباتى اصبحت وشيكة التحقيق وطرت فرحاً لذلك الطلب . وما اسرع ما قابلته فى زارة الخارجية .

فاول ما ابلغنيه المسيو مارجيرى - هو أن الحكومة والشعب قابلا بابتهاج تام المساعي التى بذلتها لايجاد تفاهم بين تركيا وفرنسا وان ما علق من سوء التفاهم بنفوس الشعبين يمكن أن يقال انه زال تماماً .

فقاطعته قائلا : (اتسمح يا جناب المدير بالدخول فى الموضوع رأسا انك تعلم تماماً الضعف الذي اعترى الامبراطورية العثمانيــــة عقب الهجمات العديدة التى قام بها اعداؤها . فهي لم تخرج من الحرب البلقانية منهوكة القوى فحسب بل انها ارغمت على تضحية كل اراضيها فى اوروبا عدا معظم الجزر واننا الآن نوالي السعي لدمل الجرح الدامى وبعث روح جديدة فى الشعب .

على ان الحالة السياسية الحاضرة تكاد تجعل كل هذه المساعي ضرب لازب . فترانا مسوقين للتخلص من ذلك الموقف الخطير .

انني اريد أن اخوض أولا فى مسألة الجزر التى هى موضوع النزاع بيننا وبين اليونانيين . فانتم تظنون أن الكياسة تقضى بتعضيد اليونانيين وايلائهم عطفكم على أمل الاستفادة منهم فى المستقبل . ولكنك لو تفضلت بالقاء نظرة على الخريطة لرأيت اننا قد نكون يوماً ما انفع لكم منهم . ان الحكومة العثمانية تظن أن الغاية التى ترمى اليها سياسة فرنسا وانجلترا هى تطويق دولتى الوسط بحلقة حديدية . وهذه الحلقةمفرغة فيما عدا الجنوب الشرقى فلو انظمت تركيا الى مشروع الحلفاء لاضطرت بلغاريا التى تجد نفسها وقتئذ فى عزلة فى البلقان الى الانضمام أيضاً .

فان ارادت فرنسا أن تكون الحلقة مفرغة فلتفكر فى تسوية مسألة الجزر . عليكم أن تضمونا الى تحالفكم وان تقونا فى الوقت نفسه عواقب الاخطار التى تتهددنا من جهة روسيا . انكم ان ايدتمونا فى مجهوداتنا أصبح لكم حلفاء أمناء فى الشرق !! إن جناية سيراجيفو قد تؤدي كما يخيل إلي الى حرب عالمية . فمن الاهمية بمكان فى ظروف كهذه أن يبت فى هذه الامور باقصى السرعة !) .

وكان اقتراحي صريحاً جلياً . فينبغي فى مسألة الجزر وضع تسوية تقبلها اليونان وتركيا على السواء ويعقب ذلك عقد تحالف مع تركيا . ووقتئذ تفقد المانيا كل صلة بالشرق .

فاطرق المسيو مارجيرى مفكراً ثم سألنى عن التسوية التى نريدها للجزر فاجبته ان من الممكن منح الارخبيل بما فيه جزر الدوديكانيز (التى ينبغي أن تردها ايطاليا الينا) استقلالا ذاتياً تحت السيادة العثمانية وتخصيص ايراداته للقيام بشؤونه . وفى الاستطاعة منحه امتيازات إخرى مع معافات

سكانه من الخدمة العسكرية . وفى النهاية أجاب المسيو مارجيري قائلا :

(أرى ان الاقتراح الذي عرضته فيما يختص بالجزر جدير بأن ينظر اليه بعين جدية . لأن تسويتها ـ كما يتراءى لي ـ ممكنة على هـذه القاعدة . وأراك قـــد أصبت المرمى في الطوق الحديدي الذي نريد وضعه حول امبراطوريتي الوسط . بيد أنه لابد لنا قبل عقد محالفة معكم من الحصول على موافقة حلفائنا . وموافقتهم هذه مشكوك فيها . ان اقتراح الحكومة التركية هو بلا جدال في غاية الصراحة وسأعرض ملاحظاتك هذه على حلفائنا قبل أن اصحب رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء في سياحتهما الى روسيا . وسنرسل حتما الى سفيرنا كل التعليمات اللازمة متى وصلنا نحن وحلفاؤنا الى قرار نهائي ولسوء الحظ لا تستطيع الحكومة الفرنسية فى الوقت الحاضر أن تشرع في عمل ما على انفراد) .

ولا يخفى علي ان ذلك الجواب لم يكن سوى رفض مقنع فادركت تماماً أن فرنسا كانت تعتقد أن من المستحيل أن نفلت من مخالب روسيا الحديدية فلذلك ضنت علينا بالمساعدة

وفي مساء ذلك اليوم سألني صديقي جورج ريموند الذي لازمني اينما ذهبت في خلال وجودي في فرنسا عما اذا كنت مرتاحاً لنتيجة الاجتماع . فاجبته باختصار :

(أنني لم يكن يدور بخلدي أنني سأهبط ذلك الهبوط المخزي) .

وعندما غادرت باريس فى يوم (١٨ تموز) عائداً الى الاستانة سلمني جورج ريموند ونحن فى المحطة نشرة صغيرة بقلم كاتب فرنسي رمز الى نفسه باسم مستعار وقد جاءت فيها هذه الفقرة .

(لقد حضر جمال باشا الى باريس وشهد مناورات اسطول البحر المتوسط وبالغت السلطات الرسمية والشبيهة بالرسمية فى اكرام وفادته حتى انه انعم عليه بوسام الشرف . كل ذلك حسن ! ولكن ما ثمة تلك الوعود العملية التي يعود بها الى بلاده التي يحبها ويجعلها فوق كل شيء ؟ لطالما سمعنا أن جمال باشا هو أحد كبار الاتراك المفتونين بحب بلادهم . فالمجاملات العديدة التي انهالت عليه لا يمكن أن تكون أنسته المزايا التي جاء الينا مؤملا تحقيقها . فاذا عاد اليوم الى بلاده دون أن يكون قدم لها خدمة فلا يحق لنا أن نتبرم اذا رأيناه يلجأ في المستقبل الى وسائل قد لا ترتاح لها فرنسا) .

فما أصدق فراسة ذلك الكاتب الفرنسي ؟

وما كدت أصل الى الاستانة حتى رفعت الى الصدر الاعظم والى أصدقائي تقريراً مفصلا بمحادثتي مع المسيو مارجيري والنتائج التي استنتجتها .

(المحالفة التركية الالمانية)

لم تبرم المحالفة التركية الالمانية في خلال الحرب كما اعتقد كثير من الناس . نعم انها امضيت في الثاني من شهر آب سنة ١٩١٤ ولكن المفاوضات كانت مستمرة بصددها قبل الحرب بزمن .

فبعد عودتي الى الاستانة بايام سألني طلعت باشا قائلا :

(ما رأيك يا باشا لو أن المانيا اقترحت علينا عقد محالفة على شروط كيت وكيت ؟ أتوافق ؟ ألا ترى أنت أيضاً اننا لا يمكننا التعويل على فرنسا في شيء ؟ والآن وقد رفضتنا فرنسا هل ترفض اقتراح المانيا ؟) .

فاجبت : (لا أظنني ارفض تحالفاً ينقذ تركيا من عزلتها الحاضرة) .

وفي غضون الاستعراض العسكري العظيم الذي اقيم في يوم ٢٣ تموز بمناسبة العيد الوطني اقترب مني السفير الالماني البارون فون فانجينهيم قائلا :

(بربك انظر يا جمال باشا الى النتائج المدهشة التي احرزها ضباطنا فى هذه المدة القصيرة ! فلديكم الآن جيش تركي يمكن مقارنته بخير جيوش العالم المنظمة . وقد اجمعت كلمة الضباط الالمان على اطراء الشجاعة الادبية التي لدى الجندي التركي . والواقع ان البرهان قام عليها الى اكثر مما كنا نتوقع . اذن فنعتبر اننا احرزنا انتصاراً باهراً لو استطعنا أن نسمي أنفسنا حلفاء حكومة لديها مثل ذلك الجيش المنظم !) .

ولم يدر بخلدي وانا أقدم شكري للسفير ان المفاوضات كانت دائرة منذ زمن بعيد لعقد محالفة تركية المانية .

ولم تمر إلا أيام قلائل حتى رأيت وأنا آخذ فى امتطاء سيارتي أمام المنزل فى جهة شيشلي سيارة أخرى جلس فيها انور باشا وطلعت باشا وخليل بك وقد دارت حول حديقة عثمان بك الى الشارع المؤدي الى منزل انور باشا وكانت آتية من جهة ماسلوك . فعجبت كيف يجيئون الى ذلك المكان في هذا الوقت وكان مجيئهم على ما يظهر من ناحية قصر الصدر الاعظم فى يني كوي . فتبادر الى ذهني في الحال ان اصدقائي ربما كانوا يتناقشون فى أمور لم يشاؤوا اطلاعي عليها .

ولم يكن حدث الى الآن ما يدعو الى الشك . فلما عدت الى المنزل سألت أنور باشا تليفونياً الى أين كان ذاهباً في تلك الساعة المتأخرة . فاجاب انه كان يقطع الوقت بزيارة الصدر الاعظم واذ قابل طلعت باشا وخليل بك عادوا معاً فقويت شكوكي بسبب رده هذا .

ثم دعيت بعد ظهر اليوم التالي لحضور مجلس الوزراء الذي عقده الصدر في قصره . فلما ادركت كشك ايا باشا هطلت السماء مدراراً وعلا الريح حتى لم استطع متابعة السير في سيارتي ولم تشهد الاستانة مثل هذه العاصفة منذ زمن بعيد . فعدت الى وزارة البحرية وذهبت الى يني كوي في زورتي البخاري

فبادرني الصدر قائلا : (اين كنت يا جمال باشا ؟ فانا لبثنا في انتظارك أمداً طويلا وقد انصرف الوزراء منذ برهة . ولما علمنا من الوزارة بأنك قاصد الى هنا خشينا أن يكون أصابك أمر من جراء العاصفة . واني سأقص عليك نبأ أحسبه سيكون موضع دهشتك . فهل في استطاعتك التكهن به ؟)

وبعد تفكير قصير قلت : (يخيل الي انه يتعلق بما قررته أنت وانور باشا وطلعت باشا وخليل بك في اثناء غيبتي ولكن لا علم لي به) .

فقال : (ان الحكومة الالمانية عرضت علينا عقد محالفة ونظراً لأن الاقتراح في مصلحة الوطن قد وقعنا اليوم عقد الاتفاق مع السفير فون فانجنهيم فهل توافق على ذلك ؟

فاضطربت حواسي لتلك الانباء الخطيرة التي لم اكن متأهباً لسماعها وقلت : (اذا كانت نصوص المعاهدة تتفق حقيقة ومصالح الوطن فيمكن اعتبارها نجاحاً سياسياً باهراً) .

فقال : (انها معاهدة تراعي مصالح الطرفين وتضمن حقوقهما بطريقة لم تعرف عن حكومة ما) .

ثم تراجع الى مكتبه واستخرج من أحد أدراجه صورة المعاهدة التي تضمنت عدة مواد . فقرأتها وتحققت انها عقد جليل بين حكومتين مستقلتين على اساس المساواة في جميع الحقوق .

ثم تساءلت (وما رأى النمسا ؟) .

فقال : (بعد انصراف زملائي بزمن قليل وقبيل مجيئك بنصف ساعة تسلمت خطاباً من السفير بالافيسيني اخبرني فيـــه أن حكومته توافق على كل ما جاء فى العقد الذي أبرمناه مع المانيا . واليك الخطاب) .

فلم اتمالك نفسي من التساؤل (وايطاليا ؟) .

فقال : بما أن المانيا لم تعلم بعد ايطاليا بدخولنا فى التحالف الثلاثى فليس لدي الآن معلومات ما في هـذا الصدد . وستمهد المانيا الطريق أولا ولا يخامرني الشك في أن ايطاليا ستقبل محالفتنا كما قبلتها النمسا) .

ثم تساءلت عن السبب الذي حدا باخفاء امر المفاوضات عني مع انهـا لابد أن تكون دارت منذ مدة قبل أن تؤدي الى هذه النتيجة .

وقد مر الصدر الاعظم بهذا السؤال قائلا : انه هو الذي أدار بنفسه دفة المفاوضات وانه لم يشأ ان يفضي الى زملائه بشيء ما قبل ان تأخذ المسألة شكلا معيناً وانهم لم يعرفوا شيئاً مما دار إلا فى ذلك اليوم فقط . ثم قال : (ولا يزال جاويد بك يجهل الامر جهلا تاماً . وقد سألته أن يجيء الى هنا وهو الآن في طريقه الينا ومتى حضر أطلعه على المعاهدة) .

فسألته : (اذن كان الوزراء كلهم واقفين على جلية الخبر) .

فقال : (نظراً لوجود بعض الوزراء قد يهولهم مثل ذلك المشروع المهم الى حد أن يبوحوا بهذا السر الذي يعتبر من اسرار الدولة ـ وهو امر غير مرغوب فيه أصلا في الوقت الحاضر ـ قد رأيت من الواجب ان اخبرك انت وسماحة شيخ الاسلام وخليل وطلعت وجاويد وأنور فقط واخفى الامر عن الوزراء الآخرين واحسبك تعرف ضرورة السير بحذر تام فى مثل هـــذه

المسائل الدقيقة . والآن وقد أحطت علماً بكل شيء هل لك أن تصارحني برأيك

فأجبته قائلا : (أسأل الله أن يجعل ذلك في مصلحة الوطن والخير فيما وقع) . ولم أتوان في تهنئة الصدر الاعظم على ابرامه تلك المعاهدة التي كانت بلا مراء ذات مغزى تاريخي عظيم .

وقد شغلت جد الاشغال بهذا الحادث المهم بل استطيع أن اقرر انني لم اذق طعم النوم في تلك الليلة . فقد استعرضت امامي الحالة السياسية العامة وسألت نفسي عن بواعث الحكومة الحقيقية لأني رأيت نفسي أزاء حالة لم تخطر ببالي حتى الآن .

وكانت الشواهد كلها تدل على أن التصادم العنيف بين دول التحالف الثلاثي والاتفاق الودي أصبح لا مفر منه . فلو بقينا احراراً غير مقيدين حتى ذلك الوقت امكننا بمحض ارادتنا الانضمام الى الفريق الذي يعرض علينا شروطاً ملائمة . اما الآن فقد بتتنا في الامر مقدماً ووقع الاختيار على الشريك ونتيجة ذلك هي اننا حرمنا انفسنا حرية الاختيار . فهل الفريق الذي اخترناه هو الذي يحقق امانينا الوطنية ؟ وهلا كان من المتوقع لو انتظرنا الى حين اعلان الحرب أن يعرض الفريق الآخر اقتراحات اكثر ملاءمة ؟ الا كنا نؤدي لوطننا خدمة أجل بقبولنا تلك الاقتراحات ؟

فالمانيا بالرغم من كل ما أبدته حيالنا من العطف الظاهري لم تنهض لمساعدتنا فعلا بل اوصتنا على الدوام بالاحتفاظ بالعلائق الودية مع فرنسا . فليت شعري ما الذي يحملها الآن على محالفتنا ؟ وفوق ذلك لماذا تعرض علينا تحالفاً يخول الحكومة العثمانية نفس المنزلة التي لالمانيا والنمسا ؟ ما الذي حدا بهاتين الدولتين الى تقديم تلك التضحية ؟ هذه الاسئلة كلها جاشت بنفسي

الاجابة عليها . .

وبعد لأي استنتجت النتيجة الآتية : ان هناك حقيقة لا يستطيع أحد انكارها وهي ان روسيا هي العدوة الوراثية للامبراطورية العثمانية وان اقصى ما تطمح اليه هو الاستيلاء على الاستانة ومن المستحيل حملها على العدول عن هذه الامنية . فبعد معاهدة برلين ادركت روسيا ان الاستيلاء على الاستانة اصبح مستحيلا لحولت اطماعها تجاه الهند . ولما سدت السياسة الانجليزية الماكرة هذا الطريق امامها ولت وجهها شطر الشرق الاقصى ، بيد أن اليد التي مدتها روسيا تجاه بورت آرثر انهال عليها اليابانيون فاوسعوها ضرباً ولكما حتى اضطرت روسيا الى سحبها فلم يبق أمامها بعد كل هذه التجارب سوى ان تعود الى تحقيق حلمها الازلي فجعلت تعد المعدات الهائلة لاكتساح تركيا المسكينة وهي الغنيمة التي منت نفسها بها منذ مئات السنين أما حليفتاها فبدلا من معارضة مشروعها ذلك وافقتاها عليه . وقد تغيرت الظروف عما كانت عليه وقت حرب القرم ومعاهدة برلين . فانجلترا المسيطرة على وادي النيل كانت تنظر الى مشروعات المانيا الاقتصادية في خليج البصرة بعين القلق الذي فاق قلقها من جراء مطامع روسيا في الاستانة او في الاناضول . وقد تقرر ان تمنح روسيا الاستانة عوضاً عن العراق . ولم تكن فرنسا لتقف حجر عثرة في سبيل تقسيم تركيا متى اطلقت يدها في سوريا .

فالخطة الاساسـية التي عملت بها روسيا التي بدأت ترى قرب تحقيق مطامعها كانت تنحصر في عزلة تركيا وعمل كل ما يفضي الى ضعفها .

اليس ذلك اذن هو الباعث الوحيد لرفض المسيو مارجيري - أو بالاحرى المسيو فيفاني - اقتراحاتي ؟ ولعمري لم يكن في استطاعة فرنسا

وانجلترا اذا رغبتا ارضاء روسيا ان تفعلا غير ذلك . هذا هو السبب فى اني - انا الذي لم اتوقع اية فائدة من المانيا - لم اقابل الا بالرفض الصريح من فرنسا التي التجأت اليها لاعطائنا ضماناً ضد روسيا . وقد اعلنت انجلترا عند رفضها ارسال الموظفين الذين طلبناهم للولايات الشرقية فى آسيا الصغرى انها لا تفعل ما يخالف الرغبات الروسية . زد على ذلك ان احدى الامانى العزيزة التى شغلت بال انجلترا هى أن ينتقل لقب (خليفة الاسلام) من السلطان العثماني الى فرد عادي فى احد البلاد الواقعة تحت نيرها . والحقيقة ان سلطة السلطان التركي قد اقلقتها كل القلق فى السنوات الاخيرة .

فلهذه الاعتبارات سعيت للحصول على معاونة فرنسا وانجلترا فيما لو هاجمتنا روسيا . وفيما انا غارق فى تلك الخيالات اذ بزملائي تعرض عليهم اقتراحات مهمة وصريحة وهي التحالف مع دول التحالف الثلاثي او بالحري التحالف مع المانيا .

فالمانيا تلك الامبراطورية القوية البأس تعرض علينا عقد تحالف على قاعدة المساواة - ونحن الذين سعينا منذ ستة أشهر للتخلص من عزلتنا والانضمام الى فريق من الدول - فحاولنا عبثاً ان نعقد مع بلغاريا محالفة منينا انفسنا ان نحرز بمقتضاها مزايا عديدة .

اما انا شخصياً فقد اتبعت سياسة ودية حيال دول الاتفاق الثلاثي ومع ذلك فهل كنت اجد من القوة المعنوية ما يكفي لرفض مثل ذلك الاقتراح لو انه عرض علي شخصياً . وهل يكون مثل ذلك الرفض الا ضرباً من الجنون فلنبحث المسألة بهدوء وصراحة .

ماذا كان موقف فريقي الدول حيال تركيا ؟

هذه انجلترا بين دول الاتفاق أصبحت لها الكلمة في القطر المصري ولن تألو جهداً فى ـ الحصول على العراق بل فلسطين أيضاً وتوطيد نفوذها فى جميع انحاء شبه جزيرة العرب .

وأما روسيا فان عداءها لتركيا أشهر من أن يلتمس الانسان الادلة عليه فهذه الاعتبارات لاتشير الى حسن النيات حيال تركيا . واذا نظرنا الى دول التحالف الثلاثى رأينا أن النمسا وايطاليا لم تبق لها مطامع اخرى نحو تركيا فقد قدمتا لنا كل ما استطاعتاه من الاذى . فلم تبق بهما حاجة الى مطمع جديد وكل ما يمكن أن يقال : ان ايطاليا ربما حدثت نفسها بأمور تتعارض ومصالح دول الاتفاق الودي (فى شواطيء اضاليا وفينيقيا مثلا) .

أما المانيا فهي بقطع النظر عما يقال عكس تلك الدولة الوحيـــدة التى ترغب فى رؤية تركيا عزيزة الجانب . ولا يمكن ضمان مصالحها الا بتقويتها . فهي لا تستطيع أن تستولي على تركيا كما لو كانت مستعمرة لأن المركز الجغرافى والموارد الالمانية يجعلان ذلك مستحيلا . فالمانيا تعتبر اذن تركيا بمثابة حلقة فى سلسلتها التجارية ولهذا أصبحت من اشد أنصارها ضد حكومات الاتفاق التى حاولت تمزيقها خصوصاً لأن تصفية تركياً كان معناه تطويق المانيا بصفة نهائية .. والفضل فى كون جنوبى المانيا الشرقى لا يزال مفتوحاً لتركيا وحدها . فالطريق الوحيد الذي تدرأ به المانيا ضغط الطوق الحديدي هو اذن فى منع تمزيق تركيا .

وهكذا أصبحنا حيال فريقين من الدول اراد أحدهما ابقاءنا تحت نيره وأراد الفريق الآخر التقرب منا لادراك بضع مزايا معينة فى المستقبل ولابرام معاهدة على اساس المساواة فى التعهدات والحقوق .

فهل كان الرفض ممكناً ؟

فاول مزايا تلك المعاهدة ـ هى ان دول البلقان الصغيرة لن تجترىء

بحال ما على التدخل فى شؤون حكومة تنتمي الى مثل ذلك التحالف القوى وهذا يكفل لنا العيش بسلام .

والمزية الثانية ـ هو انه لا يمكن احدى دول الاتفاق الودي أن تفكر فى الاستيلاء على بلادنا خشية نشوب الحرب الاوروبية العامة . زد على ذلك ان علماء المانيا وخبراءها التجاريين يصبحون تحت تصرف تركيا . وبذلك لا يمضى زمن طويل حتى تتخلص من قيود الامتيازات .

ومع أن هذه المحالفة تجعلنا اعداء لدول الاتفاق الودى عند نشوب الحرب الاوروبية فان ذلك لا يضيرنا متى امكن تأخير التصادم الى خمسة أو عشرة أعوام حتى يتم تعزيز حصون البواغيز وشواطئنا المختلفة وتقوية الجيش واستقلال بلادنا الى حد لا يمكن معه التردد فى الاشتراك فى مثل تلك الحرب

أما لو استعرت نار الحرب فى خلال اسبوع او اثنين أو شهر أو شهرين ـ أفلا نجد انفسنا فى موقف خطير ـ نظراً الى أن ضعفنا الحاضر ـ اذا اشتبكنا فى حرب ضد روسيا وانجلترا وفرنسا ؟

ألا يجوز أن تكون مبادرة المانيا لعقد محالفة معنا لأنها تشعر أن الحرب واقعة فى القريب العاجل ؟

ليس ثمة شك فى ذلك ! فان الذي يدفع بالمانيا الى عقد تحالف معنا على اساس المساواة فى الحقوق وبنفس الشروط الواردة فى عقد التحالف الثلاثى لا يمكن أن يكون لشىء سوى انزعاجها لتأهبات خصومها . فلابد أن تكون شعرت بوجوب تقوية مركزها بكل وسيلة مستطاعة . والا فلا يعقل أن تحمل دولة رشيدة مثل المانيا على كاهلها عبئاً ثقيلا كتركيا حباً فى سواد عيون الاتراك أو رغبة فى تقديم خدمة للسلطان التركى !! .

اذن فنشوب حرب اوروبية عامة فى القريب العاجل يعتبر نكبة علينا . ومع ذلك لو وزنا المزايا والمضار لتبين لنا ان البلاد تستفيد بلا ريب

من عدم رفض المشروع . فلو كنت فى مكان زملائى لفعلت ما فعلوا أي لقبلت تلك المحالفة بلا تردد . وكنت احتاط فى نفس الوقت فى وضع بضعة تحفظات فى المعاهدة كأن اشترط لقبولنا الموافقة ان الحرب الاوروبية مثلا لو نشبت فى غضون عامين من تاريخ توقيع المعاهدة وتبادل الوثائق فان تركيا تحتفظ بخطة الحياد الودي حيال دول التحالف الثلاثى وتتعهد بمساعدتها أدبياً بتعبئة الجيش واقفال البواغيز فى وجه السفن التجارية والحربية . فاذا استمرت الحرب اكثر من عامين تتعهد تركيا بالاشتراك فيها ضد دول الاتفاق الودي أما لو نشبت الحرب العامة بعد عامين من تأريخ التصديق على المعاهدة فان تركيا تتعهد بتنفيذ شروط المحالفة فى الحال .

وبالطبع لا نستطيع البت فيما اذا كانت المانيا توافق على هذه الشروط أو ترفضها .

وبعد امعان النظر طويلا وتحليل كل شيء من جميع وجوهه رددت لنفسى العبارة التى قلتها للصدر الاعظم وهى : (اسأل الله أن يجعل تلك المحالفة فى مصلحة الوطن) وفى النهاية اقررت هذه الحالة الجديدة تماماً .

ولما كانت مذكراتى هذه بينت لكل من كان له أذن تسمع متى وكيف ابرمت المحالفة بين الحكومة العثمانية والمانيا يمكن الانسان أن يسخر مما نشره للعالم المستر مورجنتاو السفير الامريكى وماندلستام المترجم الاول للسفارة الروسية من السخف الذي لم يستند إلا الى لغط العامة .

(بعد نشوب الحرب العالمية)

(اعلان الحرب وتعبئة الجيوش التركية)

لما رأت النمسا ان المذكرة الصربية غير مرضية عبأت بعض قواتها فلما أجابتها روسيا بالتعبئة العامة - التى حدت بالمانيا - وفرنسا الى التعبئة لم يبق

ثمة شك فى اننا أيضاً سنشتبك فى الحرب الاوروبية العامة .

وبعد أن اعلنت المانيا الحرب على روسيا فى اول آب سنة ١٩١٤ وجدنا انفسنا ملزمين بحكم المعاهدة التى لم يجف مدادها بعد على خوض المعركة فى الحال . لأن المحالفة حتمت اشتراكنا مهما كانت اسباب الحرب . فتعين علينا الاشتراك بكل قوتنا فى القتال الذى خاضت غماره المانيا والنمسا . ومع ذلك أردت تأجيل دخولنا الحرب الى ابعد حد مستطاع . فبسطت آرائى هذه فى مجلس الوزراء الذي كان ينعقد كل مساء فى قصر الصدر الاعظم فى ينى كوى (برئاسته وبحضورى أنا وانور وطلعت وخليل وجاويد) .

ومما قلته ان اشتراكنا فى الحرب قبل اتمام تعبئة جيوشنا لن يكون عديم الفائدة لالمانيا فحسب بل يكون بمثابة انتحار لنا . فلو قام الانجليز والفرنسيون والروس الذين يعلمون جيد العلم ـ أن ليس لدينا جندى واحد فى الدردنيل أو الاستانة أو الحدود الروسية بهجوم فجائى ضد الدردنيل والبوسفور فى نفس الوقت الذى تزحف فيه روسيا على ارضروم فان جيشنا بعد سقوط الاستانة ـ وارضروم وتوغل روسيا فى الاناضول عن طريق سيواس ـ يصبح عاجزاً عن اتمام التعبئة اثناء الحرب فتسقط الامبراطورية العثمانية والحرب لا تزال فى مهدها !

وقد أعترف زملائى برجاحة هذا الرأى واقنعوا به السفير الالمانى . فقررنا بعد البحث الذى دار فى مجلس الوزراء أن نعلن حياد تركيا ونشرع فى التعبئة العامة للاحتفاظ بالحياد ضد الفريقين . وفى الحال شرعنا فى تنفيذ هذا القرار . وقد وافق على خطتنا هذه زملاؤنا الذين لم يعرفوا شيئاً عن محالفتنا مع المانيا والتعهدات التى تضمنتها وعدوا التعبئة العامة عملا احتياطياً سديداً .

وبعد اصدار امر التعبئة بثلاثة ايام اسندت إلي قيادة الجيش الثانى مع بقائى

في وزارة البحرية .

وما بزغت شمس يوم ٢ - آب - أي بعد أن دفعت تركيا آخر قسط من ثمن المدرعة (سلطان عثمان) حتى اصدر وزير حربية انجلترا أمره بأن لا توضع عليها الراية العثمانية وصادرها هي والمدرعة (رشادية) ولن انسى ماحييت ما استولى علي من الغم عندما سمعت تلك الانباء المزعجة . وهنا ادركت أن النصائح التي تظاهر أمير البحر روبيك قائد اسطول البحر المتوسط باسدائها إلي عند زيارته للاستانة والمصاعب التي لا حصر لهـا والتي اقامتها شركة ارمسترونغ في طريق اتمام المدرعة - لم تكن سوى معاذير انفضحت من ورائها نية انجلترا التي كانت ترمى منذ زمن بعيد الى الاستيلاء عليهما .

ولو افترضنا ان للحكومة الانجليزيـة الحق في مصادرة المدرعات التي تبنى في احواضها في زمن الحرب لما كان لها أن تفعل ذلك معنا فانها لم تكن اشتبكت بعد بتركيا عندما استولت على هاتين البارجتين . بل لم تكن انجلترا شرعت في تعبئة جيشها واسطولها وقد طال وقتئذ الجدل حول تلك المسألة ونظراً لأن غلطات انجلترا هـذه اثارت ثائرة الانتقاد المر حتى لدى الساسة الانجليز انفسهم لا أراني في حاجة الى الخوض فيها هنا .

وكانت هذه الحادثة مسوغة لتعبئة جيشنا بل كانت بمثابة رد حاسم على سفراء دول الاتفاق الودي الذين زعموا أن ليس ثمة ضرورة لهذه التعبئة العامة وقد برروا عمل الحكومة العثمانية - كما سأبين فيما بعد - عندما سمحت للمدرعتين جون و برسلاو بدخول بحر مرمره .

(طواف جوبن و «برسلاو»)

(في الدردنيل ووصولهما الى الاستانة)

جعل عدد من الضباط الالمان - وخصوصاً ياور المارشال فون ساندرس - الذين سمعوا بالمعاهدة الالمانيه ولكنهم لم يعرفوا السبب الذي دعا تركيا الى اعلان الحياد يدلون إلي بآراء غير معقولة وغير مناسبة وكنت ارى فى أعينهم نظر الكراهة لشخصى بل العداوة اذ هم كانوا يحسبون اننى من الفريق الذي منع الحكومة من دخول الحرب فور اعلانها . ولما لم يجرؤا بالطبع على اظهار عدم الاحترام ظللت اعمل كما لو لم اتوسم فيهم سلوكهم العدائى .

فوقفت ذات يوم بقرب الميناء تجاه قصر الصدر الاعظم . وقد مرت فى ذلك الوقت نقالة آتية من روسيا ملأى بالجنود فاخترقت البوسفور فى طريقها الى بحر مرمره وكان بجانبي عدد من الضباط الالمان ولفيف من مستخدمى السفارة الالمانية فتناول حديثهم تلك النقالة فقال أحد ياوري المارشال ساندرس بصوت مرتفع لم اتمالك سماعه (لو أن سعادة وزير بحرية تركيا لم يسمح لهذه النقالة باختراق الدردنيل لخف العبء على اخواننا فى الميدان الغربى بما لا يقل عن ١٤٠٠ جندي فرنسى . فكل هذه التدابير المنتجة فى يد سعادته وحدة !) .

فتظاهرت بعدم سماع تلك الملاحظة وواصلت السفينة سيرها .

وفى يوم ٨ آب سنة ١٩١٤ حضر الى الوزارة الكابتن هلمان الملحق البحري للسفارة الالمانية فاخبرنى ان الاسطول الالمانى فى البحر المتوسط يطارد الاسطول الانجليزي وانه ينسحب فى اتجاه الدردنيل . وبما ان فحمه قد نفد - وخصوصاً فحم جوبن - قد ارسل اليهما الفحم من الاستانة . ونظراً لأنه لا يوجد الكفاية من الفحم الانجليزي فقد طلب أن اسلفه نحو ستة آلاف طن

من الفحم من مخازننا البحرية . فاسرعت الى التليفون وسألت الصدر الاعظم وانور باشا وطلعت باشا رأيهم .

فاجابوا بالموافقة . فاصدرت الامر بأن يعطي القسم المطلوب من مخازن ديرنجي وارسلت طائفة من العمال لتساعد فى تحميل المدرعة . وقد تم تحميلها فى بضع ساعات وخرجت الى بحر ايجه .

وفى مساء ١١ آب اجتمعنا كالمعتاد فى قصر الصدر الاعظم لتناول العشاء وكنت وطلعت وجاويد اول من حضر . ولما استقر بنا المقام جاء أنور باشا فحيانا بابتسامته الهادئة المألوفة قائلا : ـ لقد ولد لنا ولد ـ فلم نفهم مراده لأول وهلة ولكنه اشفق علينا من القلق فقال : (لقد لاحظت جوبن وبرسلاو صباح اليوم بالقرب من الدردنيل ولما كان الاسطول الانجليزى يطاردهما طلبتا أن نأذن لهما باجتياز المضايق) فصرحت لهما بذلك لأنى لم اشأ تعريض مدرعتين لدولة محالفة لخطر محقق وهما الآن فى الدردنيل تحت حماية قلاع المضايق . وقد اصبحنا بناء على ذلك ازاء مشكلة سياسية . فمن الواجب أن نصل الى قرار حاسم هذا المساء !!

والواقع ان المسألة كانت دقيقة فان مدرعتين تابعتين لاحد المتحاربين التجأتا الى المياه التركية .

فالحياد يقضى علينا اما بمطالبتهما بمغادرة مياهنا فى خلال اربع وعشرين ساعة واما بأن ننزع سلاحهما ونعتقلهما فى احدى موانئنا .

فبصفتنا حلفاء المانيا لم يكن فى استطاعتنا التفكير فى الحل الاول لأنه كان بمثابة تسليم البارجتين للعدو . وفضلا عن ذلك فان مثل ذلك العمل كان مناقضاً لمصلحتنا ولو أجبنا على السواء .

ومن جهة أخرى كان من المحقق أن يرفض الالمان نزع سلاح المدرعتين ومن هذه الوجهة حق للحلفاء أن يعتبروا عملنا عدائياً

فيعلنوا علينا الحرب وبالطبع كان المتوقع ان يحصل هذا عاجلا أو آجلا فلا نرى محيصاً وقتئذ من الاشتراك فى الحرب . ولكن حالة الجيش اقتضت تأجيل التدخل الى اقصى حد مستطاع .

وفى تلك اللحظة دخل السفير الانجليزي والسفير الفرنسى فى حالة تهيج شديد ليحتجا للصدر الاعظم على مرور المدرعتين فى الدردنيل وعلى جرأة ربانيهما فى تفتيش احدى سفن البريد التى غادرت ميناء الاستانة فى الليلة السالفة وعلى ظهرها عدد من الركاب الفرنسيين . وقد زعما ان ذلك مناقض للحياد الذى اعلنته الحكومة الشاهانية .

فبعد مناقشة طويلة قررنا أن نطلب الى الحكومة الالمانية الموافقة على نزع سلاح المدرعتين سطحياً بصفة موقتة . فذهب طلعت باشا وخليل بك الى السفارة الالمانية فى ترابيا لابلاغ قرارنا الى السفير فون فانجنهيم ثم عادا بعد ساعة واخبرانا ان السفير اعلن انه لن يوافق بحال من الاحوال على نزع السلاح .

نعم انه وافق على امتناع الحكومة العثمانية من الاشتراك فى الحرب تحت ستار الحياد بيد أنه يعتقد أن وصول المدرعتين الالمانيتين ـ اللتين اضطرتا الى الالتجاء الى المياه التركية ـ قد غير الموقف تغييراً تاماً . فاذا أدى ذلك الى التحرش الى قطع العلاقات السياسية أو الى الحرب مع دول الاتفاق فعلينا أن نعتبر ذلك كنتيجة منطقية للحوادث .

وهنا أظهر أنور باشا انضمامه الى رأى السفير ولكنى تشبثت ـ بقطع النظر عن العواقب ـ بضرورة الوصول الى حل وسط لنستطيع بواسطته نظراً لحالة جيشنا فى الوقت الحاضر أن نؤجل اشتراكنا فى الحرب الى اقصى أمد مستطاع .

وانضم الصدر الاعظم وجاويد بك الى رأيى ـ وأخيراً اقترح احدنا

حلا فقال : (ألا يمكن ان نكون ابتعنا هاتين المدرعتين من المانيا من قبل ؟ وألا يعتبر وصولهما بمثابة تسليم نص عليه الاتفاق ؟) .

فتنفس الجميع الصعداء . حيث أدركت الوسيلة لتسوية المشكلة بطريقة ودية ! فتقرر أن نسأل السفير الحضور الى قصر الامير لمعرفة ما اتفقنا على فعله . فارسل أحد ياوري أنور باشا الى السفارة ولم يمض اكثر من ربع ساعة - بعد منتصف الليل - حتى حضر السفير .

فدارت رحى المناقشة الحادة مدة ساعة بين الصدر الاعظم وطلعت باشا والسفير . فوعد الاخير بمخاطبة برلين فى الليلة نفسها والعودة الينا بجواب مرضي قبل الشروق وقررنا أن نبقى بقصر الصدر حتى يصل الجواب . وفعلا جاء الرد حوالي الساعة الرابعة صباحاً . نخولنا - على شرط قبولنا أمير البحر سوخون فى الخدمة التركية - أن نعلن اننا ابتعنا المدرعتين المذكورتين من المانيا منذ زمن بعيد . ولم يكن البيع حقيقياً بل صورياً !! فقد قيل لنا ان الامبراطور نظراً لعدم استطاعته بيع سفينة من سفن الاسطول بدون اقرار من مجلس الرشستاغ - يقول - ان البيع الحقيقى سيتم بعد أن تضع الحرب اوزارها وبعد أن يوافق الرشستاغ . واذ وجدت التسوية التى تنقذ الموقف تفرق الوزراء حوالي الساعة الخامسة . أما التفاصيل الخاصة بمواد الاتفاق فتركت لوزارة البحرية .

وفى صبيحة اليوم التالي ارسلت الى الصحف بلاغاً رسمياً أشرت فيه الى ابتياع (جوبن) و (برسلاو) ووصولهما الى الدردنيل واوعزت اليها أن تفيض فى وصف الظروف التى احاطت بالحكومة وكيف انها حصلت على مدرعتين أخريين عوضاً عن (السلطان عثمان) و (رشاد) اللتين سلبتنا إياهما انجلترا .

وهنا اعترضتني مسألة دقيقة وهي كيفية اخراج أمير البحر لمبس وضباطه

الانجليز من الاسطول بلا جلبة ولا ضوضاء . فطلع علي اليوم التالي بتقرير هنأ فيه الحكومة على حصولها على المدرعتين الجديدتين وقال : انه نظراً لوقوعهما تحت اشرافه مباشرة سيعين الضباط والبحارة المنتخبين فى خلال شهر ليقوموا بالمناورات اللازمة على ظهر هاتين المدرعتين اللتين تعتبران من احدث المدرعات . فطلبت الى امير البحر الحضور الى الوزارة للمباحثة فلما حضر سألته - نظراً الى التعب الذي لحق بأمير البحر الالمانى ورجاله مما جعل تاريخ مغادرتهم للمدرعتين غير مقرر - أن يصرف اهتمامه الى اعداد بيان باسماء الضباط والبحارة الذين سيعملون فى السفينتين .

وكأنما قضى حسن الطالع أن يبعث لمبس إلي بخطاب موجز اخبرنى فيه أنه يحتوى على صورة تقرير قدمه بالانجليزية للصدر الاعظم رأساً . فامرت بترجمته فالفيته يقترح فيه على الحكومة نظراً لحالة الاسطول والجيش الحاضرة أن تلزم خطة الحياد التام قائلا : ان الضباط والبحارة الاتراك تعوزهم تجاريب وتعليمات اربعة أو خمسة اعوام قبل ان يستطيعوا مباشرة السفينتين اللتين اشتريتا حديثاً) . فارسلت فى الحال الرد الى امير البحر اخبره بأن مهمته مقصورة على تنظيم الاسطول وانه مسؤول لدى وزارة البحرية مباشرة وان تقاريره يجب أن ترسل اليها رأساً . ولما كانت أمثال تلك التقارير خاصة بتنظيم الاسطول لا غير فليس ثمة ما يخوله ان يقترح على الحكومة العثمانية اتباع خطة سياسية معينة عند بحثه حالة الاسطول !

فجاء منه الرد فى اليوم التالي فاذا فيه (ان خطاب سعادتكم أوضح لي حقيقة الحال . وسآخذ حذري ألا اتجاوز فى المستقبل الحدود التى رسمتها لي. وعلى كل حال انى اشعر بتعب واكون شاكراً لك لو أجزتنى بمدة قصيرة أقضيها مع كريمتى التى تقيم فى ترابيا) .

فاخبرته بأنه قد اجيب الى طلبه ولكنى لفت نظره الى ما قد يحدث فى

خلال غيبته من سوء التفاهم فى الاسطول بين الضباط والميكانيكيين الانجليز والبحارة الاتراك وسألته تلافياً لوقوع امثال هذه الحوادث أن يرسل الضباط الى وزارة البحرية لتوزيعهم فى انحاء دار الصناعة .

ولم يمر يوم واحد على تنفيذ هذا الامر حتى خلا الاسطول من سائر الضباط البريطانيين وعلى ذلك صدرت الارادة الشاهانيـة بتعيين امير البحر سوخون فى خدمة الحكومة العثمانية ومنحه لقب قائد عام للاسطول الشاهانى وفى اليوم التالي دخلت (جوبن) و (برسلاو) بعـد تسميتهما بـ (ياوس) و (مديلي) - تخفق عليهما الرايـة العثمانية ميناء استانبول ورستا أمام طريق مودا .

وبعد أيام ذهب جلالة السلطان فى اليخت (ارطغرل) لاستعراض الاسطول بالقرب من جزيرة الامراء وقد انضمت اليه المدرعتان (ياوس) و (مديلي) نهائياً . ومن العبث محاولة وصف الحماس الذي استولى على اهالي الاستانة فى تلك الايام . فقد عظمت ثقة كل انسان باستعدادات الحكومة العسكرية وامل كل مسلم أن يعقد النصر بألوية الالمان والنمساويين . فلا جرم ان أثار مظهر الشعور العام هذا ثائرة الانجليز والفرنسيين والروس وسر به الالمان والنمساويون سروراً عظيما .

(محادثات مع سفراء)

(انجلترا وفرنسا وروسيا)

لم تكد المدرعتان (جوبن) و (برسلاو) تصلان الى بحر مرمره حتى اقفلنا البواغيز . وقد أدى بقاء البحارة الالمان على ظهر المدرعتين الالمانيتين الى احتجاج السفيرين الانجليزي والفرنسى على الحالة الجديدة اذ اعتبراهـا تتنافى وخطة الحياد . وكانت الاحتجاجات رسمية وشخصية . وقد أصر ممثلو

دول الاتفاق الودي الذين لم يعرفوا من امر التحالف شيئاً مع المانيا على دعواهم ان الالمان سيتخذون عاجلا أو آجلا من وجود مدرعتيهم وضباطهم العديدين فرصة لحمل الحكومة التركية على الاشتباك فى الحرب فهم يرون ان خير وسيلة للاحتفاظ بالحياد أن نقصى البحارة الالمان عن السفينتين ونعيدهم الى المانيا مع ضباط البعثة العسكرية . والواقع اننا لو كنا على الحياد التام لما احجمنا عن اتباع تلك الخطة . بيد أننا فى الحقيقة لم نعلن حيادنا الا لمجرد اكتساب الوقت ولم يكن قعودنا عن الاشتراك فى الحرب إلا ريثما تتم التعبئة العسكرية وفى الوقت نفسه قرر الوزراء فى اجتماعاتنا المعتادة فى قصر الصدر الاعظم أن أتصل بالسفير الانجليزي (السير لويس ماليت) وأن يتصل جاويد بك بالسفير الفرنسى وأن نسعى فى ازالة ما قد يعلق بأذهانهما من الشكوك حول المحالفة التركية الالمانية .

وفيما انا احادث السير لويس ماليت ذات ليلة فى منزله بترابيا اذا به التفت إلي قائلا : (هل لك أن تخبرنى يا جمال باشا بالمطالب التى تطلبها الحكومة العثمانية فى مقابل الاحتفاظ التام بالحياد التام الحقيقى الى نهاية الحرب ؟) .

فاجبته بأن ليس ثمة ريب فى حياد الحكومة العثمانية ولكنى أرى من الواجب علي عرض الأمر على الصدر الاعظم .

وعلى ذلك جرى البحث بيننا وبين الصدر الاعظم فوضعنا بالاتفاق معه الشروط الاساسية التى يمكننا بموجبها ان ننضم الى دول الاتفاق الودي . وهذه هى المطالب :

أولا — الغاء الامتيازات .

ثانياً — اعادة الجزر التى اخذتها اليونان منا .

ثالثاً — حل المشكلة المصرية .

رابعاً — توكيد بأن تحجم روسيا فى المستقبل عن التدخل فى شؤوننا الداخليـة .

خامساً — المعونة الانجليزية الفرنسية الفعلية فيما لو هاجمتنا روسيا .

هذا عدا طلبات أخرى .

وقد علمت من تلاوة عدة برقيات نشرت فى كتاب أزرق انجليزي بعد دخولنا الحرب ان السير لويس ماليت قد ابلغ تلك المطالب الى حكومةلوندرا فلم تمر إلا ثلاثة ايام حتى اجاب السير ماليت تفصيلياً على كل من المطالب السابقة :

فاما من حيث الامتيازات فقد قال : انه لا يمكن التفكير فى الغاء الامتيازات القانونية وان كل ما تستطيعه انجلترا هو أن توافق - بعد اجماع حلفائها - على الغاء بعض الامتيازات المالية .

وأما من حيث الجزر فيحسن ارجاء النزاع التركى اليونانى .

ثم يجدر ترك الخوض فى المسألة المصرية الى ما بعد انهاء الحرب لأن حلها متعذر الآن دون فتح الباب لاخطار عديدة .

واما روسيا فانها لا تفكر مطلقاً فى مهاجمة تركيا فضلا عن أن فرنسا وانجلترا بين الدول التى وقعت المعاهـدة التى ضمنت سلامة تركيا واذن يمكن تركيا أن تطمئن من هذه الجهة . كأننا انما طلبنا أن نستفسر عما اذا كانتا على استعداد لاعطائنا عهداً جديداً فى وثيقة سياسية .

وفى مقابل تلك الامتيازات طلب الينا عـــدم اغلاق البواغيز فى وجه السفن الروسية لأي سبب وان نأخذ على عاتقنا اعطاء روسيا كل التأكيدات اللازمة فى هذه المسألة المهمة . فلم يبق مجال للشك فى ان فرنسا وانجلترا لم ترغبا فى دخولنا الحرب فى جانبيهما لأن ذلك كان مخالفاً لمصلحتهما . فهما لم تطلبا اكثر من حيادنا التام ورد البحارة الالمان والبعثة العسكرية الى المانيا سريعاً

وفتح الدردنيل للسفن على ألا يغلق فى المستقبل وفى مقابل ذلك تعطى كل من فرنسا وانجلترا وروسيا الباب العالي وثيقة سياسية تضمن فيها سلامة الاراضى العثمانية وتوافق على ادخال تغييرات معينة فى الامتيازات المالية .

والذي أراه ان هذا الجواب كان صريحاً جداً . فان دول الاتفاق لم تردن اشتراكنا فى الحرب فى جانبها ولست أدري ما هو السبب فى ذلك ؟

فلو اشتركنا فى الحرب فى جانبها لضاعت من روسيا آخر فرصة لتحقيق فكرة الاستيلاء على الاستانة وهى مطمح نظرها فى المستقبل . وهو الأمر الذي لا تسلم به روسيا ولا فرنسا وانجلترا .

اذن فغرضها كان هكذا : لنسع الآن فى منع تركيا من القيام بشيء مضر بمصلحتنا وسنحتفظ فى غضون الحرب بالاتحاد مع روسيا لنصل بواسطته الى الفوز النهائى . ووقتئذ نرضي مطامع روسيا باعطائها الاستانة وتمنح الولايات العربية بحجة الاصلاحات استقلالا داخلياً يسهل فيما بعد سقوطها تحت حمايتنا أو وصايتنا) .

ومن ثم يسهل على القارىء فهم السر فى رفض انجلترا اقتراحي الثانى بالطريقة نفسها وللسبب عينه الذي رفضت لأجله فرنسا اقتراح المعاهدة الذي عرضته فى باريس .

وقد يقول قائل انه كان خيراً لنا أن نظل على الحياد ! واحسب ذلك القائل يشترط لحيادنا ألا نمنع الملاحة فى البواغيز ؟! بيد أن ذلك كان معناه خروج روسيا من الحرب العالمية ظافرة منيعة الجانب بحيث لا تحجم عن الانقضاض على الاستانة والولايات الشرقية فى الاناضول .

بل قد يقال : انه كان فى الاستطاعة اقفال البواغيز والاحتفاظ بالحياد بيد أن الاتفاقية لم تكن تسمح بذلك كما لم يكن من المنتظر أن تسمح به انجلترا وروسيا . فقد كان من المؤكد أن يؤدي مثل ذلك العمل الى الضغط علينا من

كل جهة بل الى أن يقترح البعض علينا اقتراحاً غريباً كهذا (دعونا نحتل الاستانة والبواغيز الى أن تضع الحرب اوزارها ووقتئذ نعيدها اليكم) .

ولا أظن ان دول الاتفاق تتهاون فى الانتقال من الاقوال الى الافعال

وباختصار لم يبق امامنا سوى طريقين : اما ان نتحالف مع فرنسا وانجلترا فنعلن الحرب على دولتى الوسط وبهذه الوسيلة نتقي خطر مهاجمة روسيا لنا واما أن ننضم الى دولتى الوسط ونساعد على تحطيم روسيا . وبعد أن أبت انجلترا وفرنسا التحالف معنا طلبنا أن نظل على الحياد وأن تبقى البواغيز مفتوحة لاعدى اعدائنا !! أما دولتا الوسط فكانتا على عكس ذلك اذ انهما رجوتا بانضمامنا اليهما رغم تمتعهما بالقوة الكافية لسحق روسيا .

ولكنهما فى الوقت نفسه طلبتا أن نضع أقصى ما نستطيع من العقبات فى طريقها . فبواسطة تلك الخطة امكننا أن نعلل النفس بالامل فى رؤية عدونا تدور عليه الدائرة . وبالطبع لم يفتنا التفكير فى أن دولتى الوسط قد يعبس لها الدهر ووقتئذ يصبح نزول الكوارث بنا أمراً محققاً . بيد أن الحقيقة التى لا ريب فيها أيضاً هو اننا لو لزمنا الحياد وابقينا البواغيز مفتوحة لكان لفوز عدونا المبين نتيجة غير القضاء المبرم علينا .

فليتقول المتقولون مايشاؤون عند استعراضهم الحوادث الماضية ولكنى بلا جدال اوثر على الوقوع تحت نير روسيا وفرنسا وانجلترا بعد فوز روسيا - الدفاع عن انفسنا الى آخر قطرة من دمائنا أملا فى تحرير رقابنا الى الابد - وهو البذل الوحيد الذي يرتضيه شعب شجاع عظيم . أو لنستطيع على الاقل أن نقول بلهجة الفخار (أجل لقد فقدنا كل شىء عدا الشرف !) وبهذه الصحيفة البيضاء نختم تاريخاً وطنياً لم يقم إلا على الشرف والشجاعة وتتدفق صحفه بحسن السمعة والمجد .

وعندي بل هو رأى الاغلبية العظمى من الشعب التركى - ان القتال الذى

خضنا غماره فى خلال اربعة اعوام انتج حوادث تستوقف النظر جديرة بامجد الصفحات فى تأريخ ارقى الشعوب واعلاها كعباً . ومن هذه الحوادث الدفاع الباهر عن الدردنيل وسلمان باك وحصار كوت الامارة ووقائع غزة والدفاع عن المدينة المنورة .

وبالطبع لا اوجه هذه الكلمات إلا لاولئك الذين يؤثرون الشرف على الحياة نفسها . أما اولئك الزعانف الذين يقيمون على الضيم ولا يأنفون من الذل متى كان من ورائه طول اعمارهم ولو بضعة ايام فلا احسبهم يقدرون ما اقول فانهم يتخذون من الموقف العصيب الذى ساقنا اليه القدر وسيلة للتزى بوشاح الحكمة ولتعييرنا بقولهم : (ألم ننبئكم بهذا من قبل ؟) فلو أصغيتم الينا ولزمتم الحياد لما فقدنا كل تلك الارواح بل لما كنا الآن فى ذلك الموقف المحزن .

فلأمثال اولئك الزعانف نقول : (ان من المستحيل أن نتفق فى الرأى مع أناس لا يدركون ان السقوط فى ميدان القتال شىء والموت فى ظل الخنوع والاسر شىء آخر) .

وقد أدت احياناً علاقاتنا الخاصة مع سفيرى فرنسا وانجلترا الى الخوض فى كثير من المناقشات اللذيذة . من ذلك انى كنت احادث السير لويس ماليت ذات يوم فاخبرنى بأنه لا يرتاب مطلقاً فى أن انور باشا قد انضم الى الالمان واصبح مشايعاً لهم وانهم ربما رغبوا فى تسخير ضباطهم وخصوصاً ضباط جوبن وبرسلاو لاحداث حادث يجعل وقوع الحرب امراً لا مفر منه . فاخبرته بأن الرأى السائد فى الوزارة هو الاحتفاظ بالحياد وعلى ذلك ليس ثمة خطر ما .

فقاطعنى قائلا : (كلا ! يا جمال باشا ! انك واهم ! فانى على يقين من ان الالمان لن يحجموا عن القيام بأى شىء - حتى بقلب الحكومة - لادراك غايتهم

وقد يعتقلونك فى احد السجون ولا يدرى أحد ماذا يحدث بعد ذلك !) .

فاجبت بابتسام على هذه الملاحظات الساذجة قائلا : (لطالما فكرت فيما عساي أن اصنع لو ساورتنى مثل تلك الشكوك . لا ريب انى فى تلك الحالة أفتح الدردنيل بصفة كونى وزيراً للبحرية واسمح للاسطول الانجليزى بالمرور واترك لك قمع الثورة التى تنشب فى الاسطول !)

ومن المدهش حقاً أن يعتقد هذا السياسى الانجليزي الحاذق صحة اقوالي هذه الى حد انه ابلغ هذا الاقتراح السخيف وزير الخارجية كما علمت بذلك من الكتاب الازرق .

وقد قيل فى الوثيقة الاربعين من الكتاب الاحمر الروسى اننى اعطيت بارون جيرس : (كلمة شرف بأن اسحب بحارة جوبن وبرسلاو عقب محادثتنا باسبوعين) . واحسب ان البارون ان لم يكن يرغب فعلا أن يقول غير الواقع لابد أن يكون فاه بتلك العبارة لا لغرض آخر سوى ارضاء رؤسائه لأنه لم يكن ثمة ما يلزمنى على اعطاء ذلك التأكيد الشخصى فضلا عن أن من عادتى عدم التكلم إلا اذا اقتضت الضرورة .

(دخولنا الحرب)

وفى الوقت نفسه كانت تجري اجراءات خطيرة . فان مجلس الوزراء - الذي اعتاد الاجتماع كل مساء - وصل الى قرارات مختلفة متممة للمحالفة الالمانية التركية وطالب المانيا باقرارها .

وكان اقصى ما تمنيناه أن تشترك بلغاريا فى الحرب . وقد وصلت الينا من محمود مختار باشا سفيرنا فى برلين البرقية الآتية : (لما عرضت المحالفة التركية الالمانية بتوقيع جلالة السلطان على امبراطور المانيا اشار الى عظم المزايا التى تعود على الامتين وقال - ووجهه متهلل بابتسامة الفرح : (والآن لاخبرنكم باخبار

سارة اخرى . فمنذ صباح اليوم وصل الي خطاب من ملك بلغاريا ذكر فيه انه يرغب فى عقد تحالف معي !) .

ففرحنا بذلك النبأ فرحاً شديداً لأن البلغاريين لم ينبسوا فى خلال الاشهر الستة الماضيه بكلمة واحدة عن المفاوضات لعقد تحالف معنا واصبحنا نعتقد بأنهم لو انضموا فى الحرب الى صفوف دول الاتفاق لكانت فى ذلك الطامة الكبرى علينا . فلما مضى شهران على اعلان الحرب ولم يقم البلغاريون بعمل ما ثبت عندنا انهم خدعوا الالمان كما خدعونا .

وانضم المندوب البلغارى توشيف - الذي كانت علاقتنا معه ودية وثابتة - الى الرأي القائل - بأن من الحمق أن تشترك بلغاريا فى الحرب قبل أن تعرف كيف تنتهي - وقد أصم اذنيه عن كل نظرية أخرى .

وكان الالمان قد وافقوا - كما اسلفت - على التزامنا الحياد حتى تتم تعبئة جيشنا وعلى تأجيل يوم دخولنا الحرب الى أبعد حد ممكن بيد أن جنودهم لما اضطروا الى الانسحاب قليلا بعد هزيمة المارن وتحولوا من الهجوم الى الدفاع بينما الجيوش الروسية توغلت فى زحفها المظفر المخرب فى بروسيا الشرقية وانقضت على غاليسيا أيضاً فتغير مركز المانيا تغييراً كلياً واخذت تلح علينا فى دخول الحرب فى الحال لحمل روسيا وانجلترا على ابقاء قوات كبيرة فى القوقاز ومصر .

واخذت المساعي التى استند في بذلها السفير الالمانى لدى الصدر الاعظم والوزراء الى نصوص المعاهدة صفة الامر . على أن تعبئتنا كانت قد تمت فى ذلك الوقت وأصبحت فيالقنا كلها على أهبة النزول الى الميدان عند أول اشارة من القائد العام . وجرى تمرين الوحدات المختلفة بلا انقطاع حتى انه ما كاد يخلو يوم واحد من مناورات تقوم بها الفرق والفيالق حول الاستانة واشقودره .

وهنا بدأنا نعترف بصدق نظر أنور باشا اذ كان قد أصر على ان اعادة تنظيم الجيش يجب أن تبدأ باصلاح (الكادر) فقد شوهدت النتيجة فى خفة الوحدات الكبيرة التي سلم قيادها الى ضباط من الشباب ذوي دراية تامة بالخطط وفن التعبئة . فلما علم الالمان بهذه النتائج رأوا أننا لا يسعنا ولدينا مثل ذلك الجيش المنظم تنظيما بديعاً أن نقف مكتوفى الايدي نشاهد الكوارث التى تنزل بالنمساويين والالمان .

وهنا يجب أن اسأل القارىء عفواً اذا خرجت قليلا عن الموضوع ذلك ان اشاعة راجت فى الاستانة حوالي ذلك الوقت مؤداها أن انور باشا أصر على عقد محالفة مع المانيا واعلان الحرب على روسيا وانى تشبثت بعدم تغيير خطة الحياد مهما كانت الاسباب . ولقد قيل ان النزاع تفاقم امره الى حد ان انور باشا هددنى بمسدسه على مرأى من الوزراء وانني كنت اسبق منه فجرحت قدمه . ووجه الغرابة هو أن نجد مثل تلك الخرافة طريقاً الى كتاب المستر مورغنتاو . ووددت لو اعرف هل كان ذلك السفير الامين الذي يبني معلوماته على امثال تلك الاشاعات السخيفة يحمر وجهه خجلا لو حمل نفسه على قراءة كتابه بعد وقوفه على ما كتبت هنا .

واحسبني مديناً له لتخويلي هذه الفرصة لاعرفه انه ما كان انور ليخطر له ولا لطلعت ولا لسواهما من الزملاء أن ينطلق لسان واحد منهم بلفظة جارحة ـ فضلا عن استعمال السلاح ـ سواء فى الوقت الذي عملنا فيه معاً كثوار لقلب الحكم الاستبدادي الحميدي أو فى خلال الفترة التى كنا فيها فى الوزارة . فلم ننشأ من اصل وضيع مجهول كما يعتقد المستر مورغنتاو ـ ويريد حمل الغير على ذلك الاعتقاد . فان بعضنا أتم دراسته فى الاكاديمية الحربية وكثير منا تخرج من الجامعات التركية والاوروبية . ولم يكن طلعت أحد سعاة البريد كما ادعى السفير بل لحق بكلية الحقوق بعد مغادرته المدرسة . فمن

السخف أن يخطر لانسان اننا نمت الى طبقة المجرمين .

فلم يعد الآن فى وسعنا الاعتذار عن دخول الحرب بعدم اتمام تعبئة جيشنا . ثم اعترضتنا المشكلة المالية . ذلك اننا لم نجن فائدة مباشرة من الغــاء الامتيازات بقانون موقت لأن ايراد الـكمارك هبط الى ربع ما كان عليه قبل الحرب .

ولما كان القسط الاول من القرض الذي عقدناه فى فرنسا لا يكفى إلا لسداد مصروفات الحـكومة حتى نهاية العام قررنا أن نطلب الى الالمان تسوية المشكلة المـالية .

ففى يوم ١١ تشرين أول وصلت إلي من السفير فانجنهيم دعوة خاصة للغداء فى السفارة فى ترابيا . فلما وصلت الى هناك وجدت الصدر الاعظم وطلعت وخليل وانور ثم حضر أيضاً فون كليمان الذي عين حديثاً مستشاراً للسفارة . وبعد الغداء دخلنا غرفة السفير الخاصة . فاسر الينا فانجنهيم وعلامات الحزن بادية عليه ان المانيا قبلت كل شروطنا التالية وحدق فينا نظره كأنما كان يقول : (ارجو ألا تضعوا عراقيل جديدة !) .

فما قال به المخرفون - من أننا وقعنا المحالفة ذلك اليوم فى السفارة محض اختلاق . اذ المعاهد - كما قلت آنفاً - كانت قد امضيت فى بدء الحرب فلم يك ثمة ما نوقعه ذلك اليوم . وفى اليوم التالي بحثت الهيئة الداخلية فى مجلس الوزراء الحالة العامة من كل وجوهها . وقد بدا لنا فى بدء الاجتماع رأيان :

أولا - دخول الحرب بلا ابطاء .

ثانياً - ارسال خليل بك صحبة حقي بك ووكيل هيئة اركان حرب لاقناع الالمان بضرورة التزامنا الحياد مدة ستة اشهر اخرى .

فانضم جاويد بك الى الرأي التالي وأخذ بقية الوزراء بالرأي الأول وقد ظهر الصدر الاعظم لأول مرة بمظهر التردد .

وهنا اخبرنا انور انه - نظراً للاحتجاجات العديدة الحقة التى احتج بها أمير البحر - لايستطيع لاسباب حربية ان يحول دون طواف جوبن و برسلاو فى البحر الاسود . غير ان سفر هاتين المدرعتين مع المدرعات العثمانية يقتضى حتما اشتراكنا فى الحرب .

أولا - لأن حكومات الاتفاق لم يعتبروا جوبن و برسلاو تابعتين لتركيا فضلا عن انهم صرحوا رسمياً بأنهما لو اجتازتا البواغيز - حتى لولم ترفع عليهما الراية الالمانية وكان البحارة الاتراك هم الذين على ظهريهما فستعاملان معاملة السفن التابعة لدولة معادية . أى انه اصبح من المحتم ان يهاجمهما الاسطول الروسى لسبب من الاسباب فان امير البحر سوخون الذى كان شديد الرغبة فى اشتراكنا فى الحرب يستطيع ان يلزمنا بدخولها بأن يهاجم الاسطول الروسى او الموانىء الروسية بمحض ارادته .

وبعد مناقشة قصيرة تقرر ان نرسل خليل بك وحافظ حقى بك الى برلين وتخويل نائب القائد العام حق تناول مسألة الاسطول على ان يتجنب فى نفس الوقت كل ما من شأنه أن يؤدى الى دخولنا الحرب .

ولكننا اضطررنا بناء على تقرير ارسله الينا امير البحر سوخون ان نرضخ للحقيقة التى اوردها وهى ان المهاجمة التى احكم الاسطول الروسى تدبيرها حتمت عليه الاصطدام بالاسطول وبذلك اعلنت روسيا - ومن بعدها فرنسا - الحرب على الحكومة العثمانية .

ولما وصلت الانباء الى الاستانة بأن الاسطول التركى بعد ان هاجمه الاسطول الروسى فى البحر الاسود اطلق بدوره نيرانه على اودسا وسباستبول وتيودوسيا وبعض موانىء اخرى وجدنا الصدر الاعظم فى حالة عقلية غريبة واذ كان ممانعاً فى دخولنا الحرب ابى بشدة تحمل قسط من المسؤولية عن حرب كان من المحتم ان تؤدى مهاجمة اسطولنا للاسطول الروسى والموانىء

الروسية الى ايقاع المسؤولية على الحكومة . وكانت عطلة عيد الاضحى وقتئذ وكنا نجتمع فى قصر الصدر كل يوم فاعلن سعيد باشا حليم ان يستقيل فى الحال اذا ادت هذه المهاجمة الى الحرب . فبادرنا بلفت نظره الى انه بعد توقيعه المحالفة مع المانيا وانضمامه منذ ايام قليلة الى القرارات التى نصت على تعهدات تركيا حيالها لا يمكنه الاستقالة الآن بسبب وقوع حادث لا يعتبر إلا نتيجة طبيعية . فازاء هذا المنطق المسكت والمحاجة المقنعة التى لم تترك له جواباً قبل الصدر الحالة كما هى وعدل عن الاستقالة .

وفى اليوم الذى اعلنت فيه روسيا وفرنسا وانجلترا بدء العداوة عقد مجلس الوزراء فى الباب العالي جلسة فوق العادة .

فبين سعيد حليم باشا وهو يشير الى الحقائق التى تضمنها تقرير امير البحر سوخون كيف قابل اسطولنا عقب مهاجمة الاسطول الروسى لبوارجنا فى البحر الاسود العدوان بمثله فنازل السفن التجارية والحربية فى اودسا وسباستبول والموانىء الاخرى . فترتب على ذلك ان اعلنت روسيا اولا ثم فرنسا وانجلترا فيما بعد الحرب على الحكومة العثمانية . وحفظاً للعلائق الودية واجتناباً للعدوان اقترحت الحكومة التركية عمل تحقيق مشترك لمعرفة أي الاسطولين كان البادىء بالعدوان لجعل قائد الاسطول مسؤولا شخصياً ولكن الحكومة الروسية رفضت ذلك الاقتراح . فاضطرت الحكومة التركية ازاء هذا الرفض ان تعتبر نفسها فى حالة حرب مع الحكومات الروسية والفرنسية والانجليزية وان تعرض الامر على جلالة السلطان . ثم طلب الصدر الاعظم ان يبدي الوزراء رأيهم بمنتهى الصراحة بلا خوف ولا محاباة .

فكان اسبقهم الى الكلام اسكان افندى وزير البريد والتلغرافات فقال : انه من اجل كراهيته للحرب وبغضه لها لا يستطيع التوقيع على قرار توافق فيه الحكومة العثمانية على الاشتراك فى الحرب وعلى ذلك هو مستقيل . اما

لو حولت وزارة البريد والتلغرافات الى مصلحة فانه يستمر في عمله بصفة كونه مديراً عاماً .

ثم تكلم سليمان افندي البستاني وزير الزراعة والتجارة فقال : انه بصفة كونه عضواً فى (جمعية السلام الدولي) يعارض فى الحروب باسرها ويرى نفسه مضطراً الى الاستقالة .

وتلاه شوروك سولو محمود باشا فقال : انه نظراً لعين الارتياب التى ينظر اليه بها زملاؤه يلتمس قبول استقالته .

ولم يكن جاويد بك حاضراً المجلس ولكن طلعت باشا قال لنا انه (جاويد) مصمم على الاستقالة .

ثم غادر الوزراء المستقيلون قاعة المجلس . وشرع الباقون وهم سعيد حليم باشا الصدر الاعظم وخيري افندى شيخ الاسلام وانور باشا وزير الحربية وطلعت باشا وزير الداخلية وابراهيم بك وزير الحقانية وخليل بك رئيس مجلس الدولة وشكرى بك وزير المعارف وكذلك أنا فى كتابة القرار الذى بينا فيه الضرورة القاضية بدخولنا فى الحرب ثم عرضنا على جلالة السلطان

ونظراً للاغلبية الساحقة فى مجلس المبعوثان والاعيان التى وافقت على الحرب واعربت عن ثقتها بالحكومة أيقنا ان الامة بأسرها تؤيد الحكومة فى سياستها الخارجية .

وفى اليوم الذى وضعنا فيه القرار واعترفنا فيه بوجود حالة حرب بيننا وبين دول الاتفاق قمت بمناورات للفيالق بالقرب من اشقودره فيما بين اوجاديه شاه وميدان جاوران كوى .

اما الوحدات التى اشتركت فى المناورة فكانت الفرقة الثالثة بقيادة الكولونيل الالمانى نيكولاى بك والفيلق الخامس بقيادة الكولونيل محمود كامل بك . ولن انسى مظاهر الشعور الوطنى والحماس الحربى اللذين اظهرهما

جميع ضباط الفرق الاربع عندما بلغتهم نبأ نشوب الحرب . وقد ارسلت اليهم بصفة كونى القائد العام للفيلق طالباً حضورهم الى تل اشماليدجا لابداء ملاحظاتهم على المناورات التى لبثت يوماً وليلة وانتهت فى الفجر بالهجوم على التل الذى كانت تدافع عنه الفرقة الثالثة .

وكان ضباط ورجال تلك الفرق الاربع من ضمن افراد الشعب التركى . فالذين لم يشاهدوا سرور الجنود وحماستهم وبلغت بهم الجرأة الى أن يتقولوا الآن بأن الشعب التركى لم يكن راغباً فى الاشتراك فى الحرب أما أن يكونوا مدفوعين بعوامل خسيسة واما بدافع الجبن وقصر النظر .

أما التغيير الذى حصل فى الوزارة فكان قاصراً على استلام الاميرعباس حليم باشا مهام وزارة الاشغال واحمد نيسبورى بك وزارة الزراعة . أما طلعت باشا الذى ما زال عضواً فى الوزارة فقد استلم وزارة المالية موقتاً كما استلم شكرى بك وزارة البريد والتلغرافات .

الفصل الرابع

(تعييني قائداً للجيش الرابع)

دعاني انور باشا الى منزله ذات يوم ولم يكن مر على دخولنا الحرب اكثر من عشرة ايام . وقد لزم الفراش من اجل خراج في قدمه . وبعد ملاحظات قليلة عن الحالة العامة قال لي :

(انني ياجمال باشا اريد الشروع في مهاجمة قناةالسويس لارغم انجلترا على ابقاء قوات كبيرة في مصر وبذلك لا اكون قد حملتها على أن تترك هناك عدداً من الفرق الهندية التي ترسلها الآن الى الميدان الغربي فحسب بل اكون قد حلت دون حشدها قوة ايضاً لانزالها فى الدردنيل .

(ورغبة في اتمام ذلك المشروع اخذت اعد العدة فى سورية منذ شهر أو اثنين . وقد انطت بالفيلق الثامن الذي يقوده ميرسبتلي جمال باشا القيام بتلك المهمة . وبما أن الالمان يعلقون على انفاذ ذلك المشروع اهمية كبرى قد عينت اللفتننت كولونيل فون كريس بك رئيساً لهيئة اركان الحرب وارسلته الى دمشق كملحق للبعثة العسكرية الالمانية . واخبرته بأن مهمته الاولى هى اعداد المعدات للحملة على القناة . وارسلت ياوري الماجور مير نيتاس بك وعابدين رحمن بك عضو مجلس الأعيان والشيخ اسعد شقير وغيرهم من وجهاء العرب مزودين بالأوامر اللازمة لتكوين فيلق مساعدمن البدو . وقد أصدرت الأوامر لزكي باشا الذي يقود الآن الفيلق الرابع بأن يقوم بالدفاع عن سورية وفلسطين فقط الى أن يتم جمال باشا بصفة كونه قائد الفيلق الثامن

تعبئة فيلقه ويهيء الهجوم على القناة . والآن هذا زكي باشا فضلا عن انه لا يريد القيام بهذه الحملة يطالب فعلا بنجدات كبرى لحماية سورية ضد انزال قوة معادية . وتدل الانباء الواردة من سورية على وجود هياج في داخلية البلاد مضافاً اليه النشاط العظيم الذي يبديه الثوار العرب . فنظراً لهذه الظروف اعتقد ان وطنيتك العالية قد تحملك توافق على قبول قيادة الجيش الرابع . فان قبلت فعليك بتهيئة وتنفيذ الهجوم على القناة مع الاحتفاظ بالسلم والنظام في داخل سورية ولا اعرف هل يعـد من الجرأة أن اعرض عليك ذلك الاقتراح ؟) .

فاجبت فوراً :

(اني ارى واجبي المقدس يحتم علي الذهاب ايما تظن أن مواهبي تكون في خير الوطن . وعلى ذلك اني بكل ارتياح اقبل قيادة الجيش الرابع التي عرضتها علي وسأقصد الى مقر وظيفتي الجديدة في يوم أو اثنين) .

فتهلل وجه انور باشا فرحاً بجوابي . وفي المحادثة التالية حصلت على الحرية التامة في العمل التي يخولها القانون لأي قائد في الجيش . واحتفظت بلقبي الاسبق وهو وزير البحرية ثم استلم مني انور باشا الوزارة على شرط أن يستشيرني ولا يعمل شيئاً ما إلا بموافقتي في كل الاصلاحات والتحسينات المراد ادخالها فيها .

ثم ذهبت من هناك الى المدرسة الحربية وهي مركز قيادة الجيش الرابع وبصفة كوني وكيل القائد العام عينت رئيس هيئة اركان الحرب ورؤساء الاقسام ـ الاول والثاني والثالث وعدة ضباط آخرين . وقد انبأتهم بتعييني قائداً للجيش الرابع وكلفت الكولونيل فون فرانكنبرج رئيس اركان الحرب

باعداد ما يلزم لرجالنا في اقرب وقت . وبعد أن تم كل شيء - أي بعد اربعة او خمسة ايام - غادرت محطة حيدر باشا في يوم ٢١ تشرين ثاني قاصداً سورية .

وقد القى أحد الفضلاء الذين حضروا لوداعي خطاباً مؤثراً قال فيه : ان الامة تنتظر مني اعمالاً عظيمة وانباء سريعة بالانتصار . فتعين علي أن أجيب على ذلك الخطاب . فقلت : (انني اقدر تماماً عظم المهمة والمصاعب الكبيرة التي امامي . فان لم تدرك هذه المطالب وصرت أنا والرجال البواسل الذين معي جثثاً هامدة بالقرب من القناة فعلى اصدقاء بلادنا الذين يحلون محلنا أن يسيروا فوق جثثنا لتحرير مصر - وديعة الاسلام - من ايدي المغتصبين الانجليز) .

ومنذ ذلك الحين وصل الى علمي أن عدداً من اعدائي استخدموا هذه الكلمات لترويج هذه المغالطة وهي : (كيف يجرؤ جمال باشا على العودة من مصر ؟ ألم تكن مهمته طرد الانجليز أو الموت ؟ فلماذا لم يمت ؟) .

وان ما اقوله في هذا الكتاب سيساعدهم على معرفة انه ان كان هناك عيب في بقائي حياً حتى الآن فليس بعائد إلي اذ لا يموت الانسان قبل فراغ اجله - وما يدريهم لعل سوء الحظ قد قضى ان ابقى حياً لأتحمل غصصاً وغماً اكثر مما اتحمل في النزاع الذي لا ازال متأهباً لدخوله لمنفعة الوطن ؟!

بيد اني لست ادري ماذا كان هؤلاء الشانئون يريدون مني ؟ هل كانوا يريدون ان اقول لجمهور المودعين : (ايها الاخوان ! انني ذاهب الى سوريه بمهمة طرد الانجليز من مصر ولكن مواردنا لا تكفي لتنفيذ ذلك المشروع . وعلى ذلك فسأعود فيما بعد الى الاستانة آسفاً نادماً اعض اليدين

دون أن احقق شيئاً مطلقاً . فارجوكم أن تسكبوا الدمع من الآن انتظاراً لذلك اليوم الاسود . ولم لا - اذا كان القدر بهذا جرى ؟ ! !

كلا ! ثم كلا ! فان كنت لم انجح فى طرد الانجليز من مصر فقد كان من الممكن على الاقل - كما سأبين فيما بعـــد - لولا خيانة الشريف حسين المستترة (الذي ارتكب اكبر جناية لا تغتفر - ضد العالم الاسلامي) النجاح فى منع الغاصبين من القيام بأي عمل عدائي ضد فلسطين وسورية ولأدى ذلك الى بقاء مئات الرجال الذين يتكون منهم الجيش الانجليزي خاملين فى مصر.

لقد كانت خيانة الشريف حسين السبب الذي منع تحقيق ذلك المشروع الجليل فانها شتتت الاختين الاسلاميتين الامة العربية والامة التركية . فان خيانته جعلت العرب ارقاء للانجليز والفرنسيين واضطرت الاتراك أن يقاتلوا اغلظ اعدائهم قلباً في معركة لا امل في نجاحها .

وسأدعم فيما بعد اقوالي هذه بالبينات الرسمية .

ولم تمر على مغادرتي الاستانة ست وثلاثون ساعة حتى رأيتني في قونية حيث استقبلني الحاكم العام عزمي بك والاهالي خير استقبال . ثم انتهزت الفرصة فزرت ضريح مولانا جلال الدين الرومي وتعرفت بسعادة ولد شلبي افندي فسألته وانا اصافحه مصافحة الوداع عما اذا كان يرغب في الانضمام الى الحملة المصرية ومعه فيلق من المتطوعين ؟ انه وايم الحق ما ونى فانى ما كدت انصرف عنهم واصل الى سورية حتى نفر اليها ولد شلبي يقدم قوة مسلحة حشدهـا تحت اسم (كتيبة المولوية المتطوعين) . ولا يمكنني ان اوفيه حقه من الثناء على وطنيته . حقاً انها لوطنية صادقة . اذ انه رغم كونه كان معتل الصحة وكان قد رزىء بوفاة زوجته التي عاش معها اعواماً طويلة لم يلبث أن حقق

ظني فيه . وقد ادى الشبان الذين تألفت منهم كتيبته اجل خدمة للجيش .

وغادر الاستانة معي احمد راسم بك الذي اعتبره من خيار الصحفيين الاتراك وفي خلال الزحف على القناة حضر الى بير السبع مصاحباً للقيادة العامة . ثم بقي معنا في القدس حيث كتب عدة من المقالات المهمة عن سياستي في سورية تحت عنوان (سياسة الجيش) . ولا استطيع ان اغفل ذكر اسم ذلك السيد الجليل الذي كانت صحبته دائماً نافعة لي .

وحضر الى مركز القيادة سيدان آخران متطوعين . الاول فؤاد سليم بك الذي كانت وطنيته مثلا صالحاً وبرهن على اخلاص تام عند قيامه بمنصب الوكيل العام في اسلانيك بعد الحرب البلقانية . وأما الآخر فهو الدكتور فؤاد - المصري - وكان موظفاً في وزارة الداخلية .

وقــد ادى فؤاد بك ما يجب عليه في القسم المصري باخلاص وولاء عسكري تام وعاد وجوده بين ظهرانينا على الجيش بفوائد جزيلة . وكان من أشد بواعث الأسف لدي أن طرأت له امور اهليـــة حتمت عليه مغادرة مركز القيادة .

وسأذكر دوماً بلسان الشكر فؤاد سليم بك الذين عين فيما بعد ليمثل الامبراطورية العثمانية في سويسرا (حيث نجح في مهمته) والدكتور فؤاد يستحق كل ثناء لما قدمه من اجل الخدمات للجيش .

وبعد مغادرة قونية وصلنا الى بوزانتي ومن ثم واصلنا السفر بالسيارة الى طرسوس ومنها سافرنا الى اطنه بطريق سكة الحديد . فقابلني بحماس تام اهالي تلك العاصمة الريفية التي كنت حاكماً عاماً لها منذ اربعة أو خمسة اعوام فقضينا الليل فيها . وقــد حولت الامطار التي لم تنقطع اسبوعا كاملا

وادي اطنه الى بحر من الطين .

ولم تكن سكة حديد اطنه ـ حلب فى ذلك الوقت مستعملة فيما وراء محطة تبرق قله . وقد كان قطاع تبرق قله ـ اسكندرونة تاماً غير ان الامطار كانت قد جرفته فى عدة نقط بالقرب من دورت يول وبذلك تعطلت المواصلات مع اسكندرونة .

فعزمت ان اذهب بطريق سكة الحديد الى تبرق قله او الى مصطفى بك وان اواصل السفر من هناك بالسيارة أو على ظهور الخيل الى اسكندرونة أو حلب ان امكننى ذلك وعلى ذلك تركت اطنه فى صباح اليوم التالي مبكراً . واذ تبينت ان قطاع بوزانتي ـ طرسوس وهو طريق المواصلات الوحيد مع جيش الاناضول حالته سيئة في عدة نقاط طلبت الى اسماعيل حقي بك الحاكم العام للولاية أن يشرع فى اصلاحه فى الحال .

وبعد مغادرة اطنه بساعة وصلنا الى محطة مصطفى بك حيث كانت فى انتظارنا السيارات والخيول . فلم نكد نسير بضع خطوات حتي غاصت سياراتنا فى الوحل . فلما تحققنا استحالة مواصلة السير في ذلك الطريق امتطينا خيولنا وبدأنا المسير بعد أن امرت ياوري القبطان صلاح الدين افندي بأن يكلف من يشاء بسحب السيارات الى أسكندرونة واللحاق بنا اليها .

ووصلنا دورت يول بعد اربع ساعات . وهي قرية كبيرة مهمة على شاطيء خليج اسكندرونة وتقع على ابعاد متساوية من خمس او ست قرى اخرى يسكنها الارمن فهي مشهورة باشجار البرتقال .

وقد كنت وانا حاكم عام لاطنه كلفت المهندسين الالمان بوضع مشروع لانشاء حي آخر فى البقعة الشاسعة الواقعة بين دورت يول والخمس قرى الاخرى

ولكن المشروع اهمل ككثير غيره من المشروعات بعد مغادرتي للولاية .

وكنت قد زرت خلال عامي ٩١١٠ و ١٩١١ دورت يول اكثر من مرة فهرعت افواج القرويين الذين طالما ساعدتهم لمقابلتي .

واذ وصل سمعي ان في الاستطاعة الذهاب من محطة دورت يول الى اسكندرونة بواسطة (ترولي) عادي في مدة ساعتين مع ان المسافة تستغرق اكثر من ست ساعات على ظهور الخيل فضلت استعمال هذه الوسيلة فغادرتها انا ورئيس هيئة اركان الحرب .

ولن انسي ما حييت هذه السياحة بالترولي في ذلك الطريق الزلق . فكثيراً ما كانت حياتنا في خطر اذ كنا نسير في ذلك المطر المتهاطل بقرب الشاطيء بمرأى من سفن العدو . وبعد أن هدأت تلك العاصفة الشديدة بزغ القمر من خلال السحاب ثم اختفى ثانية بعد أن اضاء البحر بشكل عجيب وبهذا استطعنا ان نبصر بوارج العدو الواقعة على مقربة من الشاطيء . وهو منظر تفتتت له اكبادنا وذابت له قلوبنا .

ولم يخف علي ان اعداءنا أقوياء اولو بأس شديد . ولكن لما لم تكن ثمة وسيلة اخرى نحفظ بها حياتنا لم نر مفراً من الالتجاء الى السيف فاما الى الخير والفلاح واما الى المصائب والاحزان وقد كنت اقسمت ألا اترك وسيلة من الوسائل الا لجأت اليها لفل حدة اعدائنا .

فتذكرت ذلك القسم واذ رأيت المصاعب التى تعترضنى في طريقي ادركت فداحة العمل الملقى على كاهلي . ثم وصلنا الى الاسكندرونة بعد سياحة شاقة من الترولي فى خلالها على قضبان امتد بعضها في بعض الجهات فوق فراغ مستطيل الى نحو ١٥ ـ أو ٣٠ متراً وغاصت فى جهات اخرى تحت الماء

وقد انقضت خمس ساعات قبل أن يحضر ضباط اركان الحرب الآخرون . ثم قضينا تلك الليلة فى اسكندرونة .

وهنا وصلت الينا الانباء بأن الطريق فيما بين اسكندرونة وحلب غير صالحة للسيارات . وتلك الطريق التى اهملت حتى اصبحت لا تصلح لحركة السيارات كانت الطريق الوحيدة التى نصل منها الى حلب والمناطق التى حولها او بعبارة اخرى الطريق التى توصل شمالي سورية بما فيها جهات اورفه وديار بكر والموصل باسكندرونة ذلك المستودع المهم الواقع على شواطيء البحر المتوسط ! ولما كنت قد عدت منذ عدة سنوات من بغداد بهذا الطريق فى سيارة تأكدت ان اعمال الاصلاح قد بديء بها فى عدة نقط . وكانت الشركة العمومية لانشاء الطرق هى التى تولت اصلاحه وكان فى استطاعتها اتمامه في آب سنة ١٩١٢ أي بعد البدء فيه بعامين . ولكن عمليه الاصلاح اهملت نظراً للمصاعب العديدة التى قامت في وجه مصلحة الطرق تلك المصلحة التى كانت عاجزة عن القيام بشيء من نفسها . وذلك ما يدعونا الى العمل بعزم شديد لتحرير ادارتنا من البيروقراطية والا فلا الحكومة الدستورية ولا المساعدة الآلهية تمكننا من اتمام شيء ما بنجاح . والشيء المستغرب هو ان تلك الاجزاء من الطريق التى كانت من قبل فى حالة جيدة اهملت بحجة الاصلاح حتى صارت الى حالتها السيئة الحاضرة . فقد نقضت الاحجار من سطح الطريق ووضعت فى تلين طويلين على جانبيه . وقد امتلأت الحفر التى بين التلين بمياه الامطار فكانت عبارة عن وجود قنال في الطريق . تلك كانت حالة طريق اسكندرونة ـ حلب فى تشرين ثاني سنة ١٩١٤ .

وقد اضطررنا الى قضاء الليل فى بيلان بالرغم منا . وفى صباح اليوم

التالي واصلنا السفر على ظهور الخيل الجياد بعد أن رأينا أن تذهب ثلاث سيارات قوية من حلب الى اقرب قرية . ومن هناك وصلنا الى محطة قاطمة بالسيارة . وهى المحطة الثانية من حلب على خط بغداد . وبما أنها نقطة اتصال بين طريق حلب واسكندرونة وسكة حديد بغداد قد انشىء فيها مستودع لخطوط المواصلات .

ويمكننا ان ندرك غيرة ونشاط جميع الاشخاص المختصين من أننا لما أصبحنا على بعد خمسين متراً من المحطة استحال علينا التقدم بالسيارات فحملنا الجنود على اكتافهم فى الظلام الحالك .

وفى تلك اللحظة تذكرت طريق كيركليسة - أورفة وطريق كيركليسة - بونا - حصار - ويزا - سيراي فى خلال الحرب البلقانية . فلقد كان هنا أيضاً فى الطريقين تل من الاحجار على كلا الجانبين فلما ملأ المطر المسافة بينهما أصبح الطريق كأنه مجموعة خنادق .

فما اشد مشقة تلك الطريق التى سيقطعها الجيش الذي عينت لقيادته ! وتمثلت مرة اخرى لعينى تلك الصورة التى لا يمكن نسيانها صورة البؤس والشقاء اللذين ينتظران بطارياتنا وعربات الذخيرة وهن عاجزات عن مواصلة سيرهن فى الطرق واضطرارهن الى التخطي الى الحقول حتى تنغمس فى الوحل ثم كررت لنفسى (ها هى الطريق الوحيدة التى تربط جيشى بالوطن !) .

وكانت حلب نقطة حشد الفيلق الثالث عشر الذى تمت تعبئته فى الموصل وما جاورها . وكان قائده الكولونيل فخرى بك التابع لهيئة اركان حرب . أما قوام هذا الفيلق فكان من الاكراد والباقى من العرب المتمرنين . وكانت الفرقة الاولى فى حلب والثانية فى حماة . فمكثت فى حلب ثلاثة ايام فتشت فيها الجنود . وبالرغم من المجهود الخارق للعادة الذي قام به فخرى بك لم تكن الفرق والتشكيلات المستقلة عن الفيلق فى حالة مرضية . اذ لم تكن هناك المادة التى

يحتاج اليها فيلق معبأ والواقع اننا لم نحلم بتتميمها لانه لم يكن ثمة أمل فى الحصول على الاجهزة اللازمة فى الموصل وما حولها وهى منطقة تعبئة الفيلق المذكور .

فطلبت الى والي حلب أن يقوم باصلاح طريق حلب واسكندرونة وان ينشىء طريقاً جديدة من اصلاحيك الى محطة قاطمة عن طريق ادجو . ثم ذهبت الى حماة لفحص الحامية المعسكرة هناك . وكانت على مثل الحالة التى عليها فرقة حلب .

وكان فى نيتى قبل الذهاب الى دمشق زيارة شمالي سورية لأرى بنفسى الحالة فى تلك المنطقة .

فذهبت اولا الى طرابلس عن طريق هرنس ثم عدت فى اليوم نفسه الى هرنس حيث قضيت فيها تلك الليلة . وفى صباح اليوم التالي واصلت رحلتى وذهبت الى دمشق عن طريق رياق . واظهر اهالي كل البلاد التى اجتزتها وطنية كبرى واخلاصاً للقضية التركية . وقد امتلأ قلبى سروراً أن رأيت وشعرت ان غالبية العرب لا تحجم عن بذل ما يطلب منها من التضحيات فى تلك الحرب الكبرى لتحرير الخلافة الاسلامية . فتعين علي الاستفادة من هذه الحالة العقلية وحفظ تلك المنطقة - وهى منطقة ملتهبة كالبارود - من عبث الخونة الذين باعوا ضمائرهم للاعداء .

ولكيما اسهل على القارىء تتبع الحوادث التى وقعت فى خلال الاعوام الثلاثة (من كانون اول سنة ١٩١٤ الى كانون اول سنة ١٩١٧) التى قضيتها فى سورية أي الحوادث الخاصة بالجيش والادارة والسياسة الداخلية فى سورية وبلاد العرب وقمع الثورات والمؤنة والمسائل الاخرى المتعلقة بالتقدم المادي وغير ذلك التى سيتناولها البحث رأيت من الاصوب أن افرد فصلا خاصاً لكل من هذه الامور بدلا من بحثها فى صورة مذكرات مورخة حسب ترتيب الوقائع

الفصل الخامس

(التأهب لحملة قناة السويس)

بما انى لا اريد وضع تاريخ للحرب سأترك الخوض فى التفصيلات غير اللازمة عن حركات الجيش واعماله واقتصر على ذكر الحقائق البارزة بعبارة مجملة . وسأطلب يوماً ما الى الكولونيل فؤاد بك رئيس اركان الحرب أن يضع تاريخاً خاصاً للحملات المختلفـــة على قواعد (مذكرات الجيش الرابع الحربية) المقدمة الى هيئة اركان الحرب الكبرى وهى المذكرات التى جمعت ورتبت بكل دقة فى مركز القيادة .

فى يوم وصولي الى دمشق جاء لمقابلتى فى رياق مرسينلي جمال باشا قائد الفيلق الثامن وسلمنى حزمة من الوثائق . وكانت تحتوى على خطة تفصيلية لاعمال فيلقه الذى وقع عليه الاختيار لمهاجمة قناة السويس وصورة من الاوامر الصادرة واحصائيات وخطط تختص بالاعمال الباقية قيد التنفيذ والتى تمت. وسلم رئيس اركان حرب فيلقه فون كريس الكولونيل الى فون فرانكنبرج رئيس اركان حرب فيلق صورة بالالمانية من الوثيقة نفسها . وكانت باكورة اعمالي عندما وصلت الى دمشق واتخذت من (فندق قصر دمشق) مركزاً للقيادة أن أدرس تلك الوثائق بالدقة التامة .

ويمكن تلخيص خطة العمل التى وضعها الفيلق الثامن فيما يلي : (يناط الزحف على القناة بالفرقة الخامسة والعشرين مضافاً اليها كتيبة من الضباط والجنود تنتخب من الفرقتين الاخريين اللتين يتألف منهما الفيلق .

(ويوزع العدد الباقى من الفيلق على خطوط المواصلات للقيام باعمال الحراسة ولمراقبة الحالة فى لبنان ومنطقة الساحل .

أما الفرقتان الثامنة والعاشرة اللتان ترسلان من الاستانة خصيصاً للحملة المصرية فتستخدمان كما يرى قائد الجيش فقسم منهما لمهاجمة القناة والقسم الآخر للقيام بالخفارة فى الداخل .

وعلى كل لا ينبغى استخدام قوات كبيرة فى تلك الحملة .

واذا تذكرنا الحالة الطبيعية التى عليها صحراء سيناء التى ستجرى فيها الاعمال الحربية تحققنا ان قواعد الخطة السابقة كانت محكمة وطيدة .

وعند وصولي الى سورية كانت الحالة العامة كما يأتى : استولت كتيبة البدو المتطوعين بقيادة الماجور ممتاز بك على العريش وحصنت نفسها فيها .

واستولت كتيبة اخرى من المتطوعين بقيادة ازميرلي اشرف بك التابعة (للتشكيلات المخصوصة) على قلعة النخل وسط صحراء سيناء .

وكانت فى العقبة كتيبة من المشاة بقيادة الليفتاننت كولونيل موسى كاظم بك كما عسكرت فى بير السبع كتيبة من الفرقة السابعة والعشرين لتكون بمثابة سند لسائر القوات الموجودة فى الصحراء .

أما الفرقة الخامسة والعشرون باسرها بقيادة الليفتاننت كولونيل علي فؤاد بك فكانت فى دمشق تتمرن بهمة ونشاط .

ونظراً لتكوين صحراء سيناء ادرك الفيلق الثامن بثاقب نظره ان من اللازم تشكيل هيئة يعهد اليها تنظيم خط المواصلات من المؤخرة الى المقدمة قبل صدور اوامر الزحف الى الجيش أو بعبارة اخرى الى الحملة . وقد عين بهجت بك الليفتاننت كولونيل فى هيئة اركان الحرب وقائد الفرقة الثالثة والعشرين رئيساً لتلك الهيئة التى اطلق عليها اسم (تفتيش خطة مواصلات الصحراء)

وسأتذكر دوماً بالاحترام التام بهجت بك هذا للعناية التامة التى اظهرها فى اعماله فى تلك الصحراء الهائلة فى خلال الهجمة الاولى على القناة وفى ابان التأهب للهجمة التالية .

فاصبح ذلك المفتش عليه البت فى أمر المستودعات المراد انشاؤها على خط المواصلات من بير السبع والاسماعيلية (بحيث لا يبعد بعضها عن بعض باكثر من ٢٥ الى ٣٠ كيلومتراً) وايجاد الماء فيها وارسال المؤونة التى تقرر من قبل تخزينها فى بئر السبع مقدماً حسب التعليمات وانشاء مستشفى فى كل مستودع وبالجملة ان يقوم بكل اللوازم والتأهبات التى يقتضيها انشاء هيئة خاصة لخطوط المواصلات . وتقرر أن تكون العريش وقلعة النخل بمثابة مركزين لتفتيش خط المواصلات . ومنهما يمكن ارسال المؤونة واللوازم الى الجنود التى تقرر أن تتجمع هناك للزحف على القناة .

واعتزم الفيلق الثامن أن يجمع قوام الحملة فى بير السبع ثم يزحف على القناة بطريق وادي العريش - أبين - جفجاف أى بعيداً بقدر المستطاع عن الساحل وتغطى الجناحين شراذم صغيرة من العريش وقلعة النخل .

ولعمرى انها كانت خطة حكيمة . فان خط مواصلاتنا الاساسى يجب أن يبعد عن الساحل حتى يكون بمنجاة من الانجليز فلا يستطيعون أن يسلطوا عليه مدافعهم البحرية أو يحطموه بالكلية بانزال فصائل صغيرة لا اهمية لها فى الواقع ولكنهم قد يضطرون الى استخدامها بين آن وآخر .

وعلى ذلك قرر فون كريش بنفسه أن تكون مستودعات خط المواصلات فى بير السبع والهلاسا والحافر ووادى العريش وابين والهبرة الاولى وجفجاف والهبرة الثانية . وكان قد حفر فى كل من تلك الاماكن بئراً ارتوازية واقام السدود لسد ما تسفى به الرياح والامطار التى تشتد فى شهري كانون اول وكانون ثانى كما انه أعد باقى ما يلزم من المعدات لخط مواصلات طويل كهذا .

ثم اعلن الفيلق الثامن بأنه نظراً لاستحالة ارسال المؤونة للضباط والجنود طول الطريق الى القناة يجب الالتجاء الى نظام جديد يسمى بـ (جراية الصحراء) وهو نظام قام على بيان بالمأكولات التى يجب الا تزيد زنتها عن كيلوغرام

واحد لكل شخص بما فيها البسكويت والتمر والزيتون . اما الماء فلا يسمح للشخص باكثر من نصف لتر منه فقط .

فتبين لنا على هذه القاعدة الحسابية اننا اذا اردنا ان تزحف الفرقة العاشرة والخامسة والعشرون والكتائب المتطوعة يلزم لنا ۱۱۰۰۰ أحدعشر الف جمل لنقل المؤونة والماء فضلا عن وسائل نقل الجنود ثقيلها وخفيفها . حتى انه بمعونة تلك الهيئة ليتعين على الحملة عند عبور القناة وفى ظرف اربعة ايام اما أن تبعد الجنود الانجليزية عن الشاطيء الغربى وتعسكر فى الخنادق واما أن تتقهقر لأن الماء العذب الذي سيجمع فى الهبرة الثانية أى على بعد خمسين كيلو من القناة لا يحتمل ان يكفى اكثر من عشرة ايام . وبعد نفاذه تجد الحملة نفسها فى كرب لا يذكر بجانبه كرب الاسرائيليين .

كما انه لم يكن ثمة أمل فى حشد رجال الحملة فى بير السبع وارسالهم جميعاً الى القناة دفعة واحدة لأنه كان من رابع المستحيلات ارسال المؤونة والماء لمثل ذلك العدد العظيم من الجنود بواسطة الجمال التى تكونت منها فرق النقل .

فلم يبق للكتائب والبطاريات الا مواصلة السير فى الصحراء يوماً بعد يوم على أن تجتمع الجنود فى النهاية فى نقطة تبعد عن القناة بعشرين أو ثلاثين كيلومتراً ومن ثم تشرع فى مهاجمة القناة فى النقطة المعينة .

ورأى الفيلق الثامن أن تكون الحملة من الوحدات الآتية وان تقسم الى قسمين :

القسم الاول : الفرقة الخامسة والعشرون وكتيبة من جنود الفرقة الثالثة والعشرين وخمس بطاريات من مدافع الميدان وبطاريتان من المدافع الجبلية وبطارية من مدافع هاوتزر عيار ١٥ سنتمتر وكتيبة فرسان واربعة كتائب من فرقة الجمالة وفصيلة من متطوعي فرسان العرب عددها ١٥٠٠ رجل وجسور عائمة تكفى لعبور ثلاث كتائب فى وقت واحد وستة بلوكات من

المهندسين وفرقة من عمال التلغراف ومستشفيات ميدان ووحدات طبية وغير ذلك ومجموع ذلك كله ١٢٦٤٢ رجل و٩٦٨ حصان و١٢٠٠٠ جمل و٣٢٨ ثور

القسم الثاني : الفرقة العاشرة من فرق المشاة ومدفعيتها وبلوك فرسان والوحدات المساعدة الاخرى .

وعند وصولي الى دمشق استلمت من وكيل القائد العام برقية وضع فيها الفرقة الحجازية تحت تصرف قائد الجيش الرابع لتعزيز الحملة على القناة لاستعمالها محلياً كما يتراءى لي . فكتبت للكولونيل وهيب بك والحاكم العسكري ووالي الحجاز بالمجيء الى معان مع الكتائب النظامية والمتطوعين . وقد تقرر أن تلحق هذه الجنود التى مع وهيب بك بالقسم الثانى .

ونظراً لأن الـ ١١٠٠٠ جمل التى سبقت الاشارة اليها خصصت للفرقة الخامسة والعشرين والفرقة العاشرة والوحدات الاخرى التابعة للحملة تقرر أن تأتى فرقة الحجاز بجمالها من الحجاز .

على ان الانجليز فى تقاريرهم الرسمية قرروا عدد الحملة التى قامت بالهجمة الاولى على القناة بأربعين الفاً والحقيقة انها مع فرقة الحجاز والفرقة العاشرة لم تزد ابداً على ٢٥ الفاً .

وتعين أن يكون القسم الاول بقيادة موسينلي جمال باشا قائد الفيلق الثامن أما القسم الثانى فيلحق بمركز القيادة .

ذلك كان حال جيوش الصحراء وفلسطين وداخل سورية عند وصولي الى دمشق وهذا هو الحد الذي وصلت اليه تأهبات قائد الفيلق الثامن للحملة على القناة . ونظراً للصعوبات التى قامت فى وجـــه تفتيش خط المواصلات الذي انشىء فى دمشق لملاحظة مثل ذلك الخط الطويل اقترح الفيلق الثامن فى الوقت نفسه انشاء تفتيش مستقل لخط المواصلات فى القدس وتكون مهمته الاولى جمع المؤونة فى فلسطين وتقديمها للجيش .

وبعد تعديل طفيف اجزت تلك الاجراءات كلها ووقتئذ شخص إلي قائد الفيلق الثامن وقد تولاه اليأس ليخبرني بأنه لم ينجح حتى ذلك الوقت في الحصول على الجمال اللازمة للحملة وان ليس ثمة امل ما في الحصول عليها وانه يلفت نظر قائد الجيش الى تلك المسألة بصفة خاصة .

والواقع ان هذا الفيلق وجد نفسه محاطاً بكل انواع المتاعب من كل جانب حتى انه لم يتمكن بعد ثلاثة اشهر الا من الحصول على الفين من الاحد عشر الف جمل المطلوبة واحسب ان الكثيرين سيدهشهم عدم امكان الحصول على ١٢ - أو ١٥ - الف جمل فى بلاد سورية والحجاز فى حين أن مئات الآلاف أو الملايين من الجمال موجودة فيها . ولكن يجب أن لا يغرب عن البال ان ليست كل انواع الجمال صالحة لحمل الاثقال .

ولا اريد إلا أن اشير عرضاً لمسألة سيتناولها البحث التفصيلي متى حان الوقت لكتابة تاريخ الجيش الرابع . فلم يكن سواي هناك من عرف عظم المصاعب الواجب تذليلها للحصول فى خلال شهر واحد على ١٤٠٠٠ جمل بما فيها الاحتياطي . ومع ذلك قد نجحت فى النهاية وحصلت على الميعاد المحدد على الجمال التى اقتضتها خطة الهجوم التى وضعها الفيلق الثامن .

ويمكن قدر المتاعب التى صادفتها من أن ابن السعود جاء فى ذلك الوقت بالجمال من اقصى اعماق نجد .

أما مسألة المسائل التى تتوقف عليها كل الاعمال العسكرية الشاقة فى صحراء سيناء فهي مسألة الماء اذ فيما عدا فصل المطر يستحيل مطلقاً اختراق تلك الصحراء بحملة عسكرية تبلغ ٢١ الف مقاتل . وبما أن فصل المطر فى الصحراء هو كانون اول وكانون ثانى تعين أن تنفذ أعمالنا الحربية فى هذين الشهرين او نرجئها الى ذلك الفصل من العام التالي .

ولما كانت القيادة العليا مصرة على زحف الحملة فى هذا العام اعتزمت بعد

سماع التقريرين الشفويين من قائد الفليق الثامن ورئيس اركان الحرب التعجيل بسير التأهبات وتنفيذ خطة الهجوم .

وفى نهاية كانون الاول شرعت فى حشد القسم الاول من الحملة بالقرب من بئر السبع .

وأتمت الفرقة العاشرة فى الوقت نفسيه حشد جنودها فى مدينة زحلة فى لبنان . وقد فحصتها هناك . ثم نقلت مركزي الى القدس بعدان أصدرت تعليمات التقدم الى القدس وبئر السبع لقائدها الذي كان تحت امر قيادة الجيش مباشرة .

ثم شرعت حوالي ذلك الوقت فى مخاطبة شريف مكة الأمير حسين باشا . فطلبت اليه ان يعزز قائد فرقة الحجاز بقوة مساعدة بزعامة احدأبنائه أويتولى هو القيادة ويلحق بالجيش .

فأجاب الشريف على خطابى الاول بكل أدب وأخبرنى بأنه سيرسل ابنه على بك ليرافق وهيب بك والى الحجاز والواقع ان على بك غادر مكة مرافقاً لجنود وهيب بك ولكنه ما وصل الى المدينة حتى اعلن انه بناء على أوامر ابيه لا يستطيع مرافقة وهيب بك الى أبعد من ذلك . فتخلف فى المدينة وأخذ يتدخل فى اعمال القائد بصرى باشا .

وفى اليوم الرابع عشر من كانون ثانى بدأ القسم الاول من جنود الحمله زحفه على القناة تنفيذاً لخطة الهجوم . وفى اليوم الـ ١٥ من كانون ثانى غادرت قيادة الجيش فى بئر السبع مقتفيا أثر الجيش .

ولم يمر عشرون يوماً على بدء الزحف من بير السبع حتى وصل قلب القسم الأول من الحملة بقوة كبيرة الى نقطة تبعد نحو ١١ كيلو متراً من القناة . ووصل الجناح الايمن الذي زحف من العريش فى جهة قاطيه تجاه القنطرة بينما الجناح الأيسر الذى زحف من العقبة عن طريق قلعة النخل وقف فى مقابل السويس .

ووصلت المعدات الرئيسية التابعة للفرقة العاشرة التى يتألف منها القسم الثانى الى مستودع خط المواصلات فى الهبرة الثانية كما وصلت فرقة الحجاز بقيادة وهيب بك الى قلعة النخل بعد ان سارت من مكة الى المدينة ومن ثم الى معان بالسكة الحديدية .

ويقصر اللسان عن ان يوفى القوات العثمانية - لا فرق بين ضباطها وجنودها - الذين اشتركوا فى حملة القناة الأولى حقها من الثناء على ما بذلته من المجهودات واظهرته من ضروب الوطنية العالية . وأرى من واجبي تقديم اعجابى لأولئك الجنود البواسل الذين قاموا بذلك الزحف غير مبالين بما لاقوه من ضروب الضنك وتحملوه من المشاق فى سحب المدافع فضلا عن الجسور المتحركة وفى كل ما كان لدينا من المعدات لعبور القناة) وسط بحر الرمال هذا. وقد ساد بين رجال الحملة - لا فرق بين الاتراك والعرب - شعور العطف الاخوي - ولم يكن بينهم من يضن بحياته دفاعاً عن اخوانه . والواقع ان الحملة الأولى على القناة كانت برهاناً ساطعاً على ان غالبية العرب الساحقة انضموا الى الخلافة بقلوبهم وجوارحهم .

أما العرب الذين تألفت منهم الفرقة الخامسة والعشرون فقد أدوا واجبهم بمنتهى الاهتمام والاخلاص كما ادته هيئة خط المواصلات . فلذلك لا يمكنني مطلقا تخفيف الحقد والسخط اللذين أشعر بهما ضد الشريف حسين لبذره فيما بعد بذور الخلاف فى تلك الكتلة التى توحدت آراؤها وشعورها . وفى خلال تلك الحملة ونحن نواصل السير بالليل على ضوء القمر كان قلبي مفعما بالكآبة الممروجة بالأمل الكبير فى النجاح كلما رددت الموسيقى (انشودة الراية الحمراء تخفق فوق القاهرة) والتى على وقعها شقت الصفوف الزاحفة طريقها فى ذلك القفر المظلم الذي لا نهاية له .

ولا اعد مبالغا اذا قلت - ان ذلك الجيش الذي لم يسمح لفرد من

افراده سواء كان القائد العام أو الجندي الصغير يتناول اكثر من ٦٥٠ غراماً من البسكويت وقليل من التمر والزيتون فضلا عن الاقتصاد الكلى فى استعمال الماء - كان يندفع بقوة الآمال العزيزة كلما اقترب من هدفه فقد رسخ فى نفس كل فرد فيه اعتقاد جازم بسهولة عبور القناة والثبات فى الخنادق فى الضفة الغربية وقيام الوطنيين المصريين بمهاجمة الانجليز من الخلف .

ومع انني لم اكن واثقاً بالنجاح النهائي - لعلمي بمناعة الاستحكامات الانكليزية فى القناة - قد اعتدت أن أحادث الجنود كل مساء عن النصر المنتظر وانه سيكون نصراً مبينا . لأنني أردت أن ابقى تلك الشعلة المقدسة متقدة فى قلوب رجال الحملة بأسرهم .

فبعد أن أتمت الحملة تعبئتها - فى القلب والجناحين - فى المنطقة المشار اليها آنفا قررت أن يقوم القلب فى ليلة ٧ شباط بهجمة فجائية على الاسماعيلية . ويتظاهر الجناح الأيمن فى الوقت نفسه بمهاجمة القنطرة بينما الجناح الأيسر يواصل زحفه على السويس .

فلا يكاد الظلام يخيم حتى تشرع الجنود المخصصة للهجوم فى الدنو من النقطة التى تقرر عبور القناة منها . ثم يبدأ العبور نفسه بعد الشروق بقليل. وكنت قد اوقفت كل اهتمامي على مفاجاة الانجليز علما مني بأن فى استطاعتي الاستيلاء على خط القناة فى جنوبي الاسماعيلية بقوة لا تزيد على خمسة أو ستة آلاف جندي فى الهجمة الأولى ريثما أجيء بالفرقة العاشرة واذ ذاك يصبح لدي قوة مؤلفة من ١٢٠٠٠ بندقية معسكرة فى خنادقها فى الضفة الغربية . ثم نستولي على الاسماعيلية - لو امكن - ونحتفظ بها الى أربعة أو خمسة أيام فى داخل استحكامات موجهة غرباً وشمالا وجنوباً .

وفى الوقت نفسه تضاعف الفرقة الثامنة زحفها فلا تمضى عشرة أيام حتى يزيد عدد الجنود فى الاسماعيلية الى ٢٠٠٠٠ - .

وقد علقت اكبر الآمال وقتئذ على مساعدة الوطنيين المصريين الذين رجوت أن يثوروا كلهم أجمعون بعد أن يشجعهم سقوط الاسماعيلية فى ايدى الجيش التركى فتحرز مصر فى مدة وجيزة نصراً باستخدام حملة عسكرية قليلة العدد مزودة بموارد فنية طفيفة.

وكانت جيوش العدو حسب المعلومات التى وصلت الى مركز قيادة الجيش تبلغ ٣٥٠٠٠ جندي على طول خط القناة عدا ١٥٠٠٠ - أو يزيدون موزعين فى طول مصر وعرضها. ولما كان حشد كل تلك الجنود فى جميع نقط القناة - وهو خط ينيف طوله على ٢٠٠ كيلو متر - امراً عسيراً قد كان ادراك الفوز ممكنا بشرط أن نستطيع عبور القناة بغتة فى نقط لا يتوقع العدو عبورنا منها.

وعلى كل حال رأيت القيام بذلك الهجوم كمجرد مظاهرة لافهام الانجليز من جهة اننا لاننوى الوقوف موقف المتفرج على ضفة القناة ومن جهة اخرى لاستبقاء عدد كبير من جنودهم فى مصر كما سلف الاشارة الى ذلك. والا لما جال بخاطرى بصفة جدية اننا بمثل هذه الموارد الضئيلة التى لم تكن تسمح ببقائنا سوى أربعة أيام حول القناة أى بقوة لم تزد على ١٤٠٠٠ بندقية وبعض بطاريات مدافع جبلية وبطارية هاوتزر واحدة وعشرة جسور متحركة للعبور - كنا نستطيع عبور القناة التى يزيد عرضها عن مائة متر فى وجه جيش متنقل وباسل كالجيش الانجليزى مزود بكل المعدات الحديثة من البوارج الضخمة الى القطارات المسلحة. ولكنى بالرغم من شكوكى هذه تمكنت من ايقاظ روح الثقة فى نفوس الجنود فلم يكن بينهم من خطر بباله ان هذه الهجمة الأولى على القناة ليست سوى محض مظاهرة ولا من ضن لحظة بتقديم نفسه قرباناً لنجاح القضية.

فلو كتب النجاح لهذا المشروع - الذى عددته محض مظاهرة مصحوبة

بقوة عسكرية لاعتبرناه فالا حسنا لتحرير الاسلام النهائى وتخليص الامبراطورية العثمانية .

ولكن قضى سوء الحظ أن يتأخر قليلا وصول القوة المهاجمة الى ضفة القناة . فان الشمس كانت فى الافق عندما مددنا الجسور المتحركة وشرعنا فى العبور أى ان اعمالنا أصبحت ظاهرة للانجليز فهبوا للدفاع عن نقطة العبور مباشرة مما كانت نتيجته تحطيم الجسور عدا ثلاثة . واذ استحال ارسال النجدات الى أبطالنا الستمائة الذين تمكنوا من العبور فى الهجمة الأولى اعتقلهم الانجليز وعندئذ وقع الترامى الشديد بالمدافع بين البوارج الانجليزية والطرادات المساعدة والقطارات المسلحة وبين المدافع الخفيفة التى مع الحملة . فلم ينتصف النهار حتى دمرت بطارية الهاوتزر طراداً انجليزيا . وفى ذلك الوقت وصلت الكتيبتان التابعتان للفرقة العاشرة الى ميدان القتال فوضعتهما تحت تصرف الضابط القائم باعمال الفيلق الثامن .

وفى النهاية تبينت حقيقة الحالة . فان الحملة قد نجحت فى مهمتها بالقيام بهذه المظاهرة وقد رسخ فى ذهنى ان ليس ثمة أمل فى عبور القناة واحتلال الاسماعيلية . وكان مركز القيادة على تل يبعد عن ضفة القناة الشرقية بثلاثة كيلومترات ونصف وكنت اشرف على الموقعة بنفسى . فتمكنت طيارات العدو من تعرف مكانها فما لبثت بوارجه ان أمطرتها بالقنابل من عيار ٢ و ٩ بوصة .

وفى الساعة الثالثة ارسلت فى طلب جمال باشا قائد الفيلق الثامن ورئيس اركان حربه فون كريس وكانا على بعد ٧٠٠ أو ٨٠٠ متر من خط النار اي فى الضفة الشرقية . وكان معى رئيس أركان حربى ومدير قسم الاعمال الحربية فى مركز القيادة والصاغ على فؤاد بك . وقد وصلنى منذ قليل تقرير من الضابط القائم بأعمال الفيلق الثامن يقول فيه :- ان بطارياته اذا تغلبت على العدو فى المساء امكنه محاولة عبور القناة فى فجر اليوم التالي .

من اجل ذلك طلبت الى فون كريس بصفتـه رئيس اركان حرب الفيلق المذكور أن يبدي رأية فى الحالة .

فبعد ان شرح لي الحالة العمومية كرر اقتراح المذكور فى تقرير الضابط السالف الذكر وأقره عليه ميرسينلى جمال باشا . فقلت لهما : ـ

« ان محاولة عبور القناة مرة ثانية تترتب على الموارد التى لدينا وقد قلتما فيما وصلنى من التقارير انه لم يبق لدينا سوى ثلاث (جسور) واقتراح عبور القناة سباحة عبث اذن فكيف تريدان تنفيذ المشروع ! » .

فاعترف كل من جمال باشا وفون كريس برجاحة هذا الاستنتاج ولكنهما كانا تنقصهما الشجاعة الأدبية لاصدار أمر الانسحاب للحملة . وقد كان من السهل أن يرى الانسان فون كريس ـ الذي واصل العمل لاعداد المعدات التى تلزم للحملة شهرين ونصف بلا ملل ولا عناء حتى لقد كان يعتبرها غايته فى الحياة ـ وقد سقطت فى يده بعد أن رأى الفشل بعينه فلذا أصبح يرى الموت المخرج الوحيد من الورطة .

فقال : ـ (يا صاحب السعادة انى أرى أن رجال الحملة يجب عليهم أن يفنوا عن بكرة أبيهم حول القناة !) . فاجبته بهدوء : ـ

انى لم ادعك هنا لعقد مجلس حرب أو أن أشركك فى المسؤلية عن قراراتى . كلا ! » فانى لم اسمح لشخص ما سواى أن يتحمل مسؤلية الأوامر التى أصدرها بصفة كونى القائد العام .

أن الغرض من استدعائك هنا هو لاعطائى معلومات عن حالة الجنود فى الصف الامامى وحالة الموارد الفنية التى لدينا . وانى استنتج مما تقول انه لم يبق ثمة ما يمكن عمله . فاذا بتنا يوما آخر بجانب القناة فلا مفر من ان تفنى رجال الحملة عن بكرة أبيهم . لتكن ذاكراً أن هـذه القوة هى كل مالدى الامبراطورية العثمانية فى الوقت الحاضر اذا قضت الضرورة بالدفاع عن سورية

أو فلسطين . وان اكبر واجب علي هو صيانة تلك القوة من الخطر واقتحام الغمرات بها حتى نهاية الحرب وعلى ذلك فالصواب عندى الاحتفاظ بمواقعنا الى وقت الغسق وابقاء الترامى بالمدافع مع العدو على شدته ثم تتخذ من الظلام سبيلا لسحب جنودنا الى الخطوط التى غادروها فى مساء الأمس ومن ثم نستطيع التقهقر رويداً رويداً الى بير السبع . والآن أريد أن يضع فون فرانكنبرج بك أوامر الجيش اليومية على هذا الأساس ! » .

فاقتنع مرسنيلي جمال باشا وفون كريس وفون فرانكنبرج بهذا الرأى واعتبروه الرأى المنطقى الوحيد بل هو الحل الذي يقتضيه الموقف العـــام . وفى نفس هذه اللحظة ـ أخذت طيارات العدو تمطرنا وابلا من القنابل عن اليمين وعن الشمال كأنه قد احس باننا منهمكون فى مناقشة مهمة بما حملنا على تغيير موقفنا . وفى النهاية وقعت أمر الجيش الذي خطه على فؤاد بك . وعاد جمال باشا وفون كريس الى الخط الأمامى وبقيت فى مركز القيادة الى المساء .

وتعين علي اتخاذ الوسائل المطلوبة لكيلا يترك هذا الفشل أثراً سيئاً فى نفوس الجنود . فأصدرت أمراً يوميا قلت فيه : ـ (ان الجنود على بكرة أبيهم أدوا واجبهم بوطنية واخلاص . وان المشروع انما كان محض استطـــلاع هجومى على القناة لمعرفة الموارد التى لدى العدو وما نحتاجه نحن انفسنا من الموارد لعبور القناة . وبما اننا قد ادركنا غايتنا تماماً فالاصوب أن ننسحب للحصول على الموارد المادية اللازمة بدلا من التعرض للخسائر بلا مناسبة . وان الشرف يقضى أن يسود فى خلال التقهقر نفس روح التضحية والاخلاص الذي ساد فى ابان الزحف حتى لانفقد شيئاً من معداتنا » .

وفى ١٥ شباط سنة ١٩١٥ عاد مركز القيادة الى بير السبع بعد مرور شهر من مغادرتها .

ولما لم يكن من المستطاع مدخط التلغراف الى ابعد من مستودع خط

المواصلات فى ابين (وهو فى منتصف الطريق بين القناة وبير السبع) ظلت القيادة العامة مدة اسبوع بدون اخبار منى حتى حدث لها قلق كبير . وقد علمت فيما بعد أن مدير تلغرافات الجيش (الذي كان مشتغلا بمد الخطوط فى الصحراء) أبلغه احد المعتوهين كذباً بنبأ سقوط الاسماعيلية فعجل بابراقه الى الاستانة . فلما ظهرت الحقيقة انعكست الآية وكان لها أسوء الأثر . غير انه لحسن الحظ كان للبيانات التى اصدرتها قيادة الجيش بأن المشروع لم يكن سوى محض استطلاع هجومى نجاح عظيم فى ازالة ذلك الأثر السيء .

والحقيقة اننا عندما فكرنا فى هذه الحملة الأولى لم يكن أحد منا يعرف كيفية عبور القناة . فكان من الضرورى جداً القيام باستطلاع مثل هذا . فما هى الموارد المادية المطلوبة لعبور القناة التى كانت فى مأمن من كل وجهة من الهجوم ؟ أكان من المستطاع العبور على مرأى من بوارج العدو ؟ - ألم يكن فى الاستطاعة ردم القناة ؟ حتى لو فشل العبور واستحال علينا الاستيلاء على نقطة فى القناة - الا يمكننا أن نعسكر فى الشاطىء الشرقى ومن ثم نعرقل مرور البوارج الحربية ونضايق البواخر التجارية بالمدافع البعيدة المرمى . وهلا تكون تلك خير خطه نتبعها ؟ كل هذه كانت مسائل حرية بأن تقتضى الاجابة عليها - القيام باستطلاع بقوة عسكرية .

فالى هذا الاستطلاع يرجع الفضل فى وقوفنا على حقيقـــة الموقف وما يتطلبه وانتظاراً لنتيجة محاولتنا هذه ارجأ الانجليز مهاجمتهم للدردنيل ووجدوا انفسهم مضطرين الى ابقاء جيش لا يقل عن ٢٠٠٠٠ جندي فى مصر ! .

وجلي من هذه الملاحظات ان نفقات الحملة الأولى على القناة لم تذهب عبثاً لأننا ادركنا الغرض الذي رمينا اليه .

وفى غضون انسحابنا من القناة سلمت لعلى فؤاد بك كأساس لتقريره مذكرة عن عدد الرجال ونوع المدفعية والمواد الأخرى التى نحتاج اليها لفوز

الحملة على القناة . ثم طلبت اليه ان يكتب تقريراً مفصلا على هذا الاساس .

وفى خلال الأيام الأربعة أو الخمسة التى قضيتها فى ابين فى مشاهدة مرور الجنود اتم على فؤاد بك تقريره وسلمه الي بعد مراجعته مع رئيس اركان الحرب والحصول على موافقته . وانى لشديد الأسف لكون هذا التقرير ليس معى الآن وهو الذي اقررته بعد ادخال بضعة تعديلات طفيفة عليه . ولوددت أن أذيعه . ولو استطعت نشره لأدركت هيئة اركان الحرب الانجليز عظم الفائدة التى عادت علينا من ذلك الاستطلاع الهجومى وللحقها العار حينما تعرف ان ابطالنا الذين خانهم الحظ ووقعوا أسرى فى ايدى الانجليز يسحبون فى شوارع القاهرة والصحف الانجليزية يكلن لجيشنا انواع القدح والسباب .

ولكن اذا قدر الآله عودتى الى الاستانة فستكون مهمتي سد هذا الفراغ فى عملي . وهناك بيان فى خسائرنا فى الحملة الاولى :ـ

	قتلى	جرحى	متغيبون
ضباط	١٤	١٥	١٥
جنود	١٧٨	٣٦٦	٧١٢

ولكن الانجليز قدروا خسائرنا فى بلاغاتهم الرسمية كما يأتى :ـ

قتلى	جرحى	أسرى
١٠٠٠	٢٠٠٠	٦٥٠

فبمقارنة خسائرنا الحقيقية بهذه الأرقام غير الصحيحة التى نشرها الانجليز يستطيع الانسان ادراك المبالغة الشنيعة فى بلاغاتهم الرسمية .

(الفصل السادس)

تجريدة الصحراء

عند عودتى من القناة أحصيت بامعان كل ما يجب عمله فى الصحراء وبحثت المشروعات العديدة التى بتميت قيد التنفيذ . فان الأمر البسيط الوحيد الذي تترتب عليه حملة ناجحة هو تنظيم خطوط المواصلات . اذمهما حسن نظام هيئة خطوط المواصلات فلا أمل فى بقائها الى أمد طويل او استعمالها فى ارسال قوات كبيرة الى القناة ان لم تتصل مستودعاتها المختلفة بطريق مأمون فكان أول شيء فكرت فى عمله انشاء طريق بين بير السبع وسائر قواعد خط المواصلات فى تجاه الاسماعيلية ليمكن نقل جميع أنواع المركبات والسيارات . وفكرت أيضاً فى انشاء خط حديدي يسير محاذياً لذلك الطريق .

ولزم أيضاً أن نحفر بئراً ارتوازية فى كل قاعــدة من قواعد خط المواصلات ونقيم الأبنية المختلفة مثل المستشفيات والمستودعات وما أشبه . ويجب قبل الشروع فى اقامة هذه الأبنية والاستمرار فيها استخدام ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ من العمال فى الصحراء . وهذا وذاك يجب علينا ان لا نتركه بلا رقابة ولا وقاية اذ لو تركناه بغيرهما لما كان هناك شك فى أن يصير عامة الوقت عرضة لمضايقة الفرسان الانجليز وخيالتهم . على ذلك تعين تحصين الصحراء تحصيناً قوياً .

فعولت على انشاء (مركز قيادة تجريدة الصحراء) وجعلتهـا مسؤلة أمام قيادة الجيش مباشرة ووضعت سائر القوة التى كانت تحمى قواعد الصحراء المختلفة مرهونتين باشارتها وعينت فون كريس لادارتها .

ولم يتردد فون كريس فى الموافقة لأنه كان - كما قدمت - يعتبر حملة القناة

غايته الوحيدة فى الحياة وكذلك كان يرى مغالبته لمتاعب الصحراء وعزاءه الوحيد . وبهذه الطريقة وجدت فى الصحراء هيئتان مستقلتان بعضهما عن بعض استقلالاً كلياً . الأولى (تفتيش خط مواصلات الصحراء) ومهمتها اعداد العدة لانشاء القواعد وطرق الاتصال . والثانية - (مركز قيادة تجريدة الصحراء) ومهمتها حماية تلك المبانى من هجمات العدو ومراقبة اعماله بالقيام بحركات استطلاع حول القناة بين آن وآخر .

وتقرر موقتاً ان يكون مقر تجريدة الصحراء فى ابين وان تبقى اقسامها الاسياسية فى ابين والعريش وقلعة النخل . أما بير السبع فتقرر ان تكون مركزاً لتفتيش خط مواصلات الصحراء . وبعد اصدار التعليمات اللازمة لانشاء تلك المعاهد عدت الى بير السبع ومن ثم الى القدس .

ولم البث هناك يومين أو ثلاثة - أى بعد ان اجتمعت الفرقتان العاشرة والخامسة عشر فى بير السبع - حتى دعوت عدداً من عليه القوم فى القدس بمافيهم قناصل الدول المحايدة وقناصل حلفائنا للحضور ليروا بأعينهم كيف استطاعت جنودي اختراق الصحراء والوصول الى القناة بدون أقل حادث وخوض معركة حامية هناك والعودة بترتيب عجيب الى بير السبع حيث يجرى استعراضها .

وكان القنصل الايطالي ضمن المدعوين لأن ايطاليا لم تكن دخلت بعد صفوف المتحاربين .

ومالي لا أباهى بهذه الجنود التى عادت من هذه الحملة ضد القناة التى استغرقت شهرين دون ان تترك وراءها شريدا واحداً فى الصحراء . ولم يتخلف منها جندي واحد عدا الذين استشهدوا فى المعركة ضد القناة أو الذين أسرهم الانجليز فى الضفة الغربية . بل لم يوجد بينهم شخص واحد عضه الجوع أو العطش ؟ فان فرق المؤن جعلهم يؤدون الواجب بدقة تامة حتى انهم لم تصل

فرقة منهم الى نهاية الطريق الا فى الميعاد المضروب . ولكن مسألة المسائل التى تعتبر على جانب عظيم من الأهمية هى انه لم تحدث حادثة خيانة واحدة اوفرار بين عرب سورية وفلسطين الذين تكونت منهم وحدهم فرق المؤنة .

ولما انتهيت من تنظيم تجريدة الصحراء وخط المواصلات وزعت القيادة داخل منطقة الجيش الشاسعة كالآتى : ـ

أولا : ـ سميت فلسطين بما فيها سنجق القدس وسنجق عكا (منطقة القدس) وجعلت مير سنيلى جمال باشا قائد الفيلق الثامن قائداً لتلك المنطقة .

ثانياً : ـ بما ان قضاءى بير السبع وغزه ليسا جزءين من تلك المنطقة رأيت ادخالها ضمن دائرة قيادة خط المواصلات الصحراء .

ثالثاً : ـ وليت فخري باشا قائد الفيلق الثالث عشر قيادة المنطقة التى يتكون منها الجزء الأوسط والجزء الشمالي من ولاية بيروت وولايات سورية وحلب واطنة . وسميته قائد الجيش الرابع (المؤقت) . ثم نقلت مركزي الى القدس وعولت على التفرغ لاعداد المعدات للحملة الثانية على القناة .

وادمجنا الفرقتين الثامنة والعاشرة فى الجيش مباشرة . تلك كانت الحالة العامة للجيش الرابع فى أواخر تشرين الثانى سنة ١٩١٥ .

وسلمت فون فرانكنبرج رئيس أركان حرب الجيش خطة وضعتها بدقة تامة خاصة بالجنود ـ أى بالقوة المهاجمة والاحتياطي ومعدات القتال وكمية الذخيرة ونوعها اللازمة للحملة الثانية على القناة وطلبت اليه ان يوصلها الى الاستانة . وقد قرت هيئة اركان الحرب التركية العليا مشروعي بحذافيره بيد انى لما طالبتها بعدة تشكيلات طوبجية وجنود فنيين ماهرين المانيين للقيام بشؤون تلك الحملة المهمة حولتها الهيئة بواسطة فرانكنبرج الى هيئة أركان الحرب الألمانية طالبة مصادقتها . ولكن هذه الهيئة لم تعن بالمسألة العناية التى تستحقها وجعلت تسوف فيها بلا سبب .

ولما نقلت مركزي الى القدس وجهت اهتمامي بصفة خاصة الى حمل زعماء العرب أمثال الشريف حسين باشا امير مكة وابن الرشيد وابن السعود على تقديم بعض المساعدة الفعلية لجيوش الخلافة . وسيعلم العالم الاسلامي حتى اطلع على الأجوبة التي تسلمتها من الشريف حسين سياق المراسلات التي دارت بيننا كيف كان هذا السيد يلعب دورين متناقضين في آن واحد .

ولم يكن في استطاعة الأمير ابن السعود أن يمدلنا يد المساعدة المباشرة لقربه من الانجليز الذين كان في استطاعتهم ايصال الأذى اليه . الا انه كان شخصياً نافعاً جداً لنا اذ أرسل الجمال للجيش وسمح بتصدير التجارة من بلاده الى سورية . ولقد اقام الأمير ابن الرشيد البرهان الصادق على انه مسلم صميم وشديد الاخلاص للخلافة . وسأ تناول دسائس الشريف حسين فيما بعد .

وكنت حوالي ذلك الوقت قد ارسلت نوري بك شقيق أنور باشا بعد حضوره من الاستانة من بيروت الى طرابلس على زورق مهرب .

ويجب هنا أن أضيف الى هذا انني كنت أرسلت الكتيبة التي جاءت من مكة بقيادة وهيب بك الى نقطة قريبة من القناة . فلما قر الرأى على التقهقر سحبتها الى معان ونظراً الى تعيين وهيب بك المذكور قائداً للجيش الثاني وسفره الى الاستانة أمرت بعودة كتيبته بقيادة نجيب بك .

وما ذكرت تلك التفصيلات الا لأرد على أولئك السفراء الذين يزعمون ان عصيان الشريف حسين كان مسببا عن تجريدي مكة من حاميتها بلامسوغ .

وقد كان حوالي هذا الوقت أيضاً أن فشلت اساطيل الحلفاء في محاولة اختراق الدردنيل بعد الخسارة التي منيت بها . فبعثت الى أنور باشا بخطاب أبنت فيه الاسباب التي جعلتني اعتقد استحالة اختراق البواغيز وأظن ان طلعت باشا رأي رأئي . وقد أردت بارسال هذه الخطابات الى اصدقائي أن أزيد ثقتهم واشد ازرهم أدبيا . ولا أخفي ان كل انسان في الاستانة كان يتوقع

رؤية بوارج العدو أمام السراي فى أي يوم . ولربما اثرت تلك العقلية أسوء تأثير فى ثقة زملائى وزعزعت عقائدهم . ولما كان الضرر المنتظر مما لا يمكن تقديره رأيت ان ابعث اليهم بآرائى السالفة باعتبار نفسى زميلا يستطيع تقدير الحالة العامة من بعد ولقد اخبرنى أنور باشا فيما بعد ان رسالتى التى وافقت آراءه تماما كان لها تأثير أدبى عظيم .

ولما كان من المحتمل ان العدو بعد هجمته البحرية يقدم على انزال عدو كبير من الجنود لارسالها الى الدردنيل ادرك انور باشا ضرورة حشد قوات كافية من المشاة بالقرب من الاستانة . فأرسل يطلب أن أبعث له بالفرقتين الثامنة والعاشرة .

فلبيت طلبه فى الحال . ولما نزل العدو فعلا الى شبه جزيرة غاليبولى طلب الي أنور ان أرسل الفرقة العشرين الى الاستانة . ففعلت . وطلب أيضاً أن أبعث باحدي فرقتى الفيلق الثالث عشر الى بغداد والأخرى الى تبليس . فصدعت بالأمر كما عجلت بارسال المدافع السريعة الطلقات والرشاشات التى كانت فى منطقة جيشى الى الدردنيل . وفى النهاية وجدت أن الجنود فى منطقة الجيش أي فى ولايات أطنه وحلب وسورية ولبنان وفلسطين وصحراء سيناء قد خفضت الى اثنتى عشرة كتيبة ولم يبق فى المنطقة كلها بطارية واحدة من المدافع السريعه الطلقات كما لم تبق لدينا فصيلة رشاشات واحدة ! .

وكانت هؤلاء الكتائب الاثنتى عشرة مكونة من عرب الشام وفلسطين. ولم توجد مقاتلة اتراك سوى كتائب متطوعى الدراويش وفصيلة مشاة من متطوعى الدوبريجة التى انشأتها لخدمة القيادة . أفلا يدل كل ذلك على ثقتى بالعرب واعتقادي انهم لن يثوروا ضدنا أو يطعنونا من الخلف .

اما أهم ما حدث من الأعمال الحربية الى نهاية عام ١٩١٥ فهو شروع الأرمن فى العصيان فى جهتى الزيتون واورفه ولكن الجنود النظامية التى

ارسلناها الى هناك اخمدت ذلك العصيان فيمكننا اذن أن نعتبر سنة ١٩١٥ سنة التأهبات والحشد .

وسأبين فيما بعد كيف مدت خطوط حديدية عديدة وأنشئت طرق كثيرة فى الصحراء وفى الداخل وكيف اقيمت قواعد خط المواصلات وزودت بكل ما تحتاجه .

أضف الى ذلك أن اعمال التحصين جرت على ساق وقدم فى مرسين وطبرق قله ودورت يول وعلى طول الشاطىء فى اسكندرونة واقيمت أربعة أو خمسة خطوط دفاعية لصداي اعتداء يراد به النزول فى بيروت وحيفا ويافا وكذلك فى لبنان وجبل كرمل وفى كل جهة فى داخل فلسطين .

ولما كان من الضرورى تجنيد فرق أخرى جديدة تحل محل الفرق المرسلة الى الاستانه أخذت اجندها فى داخل فلسطين وسورية وحلب واطنة . واصبح تمرينها من اهم اعمال الجيش .

وفى آب سنة ١٩١٥ أي عندما بدأت الاعمال الحربية فى العراق تسير على غير ما نشتهي سألنى أنور باشا عما اذا كنت أوافق على أن اتولى الادارة الملكية والعسكرية فى تلك الجهة .

فأجبته بأن الوقت غير صالح لمغادرتى سورية وفلسطين اذ ان الحالة فيها أمست سيئة بسبب الدسائس الخفية التى يقوم بها ثوار العرب فى هاتين الولايتين وربما أدى بعدي عنهما الى أوخم العواقب ولكن اذا رأى رأيا خلاف ذلك فانى مستعد للتوجه الى بغداد .

فأقرنى انور باشا على رايي وقلد المارشال فون ديرجولتز القيادة العامة فى العراق فقبل المارشال وشخص الى مقر وظيفته .

وانقضت سنة ١٩١٥ كما اشرت آنفا فى التأهب للهجمة الثانية على القناة واذ أيقنت ان هيئة اركان حرب الالمان لم تعر تلك التأهبات الاهتمام اللائق

بها سافرت الى الاستانة فى شهر تشرين الثانى لألفت نظر انور باشا بجد الى العناية بهذا المشروع . فمكثت اسبوعين وعدت الى دمشق صفر اليدين .

ولما انسحب الانجليز والفرنسيون بعد الجلاء عن الدردنيل دعوت أنور باشا للحضور الى سورية ليرى بنفسه نتيجة ما قمت به من التأهبات فى الصحراء . فحضر فى شباط سنة ١٩١٦ وبعد أن قام برحلة طويلة فى الشام وفلسطين وصحراء سيناء ذهب لزيارة المدينة .

وصحبنا فى تلك الزيارة الشريف فيصل الذي كان وقتئذ فى مركز القيادة.

وقد ابتهج انور باشا ايما ابتهاج بتنظيم خط مواصلات الصحراء . الا أنه وافقنى فى ان عبور القناه وطرد الانجليز من مصر متعذر ولكننا رأينا ان ليس ثمة ما يحول دون تحصين أنفسنا بأمان فى الضفة الشرقية ومنع مرور البواخر التجارية ببطارياتنا الضخمة .

وكان جل همى فى ذلك الوقت أن اعمل كل شيء وأى شيء لمنع الميول الثورية التى أظهرها الشريف حسين من التطور وحمله على ارسال كتيبة مساعدة الى فلسطين بقيادة احد ابنائه . ولتحقيق تلك الغاية كاشفت الشريف فيصل وفاوضته مليا وتبادلت مع الشريف حسين سلسلة رسائل ودية . وسيظهر فى الفصل الذى عقدته خاصا بالثورة العربية كيف ذهبت هذه المساعى كلها ادراج الرياح . وفى النهاية اصبحت فى يوم ٢ كانون الثانى سنة ١٩١٦ أمام امر واقع هو ثورة الشريف حسين العلنية . وكانت هذه الثورة ضربة قاضية على الحملة ضد القناة .

وقد اخذت افكر فى امر الانجليز فرأيت انهم لو ارادوا مهاجمة فلسطين برا ليتعين عليهم انشاء خط مواصلات بين القناة وفلسطين (كما فعلنا نحن من جهتنا) وتوصيل هذين القطرين بسكة حديدية . ولم تجرأ كتيبة انجليزية واحدة فى عام كامل على أن تطأ باقدامها ضفة القناة الشرقية . وغاية

ما امكنهم ان بعض فرق العسس من الجملة كانت تتجسس الى مسافة خمسين او ستين كيلو متراً من القناة ولكنها كانت ترتد الى قواعدها بعد ايام قليلة .

اما اول ما اكتشفناه من الاعمال الدفاعية الانجليزية فى أواخر كانون ثانى سنة ١٩١٦ فكانت الاستحكامات التى عند رؤوس الجسور فى ضفة القناة الشرقية تجاه القنطرة والاسماعيلية . ويوافق تاريخ انشاء هذه الاستحكامات تاريخ آخر خطاب ارسله الشريف حسين الى الانجليز حيث اكد لهم فيه خروجه علينا . ومن هذا يتبين ان الانجليز لم يقرروا العبور الى الشاطىء الشرقى أو بعبارة اخرى لم يبدؤوا الهجوم على فلسطين الا بعد ان استوثقوا من خيانة الشريف حسين . فلقد تأكدوا ان ثورة الشريف ستضطرنا الى اتخاذ اجراءآت معينة لحماية الحجاز بل الى ان نسحب من تلك الجهة بعض القوات التى كانت معدة لسورية وفلسطين . وفضلا عن ذلك لقد تأكدوا أن البدو الذين اغروهم بالأموال الطائلة المرسلة اليهم بواسطة الشريف حسين سيثورون ضدنا وان ثورتهم ستضعفنا كثيراً .

وفى اول نيسان سنة ١٩١٦ وصلت الى بير السبع فرقة الطيران الالمانية رقم ٣٠٠ وهى اول مساعدة جدية وصلت الينا وفى ١٢ و ١٥ - نيسان وصلت بطاريتان ميدان نمساويتان من طرزها وتيزر .

وكان نفع الفرقة الجوية مما لا يقدر فقد ساعدتنا على استطلاع جميع تفاصيل الاستحكامات عند رؤوس الجسور والاستعدادات فى السكة الحديدية وغيرها وبالجملة كل ما كان يفعله الانجليز فى شرقى القناة .

فلما تفاقمت ثورة الشريف حسين عينت فخري باشا قائداً للمدينة المنورة وشرعت انظم هناك قوة مكونة من خمس عشرة أو ست عشرة كتيبة مشاة وعدد مماثل من البطاريات الجبلية وانى لشديد الاعجاب بفخري باشا . فقداتى هو وحاميته بالمعجزات رغم هجمات العدو ومما كان يحيط به من كل جانب من

العناصر المعادية . فقد ثبت من كانون الثاني سنة ۱۹۱٦ الى كانون الاول سنة ۱۹۱۸ اي مدة ثلاث سنوات فى دفاعه عن الروضة الشريفة ضد جنود الشريف حسين الخائن وبدوه العصاة الذين ساعدتهم المدفعيـــة الفرنسية والانجليزية والتشكيلات المساعدة العديدة . بل ان تلك الحامية الصغيرة بعـد ان نقص عددها فى تشرين الاول او تشرين الثانى سنة ۱۹۱۸ الى خمس أو ست كتائب وانقطعت صلاتها بالداخل على اثر سقوط معان فى يدي فيصل فى كانون الثانى سنة ۱۹۱۸ ثابرت على المقاومة وامكنها الاحتفاظ بالمدينة الى ما بعد توقيع الهدنة بثلاثة اشهر .

ولعمري ان اللسان لا يستطيع ان يوفى تلك الحامية الصغيرة حقها من الثناء لما أبدته من ضروب الشجاعة والثبات وهى التى لم تزد على خمس او ست كتائب تركية والتى عهد اليها ونيط بها حماية الخط الحديدي من المدينـــة الى معان والتى أبقت طريق المواصلات بين المدينة والجيش مفتوحاً .

اما الرجال الذين هم فى نظري دعائم الدفاع عن ذلك الخط الحديدي الذي ينيف على الف كيلومتر فيما بين المدينة ومعان فهم فخري باشا وضباطه البواسل أمثال حاكم المدينة بصرى باشا والقائد جمال باشا الذى امتـاز بشدة مراسه فى الدفاع عن اشقودره تلك القلعة الالبانية والذى يسميه العرب (جمـال باشا الثالث) والقائمقام نجيب بك والملازم كمال بك فيما بعد وغيرهم .

فبسالة هؤلاء الشرذمـة واقدامهم أحبطت كل ما بذله اولاد الشريف حسين من الجهود وردتهم على اعقابهم بالخسائر الفادحة . وليس شيء أول على نجاحها من ان المواصلات ظلت مفتوحة بين سورية والمدينـة من تموز سنة ۱۹۱٦ الى كانون الاول سنة ۱۹۱۷ وحركة الاعمال منتظمة بالرغم من امتداد ثورة البدو من المدينة الى معان واحتلال الشاطيء بواسطـــة جنود الشريف التى عززتها الجنود الانجليزية والفرنسية . بيد ان التضحيات الهائلة

التى اقتضاها بالطبع تموين حامية المدينة وامداد الجنود المرابطة بين المدينة ومعان بالمؤونة والذخيرة حتمت علينا ان نشطر المؤونة المخصصة لفلسطين وسيناء الى شطرين وحالت دون تعزيزنا لجبهة سيناء متى شئنا وكيفما أردنا .

وفى يوم ٢٣ - نيسان سنة ١٩١٦ تمكن فون كريس بك وهو يقود كتيبتين من المشاة وبطارية جبلية وكتيبة من الجمالة المتطوعة بهجمة فجائية من اسر كتيبة فرسان انجليزية وقومندانها وضباطها . فرفع هذا العمل العظيم ثقة جنودنا الى درجة عالية . وحوالي ذلك الوقت وصلت الى جبهة سيناء الفرقة الثالثة من المشاة وبعض فرق رشاشة المانية وبطاريتان نمساويتان من طرز هاويتزر آتية من الاستانة .

وفى الوقت نفسه عزز الانجليز استحكاماتهم الى درجة كبيرة عند رؤوس الجسور تجاه القنطرة وسندوا جناحهم الايسر الى البحر فارسلوا قوة مختلطة ومعها السلاح الكافى الى قاطية وآبار رمانة .

فشرعت فوراً فى اقامة الاستحكامات .

وقال فون كريس الذى تولى من جديد قيادة التجريدة : - ان الجنود قد ملت طول الانتظار واقترح الشروع فى مهاجمة رمانة .

فقلت له بدورى : - اننى اوافق على البدء بهذه الموقعة على شرط ان لا توضع الحملة فى الخطر لأنها القوة الوحيدة التى يمكننا الاعتماد عليها فى الدفاع عن فلسطين .

والآن اذكر الجنود التى تركبت منها القوة التى هاجمت القناة فى المرة الثانية وهى : -

فرقة المشاة الثالثة (وهى ثلاث كتائب وثلاثة صفوف وكتيبة راكبة وبطاريتان جبليتان وكتيبة من المهندسين) .

كتيبة رشاشات (ثمانية بلوكات) .

بطاريتان هاوتيزر جبليتان نمساويتان) .

بطارية المانية من عيار ١٠ سنتيمتر .

بطارية المانية من عيار ١٥ سنتيمتر .

فرقتا مدافع ضد الطيارات .

ومجموع هذا كله / ١٠٠٠٠ - رجل .

وهذا الهجوم الذى بدأ فى تموز سنة ١٩١٦ انتهى بفشل الحملة فى قاطية ورمانة فاقتفى الانجليز اثر قوتنا خطوة فخطوة بفصائل كبيرة من الفرسان والجمالة واضطرنا الى الانسحاب الى العريش . وفى النهاية قضى الامر وجلت القوة من العريش نفسها فى يوم ١٦ كانون الاول وانسحبت الى خط خان يونس الحافر اى على خط حدود فلسطين سيناء القديمة .

وقدمو الانجليز الخطوط الحديدية بسرعة مدهشة وكان معدل الانشاء كيلومترين فى اليوم . وبعد المفاوضة المطولة مع انور باشا وقد كان قد حضر التفتيش على جبهة فلسطين وكذلك مع فون كريس قررنا ان نجعل خط غزة - تل الشريعة - بير السبع خطنا الحصين وعهدنا الى فون كريس بالدفاع عن هذا الموقع بالجنود الموجودة .

وقد اضطررت الى مغادرة مركز القيادة فى دمشق نظراً لتحرج الحالة العامة بعد ثورة الحجاز وضرورة مراقبة الدروز وجنود البدو المختلفة .

(الفصل السابع)

معارك غزة

تألفت الجنود التركية التي انسحبت بعد ١٥ آذار سنة ١٩١٧ الى خط غزة تل ـ الشريعة ـ بير السبع من الوحدات التالية : ـ

في غزة : ـ الكتيبة التاسعة والسبعون مشاة التابعة للفرقة السابعة والعشرين والكتيبة الخامسة والعشرون ومائة التابعة للفرقة السادسة عشرة .

بطاريتان جبليتان نمساويتان من نوع هاويتزر .

بطاريتان ميدان تركيتان .

بطارية ميدان المانية من عيار ١٠ سنتيمتر .

بطارية هاويتزر تركية من عيار ١٥ سنتيمتر .

بلوكان رشاشان المانيان وخمسة او ستة بلوكات رشاشة تركية .

المجموع ٣٥٠٠ بندقية .

في جيمامش ـ الفرقة الثالثة المشاة (تسع كتائب وست بطاريات ميدان وأربعة بلوكات رشاشة وبطارية هاويتزر للميدان من عيار ١٥ سنتيمتر) .

المجموع ٥٠٠٠ بندقية .

في تل الشريعة ـ قيادة الفيلق الثاني والعشرين وكتيبتان من المشاة تابعتان للفرقة السادسة عشرة ومدفعية الفرقة المذكورة . المجموع ٥٠٠٠ بندقية .

في بير السبع ـ الفرقة الثالثة المراكبة (ثلاث كتائب) . المجموع ١٥٠٠ سيف .

وفضلا عن الوحدات السالفة الذكر وصلت الى الرملة كتيبتان تابعتان للفرقة الثالثة والخمسين .

وقد قدر القائد ماري في تقريره الرسمي في تشرين الثاني سنة ١٩١٧ القوات التركية في معركة غزة الأولى كما يأتي : ـ

في غزة ـ الفرقة الثالثة والكتيبة الثانية الماشية .

أربع وعشرون بطارية رشاشات .

بطاريتان المانيتان من المدافع الضخمة عيار ١٥ سنتيمتر .

ثلاث بطاريات ميدان نمساوية من نوع هاويتزر عيار ١٠٥ مليمتر .

خمس بطاريات ميدان . المجموع ١٠٠٠ بندقية .

في تل الشريعة ـ الفرقة السادسة عشرة الماشية (٦٠٠٠ بندقية وست عشرة بطارية رشاشات وخمس بطاريات ميدان) .

الفرقة الثالثة الخيالة (أربعة مدافع خفيفة وأربعة هاويتزر واربع رشاشات) .

في الرملة ـ الفرقة الثالثة والخمسون مشاة .

في القدس ـ الفرقة الرابعة والخمسون والسابعة والستون مشاة .

في حيفا ـ الفرقة السابعة والعشرون مشاة .

ويمكنني أن اؤكد هنا بمنتهى الصراحة ان تلك الارقام لا وجود لها الا في مخيلة الانجليز . واذا كان مبلغ علم القائد الانجليزي بالقوات التركية هو كما ذكرنا فقد خدعه قلم استعلامات جيشه . فان الحقيقة ـ كما قدمت ـ هي ان القوة التركية التي ردت بنجاح مبين هجمة الانجليز الأولى على غزة لم تتجاوز ١٨٠٠٠ جندي .

أما الجيش الانجليزي كما قدره القائد ماري في تقريره فكان مؤلفاً من الجنود الآتية : ـ

في الصف الاول ـ (بقيادة القائد سيرفيليب شتوود) ـ فرقة الاتراك الراكبة ـ .

الفرقة الامبراطورية الراكبة ومعظمها من المتطوعين .
الفرقة الثالثة والخمسون مشاة وعدة بلوكات رشاشات .
فى الصف الثانى - فرقة الجمالة والفرقة الثانية والخمسون والرابعة والخمسون مشاة ومدفعية ضخمة وبلوكات رشاشات وعـــدة فصائل من حملة البنادق الاوتوماتيك .

أى ان الانجليز - على حساب هذه الارقام - كان لهم فى معركة غزة الاولى - ثلاث فرق مشاة - ثلاث فرق راكبة - فرقه جمالة ووحدات بحرية اشتركت فى المعركة فهؤلاء الجنود الذين كان القائد السير تشارلس دوبيل يقودها قرر القائد مارى القائد العام القوات البحر المتوسط الانجليزية مهاجمة استحكامات بير السبع - غزة .

وقد تقرر ان تقوم الفرقة الثالثة والخمسون - ١٢٠٠٠ بندقية - بهجمة مباشرة على غزة بينما تكتنفها من جهة الشرق فرقة الاتراك الراكبة والمتطوعون وكتيبة راكبة اخرى وبعد غرزها اسفينا فيما بين غزة واليامة تعزل الاولى عزلا كلياً بسر سائر الخارج الشمالية .

وأخذت الجنود المعدة لافتتاح الهجوم مواقعها فى ليلة ٢٥ - ٢٦ آذار فما وافت الساعة الثامنة من صباح يوم ٢٦ آذار حتى طوق الفرسان غزة وعطلوا جميع المواصلات مع المدينة .

وفى الساعة العاشرة صباحاً أرسل ضد غزة لواء تابع للفرقة الرابعـــة والخمسين وكتائب عديدة تابعة للفرقة الثالثة والخمسين . أى ان فرقة ونصف فرقة مشاة واكثر من فرقتين خيالة طوقت تلك الحامية التركيـــة الصغيرة الموجودة فى غزة التى لم يتجاوز عددها ٣٥٠٠ جندي . ولـكن غزة بفضل بسالة حماتها الاتراك والعرب قاومت هجمات العدو المتوالية أربعاً عشرين ساعة . وقد قاتل اولئك الشجعان دفاعاً عن كل شبر من الارض حتى أن كل تل من التلول

أخذ ثم استرد ثم اخذ ثم استرد اكثر من ثلاث مرات .

وبعد ظهر ذلك اليوم شددت الفرقة الثالثة من اليمامة الحملة على مقدمة الجيش الانجليزي وفى اليوم التالي لم تكد الجنود الانجليزية تحس بثقل الوطاة حتى نكصت على اعقابها بعد ان سادت الفوضى فى صفوفها . وزاد الاختلال والارتباك على اثر وصول الفرقة السادسة عشرة من تل الشريعة والفرقة الثالثة الراكبة من بير السبع .

ولا أريد ان اطيل هنا الكلام فى التفصيلات السطحية بيد انني لا استطيع اغفال تلك الحقيقة التى تناقض أقوال القائد الانجليزي فى رسائله الرسمية (ومؤداها ان الامدادات وصلت الينا فى ليلة ٢٦ - ٢٧ آذار) وهى انه لم يصل الى مدينة غزة جندي واحد قبل صباح يوم ٢٧ وهو اليوم الذي بدأ فيه الانجليز تقهقرهم .

وستبقى موقعة غزة الأولى فى مكان سام فى تأريخ الوقائع الحربية التركية . فبفضل هذه المقاومة التى قامت بها فى ذلك اليوم شرذمة من رجالنا البواسل اضطر الانجليز أن يمكثوا فى ذلك الخط من ٢٧ آذار الى تشرين الاول سنة ١٩١٧ - أى مدة ثمانية أشهر - وان يرسلوا الى تلك الجهة تسع فرق ماشية وعدداً من فرق الخيالة وفرقتين من الجمالة .

وما أشجع حماة غزة البواسل فهم بلا مراء خيرى افندي قائد الكتيبة الخامسة والعشرين ومائة الماشية . فان هذا الضابط الماهر - الذي ظل رابط الجأش هادى البال فى أشد الاوقات خطورة - وضع نفسه على المتوالى فى رأس كل من بلوكات كتيبته واسترد من الانجليز التل المشهور المسمى بتل (على منطار) مرتين واحتفظ به نهائياً فى المرة الثالثة . وفى هذه الهجمة أبدى الملازم الالمانى كورديير قائد بلوك الرشاشات منتهى البسالة والاقدام الى ان مات كزميله الكابتن ديترفون ترشكوفسكى قائد البطارية النمساوية . ميتة

الابطال بجانب مدافعه .

وقد قدر القائد الانجليزي فى بلاغه الرسمي خسائرنا بثمانية آلاف بين قتيل وجريح . ولكن قوتنا فى غزة بمن فيها من الطهاة وحملة النقالات وغيرهم ممن ليسوا جنوداً لم تتجاوز مطلقا ذلك العدد . ولست أدرى كيف وصل القائد مارى الى ذلك الرقم . والحقيقة ان خسائرنا كانت كما يأتى : ـ

	قتلى	جريحا	متغيبا
ضباط	١٠	١٢	١٤
الجنود	٢٧٦	٧٤٤	٥٧١

أما والانجليز يعترفون بأن خسائرهم بلغت ٤٠٠٠ فينتج من ذلك ان كل من حماة غزة قتل بدوره جندياً انجليزياً .

وفى مساء ٢٧ آذار غادرت دمشق فوصلت الى تل الشريعة فى يوم ٢٨ ومن ثم ذهبت الى غزة . وبعد توزيع الاوسمه بين الضباط والجنود عدت الى القدس . فلم تمر ساعتان حتى وصلت الى جبهة القتال شراذم من الفرقة السادسة عشرة . فاقترح فون كريس الذى عزا تقهقر الانجليز المشوش الى انحلال قوتهم المعنوية ان نهاجم الجناح الانجليزى بجنود الفرقتين الثالثة والسادسة عشرة . ولما كان ذلك الهجوم عاقبته مجهولة اذ لو نجح لعاد علينا باكبر الفوائد ولو اخفق لأصبحنا ولا جيش لنا مطلقا للدفاع فى المستقبل عن فلسطين والشام ولقضى الأمر نهائياً ، ولما كانت طرأت أيضاً مشروعات خطيرة من هذا القبيل فى الميادين الأخرى جرت الى عواقب وخيمة قد كنت شديد المعارضة فى القيام بأمثال هذه المخاطرات فى هذا الميدان . وكان اهم ما سعيت الى تحقيقه حتى الآن الابتعاد بحملة الصحراء عن طريق العطب ولكنني وقد انسحبنا الآن الى خط غزة ـ بير السبع وهو الحد الطبيعى بين الصحراء والأراضى الزراعية وطنت النفس على الدفاع عن تلك الجبهة والحيلولة دون

اختراق الانجليز لخطوطنا - مهما كان الثمن - وذلك بحشد كل القوات التركية هناك

ومزية هذا الخط الكبرى هى استحالة الالتفاف به لأن الجناح الايمن كان يستند الى البحر بينما الجناح الأيسر قد استند الى الصحراء .

وفضلا عن ذلك فمادمنا متمسكين بهذه المواقع فلا مناص للانجليز من البقاء فى الصحراء بينما نحن مرابطون فى الأراضى الخصبه . وبالاختصار مادمنا محتفظين بخط غزة - بير السبع فليس فى وسع الانجليز الاتصال بالجبهة العربية.

وعلى ذلك كانت احكم خطة لنا هى تجنب كل عمل يؤدي الى تعريض الخط المذكور للخطر . فلهذه الاعتبارات رفضت الهجوم الذي اقترحه فون كريس .

ولم نكن لنرتاب فى ان الانجليز سيستأنفون هجومهم بعد اسبوعين أو ثلاثة . وعلى ذلك تعين علينا أن نعزز جبهة القتال بجنود من الداخل لنتمكن من صد هذه الغارة الثانية وفيما عدا بضع ثغرات عديمة الأهمية قد كنا على اتصال بخط محصن متواصل الجنود التى جاءت حديثاً .

وقد اراد الانجليز أن يبدؤوا هجمتهم الثانية على غزة بخدعة حربية . ففى يوم ١٤ نيسان التقطت محطتنا الاسلكية فى تل الشريعة رسالة انجليزية فحل لنا رموزها ضابط التلغراف اليوزباشى ستيلر .

فاذا فيها تعليمات من القائد العام لجيوش الانجليز فى الشرق الى قائد جيش فلسطين يخبره ان غزة ستهاجم فى يوم ١٧ نيسان . ولكن بينما الهجمة الاساسية ستكون فى البر فان فرقة من المشاة ستنزل فى عسقلان فى ليلة ١٧ لمهاجمة غزة من الخلف ولمساعدة الهجمة الأمامية .

فظننا ان تلك الرسالة - التى لم نشك بادىء ذى بدء فى صحتها - قد تكون ارسلت خصيصة لتحملنا على تغيير توزيع احتياطينا . فصممت على اهمالها ولم أدخل تغييراً ما فى توزيع الجنود فى جبهة القتال واكتفيت بارسال شرذمة

من الجنود الى عسقلان كنت قد تركتها فيما وراء يافا .

وفى خلال الأربعة والعشرين يوماً التى انقضت بين موقعتى غزة الأولى والثانية عززنا جنودنا بكتيبتين من الفرقة الثالثة والخمسين أي بما يقرب من ۲۰۰۰ بندقية .

وعزز الانجليز جنودهم أيضاً بالفرقة الرابعة والسبعين فقد اكملوا عدد جنود الفرق التى اشتركت فى معركة غزة الأولى واصبح لهم جيش عرمرم مكون من أربع فرق مشاة خيالة .

وكانت الهجمة العنيفة التى بدأها الانجليز فى صبيحة يوم ۱۷ نيسان موجهة ضد غزة والفرقة الثالثة والخمسين الموجودة فى الجناح الأيسر .

واستعملوا ثمانى دبابات فى هجومهم هذا الذي اشتركت فيه قوات بلغت ستة أوسبعة أضعاف القوات التى حشدها فى ذلك الجزء من خط القتال واشترك أيضاً اسطولهم فى الكفاح فأمطر غزة وابلا من الحديد والنار .

ودارت رحى معركة عنيفة ولبثت ايام ۱۷ و۱۸ و ۱۹ نيسان لم يدخر الانجليز فى خلالها وسعاً لاختراق خطوطنا .

وهنا نهض الدليل مرة اخرى على بسالة الجندي التركى وخور عزيمة الجندي البريطانى تجاهه اذ وجد الانجليز أنفسهم فى ليلة ۲۰ نيسان مضطرين الى النكوص الى خطوطهم الأولى تاركين وراءهم القتلى والجرحى (وعددهم ۷۰۰۰) أي ما يعادل جميع القوة التركية التى اشتركت فى القتال فى تلك الجهة.

وتركوا أيضاً امام خطوطنا او بعبارة اخرى فى خنادقنا ثلاثة من دباباتهم . وانى ليتعذر علي ان آتى فى عبارات مقتضبة على وصف عام لذلك الدفاع المجيد الذي لبث ثلاثة أيام بلياليها وكان دليلا ناطقا على البسالة التركية وانى أرى ارجاء تفاصيل ذلك الفصل الى فرصة اخرى واقتصر ذعلى كرنتائج هذه المعركة الثانية .

فان هذه الضربة القاصمة - التي لم يكن الانجليز يتوقعونها بحال من الاحوال أوقعت في صفوفهم الفشل وتركتهم حيارى ذاهلين .

ولطالما زعموا أن بلاغاتهم صادقة ولكنهم وجدوا أنفسهم هذه المرة مرغمين على اصدار بلاغ وجيز وغامض لايتفق بحال ما مع الحقيقة الواقعة .

وقد اعتذروا عن ذلك بقولهم - ولهم الحق - ان الفشل الذي منوا به في فلسطين على أثر فشلهم في الدردنيل كان مؤداه نهاية النفوذ الانجليزي في الشرق ولذلك وطدوا العزم على قضاء زمن الربيع والصيف في اتمام معداتهم للقيام بهجوم فاصل ناجح في خريف وشتاء سنة ١٩١٧ واستبدلوا القائد ماري الذي هزم مرتين تجاه غزة بالقائد اللنبي الذي اشتهر في الميدان الغربي باليقظة والحزم وشدة الفهم .

ولما تولى القائد اللنبي مهام وظيفته الجديدة اعلن بأنه لن يقوم بأي هجوم ما لم يكن لديه أربعة جنود انجليز في مقابل كل جندي تركي . ولم يخامرني أي شك في ان عناد الانجليز وكبريائهم سيجعلان تلك النسبة امراً واقعاً . فحاولت بكل وسيلة ممكنة ان اعزز جبهة فلسطين الى اقصى حد . وارسلت الى القيادة العليا تقريراً مطولا بعدد الجنود اللازمة لجبهة فلسطين وعدد الفرق المطلوبة لاراحة جنود الصف الامامي (واين يجب توزيع الجنود في الداخل) والجنود التي يجب حشدها في حلب وسورية لمقابلة الطوارىء .

وفي نهاية مايس وصلت الي برقية من نائب القائد العام قال فيها مايأتي . (طلبت الى القائد فون فالكنهاين أن يقوم برحلة تفتيشية عن طريق حلب الى وادي الفرات والموصل لينظر هل من الممكن ارسال عدد كاف من الجنود لاسترداد بغداد . ولقد اقترحت عليه أن يذهب الى القدس لزيارتكم لاخفاء الغرض الحقيقي من الرحلة . أرجو الاحتفاء به وان تكفلوا له الراحة التامة أثناء اقامته) .

وكانت الحالة العامة فى مختلف الميادين التركية فى نهاية مايس سنة ١٩١٧ كالآتى : -

ميدان القوقاز - قضت الثورة الروسية التى نشبت فى بدء عام ١٩١٧ على نظام الجنود التى كانت محتلة اذربيجان وطرابزون ومتوغلة فى ولاياتنا الشرقية لغايه بتليس وكان مصطفى كال باشا قائد الجيش الثانى قد تمكن من تخليص ولاية بتليس وموش من قبضتهم . وعلى ذلك كان من المستطاع نقل بعض فرق من الجيش الثانى والثالث الى ميادين اخرى اكثر أهمية .

ميدان العراق - بعد هزيمة جيوشنا فى كوت الأمارة وضياع بغداد نهائياً اضطرت الى التقهقر الى كركوك وهيت . ولم يكن ثمة أمل فى ان تستعيد نشاطها وتطرد الانجليز من العراق ولا ان تضربهم ضربة قاصمة فى شمالى بغداد او شماليها الغربى .

(منطقتى الاستانة وازمير) - ولم يكن من المحتمل ان ينزل الحلفاء جنوداً ما فى الدردنيل او بالقرب من ازمير فيوجدوا جبهة اخرى لأن الحالة فى اوروبا كانت فى شدة الخطورة نظراً لهزيمة رومانيا الشنيعة ولا خفاق الانجليز مرتين متواليتين تجاه غزة والفوضى التى تغلغلت فى الجيوش الروسية.

أى انه كان من المحتمل استخدام الجنود المرابطة فى الاستانة وازمير فى ميادين اخرى مهمة . وفضلا عن ذلك فقد حان الوقت لسحب فرقنا من غاليسيا ورومانيا وبلغاريا .

وقد لفت نظر القيادة العامة الى كل تلك الاعتبارات وطلبت ارسال سائر ما يمكن من الجنود الى فلسطين وشمالي سورية ووسطها حتى يمكن تعزيز تلك الجبهة الى حد يجعل اختراقها مستحيلا . فقد كانت أضعف موقع وأهم موقع فى الامبراطورية العثمانية . وبما ان مواردنا فى الشرق لم تكن كافية لضمان المؤن لمثل هذه القوات الكبيرة طلبت أن تساعدنا الولايات الشمالية .

وزار أنور باشا هذه الجبهة فى شهر تموز . فارتاح ارتياحاً شديداً للاستحكامات الدفاعية التى أقمناها ولكن ما زال متمسكا بضرورة مهاجمة الجناح الأيمن الانجليزي من الخلف . وفى النهاية قال لي : ـ

(لقد طلبت الى عدد من قادة الجيش أن يقابلونى فى حلب ليبحثوا معى فى المشروع التالي : ـ فانى أنوى القيام بهجوم لاسترجاع بغداد . وفى نيتي تكوين جيش سابع بقيادة مصطفى كال باشا قائد الجيش الثانى ويضم هذا الجيش الى جيش خليل باشا السادس لأكون مجموعة اطلق عليها اسم (مجموعة جيوش الصاعقة) فتزحف على بغداد تحت قيادة قائد مجموعة . وقد انتخبت فعلا الفرق التى يجب اخذها من الجبهات الأخرى لتنفيذ ذلك المشروع . وقد أعطتنا المانيا القائد فون فالكنهاين ليكون قائد تلك المجموعة . وفى اعتقادي انه سينفذ هذا المشروع بنجاح عظيم » .

فلم ابد معارضة فى الوقت نفسه واحتفظت برأيى ولماعدنا معا الى حلب بعد عدة أيام وجدنا بها عزت باشا قائد مجموعة جيوش القوقاز وخليل باشا قائد الجيش السادس . أما مصطفى كال باشا قائد الجيش الثانى المعسكر فى دمشق فقد زار جبهة فلسطين معنا وعدنا جميعاً الى حلب .

ولم يكن اجتماع أربعة من قادة الجيش يتقدمهم رئيس أركان الحرب بالأمر العادي وقد انتهزت الفرصة فأشرت الى أهمية الجبهة الفلسطينية وعددت الأسباب التى تحتم على القائد العام أن يعزز هذه الجبهة قبل كل شيء . فاقترحت أن نحشد فى حلب قوة كبيرة بدلا من حملة بغداد ومن ثم يمكننا ان نرسلها الى اى جهة مطلوبة ثم قلت : ـ

لو حشدنا مثل ذلك الجيش فى حلب لأمكنه مقاومة الضغط الروسى على جبهة الجيش الثانى أو بعد أى تقدم يقوم به الانجليز فى دجلة أو الفرات وأهم من كل ما تقدم يمكننا وقتئذ . أن نرغم حكومات الحلفاء على العدول

عن فكرة انزال جنود فى اطنة الامر الذي كنا نخشى وقوعه . فاذا عرف الانجليز ان لدينا فى حلب مثل ذلك الجيش وانه على أهبة الاستعداد ربما اضطروا الى العدول عن الهجوم ولو انى كنت على يقين تام بأنهم يستعدون الآن لمهاجمة جبهة غزة فى الخريف المقبل . وبالاختصار انه ليخيل الي ان حملة بغداد محفوفة بالمخاطر » .

فاجاب القائد العام بلهجة جدية : ـ « لقد استقر قرار هيئة أركان الحرب العليا على حملة بغداد وعينت للاشراف على تنفيذها أحسن قائد المانى بل لقد وثقنا من مساعدة فرقة المانية تحتوى على ست كتائب منتخبة من المشاة مزودة بعدد وافر من الرشاشات ووحدات اخرى وبطاريات المانية فليس من المعقول العدول عن تلك الحملة فالمرجو عدم اضاعة الوقت سدى فى حملي على تغيير رأيي » .

وهنا تدخل عزت باشا فاقترح أن تبقى فى حلب فرقة واحدة على الاقل استعداداً للطوارىء ولكن ذلك الاقتراح قوبل بالرفض . وبعد أن اعترضت انا وعزت باشا على عدم صلاحية ارسال الكتائب شراذم شراذم ـ كما حصل فعلا ـ من حلب الى وادي الفرات لاتمام حشدها على طول خط مواز (للرمادي) قبل اقتراحنا بضرورة حشد الجنود فيما بين جرابلس وحلب ومن ثم تواصل زحفها الى الفرات .

وتبين تتمة مذكراتى عن الاعمال الحربية كيف دخل القائد فون فالكنهاين الخدمة التركية وتشرح الوقائع الحربية التى حدثت على أثر ذلك . ومع ان تلك الوقائع لها شأن أي شأن بالنسبة الي فان هناك اعتبارات سياسية عديدة تحتم علي عدم الخوض فيها فى الوقت الحاضر . وعلى اثر ذلك أرى صواباً الا أنشر الآن ذلك الجزء من المذكرات مع انه مكتوب فعلا .

ولن أنسى ما حييت مجلس الحرب هذا الذي عقد فى حلب كما انى لن

اصفح عن نفسى لتساهلي ذلك اليوم فى الدفاع عن آرائى بالقوة اللازمة والاصرار المطلوب . فان كان فى جميع أوقات حياتى وقت قضت فيه الحوادث أن استقيل فقد كان اجتماع حلب هو ذلك الوقت .

ولا أقول ان فكرة الاستقالة لم تخطرلي فى ذلك اليوم فان عزت باشا شاهدي على ذلك . فلقد تداولت معه الرأي فى محادثة مطولة فى ذلك الموضوع عندما حضر لزيارة الجبهة الفلسطينية بعد رحيل القائد العام . ونظراً لأهمية منطقة الجيش الرابع العظمى من الوجهة الحربية والسياسية معاً اشار عزت باشا الى عظم الخطر الذي يتعرض له الوطن لو اعتزلت العمل فى مثل تلك الساعة الرهيبة وناشدنى ألا اغادر سورية .

ومع ذلك لا أعلم هل كان يحتمل لو تشبثت بالاستقالة أن احمل القيادة العليا على تغيير رأيها أم هل تصر على تنفيذ خطتها وتؤول استقالتى فتجعلها كدليل على رغبتى في التنصل من المسؤلية عما يعقب ذلك من الحوادث .

ولا يخالجنى شك ما فى ان استقالتى كانت تؤول بهذا التأويل .

ومنذ ذلك الوقت وبعده خطت التأهبات خطوات واسعة على طول وادى الفرات وخصوصاً فى منطقة جرابلس . فتمد حزم عدد من الأخشاب التى تستعمل للنقل وامكن بواسطتها انشاء خط مواصلات نهرى ابتداء من تلك الجهة . وقد كان لكل هذه التأهبات تأثير ضار فى الجبهة الفلسطينية اذ انها انقصت من عدد القوات اللازمة للدفاع عنها .

وقد اقنعتنى التأهبات الانجليزية ـ التى كانت تصل الي أنباؤها كل يوم بان الجبهة الفلسطينية صارت فى خطر محقق . واذ أيقنت أن القيادة العليا لم تحفل بتحذيراتى كما يجب أملت أن ادرك غايتى بمخاطبة الصدر الأعظم مباشرة فارسلت اليه برقيتين فصلت فيهما حقيقة الواقع تفصيلا وافياً ـ وقد قلت فى احداها مانصه : ـ

(في نفس الوقت الذي نحاول فيه استرداد بغداد أخشى أن نرى أنفسنا في القريب العاجل مضطرين الى الدفاع عن القدس بل ربما عن حلب نفسها) .

فأجاب الصدر الأعظم بالجواب الآتي :

(ان قرار الشروع في الاعمال الحربية بقصد استرداد بغداد انما كان في جلسة عقدها مجلس الوزراء وقد طلبت في زيارتي الأخيرة لألمانيا أن يبقى القائد فلكنهين تحت تصرف الامبراطورية العثمانية للاشراف على الحملة . فمن المستحيل علي الآن أن أقوم بعمل ما لارجاء القيام بهذه الحملة . اما فيما يختص بالجنود التي ترى نفسك مضطراً الى المطالبة بها للجبهة الفلسطينية فانه في نظري بمثابة نزاع عقيم بين احد القواد و بين القائد العام . ولست اظن ان دخولي فيه يمكن أن يؤدى الى اية فائدة) .

وفي النهاية توجهت الى الاستانة في أواخر آغسطس لأوضح الحالة بنفسي ولالفت نظر الحكومة آخر مرة للخطر الداهم الذي يهدد الجبهة الفلسطينية . وقد تشبثت مرة أخرى بضرورة حشد فيالق مجموعة الصاعقة فيما بين دمشق وحلب بل ارسال جزء منها الى فلسطين . وبالاختصار طلبت احتياطياً لجيش سيناء استعداداً للطوارىء لأتمكن بتلك الوسيلة من منع الانجليز من اختراق الجبهة الفلسطينية لو شرعوا في الهجوم في تشرين الثاني أو كانون الاول . ومن جهة اخرى أبديت استعداداً للتسليم بأنه يصبح وقتئذ في وسعنا القيام في كانون الثاني وشباط بهجوم فاصل نسترد به بغداد وفي غضون ذلك الوقت ينبغي أن يقرب خط المواصلات على طول الفرات من التمام فعقدنا مجلس الحرب برئاسة أنور باشا وبحضور القائد فون فالكنهين

ورئيس اركان حربي وبرونسارت باشا رئيس أركان الحرب فى مركز القيادة العليا .

فبدأ القائمقام على فؤاد بك رئيس اركان حربي بوصف تفصيلى عن مبلغ التأهبات الانجليزية والحالة التي فيها جنودنا . فأعقبته باحصاء عما نحتاجه من الرجال والمهمات ووصلنا الى هذه النتيجة وهى ان مصالح الامبراطورية العثمانية تقتضي العدول عن حملة بغداد . وهنا التفت أنور باشا الى القائد فلكنهين وجرت بينهما مناقشة طويلة بالألمانية . نعم اني لم افهم كلمة واحدة مما قالاه ولكني استنتجت من سياق المحادثة ومن رجوعهما الى الخريطة ومن اشاراتهما مرات عديدة الى الجبهة الانجليزية وأيضاً من استعمالهما ومن اشارتهما مرات عديدة الى الجبهة الانجليزية وأيضاً من استعمالهما بضعة اصطلاحات حربية فرنسية انهما رجعا الى خطة الهجوم التي فكروا فيها والتي توقعت عدولهما عنها بالنسبة لمعارضتي الشديدة .

وفي تلك اللحظة كان أنور باشا يظهر عليه انه الفريق المعارض لتنفيذ خطة الهجوم وان فون فالكنهين هو القائل بوجوب الشروع فيه بالنسبة لعظم المزايا التي ترتب على نجاحه .

ولكني ادركت فيما بعد عند ما ترجم لي انور باشا ملحض المحادثة ـ ان فون فالكنهين كان هو القائل بعدم نجاح الحملة على بغداد مادام الانجليز مرابطين في جبهة فلسطين وكان من رأيه ان اول واجب على جيش الصاعقة هو مباغتة الانجليز وحملهم على الانسحاب الى القناة وبعد ذلك يمكن ارساله الى بغداد . أما من حيث الجبهة الفلسطينية فكل ما فى الأمر أن يقوم الجيش بحركة التفافية ويتقدم فيما بين الحافر والبحر واذ ذاك يأخذ الانجليز على غرة

منهم . فعارض انور باشا فى ذلك الرأى قائلا - انه يرى أن عدد الجنود الموجودة وقتئذ في فلسطين كافية للاعمال الدفاعية . فهو لا يرى الحاجة ماسة لارسال جنود اخرى وأعلن أنه لا يستطيع التحول عن حملة بغداد .

ولم اكن لاوافق على رأي كليهما . أولا - لأنى كنت شديدالاعتراض على حملة بغداد فرأيت - ان الضرر كل الضرور والخطر كل الخطر في اضاعة الوقت بعدم ارسال الجنود المجتمعة في حلب الى فلسطين في أول فرصة ممكنة وثانياً - رأيت من الحمق البدء في الهجوم من جهة فلسطين ومواصلته ضد الانجليز على طول الصحراء لأني مع افتراض ارجاء كل جيش الصاعقة لذلك الفرض قد كنت معتقداً عدم استطاعتنا احراز أي شيء حاسم لعظم التأهبات الانجليزية .

فان الانجليز قد أقاموا استحكاماتهم بدقة ومهارة حتى صار من المتعين علينا لو أردنا مهاجمتهم أن نأتي بمهمات لا أمل لنا مطلقاً في الحصول عليها مثل الدبابات والمدافع الضخمة البعيدة المدى والمفرقعات العالية وأدوات الغازات السامة وغير ذلك .

فاذا فشلنا فى ذلك الهجوم - والأمل - كما ترى - ضعيف في نجاحه لا بد أن يقوم الانجليز بهجمتهم المضادة فلا يعجزهم اسر معظم جنود الصدمة . وهذا بالطبع يؤثر جداً في قوي الجيش المعنوية فيسهل على العدو مهاجمة استحكاماتنا بل قديخترق تماماً الجبهة الفلسطينية . لقد حشد الانجليز في ميدان فلسطين تسع فرق مشاة وثلاث فرق فرساناً هذا عدا قوة كبيرة من الاسلحة الأخرى المخصوصة فمن المؤكد الا يحل منتصف آغسطس أو أوائل الشتاء على اقصى تقدير حتى يكونوا قد قاموا بآخر هجوم فاصل على هذه الجبهة .

كما انه لاينتظر أن يكتفوا بهجمة واحدة . بل هم سيهجمون عدة مرات أي كالهجوم الذي كثيراً ما رأينا مثله فى الميدان الغربي فالنتيجة ان خير مايمكننا أن نعمله هو انتظار نهاية ذلك الهجوم الذي يكلف الانجليز افدح الخسائر فاذا ما نجحنا نجاحاً حاسماً فى صدهم ينبغي أن نقوم بمهاجمة الفرق الانجليزية المهزومة مهاجمة مضادة على مدى قريب بقوات جديدة تكون معدة خصيصا لذلك الغرض .

نعم : ربما لا تسفر هذه الخطة عن شيء من المزايا الايجابية العظيمة ولكنها تكون خير وسيلة وأنجعها لحماية الجبهة الفلسطينية ودرء الخطر الاكبر عن سورية .

ويمكن على اساس اقتراحي السير بمقتضى الخطة التالية :

أولا ـ العدول عن حملة بغداد أو عن التفكير فيها فى تموز أو في الشتاء المقبل .

ثانياً ـ حشد كل فرق جيش الصاعقة في فلسطين ودمشق وحماة وحلب

ثالثاً ـ ارسال فرق جيش الصاعقة الى الجبهة الفلسطينية كما عزز الانجليز جبهتهم .

رابعا ـ تحديد عدد الفرق التي تستخدم في الصف الثاني ليمكننى اراحة سائر فرق الصف الاول كل اسبوعين .

خامساً ـ تقوية صفنا الثالث بقوة احتياطية اساسية كبرى .

سادساً ـ الا يتعرض للخطر ذلك الجيش الواقف لمقاومة الهجوم الانجليزي في المواقع الحاضرة لأنه هو الجيش الوحيد لدى الحكومة العثمانية .

وينبغي لتنفيذ هذه الحركات ان لايذهب مطلقاً جيش الصاعقة وهيئة

أركان حربه الى فلسطين . اذ يمكن فون كريس باشا قائد الجبهة الفلسطينية الذي لبث فى تلك الجبهة اكثر من ثلاث سنوات وتولى الدفاع عن غزة مرتين أن يتولى قيادة سائر فرق الصفين الاول والثاني مع بقاء الفرق التي يتكون منها الاحتياطى الاساسي تحت قيادتي مباشرة .

أما لو ذهب جيش الصاعقة الى فلسطين فيتعين ان تذهب اليها هيئـــة أركان حرب الجيش السابع التي أراحها ذلك الجيش واذ ذاك يصير لازماً تقسيم الجبهة الفلسطينية ـ وهى في الحقيقة جبهة واحدة ـ الى قطاعين مستقلين كل منهما عن الآخر ويرابط جيش مستقل في كل منهما .

ومع ذلك فما اسخف الراي القائل بتوزيع ثمانية فيالق أو تسعة وربما عشرة (ولا أعرف كم فرقة) على جيشين مستقلين خصوصاً اذا لاحظنا أن كل القوة من أولها الى آخرها لا تتجاوز ٥٠٠٠٠ حربة .

حقا لقد كان الاصوب استخدام كل الضباط الاكفاء الحديثي السن الذين يمكن العثور عليهم في كل أولئك الفيالق لسد الفراغ الذي يحدث في الفرق

ولكن الغاية التي كان المارشال فون فالكنهاين يفكر فيها كانت من نوع آخر . فانه عند ما أدرك أن حملة بغداد ـ التي ظنها بادىء ذى بدء أمراً سهلا ـ متعذرة شعر بان مركزه صار حرجاً فبادر الى التخلص منه بوجه ما فلكيما ينقذ سمعته عاد الى بحث خطة كان انور باشا فكر فيها منذ ثلاثة أو أربعة اشهر وهي مهاجمة الانجليز فى فلسطين . وانما عدل عنها نظراً لشدة معارضتي فيها . ولكن فون فالكنهين التفت اليه فقال : (يعتقد جمال باشا ان تلك الحملة مستحيلة أما انا فأرى انها ليست ممكنة فحسب بل مفيدة) .

ولكن انور باشا لم يشأ من جهة أن يرسل الى فلسطين جنوداً جديدة

ولا أن يعدل من جهة أخرى عن حملة بغداد وعلى ذلك ختم مجلس الحرب باعلانه انه لايزال مصراً على رأيه الأول .

ومن ثم أخذ وحدات عديدة تابعة للجيش السابع تحتشد فى حلب منذ شهر ونقل مصطفى كمال باشا قائد الجيش السابع مركز قيادته الى تلك المدينة.

وكان من أشق الامور على نفسي ان أرى تلك الجنود تقتل الوقت في حلب فى حين اني كنت أري انه يتعين ان تكون جزءاً لا يستغني عنه من قواتنا المرابطة فى الجبهة الفلسطينية . وهكذا ظلت رغم تصريحات انور باشا العلنية ونياته التي اعرب عنها فى مجلس الحرب مستمراً فى المطالبة - هذه المرة كتابياً - بارسال هذه الجنود جنوباً بلا ابطاء ولا امهال .

وهو الى ذلك الوقت وصلت الي من امبراطور المانيا دعوة لزيارة الميدان الغربي . ولم أعرف سببا لارسالها .

فأرسل الكونت فالدبرج مستشار السفارة الالمانية - الذي كان وقتئذ قائماً باعمال السفير - هذه الدعوة الرسمية الى وزارة الخارجية كما أرسلها الي شخصياً مع تحيات جلالة الامبراطور . وفى اليوم نفسه ابلغني السفير النمساوي ان جلالة امبراطور النمسا وملك المجر يدعواني لزيارة الميدان النمساوي فبعد استئذ ان جلالة السلطان قصدت المانيا أولا :

فزرت الاسطول في ثغر ويلهلمسهافن ومن ثم ذهبت الى كوكسهافن ثم الى كييل على ظهر الطراد (بايرن) وفي كييل استقبلني الامير هنري مقابلة ودية جـــداً وزار معي دار الصنعة ومدرسة التعليم البحرى فى هنزبورج . وشهدت بحضرته مناورات بحرية عديدة . ثم سافرت عن طريق همبرج واسن حيث زرت مصانع كروب ووصلت الى مركز القيادة العامة الالمانية فى

كرويزناخ . وجاءت يوم وصولي الانباء تحمل بشرى دخول الجنود الالمانية مدينة ريغا فعم الفرح والسرور وبدت على محيا الامبراطور علامات الابتهاج الحقيقي فى ذلك اليوم . ولكنني كنت الشخص الوحيد الذي شعر بانقباض النفس رغم ما بذلته من الجهود للتظاهر بالفرح .

وقد كان سبب انقباضي برقية من أنور باشا استلمتها عند وصولى الى كرويزناخ قال فيها : (بعد محادثات عديدة مع فون فالكنهين قررت الشروع فى الهجوم ضد الانجليز بكل مجموعة جيوش الصاعقة وارسال فون فالكنهين الى هناك لاتخاذ مايراه ضرورياً لتنفيذ تلك الخطة فيجب في هذه الظروف أن يتولي هو قيادة الجيش فى ميدان فلسطين . فالمرجو ان تخبر فون كريس باشا بأن ينفذ كل الاوامر التي يصدرها اليه فون فالكنهاين) .

وكانت هذه البرقية بمثابة ضربة شديده بالنسبة الي ، فقد أدرك القائد الالماني مراده وضمن العمل لتنفيذ مشروع يعلم الله انه كان شديد الخطر ولا بد ان يلحق الوطن منه بلايا عظمى .

فأبرقت الى انور باشا البرقية التالية :

(ان القائد فون فالكنهاين هو صاحب فكرة الهجوم على فردون التي كانت شراً مستطيراً على المانيا فهجومه الفلسطيني مؤداه الشر المستطير علينا)

وما كان اشد حزنى عندما تبين لي فيما بعد انني تنبأت بنبوءة صادقة بالكارثة التي كانت القاضية علينا !

وقد حاولت فى اليوم نفسه أن اقنع المارشال هنـــد نبرج والقائد لودندروف بأضرار العمل الحربي الذي يزمعه فون فالكنهين . فأجاب المارشال هندنبرج بأنه يصعب من مثل هذا المكان السحيق الحكم على المزايا أوالاضرار

التي تنجم من ذلك الهجوم ولكنه يظن انني مصيب في رأيي . وأجاب القائد لودندروف الجواب عينه ولكنه رأى ان الانسان بمهاجمة العدو بهذه الطريقة يضطره احيانا الى القيام بهجماته التى نواها من قبل ولكن لا فى النقطة التي ارادها العدو بل فى النقطة التى ارادها خصمه . وفي ظنه ان هذا عين ماقصده القائد فون فالكنهين عندما قرر القيام بذلك الهجوم ثم اضاف الى ذلك قوله ان كل تدخل الآن لا ينتج الاضراراً وان المخرج الوحيد من هذه الورطة هو الوصول الى تفاهم مع انور باشا عند عودتى الى الاستانة .

وبعد مغادرتى كرويزناخ زرت بروج وزيبروج واوستند ثم جبهة الجيش الرابع الالماني الذي كانت كامبراي مركز قيادته . ثم عدت الى الاستانة

وعند وصولى ناقشت انور باشا ملياً ولكني ايقنت باستحالة تحويله عن رأيه فقررت الاستقالة ولكنه رجانى بالحاح العدول عن تلك الفكرة نظراً لامتداد الثورة العربية وبلوغها الى قرب معان واحتمال بلوغها الى دمشق نفسها اذا انا تركت سورية في الوقت الحاضر . والواقع ان الاعتراضات التي اقامها كانت متينة . فان الدروز والبدو كانوا فى شمال معان . وقد كان محتملا ان يثور متمرد والعرب - الذين بدأ تأثيرهم يظهر في دمشق ولكنهم لم يجرؤوا فعلا على العصيان بفضل اليد الحديدية التي استعملتها - في اي وقت فيقطعوا سائر خطوط مواصلات جيش فلسطين وينهبوا مستودعات مؤونته ويكونوا سبباً فى هزيمته التامة .

فلم اربدأ من تضحية شخصيتي مرة اخرى . فاضطررت ان اصبر على تسوية جعلت حركاتي في داخل دائرة ضيقة واثرت تأثيراً مادياً في مكانتى حيال القائد فون فالكنهاين وبهذا الترتيب اصبح القائد الملقب بقائد مجموعة

جيوش الصاعقة منوطاً به القيام بمهاجمة الجبهة الفلسطينية الانجليزية مع التحاق الجيش السابع بهذه المجموعة . وفي خلال وضع هذه الخطة وتنفيذها تصير جنود هذه الجبهة التى تحت قيادة فون كريس (التى كانت حتى الآن تحت قيادتى تحت قيادة قائد مجموعة جيوش الصاعقة) . وصدرت الي التعليمات بمباشرة مؤن جيوش مجموعة الصاعقه وجنود الجبهة الفلسطينية وليس لفون فالكنهين ان يتدخل مطلقا مع السلطات الملكية سواء في سورية او في فلسطين . بل نيطت بى وحدى ادارة البلاد الملكية . وتقرر أن تبقى تحت قيادتى الكتائب التى تقوم بالاعمال الحربية فى شرقى الاردن وعهد الي بالدفاع عن سائر الشاطى الواقع في شمالي يافا وحماية البلاد عسكريا . وعلى هذه الشروط أصبحت اسمي (قائد جيوش سورية وغربى بلاد العرب) وأصبحت متمتعاً بمزايا قائد مجموعة جيوش . ولو ابدي القائد فون فالكنهين روح المسالمة لما ادى هذا الترتيب الى شيء من المتاعب فى مسألتي مناطق القيادة وادارة سورية وفلسطين بل البقي كل شيء على ما كان عليه من قبل . وعلى فرض انه لم يكن ثمة ما يبرز تلك الغلطة .. الشنيعة غلطة القاء عدة فرق في حلب تقتل الوقت بلا عمل نحواً من ثلاثة اشهر بحجة الانتظار للشروع فى حملة بغداد حتى انها وصلت الى فلسطين بمدفوعات الوقت لم يكن في الواقع هناك مبرر ما لتحويل حال الادارة الداخلية فى سورية بعد ان لبثت زهاء ثلاثة اعوام . وعند عودتي من الميدان الالماني الى الاستانة وصل الى سمعى ان خلافا فى الرأى شجر بين مصطفى كمال باشا قائد الجيش السابع والقائد فون فالكنهين . فاهتممت بالبحث عن سببه فاذا في البحث الى ان مصطفى كمال باشا كان الحق فى جانبه . فانه كان

يحترم جميع حقوق قائد الجيش . اما فون فالكنهين فقد ادعى ان له الحق فى التدخل فى شؤون الجيش السابع بطريقة مخطورة حتى لو كانت خاصة بقائد فيلق . فقد أراد فون فالكنهين ان يتدخل مثلا مباشرة فى الشؤون العربية التى وقعت فى منطقة مصطفى كمال باشا ولكن هذا الاخير افهمه ان هذه المسائل تعنى جيشه وحده وان فالكنهين ليست له سلطة مطلقاً تخوله التدخل فى مثل تلك الشؤون . لهذا اراد مصطفى كمال باشا الذي كان يعلم جيد العلم ما قد يترتب من الاضرار على بعض الاوامر المعنية التى يصدرها فون فالكنهاين مما لا يتفق ومزاج البدو ان يمنع تدخل القائد الالماني بكل صراحة ممكنة معتمداً على سلطته باعتبار انه قائد جيش . تلك كانت الحالة بالاجمال فى سورية عندما عدت الى حلب من الاستانة حوالى منتصف شهر تشرين الثاني . كذلك كان مصطفى كمال باشا يرى انه لا يستطيع ان يبقى قيد اوامر القائد فون فالكنهين وايقنت انا ايضا ان النفوذ الذى كان لى في سورية خلال السنوات الثلاث الماضية سيضعف كثيراً مادام هذا القائد الالماني فيها وفى ذلك الضرر كل الضرر على الوطن . وبعد عدة رسائل مطولة شديدة انتهى الامر بترك مصطفى كمال باشا القيادة وعودية الى الاستانة . فقلت له انى اريد ان انهج نهجك حتى جاء انور باشا الى هنا وكان قد ارسل يقول : انه آت الى سورية فى القريب العاجل . وصممت فى نفسي على ان لا أحول عن عزمي . ولكن انور باشا عندما جاء دمشق جعل يتوسل الي هو والقواد الآخرون في بيروت وسورية وحلب ويسألوني فى العدول عن الاستقالة الى ان رأيت نفسي مضطراً فى هذا الوقت العصيب الى العدول عن فكرة مغادرة سورية . وابدى مصطفى

كمال باشا استياءه من خطتي ولكن أقنعته فيما بعد بأن الحالة فى هذا الوقت العبوس تجعل القيام بتلك التضحية الاخيرة امراً واجباً . وانى لعلى يقين من انه لولم يدرالبحث اولا مطلقا في استرداد بغداد وحشدت كل الجنود الموجودة فى الميدان الفلسطيني ولو لم يوضع فون فالكنهين ثانياً فى قيادة الجيش فى فلسطين لتمكنا من الدفاع عن خط غزة -- بير السبع عدة اعوام ولكانت سورية وفلسطين لاتزال جزءاً من الامبراطورية العثمانية يوم توقيع الهدنة.

(الفصل الثامن)

الثورة العربية

في يوم وصولي الى دمشق اخبرني خلوصي بك حاكم سورية العام بانه لديه اموراً خطيرة الشأن يريد محادثتي فيها فاجتمعنا في مساء اليوم نفسه في دار الحكومة فسلمني عدة وثائق مهمة ضبطت في القنصلية الفرنسوية قائلا انها تدين عدداً من كبار الموظفين المسلمين في بيروت ودمشق ومدن اخرى واكثرهم نفوذاً . وان لم يعمد الى اتخاذ اجراءات ضدهم لمحاكمتهم بل أرجا ذلك الى حين وصولي .

اما هذه الوثائق فتدل دلالة واضحة على ان الثوار العرب كانوا يعملون تحت حماية فرنسا لا بل بارشاد الحكومة الفرنسية ولمصلحتها .

بيد ان اتخاذ اجراءات قضائية في الحال ضد اولئك الخونة ربما عرض الحركة الاسلامية للخطر التي كانت غاية مجهوداتنا . اذ لو حاكمناهم لاعلنت حكومات اسلامية عديدة انقطاع اتصالها بنا كمصر وهند والجزائر ومراكش ان الاتراك قد تملكتهم سورة الانتقام او انهم يسعون لتحقيق سيادة الامة الطورانية عن طريق الفتك بوجهاء العرب . وهذا ما توخيناه في هذا النضال الشديد الذي اشتركنا فيه لتحرير العالم الاسلامي من النير الاجنبي . اذ قد كان غرضنا الاول ومقصدنا الاسمي الاحتفاظ بوحدة الغاية والجهود في جميع البلاد الاسلامية فقررنا لهذا السبب ان لا نتسبب ببث شقة في هذا الصدد في الظروف الحافرة

وقبيل وصولي الى سورية سلمت الى المحكمة العسكرية عدة وثائق تدين

ناهل مطران باشا البعلبكي واذ كان التحقيق لا يزال متواصلا وجب انه تترك العدل يجرى مجراه فحكمت عليه المحكمة العسكرية بالاشغال الشاقة المؤبدة .

وبعد زيارتي للقدس اخبرني خلوصي ان بقاء ناهل باشا فى دمشق غير مرغوب فيه وانه قد حصل على ترخيص من الأستانه بارساله مع من يحرسه الى دياربكر . وبينما هم في طريقهم اليها حاول الباشا الفرار ذات ليلة بالقرب من جرابلس ولكنه وجد قتيلا بجانب حراسة .

ولقد وجدنا الوثائق المضبوطة فى القنصلية الفرنسوية فى دمشق تسجل على ادلة قوية تثبت ادانة كل من انور على شابن انور عبد القادر وكيل مجلس النواب واخيه انورعلم المبعوث السابق عن دمشق وشفيق بك المؤيد وعبدالحميد الحرافى افنـــدى من مجلس الاعيان ويحي الاطرش شيخ الدروز وذهاب الانجليزي المفتش شكرى العسلى ورشدى بك الشمعه مبعوث دمشق الاسبق وغيرهم من كبار وجهاء العرب .

وبارغم من تلك الادله كنت موقناً بانهم سيدركون فى النهاية ان الحرب العامة ليست الا مسألة حياة او موت للعالم الاسلامي وانهم سيعلقون يوماً عن غيهم ويكفرون عن اعمالهم الجنائية . وعلى هذا الاعتقاد قررت بنية صادقة الا اتخذ اجراءات ضدهم . واذ كنت شخصياً موافقاً في المبدأ على استعمال اللغة العربية ومنح العرب بعض امتيازات فى الشؤون الادارية ارسلت في طلب عبدالكريم الخليل زعيم الحركة الثورية العربية الذى ورد ذكره في الفصل الاول من هذه المذكرات . فقربته بالبشاشة والاحسان.

واجتمعت بواسطة لبعض زعماء الثورة واخص منهم بالذكر الدكتور عبد الرحمن الشهبندر أكثرهم تحمساً وصاحب جريدة « المفيد » وعبد الغني

العريس احد كبار مؤسس المؤتمر العربي في باريس ومهوند كيفيد صاحب جريدة المقتبس الشهيرة وبسطت لهم خطة الحكومة واكدت لهم أن تحرير العالم الاسلامي من النير الاجنبي ممكن تحقيقة لو عقد العفو لالويتنا . فآمنوا جميعاً بلا استثناء على اقوالي واقسموا بالله جهد ايمانهم وبشر منهم ان يظل عرب سورية وفلسطين موالين للحكومة مادامت الحرب وان لايقيموا العراقيل في طريقها وان ينفذوا اقوالهم هذه بالفعل وفي الوقت نفسه شرع اولئك الذين يدعون بالثوريتين وفي مقدمتهم عبدالكريم الخليل يقصون قصص حزنهم تعبر عن حاجتهم الاقوى الى المال . فغمرت عبدالكريم المذكور ومحمد كرد علي وعبدالغني العريس بالاموال الطائله واصبحوا من ذلك الحين خدماً مطيعين لأوامري واكدوا لي انهم لايدخرون وسعاً لمساعدتي .

وبعد وصولي الى دمشق مباشرة شرعت في اعداد معدات الحملة على القناة وحولت جهدي لايجاد جو مملوء بالحماس الديني والغيرة الوطنية في جميع البلاد العربية

فاقمت حفلة ادبية بواسطة زعماء الثورة العربية مثل عبد القادر الخليل والدكتور عبد الرحمن شهبندر وغيرهما ممن كانوا يسمون « بالمصلحين » وفي خلال هذه الحفلة التي أفصح الخطباء عدة خطب وانشداد القصائد الحافلة بمآثر العرب واشاروا بالتمجيد الى جنتهم للعلم وشغفتهم بالمعارف والرقي هي صفات تتجلى في العنصر العربي . ورتلت الاغاني التي رددت الآمال في تحقق الوحدة العربية . وكادت الانشودة الوطنية العربية « نحن جنود الله شبان البلاد » تزلزل فوق رؤوسنا سقف المكان الذى كنا فيه .

وبعد ان تبين لهم من سلوكي انني اعطف على كل ما قالوه بل ارغب كل الرغبة في المساعدة بكل ما في الاستطاعة صعدت المنبر والقيت خطبة مطولة

ابنت فيها بصراحة اننا على بكرة ابنيا مخلصون للغة العربية لغة ديننا الحنيف واننا نحب الشعب العربي ونجله وكيف لا دهو الذي تجمعنا واياه الوحدة الدينية والعقيدة المشتركة . واكدت لهم بان الوسائل التي اتخذت في العام الماضي لمساعدة العرب على تحقيق امانيهم ستكرر ثم زدت هذه العبارة التالية :

« ايها السادة » : ان البرناج الذي عقد حزبنا عزيمته على تنفيذه بحذافيره لاصلاح حالة العرب لاوسع بكثير مماق يخطر ببالكم . ولست انا من الذين يتوجون شراً من بقاء العنصرين العربي والتركي متحدين وتابعين لخليفة واحد مع انفصال احدهما من الآخر كشعبين متخالفين .

ولكن لادراك تلك الغاية يجب علينا ان نعمل ونعمل كثيراً . فينبغي قبل كل شيء طرد الغشاشين الذين باعوا وطنهم ودينهم للعدو من بين صفوفنا وان نضيق الخناق على الذين يعملون لمصلحته . ثم انه يجب ان تتقوا في ان حركة الجامعة التركي التي شهدتموها في الاستانة في الجهات الاخرى الآهلة بالعناصر التركي لا تتضارب بشكل ما والمطامع العربية . انهم ليعلمون على ليس بالظن ان الامبراطورية العثمانية وجدت فيها حركات بلغارية ويونانية وارمنيه والآن توجد فيها حركة عربية . ولقد س الاتراك وجودهم بالمرة الى حد انهم كانوا يخشون ذكر شعبهم مطلق . فالروح الوطني وقد وقوماً تاماً حتى لقد ضيف على الشعب التركي ان يتلاشي نهائيا .

فدرءاً لذلك الخطر المقبل نهض رجال تركيا الفتاة بغيرة تستحق الاعجاب ملجأوا الى السلاح لتعليم الاتراك الروح الوطني وما يصحبه من الفضائل هذا هو الغرض الذي يعرمون اليه وبذلوا فيه جهودهم في خلال هذه العامين او الثلاثة الماضية . وقد كانت من نتيجة ذلك بعث الخلافة العثمانية من رقدتها .

فيهم هم الذين اوجدوا الجيش المنظم الذى ترونه اليوم وهم الذين لم يترددوا فى عقد تحالف مع من سامهم القدر الى محالفتنا وفى اعلان الحرب الدينيه على عدد الله الوراثي .

واليوم اراني قادراً ان أؤكد لكم ان الاماني التركية والاماني العربية لاتتعارضان مطلقاً فالاتراك والعرب ليسوا الااخوانا فى غاياتهم الوطنية ولربما كانت مجهوداتهم بعضاً متمم لبعض . ان غرض رجال تركيا الفتاة هو ايقاظ الشور الوطني في الامة التركية وتدريب مواطنيهم على العمل وتحريرهم من النير السلافي وتقويتهم وامدادهم وطنيا وزيادة رخاء اعمالك التركي وسعادتهـــا . وبالاختصار اناقص اماني ذلك الحرب هوجعل الشعب التركي موضع احترام شعوب العالم كافة ويتثبت حقه فى ان يعيش مع شعوب القرن العشرين جنبا لجنب

ولقد اعزم الحزب العمل بلا هوادة او ملل لادراك تلك الغاية واني بصفتي كوني احد المنتمين اليه انا شدكم بلسانكم العربي ان تعلموا بصفتكم محتلا حزب بلاد العرب القناة لنجاح تلك القضيه . فلا تصغوا الى الاكاذيب التي يروجها مأجوروا العدد الذي يعتبر المكر والاحتيال وسائل مشروعة للتحكم فى شؤون البلاد العربية .

اني اناشد الشبان الأتراك والعرب قائلا ان هذين الشعبين مقضي عليها بالفناء لامحالة في اللحظة التي يتخاذلاة فيها . فالنزاع والاختلاف بين عمودي الاسلام لايد أن يؤديا الى سقوط ذلك الدين ويومئذ لا معرض الوقوع تحت نير الاستعمار السلافي .

« ايها السادة » : انه لن اشد بواتى الأسف والحزن ان تتجمع المحاولات الشيطانية التي يقوم بها اعداء الدين والوطن بعذر بذور الشقاق

بيننا فعلى الأتراك والعرب ان يحبوا بعضهم بعضاً ويحترم بعضهم بعضاً لكي يتمكنوا في ان يجنوا معاً ثمار مجهوداتهم المشتركة . واني احذركم عواقب التخاذل فانه مود حتى الى استعبادكم وفنائكم .

وقد احدثت هذه الخطبة به اثراً كبيراً في نفوس الحاضرين فجاء في اليوم نفسه كثير من وجهاء القوم الى مركز القيادة لتقديم الشكر الي على ما ورد فيها وقابلها المصلحون من جهتهم احترم بالارتياح التام . وفي خلال بعضة الأيام التالية لذلك اليوم تجمع سكان الحدثته باعلامهم شرادم شرادم واقسموا بالقرآن ليكونو اولياء للحكومة وليبذلن كل ما في استطاعتهم من المساعدة دفاعا عن حقوق الاسلام ضد الانجليز والفرنسيين .

ولا يسعني اذا ما قارنت بين ماوصلت اليه الحال اليوم وبين المظاهرات الدينيه التي جرت وقتئذ في دمشق وحلب وحماة وحمص وبيروت بل في لبنان ايضاً الا ان استنزل اللعنات السماوية على الشريف حسين واولاده لانهم هم وحدهم المسؤولون عن احدا اصاب الأسلام من الكوارث والمحن .

فالسياسة التي اردت اتباعها في سورية كانت كما ذكرت آنفاً سياسة صفح وتسامح ولم اترك فرصة الا انتهزتها ولا وسيلة الا التجأت اليها لتوحيد الافكار والشعور في سائر المالك العربية .

فقد كتبت مثلا الى ارباب الجهات في بغداد وكربلا والنجف وعدد من مشايخ العراق الذين تمكنت بيني وبينهم اواصر المرة اثناء اقامتي في بغداد ثم الى ابن السعود ان الرشيد طالباً منهم ان يمداويد المساعدة الي سليمان بك العسكري الذي فردمعه فرقه اواثنتان وكتيبة عثمان بك مخلده التابعة للتشكيلات المحفوضة لصدالانجليز الذين كانوا محتلين البصرة وماجوارها . وارسلت كتابا

خاصاً الى الامام سيد يحيي حميد الدين لفت نظره الى ضرورة انضمامه الى كتائبنا فى اليمن .

وقد جاءتني الردود فى اولئك زعماء وفيها يؤكدوه اخلاصهم وولاءهم للخلافه . ولم يكن تحمسهم الدين ورغبتهم فى الاشتراك في الجهاد ضد اعداد الملة باقل من ثمن الحماس الذي سرى فى سائر البلاد العربية .

ووصلت لي أيضاً كتب كهذه ولو انها مبهمة وغامضه من الشريف حسين الذي كانت المكاتبات دائرة بيني وبينه .

واذ كنت اعرف ان خيرالوسائل لعدم احفاظ صدورالعرب هي اجتناب الاستيلاء على شيء ما من حاصلاتهم ويدفع ثمن كل ما نحتاجه نقداً كان اول ما أصدرته فى الاوامر عند وصولي هو ان لا يؤخذ شيء مطلقاً من اهـــالي سورية وفلسطين الملكيتين في منطقة الجيش الرابع . وان يكون دفع الثمن فوراً عن كل شيء اياكان سواء اكان طعاماً او متاعاً او ثياباً . ولما لم يكن من العدالة او المساواة في شيء ان نتمسك بان يدفع ثمن كل شيء فوراً في سورية وفلسطين بين سائر الجهات في الامبراطورية تؤخذ منها هذه الاشياء اخذاً كتبت الى الحكومة اوصيها بتعميم العرايض المتبعة في سورية وفلسطين .

ثم وكنت الى حزب الاصلاح ووضعت ثقة كبرى في رجاليه بل انني لم اتردد فى الذهاب لرواية مظاهرة وطنية بالقرب من رأس بعلبك وهي محطة نائية منعزلة مع انى لم اكن مصطحباً الاحارسي الخاص وخلوص بك والى سورية . وقد رأيت من الضرورى الاشتراك في ذلك الاحتفال لاظهر مقدار ما اودعه من الثقة في عبدالكريم الخليل (منظم تلك الحفلة) لتعزيز مركزه فى اعين شعبـة . والواقع اني كنت فيما فعلت واينما ذهبت فى ولايتي بيروت

وسورية مصحوبا بالمصلحين حتى حان الوقت للذهاب الى شبه جزيرة سيناء للاشراف على الاعمال الحربية ضد القناة .

غير انه راجت في ذلك الوقت في بيروت وسورية اشاعة فحواها انه ان مسيحيين لبنان وطدوا العزم على الجنوح الى الثورة في القريب العاجل فاشار علي البعض بتعطيل جميع الحقوق التى يتمتع بها الجبليون واصدار منشور بأن الاهالى سلاحهم للحكومة . وقد قيل ان في الجبل ما لا يقل عن ٥٠٠٠٠ بندقية من البنادق الحديثة .

ولكن ضربت بتلك الاشاعات عرض الحائط وقد كان من المحتم ان يؤدى مثل ذلك العمل الذي اشاروا على القيام به الى اثارة شكوك الاهالي المسيحيين في سورية وفلسطين ودفعهم الى العصيان حتي لو لم تكن نيتهم متجهه الى التمرد من قبل . وكنت موقناً ان الشخص الذي يأخذ على عاتقه عبث تجريدهم من السلاح لا بد ان ينتج عمله هذا مهما كانت حيثيـــة وقوع عدة حوادث غير قانونية وهذا ما بدوره يؤدي الى ازعاج كثير من الابرياء بلا مسوغ . فاصحاب الاملاك من اللبنانين كان من المنتظر مثلا ان يصيبهم ضرر مادى كبير من جراء تفتيش المنازل .

فاصدرت بناء على ذلك منشوراً الى اهالي لبنان المسيحيين اكدت لهم فيه ان جميع امتيازاتهم القديمة ستظل محترمة وان يد الاذى لن تصل اليهم . فجاء الى زيارتي من قبل بطريرك الطائفة المارونية المونسنيور بطرس حويك ثلاثة فى الاساقفة يخبروني ان منشوري بعث الطمأنينة في نفوس الطائفـــة المذكورة وانهم لن ينسوا لي هذا الجميل مطلقاً . وانى يمكنني ان اركن اليهم والا اتوقع منهم فى المستقبل سوى الاخلاص والولاء التام ثم قدموا لي خطاباً

بذلك المعنى بتوقيع البطريرك نفسه بيد أن بعض المارونيين والدروز في لبنان ممن عرفوا بصلاتهم بالفرنسيين والانجليز حامت حولهم الشبه القوية بالسعاية سراً لخلق القلاقل والاضطرابات . فرأيت اتخاذ الحيطة اللازمة . فطلبت اليهم أن يقيموا في القدس طول مدة الحملة على مصر . وتكفلت خزانة الجيش بدفع نفقاتهم وتركت لهم الحرية التامة في السكنى حيثما شاؤوا فى تلك المدينة .

أما بيان اسماء هؤلاء الاشخاص فسلم الي بواسطه موظفى الحكومة ولكنه وضع بايعاز من جماعة المصلحين في سوريه و بيروت وباستشارة بعض زعماء لبنان.

وقد تبين من التحقيقات السرية التي تمت بها ان اولئك السادة كانوا في الواقع محلا للشبهه ولا اراني الآن الا قد احسنت صنعاً في اختيارهم ذلك لانني قرأت اليوم اسمـــاءهم فى الصحف وتحققت انهم هم أنفسهم الاشخاص الذين يبذلون قصارى جهدهم فى بسط الحماية الفرنسية و بهذا يطعنون الوحدة العربية طعنة نجلاء .

ولم يتردد المستر مورجنتا والسفير الامريكي في كتابه الشهير الذي كان لي فيه القدح كيلا فى ان ينسب الى تهمة ارتكاب اعمال عنيفة غيرت قانونية عديدة ضد مسيحيين سورية . او فى وسعى طبعاً ان اكتفى فى الرد على مزاعم هذا الكاتب بقولى ليس ما تقوله يا سيدي من الحقيقة فى شيء ولكنى استحسن ان اذكره ببعض الحقائق مرتبه حسب تواريخها فاقول لدى وصولى الى القدس فى يوم ٣ او ٤ كانون الثاني سنة ١٩١٥ لفته قناصل حلفائنا والقناصل المحايدون نظري الى كراسة معينة اخبروني ان ما جاء فيها قد احدث هياجاً كبيراً بين الأهالى المسلمين وان كل انسان اخذ يتوقع حدوث مذبحة ضد المسيحيين فى اي لحظة . فقرات الكراسة المشار اليها فاذا بها تفسير « لمعنى الجهاد » وانها

تناشد المسلمين واجبهم المقدس وهو اعلان الحرب الدينية على المسيحيين وقد كانت مكتوبة بعبارة متبذلة يسهل بها التقرير بالبسطاء فعمدت الى ازالة الاثر الشيء الذي احدثته فاصدرت منشوراً مطولا الى اهالي سورية . وقد وزع حتى في الاكواخ الصغيرة وعلق على الجدران في كل جهة وهاك ملخصه :

ان الحرب الدينية انما اعلنها خليفة المسلمين ضد الانجليز والفرنسيين والروسية فحسب لانهم اعداء الملة . فالحرب لا علاقة لها الا باولئك الذين يشهرون السلاح في وجوهنا اذن فكل من تحدثه نفسه باساءة مواطنينا الكتابيين الذي تربطنا واياهم روابط الوطن المشترك والمصالح المشتركة يعاقب عقاباً صارماً

والى هذه الكراسة اشار السياسي الروسي ماندلستام بتطويل في صفحة ٣٧٠ من كتابه المسمى ومصير الامبراطورية العثمانية . فهل لي ان اسأل ذلك الكاتب لماذا لم يعن بترجمة منشوري أيضاً ؟ وفي وسعي ان اؤكد لهذين الكاتبين مورجنتاو وماندلستام اني لو كنت في اي وقت من اوقات الحرب اردت القيام بذبح المسيحيين بايدي المسلمين لما كلفني ذلك كثيراً من العناء والجهود فبقاء المسيحيين واليهود طول مدة الحرب غير مهددين بصفة ما من المسلمين او من الدروز انما يرجع الفضل فيه الى مجهوداتي وحدها والى الوسائل الاحتياطية التي اتخذتها فليدع ماندلستام ما يشاء في كتابه الخبيث من ان المسيحيين انما لم يذبحوا لمجرد ان الاكراد كانوا غائبين عن الديار ومشغولين بمقاتلة الارمن ولكني على يقين من انه لا يعتقد صحة دعواه هذه فلو انني حقاً القيت مرة في روع البدو او السوريين ان الوقت صالح والفرصة حاضرة لسلب مسيحي لبنان الاغنياء وتجريدهم من امتعتهم لما كان ثمة معنى للاجراءات التي اهتممت باتخاذها .

لا . لا ! ايها الكاتبان ! واني لا عن مرة اخرى باتكما بزعمكما فى كتابيكما انني اغضيت الطرف عمداً عن قتل مسيحي سورية انما نقرر ان ماهو الامحض افتراء ولا بدان يأتي يوم ويقوم فيه رجال اشراف فى امريكا وفى فرنسا وفي انجلترا لاعلان الحقيقة وتقريرها بامضاءاتهم . فهل تحمر وجوهكم وقتئذ خجلا ؟ اني اشك فى ذلك !

ولم يقع بعد عودتي من حملة القناة الاولى مازعزع ثقتى فى المصلحين وكانت خطتى معهم خطة الصراحة حتى انني طلبت الى عبد الكريم الخليل والدكتور عبدالرحمن الشهبندر ان يزوروا الجنود التركية العربية العائدة من القناة ليشهدوا بانفسهما حتى حالتهم المعنوية فدعوتهما الى القدس وهناك أعطيتهما المال الكافي لنفقات السفر. ثم ارسلتهما الى الجنود . فظلا مع الجيش مدة ثلاثة اسابيع دون ان يقوما بتفتيش ما . وعند عودتهما اطنبا فى مدح نظام الجيش ونظام تموينه .

وفى مايس ١٩١٥ قرأت في الصحف المصرية حملات عنيفة من اللجنة اللامركزية على الحكومة العثمانية فلم اجد مبرراً لتلك الحملة السافلة .

فسألت ذات يوم عبدالكريم الخليل اذا يعرف السر في ولاء المصلحين في سورية وبيروت فى حين ان رفيق العظم وغيره فى الذين يدعون انهم زعماء يختلقون على تركيا الاختلافاف السافلة فحاول مع شيء من الاضطراب ان يرد على سؤالي ولكنه لم يمكنه ذلك لان سؤالي كان مفحما .

ثم زارني بعد بضعة ايام وقال لى انه مستعد للذهاب الى مصر - اذا رغبت في ذلك ليشرح لزعماء اللجنة اللامركزية السياسة التى اتبعها فى سورية واكد لي انه سيواصل السعي على تغيير خطتهم .

وكانت سورية في ذلك الوقت على اسوأ حالة واشدها خطراً . فقد ترك الانجليز والفرنسيون الى الدردنيل وجعلوا يهجمون هجماتهم العنيفة كل يوم وتلبية لرغبة القيادة العليا ارسلت الى الاستانة الفرق الثامنة والعاشرة والخامسة والعشرين التي كانت في سورية ولحقت به فيما بعد فصائل الرشاشات باسرها وبالاختصار ارسلت كل الرجال والمهمات التي طلبها الدفاع عن الدردنيل وكان متعيناً علي ان احافظ على النظام الداخلي في تلك المنطقة الممتدة من جبال طوروس الى المدينة المنورة واحول دون انزال اية جنود معادية . كل ذلك في حين انني لم يكن لدي سوى فرقة او اثنتين من العرب وكتيبة من متطوعي المولوية الدراويش فلو نشبت وقتئذ ثورة في جهة من الجهات بفعل الدسائس الأجنبية لما كانت ثمة وسيلة تمنعها ولفقدت الحكومة العثمانية سائر ولاياتها العربية فلو ضمن الانجليز او الفرنسيون مساعدة الاهالي فانزلوا فرقتين في اي نقطة على الساحل السوري مثلا في بيروت او في حيفا لوجدنا انفسنا بلا جدال في موقف اليأس التام . ولكن نظراً للثقة العظمى التي وضعتها في الاهالي لم اتردد في ان انيط بالجنود العربية سلامة البلاد واترك المناطق الساحلية بلا مراقبة .

واني لعلى يقين من ان الانجليز لو داخهم اقل ارتياب في ولاء اهالي سورية وفلسطين المسكين لما ترددوا لحظة في انزال جنودهم . ولم تكن بدأت بعد اعمال الخيانة من الشريف حسين كما انني ما كنت اعرف شيئاً عنها وبرغم الثقة السطحية التي وضعتها في عبدالكريم الخليل كنت موقناً بان الرجل ممن يسهل شراء ذمتهم بالمال ولذا رابني اقتراحه الذهاب الى مصر . فان ايطاليا كانت قد اعلنت وقتذاك الحرب علينا فانقطعت الى هنا بذلك آخر صلة بين الشاطىء السوري وبين العالم الخارجي . ولم اخف عليه ارتيابي من اقتراحه

فسألته كيف تستطيع اذن الوصول الى مصر ؟ فاجابني قائلا « ساجد وسيلة للوصول الى هناك » فلما اجابني بهذا قوي شكي الى درجة اليقين ولكن لم اتظاهر بشيء ما .

وحضر الى في اواخر حزيران الشيخ اسعد شكير مفتي الجيش واخبرني بان الثورة قد بدأت علاماتها في سورية . ثم قال لي ان في استطاعة كامل بك الاسعد مبعوث بيروت القاطن في احدى قرى قضاء صيدا اعطائي المعلومات التفصيلية عنها . فأبرقت في الحال الى كامل بك المذكور فحضر الى القدس بعد يومين وبصحبته شخص آخر . واليك ما قاله :

أفندم ! ان سعادتكم وضعتم ثقة كبرى في جماعة المصلحين وخولتموهم حرية مطلقة في طول البلاد وعرضها . ولكني اخشى ان يكونوا اساؤا استعمال تلك الثقة . ففي هـــذه اللحظة ينظم رضا بك الصلح مبعوث بيروت الاسبق وعبدالكريم الخليل عصياناً في جهتي تيرا وصيدا ، ولو عنيتم سعادتكم بتحقيق ذلك لتبينت لكم صحة أقوالي .

وكانت في اخلاق العرب نقطة ضعف كبرى . اذ لا يكاد احدهم يصبح ذا حظوة او يكون مقدماً على غيره حتى تشتعل نار الغيرة في صدور الآخرين فيعمدون الى اعمال التهييج ضده . بيد انني لم استطع عزو مثل تلك البواعث الى التصريحات التي فاه بها كامل الأسعد . ذلك لانني لم اعامل مطلقاً من هو اقل مرتبة من عبدالكريم الخليل . فلم تكن له اذن مصلحة شخصية في دس الدسائس له . اما رضا بك الصلح فكنت على العكس اعتبره دساساً دنيئا . ولذلك كنت ارتضي مقابلته .

وبعد سؤال كامل الأسعد عما يراه خير وسيلة للشروع في التحقيق

اصدرت التعليمات اللازمة وظل التحقيق اسبوعين ثم اسفر عن ادانة كل من رضا بك الصلح وعبدالكريم الخليل اللذين كانا فى الواقع منهمكين فى اثارة القلاقل والاضطرابات فى جهتي تيرا وصيدا . فأمرت بالقبض عليهما وعلى شركائهما فوراً لان الابطاء فى هذه الظروف ربما جر الى اخطار عظيمة . ولعمري لقداختار المتآمرون أخصب بقعة لبذر بذورهم الشيطانية لان الرقابة كانت اقل منها في اي جهة من جهات الشاطىء . فلم تكن بها الا شرذمة صغيرة من رجال الجندرمة .

ولما لم يكن طريق الساحل فيما بين بيروت وسورية معبداً ولا مطروقاً لم يعتد الضباط ولاموظفو الأدارة زيارة تلك المنطقة . وكذلك انا لم يخطرلى مطلقاً السفر الى تلك الجهة . ولهذا كان في وسع الثوار ان يعملوا ماشاؤوا في مأمن تام في المباغتات حتى أذاوفقوا في تهيئة الرأي العام وتسميمه التجأوا الى قوات العدو الذي كان فى استطاعته انزال عددمن جنوده فى جنح الظلام لاحتلال المنطقة الجبلية فى الداخل وتحصينها تحصيناً قوياً ضدالهجمات من الشمال اوالغرب

والواقع ان عبدالكريم الخليل ورضابك الصلح بينما هما منهمكان فى اثارة القلاقل قامت سفن العدو المكلفة بمراقبة الشاطيء بعدد من المحاولات المهمة فلقد نزل من وقت الى آخر ولغير ما سبب ظاهر عدد من رجال تلك السفن لتحطيم خطوط التلغراف ولكن رجال الجندرمة ردوهم على اعقابهم خاسرين فى كل مرة . فاكتشاف اعمال الخيانة هذه فضح لنا نيات العدو في ذلك الحين فصاعداً ايقنت ان من الحمق الثقة باولئك المصلحين فصممت على اتخاذ الأجراءات الشديدة ضد كل خائن .

وفى ذلك الوقت أيضاً عثر موظفو قلم الاستعلامات على الوثيقة التالية

واني لأنشرها هنا نظراً لاهميتها العظيمة .

نشرة رقم ٤٠٣ .

القاهرة في ٢٧ رمضان سنة ١٣٢٢ .

الى السيد المبجل سيد افندي شكري .

تحية وسلاماً . وبعد ففي هذه الساعة الخطيرة التي تدور فيها رحى الحرب العظمى بمنتهى الشدة ينتظر الوطن المفدى من ابنائه بذل ضحايا اكبر مما بذل في الماضي ان الحرب العالمية قد تطير شرارة منها الى الشرق فتصبح بلادنا شعلة من نار تلتهم البرىء والمذنب لافرق بين العرب والاتراك فما لاريب فيه ان الحكومة - على العكس من المتوقع - لو اشتركت في الصراع العام لن تخرج منها الامخضودة الشوكة مما يقرب أجلها . فلو ختمت الحرب بانتصار الحلفاء كان هذه النهاية تصح ولا مفر منها وبذلك يسهل حل المسألة الشرقية بواسطة روسيا . واذ ذاك تصبح الاراضي العربية عرضة لنفس الأخطار التي تهدد الأراضي التركية وبما أن الاتراك سوف يبذلون قصارى جهدهم ويستخدمون كل مواردهم الدفاعية للذود عن امبراطوريتهم وممتلكاتهم فان الخطر الذي يهدد العرب سيكون اعظم والبلية اشد . وهذا هو المنتظر وقوعه فعلا .

اذن فمن المهم ان يتأهب العرب للذود عن استقلالهم المهدد وان جمعيتنا التي لديها هيئة خاصة والتي تتألف من نفر اشتهروا بالوطنية وعرفوا بالتضحية ترى ان واجبها المقدس يقضي باتخاذ الوسائل الفعالة في الحال لصيانة الوطن وابنائه فلهذا السبب نرجو الاجابة على الاسئلة التالية :

اولا - كم لديكم من القوات التي يمكنكم - اذا دعت الضرورة - بدء التمرد العام بها ؟

ثانياً - افي استطاعتكم امدادنا بالاموال اوجمع الاكتتابات التي يمكنكم شخصياً استمهالها عند الضرورة ؟ وكم عدد الاموال الممكن جمعها .

ثالثاً - امن المستطاع ايجاد ملجأ حصين لاعواننا السريين الذين يناط بهم البدء في التمرد والذين سنساعدهم بكل ما لدينا من الوسائل .

رابعاً - امن الممكن ارسال رجل ثقة الينا يمثل حزبكم للذهاب الى جهة معينه لانتظار تعليماتنا ؟

خامساً - واذا لم تجدوا ذلك الثقة لارساله الينا افلا ترون من اللازم ان نبعث اليكم بمن يبلغكم تعليماتنا .

فالمرجو الاجابة على هذه الاسئلة بتفصيل . ان كل دقيقة تضيع سدى معناها فقد روح عربية فالبدار البدار فلقد حان وقت التضحية الشخصية من اجل الواجب والوطن .

والسلام الامضاء

ملحوظة : سيكون التوقيع الذي بعاليه هو توقيعنا في كل الرسائل المقبلة ولكن ارجو وقت الاجابة ان تلاحظوا كتابة اسمى مع العنوان . ويجب وضع الظرف داخل ظرف آخر بهذا العنوان :

القاهرة - شارع الدواوين

الشيخ حقى هاتف

ناظر جامع الست الشامية هانم

(امام سراي المرحوم شريف باشا) .

ويجب تسليم الخطاب لرجل ثقة وهذا يسلمه بيده الى اي مكتب بريد اجنبي على الساحل فان استحال ذلك فليس ثمة ضرر اذا ارسلتم الخطاب بواسطة البريد المحلي

وما كدت آتي على آخر ذلك الخطاب حتى وضحت لي حقيقة الموقف فقد قام الدليل على ان الثوار العرب لم يعدلوا بحال ما عن فكرة العصيان فى سورية وفلسطين . بيدان الشيء الوحيدالذي اعياني فهمه هوماحدابعبدالكريم الخليل وآخرين الى اظهارذلك الولاء كله للحكومة منذنشوب الحرب وخصوصاً ان اللجنة اللامركزية فى مصرالتى كانوا هم ممثليها جعلت لنفسها زعامة الثورة والحق انى لم اوفق الى حل كل ذلك اللغزلا في ذلك الوقت ولا بعد تمرد الشريف حسين بل ولا بعد ضياع سورية وفلسطين ولا بعد هزيمة جيشنا المجيد .

وبعد ان شرعت فى كتابة هذه المذكرات بأشهر قليلة فتحت بعض مقالات سياسية ظهرت فى « الطان » عيني على حقيقة نياتهم الخفية واغراضهم التي كانت مستترة .

ففى حزيران سنة ١٩١٥ بدأ عبدالكريم اعماله في التمهيد للثورة . وفى هذا الوقت أيضاً تبودلت الرسائل بين الانجليز وبين الشريف حسين . واني اثبت مقالة « الطان » التي نشرتها بتاريخ ٨ ايلول ١٩١٥ لعظم اهميتها :

العرب والحلفاء

نرى انفسنا اليوم في مركز يسمح لنا بذكر معلومات عن المفاوضات التي دارت خلال الحرب بين السلطات البريطانية وملك الحجاز حسين الذي يستخدم نفوذه الآن في سورية . ما تبادل الآراء بين الحكومة البريطانية وحسين شريف مكة ملك الحجاز الآن في صدد الشروط الأرضية للصلح فى شرقى البحر المتوسط فتضمنها ثماني خطابات تبودلت فيما بين تموز ١٩١٥ وكانون الثاني ١٩١٦ .

فالاول في تموز سنة ١٩١٥ وفيه وعد الشريف بتقديم المساعدة الحربية للحكومة الانجليزية في مقابل وعد باستقلال بلاد العرب بحيث تضم منطقتي مرسين واطنه شمالا وتمتد من خط العرض رقم ٣٧ الى الحدود الايرانية اما الحد الشرقي فيبدأ بالحدود الايرانية وينتهي فى خليج البصرة ويكون المحيط الهندي مع استثناء عدن حدها الجنوبي . ويكون البحر الأحمر والبحر المتوسط لغاية مرسين الحد الغربي للمملكة .

والثاني بتاريخ ٣٠ آب سنة ١٩١٥ وفيه اجاب السير هنرى مكما هون المندوب السامى البريطاني في مصر جواباً غير شاف قائلا ان وقت تقرير الحدود لم يحن بعد .

والثالث بتاريخ ٩ ايلول مرسل من السير هنرى مكما هون فى ١٨ تشرين الاول الى وزارة الخارجية وفيه يقول ان الشريف يصر على مناقشة مسألة الحدود في الحال . وفي نفس الوقت بعث السير هنرى مكما هون الى وزارة الخارجية بالتصريح الذي سلمه اليه مندوب الشريف فى مصر وهو كما يأتي :

« ان احتلال الفرنسيين للمناطق العربية المحصنة في حلب وماجاورها ودمشق سيلقي مقاومة مسلحة من العرب اما اذا استثنيت تلك المناطق وادخلت بضع تعديلات فى الشمال الغربي فان العرب على استعداد لقبول الحدود التي اقترحها شريف مكه » .

والرابع وفيه ارسل السير هنري مكما هون بناء على تعليمات حكومته الى الشريف الخطاب التالي بتاريخ ٢٤ تشرين الاول سنة ١٩١٥

ان منطقتي مرسين واسكندرونه والاراضي السورية الواقعة في غربي دمشق وحارنا وحورنس وحلب لايمكن بحال ما اعتبارها عربية محض ولذا

يجب اخراجها من تسوية الحدود التي يدور البحث حولها الآن . فمع هذا الاستثناء وبدون التشبث بالاتفاقات التي عقدناها مع زعماء العرب نقبل الحدود المقترحة . اما من حيث المناطق التي احتفظت انجلترا لنفسها بحرية العمل فيها بدون الاعتداء على المصالح الفرنسية فقد كلفتني الحكومة البريطانية باعطائكم التأكيد الآتي .

« ان انجلترا مع المستثنيات الآنفة الذكر على استعداد للاعتراف وتأييد مطالب العرب الخاصة باستقلال الأراضي الواقعة داخل الحدود التي اقترحها شريف مكة » .

والخامس وفيه اجاب الشريف بتاريخ ٥ تشرين الثاني قائلا انه يقبل استثناء مرسين واطنه ولكنه يصر على ادخال المناطق الأخرى وخصوصاً بيروت

والسادس بتاريخ ١٣ كانون الاول وفيه اخذ السير هنرى مكماهون علماً بعدول الشريف عن المطالبه بمرسين واطنه .

والسابع بتاريخ اول كانون الثاني سنة ١٩١٦ وفيه يقول الشريف بأنه نظراً لرغبته فى اجتناب مايكدر صفو التحالف الفرنسي الانجليزي لا يصر فى خلال مدة الحرب على مطالبه فيما يخص بجبل لبنان ولكنه سيطالب بها من جديد بعد أن تضع الحرب اوزارها .

والثامن بتاريخ ٣٠ كانون الثاني وفيه اخذ السير هنرى مكماهون علماً برغبة الشريف فى اجتناب مايكدر صفو العلاقات الفرنسية الانجليزية واخبر الشريف بان الصداقة بين انجلترا وفرنسا ستستمر الى ما بعد الحرب .

وعلى ذلك انتهت المراسلات والمناقشات والمفاوضات بين الشريف حسين وبريطانيا العظمى بخصوص مواد الصلح الارضية .

وقد دلت هذه الوثائق :

اولا على ان الحكومة البريطانية فى خطابها المؤرخ فى ١٦ تشرين الاول سنة ١٩١٥ وهو الخطاب الوحيد الذي يمكن اعتباره اتفاقا الزامياً بينها و بين الشريف لم تتعهد بشيء اما يتعارض ما الاتفاقية الفرنسية الانجليزية المؤرخ في مايس سنة ١٩١٦ .

ثانياً على ان بريطانيا العظمى بعد افتتاح المفاوضات التي نيط بالمسيو جورج بيكو اجرءها في لندن تمهيداً لاتفاقية مايس سنة ١٩١٦ لم تتعهد بشيء جديد للشريف اذ ان المتفاوضين اجتمعوا اول مرة في يوم ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٩١٥ ولم يشتمل الخطابان الأخيران المرسلان فى كانون الثاني ١٩١٦ على تعهدات جديدة للملك حسين سوى التعهدات التي قطعت في ٢٤ تشرين الاول سنة ١٩١٥ وتدل هذه المقالة باجلي بيان على أن الشريف حسين وطد العزم على القيام بالثورة من اوائل سنة ١٩٩٥ وانه عرض على الحكومة البريطانية اقتراحاً لانشاء دولة عربية مستقلة يحدها من الشمال خط ممتد من مرسين الى اطنه الى الموصل فاذا قبلت انجلترا ذلك الاقتراح تعهد الشريف بالخروج على سلطانه المعظم خليفة المسلمين .

فاذا نظرنا الى تلك الحقائق (التي تثبت من صحتها فيما بعد) واضفنا اليها محـــاولات الشروع في الثورة التي اكتشفتها في اواخر حزيران سنة ١٩١٦ تبين بوضوح تام ان عبدالكريم الخليل وعصابته تلقوا وقتئذ التعليمات اللازمة من شريف مكة وانهم فعلا خطوا الخطوات الأولى في طريق تنظيم الثورة

ومع انى لم اثق يوماً بامانة شريف مكة ما كنت اتصور انه في حرب كهذه يترتب عليها مستقبل الخلافة . يجرؤ على محالفة الدول التي كانت تطمع

الى وضع نيرها على العالم الاسلامي باسره . او يذهب الى حد بذر بذور الشقاق في طول البلاد وعرضها لتحقيق مطامعه الشخصية .

هذا وقد استمرت المراسلات التي بدأت بيننا في كانون الاول سنة ١٩١٤ وكانت مفرغة في قالب الاحترام وتعهد الشريف بان يشد ازر حملة القنـــاة الثانية التي تحدد لها شتاء سنة ١٩١٥ بفيلق من الحجاز ومع انني كنت موقناً بأن امثال رفيق العظم والشيخ رشيد رضا وعبد الكريم الخليل لا يترفعون عن ان يبيعوا انفسهم للانجليز والفرنسيين . لقد استبعدت كل الاستبعاد ان رجلا مجرباً كالشريف حسين شابت لحيته واصبحت قدمه على حافة القبر تصل به الاثرة وتدفعه الانانية والمطامع الشخصية الى المغامرة بمشروع من المحتم ان يؤدى تطوره الى اذلال العرب بل العالم الاسلامي باسره .

وفي ذلك الوقت هاجم البدو بحارة الطرادة الالمانية « امدن » بالقرب من جدة على اثر نزولهم بشاطيء الحجاز قريباً من العشير . فوقع في قلبي وقتئذ ان هؤلاء البدو ما هجموا هذا الهجوم الا بايعاز من الشريف حسين وانه اراد بذلك العمل التقرب من الانجليز والتظاهر للعرب برغبته في منع الكفار من دخول الاماكن المقدسة .

وكان الانجليز وقتئذ محاصرين سواحل الامبراطورية جمعاء ما خـــلا شاطيء الحجاز فقد سمحوا بواسطته لتجار العرب ان يستوردوا من الموانى المصرية كل ما ارادوه من الاطعمة والحنطة فلم ارغضاضة في ذلك نظراً للمجاعة التى اوشك ان يقع فيها بدو الحجاز واهلوه وسكان الاماكن المقدسة . زال بهذه الطريقة قلقة عن عاتق سورية التى لا تكاد تكفى لسد حاجة سكانها عبء ارسال المؤن الى بلاد الحجاز .

وقد كنت أحسب أن الانجليز لم يعاملوا أهل الحجاز تلك المعاملة الاستثنائية الا حرصاً على اكتساب صداقة مسلمي الهند وافريقيا وان الشريف حسين انما أراد اجتناب تنفير الانجليز منه . بل لقد اعتبرت الدافع الاول على مهاجمة بحارة (امدن) محض الرغبة فى عدم اغضاب الانجليز .

ولكني أرى الآن ان هذه كلها كانت اوهاماً وان الشريف حسين قد غدر بى وخان حكومته بل غدر بخليفة الاسلام المعظم بطريقة لا يأتيها إلا أخبث المنافقين . فهو لم يحجم عن أن يتحالف مع أعـداء الامبراطورية العثمانية ولا عن بذر بذور الشقاق ودس الدسائس بين المسلمين بلا حياء ولا خجل ولا خشية ولا رهبة .

أما محاكمة عبد الكريم الخليل وعصابته فقد استمرت طول شـهري حزيران وتموز . ولما اوغلت فى المحاكمة تبينت تدريجياً اغراض الثوار الجنائية وتكشفت للملأ سوءاتها .

ولقد دهشت كل الدهش لعظمة شبكة الدسائس التى نسجوها ونصبوها ولم يكن فى سورية اذذاك من الجنود سوى الكتائب العربية . فلو خطرت لها فكرة التمرد لما كان لدي ثمـة وسيلة لكبح جماح الثورة . وكانت معركة الدردنيل دائرة اذ ذاك بمنتهى الشدة والعنف فكان سحب كتيبة فضلا عن فرقة من تلك الجبهة غير مستطاع .

ولما كانت الحال تقضى علي بتحذير كل العاملين لخلق القلاقل والساعين فيها رأيت من الضروري نظراً للحالة العامة وبالنسبة للسلطة المخولة لقائد الجيش فى الظروف الاستثنائية أن اؤيد الحكم الذي اصدرته المحكمة العسكرية وآمر بتنفيذه فى الحال . غير منتظر التصديق الهمايونى اذ انه يمكن الحصول عليه فيما بعد وقد حصلت بالفعل على تصديق وزيري الحربية والداخلية .

ولقد اطلعت على محاضر المحكمة العسكرية . وبعد الفراغ منها واستشارة

قاضى القضاة أيدت حكم الاعدام الذي نفذ فى بيروت فى اليوم التالي . وكان هذا فى نهاية شهر آب سنة ١٩١٥ . وقد احدثت هذه الاحكام ذعراً كبيراً فى نفوس العصاة وادخلت الفزع فى قلوبهم .

ولم يكتف الشريف بفتح المفاوضات بينه وبين الانجليز بل لقد بلغت به الوقاحة أن يبعث إلي بابنه الشريف فيصل ليخبره بماجريات الاحوال فى سورية

وفى ايلول سنة ١٩١٥ حضر الشريف فيصل الى سورية ومن ثم واصل سيره الى الاستانة فلما ان حظى بمقابلة جلالة السلطان طفق يدل بولائه وولاء أبيه وأهله بعبارات تشف عن الخضوع التام حتى أن جلالته لم يداخله الشك فى اخلاصه . ثم عاد فيصل الى سورية بعد أن اكد لسائر الوزراء تلك التأكيدات وقد قابلته عند عودته بالتجلة والاحترام . وفى خلال اقامته القصيرة قر رأينا على أن يرسل ابوه الى فلسطين فيلقاً من متطوعي الجماله عدد ١٥٠٠ بقيادة فيصل للاشتراك فى القتال . وقبل أن يغادر فيصل القدس القى خطبة مسهبة على موظفى مركز القيادة واقسم فيها بمحرجات الايمان وبروح المصطفى عليه الصلاة والسلام أن يعود فى أمد قريب على رأس محاربيه للمساعدة على قتال أعداء الدين الى أن يموتوا شهداء . ومما يستحق الذكر ان الشريف حسين فى هذه اللحظة نفسها التى كان ابنه فيصل يحلف فيها هذه الايمان الفاجرة قد كتب بالفعل خطابى ٩ ايلول و ٥ تشرين ثانى الى الانجليز واخذ يعد العدة لضرب الخلافة ضربة الغدر والخيانة . ولكنى ما كنت اعرف وقتئذ شيئاً عن اعماله القبيحة .

وكذلك كشفت محاكمة عبدالغنى العريسى الستار عن عدة حقائق خطيرة الشأن . فلاح لي أن الوقت قد حان لاستخدام الوثائق المهمة التى ضبطت فى القنصلية الفرنسية فى دمشق واوائل الحرب . وطلبت فعلا الى وزيري الحربية والداخلية تخويلي السلطة اللازمة لخولانيها بعد تبادل الرسائل المطولة . ولقد

عزوت ترددهما ذلك الى كون الاشخاص الذين تدينهم الوثائق المضبوطة من ذوي المناصب العالية . أما انا فكنت أرى عقاب الخائن لدينه ووطنه ينبغي أن يكون مناسباً للمركز الاجتماعي الذي يشغله لانه لا يتأتى فى هذه الحال ان تعزى اعمال مثل ذلك الرجل الجنائية الى جهله أو حمقه وكذلك النتائج التى تترتب عليها فانها تكون بطبعها أشد خطراً واعظم ضرراً . فخيانة ذي المقام الرفيع اذن هى من قبيل تعمد الاذى المحض . لذلك بعد أن ابدى وزيران مسؤولان موافقتهما على اجراءاتى فى تلك المسألة رفعت الى المحكمة العسكرية بادلة الاتهام التى يمكنها بواسطتها الحكم على اناس ظلوا خلال سنوات عديدة يصفون المشروعات المختلفة بدعوى المطالبة بالاصلاح وتقرير المصير والاستقلال للعرب . .

وبينما كانت محاكمة تلك العصابة العربية الثانية المتهمة بتهمة الخيانة العظمي جارية واصلت سلسلة الرسائل الودية بيني وبين الشريف حسين . وفى كانون الثانى وصل الشريف فيصل الى دمشق يقدم خمسين فارساً من مكة وقد اتخذ داري مقاماً له لمساعدتى فى تجهيز الـ ١٥٠٠ متطوع الموعود بهم وفى ارسال المهمات اللازمة الى مكة .

وخصت المحكمة العسكرية القضية بكل عناية ودقة . وفى شباط حضر انور باشا الى سورية لزيارة الجيش الرابع ومعاينة نظام خط مواصلات سيناء فاقترحت ان يذهب أيضاً الى المدينة . فتوجهنا اليها ومعنا الشريف فيصل . وفى خلال تلك الزيارة وصلت الينا جملة من الهدايا المختلفة من الشريف حسين ومن بينها سيف الشرف وهو عند العرب اكبر دليل على الصداقة . ولكنه فى الوقت الذي كان يظهر فيه ولاءه بهذه الاساليب كان منهمكا فى تقديم اقتراحات معينة للقيام بثورة ضد الخلافة فى الخطاب المرسل فى أول كانون ثانى سنة ١٩١٦ الذى سبقت الاشارة اليه .

وما كنت بحاجة لذكر كل هذه التفصيلات لولا انى اريد أن اظهر للملأ سفالة الشريف حسين وخبث طويته وليكون فى ذكرها الرد الكافى على قصار النظر الذين يعزون عصيان الشريف الى سوء ادارتى .

ولقد استمرت المحاكمة حتى بعد عودة انور باشا الى الاستانة . وعندئذ ظهر الشريف بمظهره الحقيقي . فان انور باشا عقب عودته ارسل إلي برقية بالجفر وصلت اليه من الشريف و يمكن تلخيصها فيما يأتى بعد اغفال المغالطات المنطقية التى وردت فى صدرها :

« اذا كنت حقاً ترغب فى التزامى لجانب الهدوء والسكينة فينبغي الاعتراف باستقلالي فى سائر الحجاز - من تبوك الى مكة - وجعلي أميراً ووراثياً فيه كما ينبغي أيضاً العدول عن محاكمة العرب المتهمين واعلان العفو فى سورية والعراق »

وقد كان معنى البرقية غامضاً الى حد ان انور باشا اخبرنى انه عجز عن فك طلاسمها . وفي الوقت نفسه رجانى فيصل - وربما كان ذلك بناء على تعليمات من ابيه - أن اظهر للمسجونين شيئاً من السخاء والتسامح .

فارسلت فى طلب فيصل على اثر وصول برقية انور باشا وطلبت الى علي فؤاد بك رئيس اركان حربى أن يكون شاهداً المحادثة بينى وبينه . وبعد بضع كلمات تمهيدية قلت للشريف ما نصه :

« لما سمعت عند عودتى من المدينة بأن اخاك علي بك اخذ يتدخل فى سلطة حاكم المدينة ويدعي لنفسه حقوقاً قال انها جزء من سلطته بصفته اماماً عزوت اعماله هذه الى حداثة سنه وعدم تجاربه . وقد كلفت الحاكم بأن يطلب اليه الكف عن هذه الاعمال فى المستقبل . وسألت اباك أيضاً أن يطلب اليه الطلب نفسه .

وفى محادثاتنا العديدة السالفة اعلمتك باننى شخصياً لن ادخر الوسع فى سبيل المحافظة على حقوق الامام وانه اذا اعتدى احد بصفة غير قانونية على

حق من حقوقك مددت اليك ما استطعت من المساعدة حتى ولو أدى ذلك الى الاصطدام باشخاص آخرين ولو كانت مراكزهم من اسمى المراكز وقد اخبرت أباك بذلك كتابة فى ظروف عديدة ووردتنى منه بالتالي خطابات اعرب فيها عن عظيم شكره وامتنانه .

وأحسبك فى الوقت نفسه تعترف بأن لابيك اعداء غير قليلين من بين اسرته وبعض هؤلاء الاعداء موجودون فى الاستانة وهم يعملون صباح مساء لاثارة الشكوك فى الحكومة ضده . فاذا كان ذلك كذلك فخير طريقة لكم هى اجتناب القيام أو التفوه بكل ما من شأنه أن يعطي اعداءكم حجة للوشاية بكم فاذا قرأت هذه البرقية علمت بأن أباك انما يسير فى الطريق العوجاء وانه بعمله هذا يسلم اعداءه سلاحاً يحاربونه به » .

فقرأ فيصل البرقية بلهفة شديدة ثم امتقع لونه وأخيراً قال :

« أفندم ! لا يمكنك أن تتصور مقدار الغم الذي اثارته في هذه البرقية ولا شك عندي فى انها نتيجة سوء تفاهم كبير . وانى اؤكد لك بصراحة ان أبى لا يقصد شيئاً ضاراً بها . انك تعرف انه لا يحسن فهم اللغة التركية . فمن المحقق ان هذه البرقية انما كتبت بيد كاتب عجز عن فهم النص العربى فترجمها هذه الترجمة المحرفة . ومعاذا الله أن يخطر لأبى مثل هذا الخاطر ! » .

وظهرت على وجه فيصل علامات الاضطراب . فرأى أن يكتب فى الحال الى أبيه يسأله العدول عن نياته وأخذ يلتمس ما شاء من المحاذير . وبناء على هذه المحادثة ارسلت الى الشريف حسين البرقية التالية :

(لقد نمي إلي خبر برقيتك الى انور باشا . فانت تطلب أن تكون الامارة وراثية فى اسرتك وأن يمنح اشخاص عديدون العفو الشاهانى بعد أن قامت البراهين على خيانتهم للوطن والملة . وليس من المستطاع اجابة هذا الطلب الثانى وإلا أدى ذلك الى ضرر شديد فى مسألة لها تعلق وارتباط

بالمصلحة العامة فان الحكومة التى تصفح عن الخونة خليقة بأن يتهمها الجمهور بالضعف بل قد يغري ذلك الصفح كثيراً من الناس بالخيانة وطعن الدولة والملة طعنة نجلاء . فلو عرفت محتويات الوثائق التى ظهرت فى المحكمة لرأيت الى أي حد من الخيانة قد تسفل فيه اولئك المتهمون . أما فيما يختص بمسألة جعل الامارة وراثية فى اسرتك فانى يخيل الي - واظنك تسامحنى فى ذلك الرأي - ان الفرصة ليست مناسبة للمطالبة بذلك الطلب .

فان فى وقت الحرب الذى تتعرض فيه كل قوى الانسان العقلية والجسمية لاشد العناء والتعب أراك تعترف معي بأن الاعراب عن مثل تلك الرغبات من شخص يشغل مركز امام وفى اهم بقعة من بقاع الدولة العثمانية - بقعة هى اكثر تعرضاً للاخطار مما عداها - لابدأن يكون له اسوأ وقع فى نفوس الجمهور

والذى اعتقده أنه ما كان ينبغي لك أن تطلب مثل ذلك الطلب حتى لو كان لك الحق في طلبه . فان موارد الامة بأسرها ينبغي أن تحشد اليوم لغرض واحد لا ثانى له ألا وهو احراز النصر النهائى .

ويجب أيضاً أن الفت نظرك الى الوجهة التالية من وجهات النظر للمسألة وهى أننا نفرض جدلا أن الحكومة لبت طلبك لمجرد الرغبة فى الابتعاد بك عن المشاغبة فى هذه الاوقات العصيبة التى تقطعها وفرضنا أيضاً أن النصر كان فى النهاية حليفنا فما الذى يمنع الحكومة أن تعاملك بمنتهى الشدة بعد أن تضع الحرب اوزارها ؟ ان الرجال الذين يكونون الحكومة الحاضرة والذين جرأوا على القيام فى وجه عبد الحميد الذى امضك استبداده لن يصفحوا عمن يجترىء على شل ايديهم فى هذه الحرب التى دخلوها لمصلحة العالم الاسلامى . ومن جهة اخرى لن يقعدوا عن أن يحصلوا من جلالة الخليفة على جزيل الاحسان وعظيم المكافأة لكل من عمل ابتغاء مرضاة الله لتحقيق غايتنا المقدسة) .

وفيما كنا نتبادل تلك الرسائل كانت المحكمة العسكرية فى « عالية »

اصدرت حكمها . فجاهد فيصل أشد جهاد للحصول على العفو عن المجرمين . وصار يحضر الي كل يوم وقد حول الدفة فى المناقشة الى جهة العفو . وكنت اسمع بين آن وآخر انه عنف الاعيان الذين ذهبوا لزيارته ووبخهم على عدم القيام بشيء ما لانقاذ مواطنيهم واستمر على تأنيبهم اذ يقول لهم كان فى استطاعتهم ان يشفعوا لهم عندي على الاقل .

وفى يوم الجمعة سألنى أن اتغدى معه فى « كابون » وهى مزرعة تبعد عن دمشق بساعة فذهبت اليها ومعي عدة من الضباط . وبعد الفراغ من الطعام جرت المناقشة فى الموضوع نفسه . فسألته هل تعلم عظم جريمة المتهمين ؟ فاجاب لا علم له بها . فقلت له : (لو عرفت التفصيلات لاسفت أشد الاسف على توسطك بالصفح عنهم) .

وفى اليوم السابق لتنفيذ حكم الاعدام حضر الى دارى الشيخ بدر الدين تلبية لرجاء فيصل . وهو رجل اجله الاجلال التام وقد جاء ليشفع فى المجرمين وكان معه الشيخ عبد القادر الخليل خطيب جامع اورمياده . وهو رجل يتعذر على الانسان ان يعثر على رجل مثله خبثاً وخيانة وعدم امانة لا فى دمشق فحسب بل فى سائر انحاء المعمورة . فخيانة اهل المدينة الذين باؤا بغضب الرسول عليه الصلاة والسلام لا تذكر بجانب خيانته وخبثه وسفالته . وقد رأيت أن الصواب ارجاء معاقبته الى ما بعد .

فطلبت الى الشيخ أسعد شقير أن يترجم لي ما يقول الشيخ بدر الدين فجعل الشيخ بدر الدين ينتقي الالفاظ ويصيغها فى عبارة مؤثرة وهى مزية اختص بها . وتكلم بصفة اجمالية عن الدسائس الجنائية التى تهدد سلامة الاسلام دون أن يشير بكلمة ما الى المحكمة العسكرية أو الى المتهمين وبعد أن استشهد بعدة كتب ختم كلامه بالعبارة الآتية .

(لقد جعل الله عز وجل لمن يعمل لايجاد الشقاق والفوضى فى صفوف

المؤمنين والسعي بالفساد فى الارض ثلاث عقوبات : القتل والصلب وتقطيع الايدى والارجل من خلاف . والنفى من الارض . فقال جل ثناؤه فى كتابه العزيز : (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض . الآية) فالعقوبة تكون مناسبة لحال الجريمة وما يترتب عليها من الضرر بالمسلمين ومن فى حكمهم والفساد والاضطراب اللذين يلحقان بالامة والدولة ونحن الآن نخوض مع العالم الاسلامى غمار حرب تطحن الناس طحناً وما القوم الذين يكيدون للاسلام والمسلمين ويدسون الدسائس لتمزيق الجماعة وتفريق الكلمة وشق عصا الاتحاد واضعاف الامة وكسر الشوكة ويعصون الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بايجاد الفتنة بين المسلمين حتى يقتل بعضهم بعضاً الا وراء خطر يجب درؤه . وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشقاق فى الحدود فقال لاسامة بن زيد رضى الله عنهما وقد كلمه فى شأن المخزومية (أتشفع فى حد من حدود الله ؟ والله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت شيئاً لقطعت يدها الا وان من يشفع لخائن لدى قاض لهو خائن لنفسه ولدينه ولوطنه ولامته لانه انما يساعد على الفتنة علم او لم يعلم) .

وما انتهى الشيخ كامل بدر الدين من كلامه حتى التفت الى الشيخ اسعد عبد القادر وقلت مبتسما : (لقد جئتما الي بهذا الشيخ الموقر للشفاعـــة فيمن ادانتهم المحكمة العسكرية فكان كل عمله هو ان استحسن حكم المحكمة وبين لي انى بمقتضى احكام الدين الحنيف لا يجوز لي العفو عن هؤلاء الخونة وامثالهم اليس كذلك يا بدر الدين افندى ؟) .

فنظر الي وهز رأسه ان نعم . وصاح الشيخ اسعد شقير قائلا : (الهي! لقد قضيت علينا ايها الشيخ . اذ كيف يمكننا التوسل مرة اخرى بعد الذى نطقت به . فانه عملا بفتواك سيعاملنا معاملة الخونـــة فيأمر بشنقنا ايضاً

بلا تردد » وبهذا انتهى الحديث .

وفى اليوم الثالث نفذت احكام الاعدام فى بيروت ودمشق ويقول البعض لقد كان ينبغي الا ينفذ الحكم إلا بعد تصديق السلطان .

ورداً على هؤلاء أقول أولا لقد خولت السلطة القانونية فى أن افعل ما فعلت وثانياً أن المبادرة بتنفيذ الحكم كانت فى نظري الوسيلة الوحيدة للضرب على ايدي الخونة . وفى بلاد العرب يرى الانسان لارباب الحيثيات نفوذاً كبيراً حتى أن وجود احدهم فى الغالب قد يكون له من التأثير ما ليس لفيلق من الفيالق . فان اراد قائد مثلي ليس له الا القليل من الموارد ان يحافظ على سلطة الحكومة وسطوتها ونفوذها فى بلاد سممتها الدعوة الانجليزية والفرنسية عدة سنين كان من اهم الامور أن يكون بحيث يؤمن الاهالي الملكيون بمقدرته على الاخذ بناصية أي شخص كائنا من كان ومعاقبته أشد معاقبة بدون استئذان المراجع العليا فى الاستانة .

ان الفضل فى عدم حدوث ثورة ما فى سورية خلال العامين والنصف العام الذين اعقبا اعلان الشريف حسين لاستقلال بلاده انما يرجع الى احكام الاعدام التى وقعت فى نيسان سنة ١٩١٦ وبقطع النظر عن ذلك فان انور باشا وهو وزير الحربية وحكمت باشا وهو وزير الداخلية قد وافقا على تنفيذ احكام الاعدام بدون استئذان المراجع العليا . ثم ارسلت الى الاستانة تقريراً بما اجريته هناك وراجعته محكمة الاستئناف التابعة لوزارة الحربية ثم ارسلته بناء على قرار من مجلس الوزراء الى القصر للتصديق الشاهانى . وهكذا أيد النطق الشاهانى الاحكام التى قضى بها الجيش ونفذها وبذا فقد ختمت هذه الرواية

وهناك أيضاً من يقول ان الاشخاص الذين اجرموا وظهرت أداناتهم وشنقوا فى سورية قد شملهم العفو العام الصادر فى سنة ١٩١٣ فمحاكمتهم فيما بعد على التهم نفسها عمل غير قانونى .

وقد بينت فى الكتاب الاحمر المسمى (حقيقة المسألة السورية) ان اولئك الاشخاص الذين اتخذوا العفو العام وسيلة للقيام باعمال جنائية جديدة وان اداناتهم ترجع الى جرائمهم بعد ذلك العفو . واذ كانت الوثائق الخاصة قبل العفو تعتبر قرينة قوية جداً للمحكمة أن تفحصها وتنشرها لتبين للملأ مبلغ شناعة خياناتهم . فاوجز الآن حتى بعد نشر الكتاب الاحمر ان هناك من لا يزال يردد تلك المزاحم فمن البديهي أن غرضهم هو أن يبرهنوا على أن الحكومة مخطئة فى كلتا الحالتين .

ولقد اصدر الجيش يوم تنفيذ احكام الاعدم منشوراً ضمنه بعض هذه الوثائق لاظهار جريمة المدنيين .

وبعد تنفيذ الحكم بساعتين أو ثلاث جاءنى فيصل فقال : (قسما بحرمة الاجداد لو علمت ان جريمة الجناة كانت بهذه الشناعة لما احجمت فقط عن طلب الشفاعة لهم بل لطلبت ان تمزق اوصالهم ليطول عذابهم الا لعنة الله عليهم اجمعين)

وفى اليوم نفسه حضر الى العظم سعيد محمد باشا مبعوث دمشق وقال : انى ليدركنى العار الشديد كلما تذكرت ان امثال اولئك الاشخاص هم من اعضاء اسرتى . انك قد احققت الحق فليكلأك الله ورسوله بعين الرعاية .

ثم مر شهر على هذه الحوادث وجاءنى رد الشريف حسين على البرقية التى ارسلتها اليه فاستنتجت من جوابه ان كلماتى كان لها أثر سيء فى نفسه فقد اشار باصدار العفو العام لمصلحة الحكومة ثم شكا مر الشكوى من حاكم المدينة قائلا انه يأبى أن تسلب منه بلا مسوغ حقوق منحها اياه الخليفة العثمانى .

واصبح فى ذلك الوقت سلوك الشريف علي بك حيال بصري باشا فى المدينة مما لا يطاق . لذلك ارسلت فى الحال فى طلب الشريف فيصل واطلعته على رد أبيه ثم انذرته بحدة بانه اذا لم يكف عن تدخله فلابد من استعمال القوة الحربية ضده ثم قلت :

(وارى أن اخبرك يا فيصل بك بانني لم استطع ادراك الغرض من تلك اللهجة التى استعملها ابوك فى الايام الاخيرة ولا المسلك الذي سلكه اخوك فى المدينة . لقد كانت علاقتنا معك ودية هنا . فبماذا يمكننا أن نفسر مسلك اخيك علي بك فى المدينة ؟ انهم من جهة منشغلون بتجهيز قوة من المتطوعين تبلغ ١٥٠٠ لحملة القناة والحكومة باذلة جهدها في امدادهم بالمال والرجال ولكن من جهة أخرى قد بدأت نزعات الانفصال من ناحية ابيك كل هذا فى حين أن اخاك علي بك ينهج منهجاً يتفق ودعاوى ابيك وانى اريد أن تدرك انكم ان اردتم ان تظلوا اصدقاء فعليكم بمراعاة قوانين الصداقة .

أما اذا كنتم ذوي غايات اخرى فالاولى أن تلجأوا الى السلاح وتجنحوا الى ثورتكم فى الحال وبذلك تنتهي تلك المهزلة ويصبح كل منا عدواً للاخر ظاهر العداوة . وحينئذ يصبح الامر بيد الله ! واما اذا كنتم لا تريدون الثورة ولا تضمرون الشر فاكتب الى اخيك علي بك ليحضر إلي فى الحال وليكف فى المستقبل عن الاعتداء على سلطة الحاكم .

ولقد كاد خطاب الشريف حسين الاخير الي ينطق بأنه اذا كان يتلمس ذريعة ما للقيام بالثورة وهذا هو الذي حدا بى أن استعمل فى خطابى للشريف فيصل تلك اللهجة الصريحة الحاسمة .

وقد امتقع لون فيصل من كلماتى هذه وعلا وجهه الاصفرار . فقام من مقعده والتفت إلي ويده على قلبه وقال :

(عفواً يا صاحب السعادة ! كيف يخطر لك أن تعزو الينا أمثال هذه التهم ؟ وكيف يليق بنا أن نكون خونة ونحن تلك الاسرة التى هى من سلالة الرسول والتى ترى من اكبر الشرف لها أن تكون من الرعايا المخلصين الموالين للخليفة ! فانى واخي وانا لسنا خائنين للشعب أو الحكومة . بل نحن الخدم الاوفياء الامناء لسلطاننا الامجد الذي طالما غمرنا بانعاماته . فلتكن موقناً

بأني سأسوى الخلاف القائم بين اخي والحاكم بصري باشا وسأكلفه بالحضور لتقبيل يديك !) .

وكان علي فؤاد بك رئيس اركان الحرب حاضراً ذلك الحديث . وقد اخبرنى الشيخ اسعد شقير فيما بعد أن الشريف فيصل ذهب الى دار رئيس اركان الحرب فى حالة تهيج شديد وبكى بكاء مراً واخبره بأنه يخشى نظراً للغضب الذي كان مستولياً علي ان آمر بالقبض على اخيه واعدامه فى دمشق كل ذلك حدث فى اوائل نيسان سنة ١٩١٦ وقد كان جلياً من المقالة التى نشرتها الطان فى ما سبقت الاشارة اليها ان الشريف حسين كان منذ اول كانون ثانى سنة ١٩١٦ على اتم اتفاق مع الانجليز وظل يرقب الفرصة الملائمة لرفع علم الثورة

وانى وايم الله لو علمت ذلك وقتئذ لكنت امرت غير متراخ بالقبض على فيصل فى دمشق وعلى اخيه فى المدينة ولارسلت فرقة تركية على جناح السرعة الى مكة للقبض على الشريف حسين واولاده والقضاء على تلك الثورة المشؤومة فى مهدها . ولكن ماذا عساي كنت افعل فى تلك الظروف ولم تكن لدي بعد البراهين الكتابية على التدابير الجنائية التى كان يقوم بها اولئك الاشخاص

وكان تحت تصرف الحسين وقتئذ ما ينيف على خمسين أو ستين الف جنيه ذهباً لتجهيز فرقة المتطوعين البالغة ١٥٠٠ شخص لحملة القناة . وكذلك كنت ارسلت البنادق اللازمة الى المدينة فى اواخر نيسان وكان مقرراً ان ترسل منها الى مكة بيد أن نفير الشريف حسين جعلت الحذر لازماً . فاعتذرت بصعوبة النقل وكتبت اليه اخبره انى ارى من الصواب أن يرسل المتطوعين لديه الى المدينة سيراً على الاقدام وبدون سلاح وهناك تصرف اليهم البنادق .

وفى ذات يوم حوالي نصف مايس جاءنى الشريف فيصل واخبرنى أن أخاه قد تلقى الاوامر من ابيه بالانضمام الى جيش سيناء وانه هو (فيصل) نفسه يرغب - بعد استئذانى - فى الذهاب الى المدينة ليجيء بأخيه الى القدس.

واكد لي ان ذهابه سيؤثر فى نفوس المجاهدين تأثيراً حسناً ولما كنت قد تعودت الخديعة من الشريف حسين واولاده آثرت أن اكون أنا الغالب ففكرت قليلا ثم قلت :

(حسن جداً لقد صرحت لك . فاغد الى المتطوعين فى المدينة واستقبلهم باسمي ثم ائتني بهم هنا . وسآمر مصلحة السكة الحديد بنقل الجنود وارسل معك ببعض العلماء فى دمشق ليكونوا فى ركابك وبذلك تستطيع ان تؤلف وفداً خاصاً لاستقبال المجاهدين .

وما كدت افرغ من هذه الكلمات حتى ابرقت اسارير وجهه وكاد فؤاده يطير فرحاً . فتجلت لي الحقيقة وتكشفت . حتى لقد التفت الى علي فؤاد بك رئيس اركان حربي قائلا : « انني موقن بأن الثورة سيشب ضرامها فى الحجاز فى القريب العاجل . فانى قد رأيت الشريف فيصل قد فرح أشد الفرح لخديعتي حتى انه لم يستطع اخفاء شعوره !

وكان علي فؤاد بك يرى رأيي ، وقد وافق على الخطة التى سلكتها نظراً لتقرر اتخاذ خطوة أخرى . ووصلت من الاستانة الى المدينة حوالي ذلك الوقت قوة مؤلفة من الفين أو ثلاثة آلاف رجل كانت قد ارسلت تكملة « الكادر » فى فيلق اليمن . وقد بذل الحاكم قصارى جهده فى خلال الاسبوعين السالفين للحصول على الجمال اللازمة لنقلها . فاخبرنى بصري باشا بأن هناك اشاعة بأن تلك القوة التى كانت ناقصة التمرين والتى لا يكاد عدد المقاتلة فى كل فصيلة من فصائلها يزيد على ٥٠ رجلا وضابطاً من ضباط الاحتياط سيسوقها البدو الى شرك أعد لها فيما بين مكة والمدينة على اثر الخطب المهيجة التى القاها الشريف حسين .

فارسلت رداً الى الحاكم وفيه تعليما دقيقة بأن يبقى تلك الكتيبة فى المدينة الى أن تصدر اليه اوامر اخرى وان يقوم الضباط الموجودون بتمرين الجنود

وتسليحهم بالبنادق التي كان في النية ارسالها الى متطوعي مكة . وقلت له فيه نظراً للسلوك الباعث الى الريبة الذي سلكه الشريف علي كن على حذر واستعداد تام للدفاع عن المدينة في حالة مهاجمتها . واخبرته بأن الشريف فيصل قد اتخذ طريقه الى المدينة .

وبعد أن غادرنا الشريف فيصل بصحبة رجال معيته رأيت من باب الاحتياط ان ارسل فخري باشا الى المدينة وكان دون سائر قواد الفرق القائد الوحيد الذي تحت قيادتي . وكان مشهوراً بوطنيته وثباته . فشرحت له الحالة ورأيي منها واخبرته بأنني متوقع أن يثور الشريف حسين قريباً ، ثم طلبت اليه أن يذهب الى المدينة بحجة زيارة الروضة الشريفة وان يرتب مع بصري باشا وسائل الدفاع اللازمة اذا احتاج الى ذلك . وكان بصري باشا حاكم المدينة بلا ريب مقداماً اميناً شديد الغيرة الوطنية ذا دراية تامة بعقلية العرب . بيد انه لم يكن ذا تجارب حربية مما جعلني اخشى الا يعمل بالشجاعة والحزم اللذين يستلزمهما الموقف العصيب .

واعطيت كلا من بصري باشا وفخري باشا التعليمات السرية نفسها وهي تقتضي بأن يستلم فخري باشا عند اول انذار بقيام الثورة قيادة اولاد الشريف وان يقوم بصري باشا باعباء الادارة الملكية . وكنت على يقين تام بأن لن يحدث اي خلاف مثل ذلك الوقت بين هذين التركيين الباسلين اللذين غلب حب الوطن فيهما على كل عاطفة اخرى » .

واحتياطاً للطوارىء امرت ان تبقى كتيبتان أو ثلاث وبطاريتان جبليتان في دمشق على استعداد تام للزحف في الحال على المدينة . ولم تعلم تلك الجنود شيئاً عن الجهة التي ترسل اليها . ولكنها كانت دائمة متأهبة بحيث يمكن ارسالها بعد نصف ساعة من وصول اول اشارة .

ولما وصل الشريف فيصل الى المدينة كتب الي من توه يخبرني بمقدار

سروره لأن أخاه علياً سيقابلني قريباً وبما أن الشريف حسين قد سألني ان ارسل اليه قدراً من المال لتغطية نفقات المجاهدين لديه الذين كانوا على استعداد للزحف طلبت الى حاكم المدينة أن يسلم الشريف حسين المبلغ المطلوب . فانظر كيف أن الشريف حسين الذي تم التعاقد بينه وبين الانجليز منذ اول كانون ثاني سنة ١٩١٦ لم يخجل أن يطلب زوراً وبهتاناً اموالا من الحكومة قبل خروجه عليها بيوم أو اثنين من اواخر مايس سنة ١٩١٦ .

وبينما أنا ببيروت فى اليوم الثانى من حزيران زائراً اذا بفخرى باشا يدعونى من المدينة لمحادثتي تلفونياً . فوقع فى نفسى ان سيفضى إلي باخبار سيئة فقلت له هات ما عندك فقال :

من يوم وصولي الى هنا ما زالت علاقاتى حسنة مع كل من الشريف علي وفيصل بك وقد دعوانى منذ يومين لزيارة مقام سيدي حمزة حيث هناك معسكر المجاهدين . فتغدينا معاً وجعل المتطوعون يلعبون العاب سكان البوادي واخذوا يترنمون بالاغانى الحماسية والضربات القاصمة التى سينزلونها بالانجليز وفى مساء الامس دعيت الى منزل علي بك وفيصل بك . وكان قد تقرر أن نذهب الى درعا لمشاهدة اول كتيبة من المجاهدين .

ولكننى صباح اليوم رأيت الحالة قد تغيرت تغيراً غريباً . فقد جاء إلي احد رجال الشريف علي ودفع إلي ثلاثة خطابات الاول لي والثانى من الشريف حسين لك والثالث منه ايضاً للصدر الاعظم . وان كان الاخيران مكتوبين بالجفرة فقد عجلت بارسالها اليك .

اما الكتاب المرسل الي فقد كتب علي بك فيه ما نصه : بناء على الاوامر الصادرة من ابى سيقف نقل المتطوعين الى فلسطين . ولهذا عقدت النية على العودة بالمجاهدين الى مكة بدلا من ضياع الوقت هنا . وانى آسف لاضطراري الى الرحيل بدون ان اودعك فارجو قبول عذري !

واما الخطابان اللذان ارسلهما الشريف حسين مكتوبين بالجفرة فلم استطع قراءتهما . وقد ارسلت فى الحال كتيبة الى المكان الذي اقام فيه المجاهدون بالامس فوجدته خاو على عروشه . وقد اخبرنى علي بك بأنه ذهب الى مكة ولكن المعلومات التى استقيتها من شيوخ العرب الموالين تدل على انه قسم قوته الى ثلاث كتائب وانه ارسلها الى جهات مختلفة . وانى لاظن انهم ستهاجم السكة الحديدية هذه الليلة أو فى صباح الغد على اكثر تقدير وان علي بك سيعطل مواصلاتنا بين المدينة وسورية وسيقوم ومعه قوته كلها بهجمة فجائية على المدينة . ولذلك وبناء على تعليماتك تسلمت قيادة الجنود المرابطة فى المدينة واعددت جمع معدات الدفاع استعداداً للطوارىء فالامل ألا تتركنا بلا امدادات

فاجبت فخري باشا بأنى سآمر بلا توان بأن تذهب فوراً الى المدينة الجنود التى كانت مخصصة لها وسألته هل يريد امدادات أخرى .

ثم امرت بفك رموز الخطابين المرسلين من الشريف حسين إلي والى الصدر الاعظم فاذا هو يعتذر فى اولهما عن عدم استطاعته الاشتراك فى الحملة على القناة الى أن تجاب الطلبات التى طلبها فى برقيته المرسلة الى الصدر الاعظم والى أن تكف عن اتباع خطة الابهام والغموض حياله .

اما خطابه الى الصدر الاعظم فقد قال فيـــه انه لا يعرف أي الرجلين يصدق اهذا السياسى الذى يتعامل معه مباشرة ولطالما اظهر له المجاملة والود ام ذلك الذى استعمل معه الفاظاً جارحة مهينة . فهو يرى نفسه مضطراً الى قطع العلاقات مع الحكومة حتى تجاب المطالب التى طلبها من انور باشا منذ شهرين

وكنت أنا المقصود بالسياسى الذى عامله بالمجاملة واما الآخر الذى يقول انه عامله بغلظة فيريد به انور باشا لأنه كان ارسل قبل ذلك بثلاثة اسابيع برقية الى الشريف حسين لفت نظره فيها الى وجوب تغيير ابنه علي سلوكه حيال حاكم المدينة .

وينبغي أن نقرر هنا أن الشريف حسين لما لم يجد ذريعة اخرى للثورة اعتزم ان يستغل مسألة لهجة الخطابات الى اقصى حد . فان الخطابات التى ارسلتها اليه كانت قد كتبت بلهجة لا تدع مجالا للخلاف . ومن جهة اخرى لم تك ثمة كلمة جارحة فى خطاب انور باشا ولو اننى اسلم بأنه لم يكن مكتوباً كلمة بعبارات المجاملة ومن هذا نرى ان لهجة خطاب انور باشا كانت السبب فى ان الشريف رفع علم الثورة ! ! .

وكنت قد سلمت للشريف فيصل قبل ذهابه الى المدينة مفتاحاً للشفرة لاستعماله اذا جد أمر غير عادى يريد اخبارى به فوردت إلي منه الرسالة الآتية بالجفرة : « لقد اصدر ابى الامر بوقف نقل المتطوعين الى سورية لاسباب أؤمل أن اشرحها لك شخصياً متى تشرفت بمقابلتك قريباً . ان الحالة التى نشأت الآن اساءتنى جد الاساءة . ولما كان من بواعث الالم إلي ان تقع علي عينك مرة ثانية قبل تسوية الامور تسوية مرضية فاتشرف باخبار سعادتك بانى ذاهب الى المدينة لتمضية بعض الوقت » .

ومما يثبت خيانة الشريف حسين وجنايته مهاجمة رجاله للسكة الحديد فى شمال المدينة بعد شبوب الثورة بيومين أو ثلاثة .

ولما كانت الحوادث التى وقعت بعد ذلك تتعلق بالقتال بين العصاة والجنود لا أرى ضرورة لبحثها فى مذكراتى . وارجو عند عودتى الى الوطن ان شاء الله ان اتمكن من نشر ما دار بينى وبين الشريف حسين من الرسائل التى حرصت عليها . واذ وقع نظري على كتاب ماندلستام ونص الترجمة الفرنسية المنشور الذي رأى الشريف حسين نفسه مضطراً الى اصداره لتبرير ثورته ارى ان الغاية التى ارمى اليها فى كتابى هـــذا تقتضى فحص الاسباب الواردة فى ذلك المنشور .

ويمكن أن الخص فيما يلي اسباب الثورة التى اتى عليها الشريف حسين فى

منشوره الصادر بتاريخ ٢٥ شعبان سنة ١٣٤٤ الموافق ٢٧ تموز سنة ١٩١٦ والمنشور فى صبغته الاصلية اصدق شاهد على نفاق العرب الكتابى . وهو مترجم فى صفحة ٢٦٠ من كتاب ماندلستام وهاك ملخصه :

السبب الاول : منذ ان تولت جمعية الاتحاد والترقى مقاليد الامور ساءت ادارة البلاد الى حد أن الامبراطورية فقدت شطراً كبيراً من ارضها وسكانها ونفوذها .

السبب الثانى : فى خلال الحروب الاجنبية العديدة الناشئة عن تلك الادارة السيئة حل البؤس بالاهالي وعلى الاخص اهالي الحجاز الى حد انهم اضطروا الى بيع الدور التى تأويهم .

السبب الثالث : وكأنما ذلك لم يكن كافياً فقد اهملت قوانين الديانة الاسلامية . فنى الاستانة مثلا وعلى مرأى ومسمع من الحكومة وشيخ الاسلام بلغت الجرأة بصحيفة تدعى « الاجتهاد » الى حد الكتابة عن المصطفى عليه الصلاة والسلام بلهجة لا تتفق والتبجيل التقليدى المتبع عند المسلمين عند اشارتهم له

السبب الرابع : بل ان تلك الصحيفة تقترح احداث تغيير فى الشريعة الاسلامية فيما يخص المواريث بأن تسوى حقوق النساء بحقوق الرجال .

السبب الخامس : وقد تذرعت الحكومة بوجود حالة حرب فاصدرت منشوراً عفت فيه الجنود المرابطين فى المدن كدمشق والمدينة ومكة من الصوم

السبب السادس : لقد نقضت سلطت الخليفة وضيقت دائرة الامتيازات التى منحته اياها احكام الشريعة بتجريد جلالته من حق انتخاب رئيس مجلس الوزراء أو الوزراء .

السبب السابع : لقد برح الخفاء وتبين أن الامبراطورية اصبحت فى ايدي انور باشا وجمال باشا وطلعت باشا فيتحكمون فيها كيفما شاؤا واختاروا

السبب الثامن : وهناك برهان آخر وهو شنق هؤلاء الوجهاء الأمير

عمر الجزائري والامير عارف الشهابي وشفيق بك المؤيد وشكري بك العسكر وعبدالوهاب (لا ادري لماذا لم يذكر الشريف حسين كلمة « الانجليزي » وهو اللقب الذي عرف به عبدالوهاب) وتوفيق بك الباسط وعبدالحميد الزهراوي وعبدالغني العريسي واتباعهم .

السبب التاسع : ولم يقف الامر عند ذلك الحد بل ان سائر اصدقائهم واقاربهم قد نفوا وصودرت ممتلكاتهم .

السبب العاشر : وقــد حطموا ضريح اخي الامير المبجل عبدالقادر الجزائري الحسني .

تلك هي قائمة المعاذير التي جادت بها قريحة الشريف حسين تبريراً للثورة في خلال الخمسة والعشرين يوماً بين اليوم الثاني من شهر كانون ثاني وهو يوم بدأ الثورة واليوم السابع والعشرين من الشهر نفسه عندما اعلن نفسه ملكا .

واني اناشد العالم الاسلامي بما جبل عليه من حب العدل وهل في الاسباب الثمانية الاول شيء ما ولو بسيط يبرر أن يقوم مسلم يدين بالدين الحنيف وعلى الاخص رجل يدعي انه من سلالة الرسول عليه الصلاة والسلام ويرفع علم الثورة ضد خليفة المسلمين ؟ ان الحوادث التي يشير اليها الشريف حسين في الاسباب الثلاثة الاخيرة وقعت بعد كانون الثاني سنة ١٩١٥ أي بعد أن بدأت المفاوضات بينه وبين الانجليز وقد صارت الحكومة بعدما داخلها من الريب في اخلاص الشريف حسين مضطرة الى اتخاذ الاحتياطات اللازمة لصيانة مصالح العالم الاسلامي وعلى ذلك فليس للشريف أي حق في أن يتذرع ويتخذها أسباباً لثورته . . ولقد قرأت في احد اعداد جريدة القبلة سنة ١٩١٨ التي تصدر في مكة المكرمة خطاباً للشريف حسين . ولا استطيع لسوء الحظ ان اذكر سائر محتوياته لانه ليس معي هذه اللحظة . فقد كتب الشريف الى سيد من سادات العرب لم يذكر اسمه فقال :

منذ أن تبوأت الامارة وضعت امام عيني هذا الغرض الاسمى أو وهو تحرير العرب . فلم ادخروسعاً لتحقيق تلك الغاية وقدكان لاجلها انني وطدت العلائق بيني وبين كبار القبائل العربية . ومما يدلك على عظم مجهوداتي اشتراكي في حملة العسير عندما ارسلت قوة مسلحة بقيادة ولدي عبدالله لرد الغزوة التي قام بها الامير ابن الرشيد بايعاز الاتراك على الامير ابن السعود . الخ) .

ولعمري ان هذا لهو ما يسمي بالاعتراف غير القهري !

فالحقيقة كما يسلم بها الشريف نفسه هي انه كان يفكر في الخروج على سلطانه منذ اليوم الذي اصبح فيه اماماً وان سائر ولاة الحجاز كانوا على علم بمقاصده ومراميه وبعثوا بها الى الاستانة وقد برهن وهيب باشا نفسه بصفة خاصة على اصالة الرأي فيما يتعلق بهذه المسألة فانه رأى ان من اللازم ارسال فرقتين على الاقل الى مكة لخلع الشريف وتولية خلف له ولكن الحكومة رفضت اتخاذ مثل هذه الاجراءات الشديدة خيفة ان تؤدي عبثاً الى فضيحة جديدة ربما كانت سبباً في اثارة القلاقل . فبعد انتهاء الحرب البلقانية استصوبت تنفيذاً لسياستها الداخلية ان تصل بالحسين الى اتفاق ودي مع العرب .

ومتى سنحت لي الفرصة نشرت الرسائل التي تبودلت في خلال عام أو يزيد وخصوصاً بعد دخولنا الحرب العالمية لكيلا ادع للشريف سبباً ما ولاجرده من كل المعاذير لمخاصمتنا .

ان الشريف حسين يعد جناية منا ان حكمنا بالاعدام على بعض وجهاء سورية . ومع انني نشرت من قبل الوثائق الرسمية في كتاب آخر سميته (حقيقة المسألة السورية) وهي وثائق تثبت ادانة المتهمين فليس من العبث على ما يظهر لي ان آتي على بعضها هنا .

١ — القنصلية الفرنسية بدمشق

تحريراً فى ١٥ يناير سنة ١٩١٣

بخصوص قضية ناهل مطران باشا البعلبكى

من القنصل العام الى صاحب السعادة المسيو بومبار

اتشرف بأن اخبر سعادتكم بأن ناهل مطران باشا من ذوي النفوذ فى بعلبك وقد زار هذه القنصلية مرتين فى خلال الاسابيع الاخيرة وقد كان ذلك السيد منذ عامين سكرتير السفارة التركية فى باريس وله معرفة بمعظم رجالنا السياسيين وهو عضو فى الكنيسة الكاثوليكية اليونانية وفى حزب الاتحاد والترقي ولو انه كذب فى ذلك فى احاديثه معي عندما اشار الى اخفاق سياسة اللجنة ووقاحة الاتحاديين .

فلقد انتهز ناهل مطران باشا فرصة السفر الى دمشق لطلب اعادة محاكمة احد اصدقائه وحضر لزيارتى للمناقشة - كما قال - فى مسألة تهم الدولة التى اختارتها الطبيعة لحماية لبنان وسورية ثم اكد لي ان زعيم الساسة الفرنسيين شافهه فى الموضوع نفسه . ومما قاله : « ان الحالة الحاضرة اصبحت لا تطاق واننا عزمنا على ادماج بعلبك وسهل البقاع فى لبنان لارتباط تلك الجهات جغرافياً بيد أننا نقتصر لتحقيق هذه الغاية الى مساعدة وحماية الحكومة الفرنسية . وقد وطدنا العزم - نحن المسلمين والمسيحيين - على ادراك النجاح واننا نعرف كيف نحقق غايتنا اذا فكرت الحكومة العثمانية فى مقاومتنا بالسلاح وينتمي الى حزبنا فريق من اهالي بعلبك وعلى هذا فان مدينتنا لها مركز خاص فهي مفتاح قلب سورية والطريق المؤدية الى الداخل . فانا واسعد بك حيدر رئيس المقاولة واكبر الرجال نفوذاً فى تلك الجهة وعبدالغنى بك الرفاعي زعيم المسلمين قد عقدنا النية على أن تكون جهتنا جزء من لبنان . وقد قررنا أن

نذهب الى بيروت لنخبر مسيو كوجبت بنياتنا لانه على الدوام مهتم اهتماما شديداً بكل ما يتعلق بلبنان . ونظراً لأن بعلمك فى دائرة قنصليتك رأيت من الواجب علي أن اطلعك على هذه الامور بالاصالة عن نفسى وبالنيابة عن اسعد بك وعبدالغنى بك .

وانى طبعاً اتقبل تأكيدات ناهل مطران باشا كلها بكل احتياط هذا بقطع النظر عن انني قابلته بالحفاوة التامة وقد زارنى مرة أخرى واكد لي من جديد اخلاصه لفرنسا ووعد بانه يقدم إلي أى خدمة يستطيعهافى بلاده

٢ — بيروت فى ١٢ مارت سنة ١٩١٣

الى جناب المسيو كوجبت قنصل فرنسا العام فى سورية

سيدى القنصل العام :

نظراً لأن فرنسا هى الحامية الطبيعية للمسيحيين العثمانيين والوطن الثانى لمسيحيي سورية نتشرف نحن الموقعين على هذا الاعضاء المسيحيين باللجنة التنفيذية فى الجمعية العمومية المنتمين بواسطة مجالس النقابات بولاية بيروت لوضع مشروع اصلاح لتلك الولاية بأن تعرض على انظار قنصل فرنسا العام فى سورية الملاحظات التالية بخصوص :

(١) موقف المسيحيين العثمانيين .

(٢) الاصلاحات التى اقترحتها اللجنة التنفيذية .

(٣) أمانى وآمال المسيحيين السوريين .

ولنا وطيد الامل فى أن يعرض جناب القنصل العام هذه الملاحظات على حكومة جمهورية فرنسا ويؤيدها بكل نفوذه .

٣ — بيروت فى ١٨ مارت سنة ١٩١٣

سلم الى مسيو بيريه محرر جريدة الصلاح العربية بالنيابة عن الموقعين صورة منشور اتشرف بارسالها الى سعادتكم طي هذا نظراً لاهميتها السياسية

وهذا المنشور انما وضع بعد موافقة زعماء اللجنة التى تعمل سراً لتنفيذ الاصلاحات فى سورية كما اخبرتكم بذلك مراراً . وقد وقعه اكبر اولئك السادة نفوذاً . فالمحامى مسيو بيير طراد ومترجم الفيصلية مسيو تويتى روم ارثوذكس بينما مسيو هانى من المارونيين والدكتور نائب بروتستانت .

ولقد اظهروا فى خطابهم المرسل إلي بالنيابة عن الطوائف الدينية التى يمثلونها اهتماماً شديداً بتحقيق امانى المسيحيين كما اكدوا شدة تعلقهم بفرنسا ان هذه الوثيقة الجديدة هى بمثابة دليل آخر على ما يشعر به نحونا مسيحيو تلك الجهة . وهى تبرهن من جهة اخرى على عظمة الاثر الذي احدثتهالوعود الفرنسية والآمال الكبيرة التى اثارتها فى نفوس تلك الطوائف .

موقف المسيحيين العثمانيين

لقد كانت حالة المسيحيين فى الامبراطورية العثمانية على الدوام سيئة بل محزنة ولربما تزداد الحالة سوءاً عقب الحرب البلقانية والهزائم التركية لأن النتائج المباشرة لتلك الهزائم هى :

أولا : زيادة الضرائب .

ثانياً : بعث روح التعصب الدينى بين المسلمين .

ثالثاً : حمل مسيحيي سورية من جديد على الهجرة .

اما من حيث زيادة الضرائب فان الحكومة التركية على اثر ضياع ممتلكاتها فى اوربا ستسعى - بل هى ساعية الآن فعلا - الى نقل العبء الذي كان على كاهل الولايات الاوربية الى كاهل الولايات الآسيوية . وان العارفين بحيل الادارة التركية ووسائل ارهاقها فى فرض الضرائب يعلمون جيد العلم ان الاعباء الجديدة لن تقع إلا على كواهل الاهالي المسيحيين وحدهم .

واما من حيث التعصب الاسلامى فانه كان اقوى وانفع سلاح فى ايدي

الساسة ، لذلك لم يحجموا عن استعماله فى الحوادث الاخيرة فى البلقان . فقدكان المسلمون يعتبرون الحرب البلقانية حرباً دينية بين الهلال والصليب تألبت فيها الدول المسيحية ضد الاسلام . وعلى ذلك ليس أيسر على المسلمين من أن يظنوا ان وجود المسيحيين فى الدولة العثمانية هو السبب الرئيس فى هزيمتهم وتضعضعهم والمسيحيون العثمانيون هم فى نظر المسلمين اصل الشر وسبب البلايا التى نزلت بالدولة . فهم اعداؤها الطبيعيون .

واما من حيث هجرة مسيحيي سورية فينبغي الا يغرب عن البال أن عدداً عظيما من المسلمين هاجر منذ الحرب البلقانية من مقدونية وتراقية الى سورية ولا تزال حركة الهجرة آخذة فى الازدياد وتؤيدها فيها السلطات التركية ومعنى هذا ويا لسوء الحظ ان التوازن العددي بين مسلمي سورية ومسيحييها قد اختل ومال لغير مصلحة المسيحيين . ان المسلمين مستبدون فعلا بمقتضى دينهم فمن المنتظر ان تزداد انانيتهم واثرتهم بعد أن تضاعف عددهم .

ولقد ثارت ثائرة مسيحيي سورية لهذا حتى ان كثيراً منهم نزح الي امريكا فيمكن اذن القول بأن الحالة الحاضرة تساعد على الهجرة المزدوجة هجرة المسلمين الى سورية وهجرة مسيحيي سورية الى امريكا فاذا استمرت الهجرة ولو الى أمد قصير فان نتيجتها زيادة العنصر المسيحي فى سورية .

رغبات مسيحي سورية

ولو افترضنا أن من المستطاع الوصول الى الاصلاحات بدون مساعدة اوربا لما كان هذا بمطفىء غلة مسيحيي سورية . ذلك لانهم متحدون مع فرنسا اتحاداً لا انفصام له وانهم لن ينسوا مطلقاً فرط اعجابهم بها وبمدنيتها العالية ولا ما هم عليه مدينون لها من المساعدة فى اوقات الشدة . فاقصى ما يبتغيه مسيحيو سوريا هو أن تحتل فرنسا الشام .

فلهذه الاسباب يعرض الموقعون اسماؤهم من اعضاء اللجنة التنفيذية بالنيابة عن مسيحيي بيروت بحسب مراتبهم الاقتراحات التالية التى يعتقدون انها الوحيدة الكفيلة بملافاة الحالة السياسية الحاضرة فى سورية .

اولا : احتلال فرنسا لسورية .

ثانياً : استقلال ولايه بيروت استقلالا تاماً تحت حماية ووصاية فرنسا

ثالثاً : ادماج ولاية بيروت فى لبنان الذي يكون تحت سيادة فرنسا العقليه

الامضاءات

ميشيل تويني . يوسف هانى . بيير طراد

الدكتور ايوب ثابت . رزق الله ارقش . خليل زين

الجمهورية الفرنسية

القاهرة فى ٢٨ آذار سنة ١٩١٣

الى الادارة السياسية والتجارية باوربا وافريقيا والشرق بوزارة الخارجية

رقم ١٣١

سورية : اللجنة اللا مركزية العثمانية

من المسيو ديفرانس سفير جمهورية فرنسا المفوض فى القاهرة الى المسيو بنسيون وزير الخارجية .

فى هذه الساعة يبدي السوريون القاطنون فى القاهرة كثيراً من النشاط أو على الاقل يحض بعضهم بعضاً على العمل . ففى برقيتى رقم ١١٧ المرسلة اليكم فى الثانى والعشرين من الشهر الماضى اخبرتكم باجتماع اللجنة اللا مركزية الذي حضره مسيو ميشيل توينى المترجم المساعد فى قنصليتنا ببيروت . ويظهر من المعلومات التى امكننى الوقوف عليها فيما بعد ان قرارات اللجنة لم تكن معينة ولا بالاجتماع كما ظن المسيو توينى . وهو يعمل لا بصفته الرسمية بل بصفته الشخصية ـ أي كاحد اعيان سورية ولكنه يبدى فى المشكلة السورية

غيرة تكاد تكون مبالغاً فيها ويسعى للوصول الى قرار جوهري سريع . ومن المهم ان تلاحظ أيضاً ان ما ظهر من مطامح اللجنة اللامركزية يؤيد المعلومات التي وصلت الي منذ امد قريب بصدد آراء مسلمي سورية في مصر بلادهم وقد بعثت اليكم بهذه المعلومات في خطابي بتاريخ ٢٣ آذار رقم ١٢٣ .

ويظهر أن السوريين - لا فرق بين مسلميهم ومسيحييهم - أو على الاقل السوريين المقيمين في القطر المصري قد عدلوا في مطالبهم الى الاقتراحات المشار اليها في خطابي بتاريخ ٢٣ آذار القاضي بجعل سورية دولة مستقلة استقلالا ذاتياً برئاسة أحد الامراء المسلمين . وقد نمي إلي ان كامل باشا - المقيم في القاهرة الان - آثار الآمال في مشروع الاصلاحات ووعدهم بتحقيق امانيهم كلها عند عودته الى منصة الحكم ولكن جميع الذين سمعوا تلك التأكيدات لم يرتابوا لحظة في أن ذلك السياسي الهرم لن يحجم عن تجديد تلك الوعود لو عاد الى الصدارة وكذلك هم من جهة اخرى واثقون بأن الوعود ستهمل وان السوريين سيضحك عليهم مرة أخرى بالكلمات الخلابة .

واذا اعلنت اللجنة رغبتها في الاستقلال الذاتي لسورية اصبح بالطبع محتما عليها أن تبحث عن الاشخاص الاكفاء الذين يمكن أن يعهد اليهم حكم الامارة المقبلة . وتدل المعلومات التي جاءتني ان هذه المسألة لم يتناولها البحث في اجتماعات اللجنة ولكن كثير من الاعضاء اصبح مهتماً بها وان رئيس اللجنة رفيق بك العظم يرى ان حاكم سورية المنتظر لا يمكن ان يكون سوى زعيم اسرة العظم ألا وهو شفيق بك المؤيد العظم .

بيد أن اعضاء اللجنة الآخرين يقولون ان السوريين لن يعترفوا بأحد منهم ملكا عليهم لأن الجميع يرون انهم متساوون في الدرجة فهم يريدون انتخاب امير من الاسرة الخديوية . وهذا الرأي الاخير فهو رأي المسيو تويني الذي جاءني ليطلعني على آرائه وقال ان كثيراً من السوريين يشاركونه فيها .

فالمشروع في طوره الحاضر يرشح الامير يوسف كمال باشا ابن عم الخديو ليكون ملكا على سوريا .

والامير رجل واسع الثروة مستقل في علاقاته . ولما سئل عن رأيه اعلن انه يقبل الانتخاب على هذا الشرط الاساسى وهو انه اذا لم يكن بد من وضع سورية تحت حماية دولة اجنبية فيجب ان تكون فرنسا هى تلك الدولة . وينبغي أن تنبذ تماماً كل حماية أخرى عداها وخصوصاً الحماية الانجليزية .

فمن تمحيص هذه الوثائق يدرك الانسان بسهولة ان الحكومة الفرنسية بذلت اقصى ما فى استطاعتها لتمهيد الطريق لضم سورية بحجة حماية العرب فهل يوجد من يشك فى نيات انجلترا نحو العراق وفلسطين ؟ لعمري ان الذين يدعون انهم لا يعرفون شيئاً عن تلك المناورات اما أن يكونوا قصار النظر واما أن يكونوا قد باعوا ضميرهم وشرفهم ! فلنفرض جدلا ان الشريف حسين كان يجهل اثناء مفاوضاته مع الانجليز الى شهر تموز سنة ١٩١٥ بنيات فرنسا وانه كان معتقداً ان ساعة زوال الدولة العثمانية حانت وانه انما ثار ليؤدي للعالم الاسلامى اجل خدمة بأن يبعث الدولة العربية من رقدتها وانه كان يسعى فى أن يؤسس فى شبه جزيرة العرب على انقاض تركيا البالية مملكة عربية تضم - حسب الوعود التى منته بها انجلترا - كل الاراضى الواقعة فى جنوبى الخط الممتد من مرسين الى اطنه ثم الى الموصل فما باله لم تنبهه الحوادث ألم يكن رد السير هنري مكماهون المؤرخ فى ٢٤ تشرين اول سنة ١٩١٦ كافياً له فى اثارة شكوكه ؟ او لم تفتح عينيه اكثر من كل ما اثبته هنا تلك الوثائق التى نشرتها فى سورية على اثر اعدام الخونة وكانت كل واحدة منها دليلا قاطعاً على مناورات فرنسا ؟ الم تكن كلها حججاً قاطعة وانذارات كافية لأن تريه عظم الجناية التى يوشك أن يرتكبها ؟ ليس من الصعب أن تتنبأ بما كان يجول فى خاطر السير هنري مكماهون حتى يوم ٢٤ تشرين اول سنة ١٩١٦

عندما ذكر فى رده ان بعض المناطق في الشواطيء السورية ولبنان لا يمكن اعتبارها عربية محضة .

فانجلترا لم تجد مناصاً من احترام المطامع الفرنسية فى تلك المناطق المذكورة . ولا يمكن غير من اعماه التعصب السياسى ان يعتقد بأن انجلترا انما انتزعت من تركيا العراق بقصد اعطائه هدية للعرب .

ولقد اخبرت الشريف فيصل بكل ذلك اثناء وجوده فى مركز القيادة فى سورية وافهمته ان العرب سيقعون فى اليوم الذي يقطعون فيه صلتهم بالاتراك غنيمة باردة فى ايدي الانجليز والفرنسيين وبذلك يحرمون بتاتاً من حماية خليفة المسلمين .

والآن وقــد وضعت الحرب اوزارها وتمكن الانجليز بفضل ثورة الشريف حسين من هزيمة الجيش التركى فى فلسطين واتموا احتلالهم لسوريا وفلسطين فما هى حالة البلاد الاسلامية ؟ لقـد اصبحت فلسطين والقدس تلك المنحة الثمينة التى اهداها الخليفة عمر الى العالم الاســلامى في قبضة الانجليز الذين يبتغون انشاء دولة يهودية فيها .

وقد تنازلوا لفرنسا عن منطقة تسمى (لبنان الكبرى) تشمل لبنان الاولى وطرابلس وبيروت ومدينتى تيرا وصيدا وجهة بعلبك وسهل البقاع . واصبح العراق بأسره تحت الحماية الانجليزية .

ونظراً لاجتنابهم ضم الحجاز المعترف باستقلاله ارادوا أن ينشئوا تحت الحمايه الفرنسية وكالة عربية تشمل مدن دمشق وحماة وحمص وحلب . ويظهر أن الفرنسيين معارضون فى ذلك .

ومن هذا يتبين جلياً ان دعاوى ملك الحجاز الشريف حسين في مدن دمشق وحماة وحمص وحلب لا ينظر اليها بعين الارتياح . فقـد استخدم هو وابنه فيصل كمجرد آلات صماء .

فالحسن الجزائري حفيد الامير عبد القادر (الذي طالما ناده الشريف « بأخي المبجل ») يتهم الشريف بقتل الامير خيانة وغدراً ! وقد قيل فى رسالة طالعتها فى احدى الصحف الانجليزية أن الشريف حسين يعمل فى مكة باموال الانجليز ولا يرتاب الذين يعلمون طبيعة الحجاز ومناخه فى ان هذه الحال ستبقى كذلك الى ما شاء الله . فالنتيجة هى أن خادم الحرمين الشريفين اليوم هو الملك جورج الخامس ملك انجلترا وذلك كله بفضل ثورة الشريف حسين ! .

وظاهر أن انجلترا تريد أن تجعل فيصل على ولاية عربية مكونة من مدن دمشق وحماة وحمص وحلب وبهذا يتم لها وضع يدها على تلك المنطقة التى تشتمل على اشهر مدن العالم الاسلامى .

تلك هى الصورة الحقيقية التى انتابت العالم الاسلامى من جراء ثورة الشريف حسين . وعندي أن الضربات التى وجهها الى صميم الاسلام زعماء المغاربة بانضمامهم الى الدول المسيحية ليست شيئاً مذكوراً اذا قيست بالمحن التى نزلت بالخلافة من الشريف حسين .

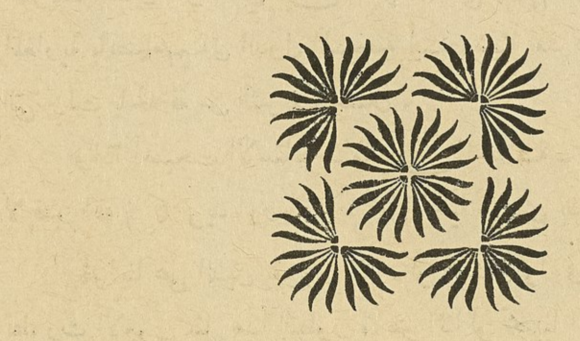
واذا أصبحت الأستانة - موطن الخلافة - فى قبضة عصبة الأمم لا قدر الله (كما تريد اوربا) تم عمل الخيانة الذي بدأه الشريف .

فجوابنا على الذين يقولون لنا « لو لم تشتركوا فى الحرب العالمية لما تطورت الامور بمثل هذا التطور » هو اننا لو تجنبنا الاشتراك فيها لما كانت النتيجة غير ذلك لأن شره الاستعمار الانجليزي والفرنسى والروسى ليس ابن الامس بل هو وليد القرون العديدة . فهؤلاء الدول الثلاث كان من المحتم أن يشرعون فى تمزيق أوصالنا عقب خروجهم من الحروب ظافرين لأن املاك الضعيف والعاجز هى على الدوام عرضة للتقسيم . ولأكرهنا وقتئذ على تحمل العار والذلة اذ نرى انفسنا - بدون مقاومة ما - نجرد مما عهد به المولى

الينا ليكون تحت رعايتنا .

على أن الاتراك ان شاء الله لظافرون بانقاذ الاستانة العزيزة وازمير الجميلة لهذا الوطن .

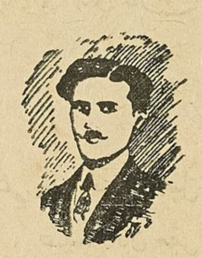
وسيكون الفضل كل الفضل فى ذلك للبعث الأخير الذي قام بزعامة مصطفى كمال باشا . فاذا هم تذرعوا بالوسائل اللازمة فازوا بسعادة الشعب ورخاء البلاد داخل حدودها الطبيعية .



احرار العرب

الذين شنقهم جمال باشا السفاح

وقد ورد ذكرهم في هـــذا الفصل



سعد فاضل عقل



جرجي حداد



عبد القادر الخرسا



الامير عارف الشهابي



عبد الكريم الخليل



محمد المحمصاني

كتابان تركيان

حول قضايا الاعدام

كتب الاستاذ ساطع الحصري يقول : بين يدي الآن كتابان يساعدان على معرفة ذلك .

الاول صادر من قلم « فالح رفقى آتاى » الذي كان مديواً لمكتب جمال باشا الخاص ، والثانى صادر من قلم الجنرال « علي فؤاد اردن » الذي كان رئيساً لاركان الجيش الرابع ، تحت قيادة جمال باشا .

كتاب فالح رفقى آتاي

كتاب فالح رفقى آتاي معنون بعنوان : « زيتين داغي » بمعنى « جبل الزيتون » لأن الكاتب قد التحق بالخدمة فى معية جمال باشا ، عندما كان مقر قيادته فى جبل الزيتون ، بالقدس . وقد نشر اولا سنة ١٩٣٥ ، ثم طبع مرة ثانية ـ مع بعض الزيادات سنة ١٩٣٨ .

والكتاب يتألف من « خواطر متفرقة » مكتوبة باسلوب ادبى رفيع تعكس انطباعاته وتأملاته عن ايام وجوده فى سوريا مع جمال باشا .

واما كتاب (علي فؤاد اردن) . فهو معنون بعنوان « خطرات سوريا خلال الحرب العالمية الاولى » وقد نشر سنة ١٩٥٤ . انه يتضمن معلومات ثمينة عن الحركات العسكرية والاحوال المدنية التى اشترك فيها أو اطلع عليها خلال خدمته فى الجيش الرابع فى سوريا .

فيما يتعلق بديوان الحرب ومقرراته ، يقول فالح رفقى آتاي فى كتابه : « ان الفصل السياسى الأخير ، الذي سيبحث عن سوريا فى التاريخ العثمانى ، سيكون ـ بلا شك ـ ديوان حرب عاليه » .

« بقرار هذا الديوان ، قد اعدم نحو اربعين من العرب القوميين فى


رفيق رزق سلوم


توفيق بساط


عمر حمد


على أرمنازى


نور الدين القاضى


عبد الوهاب الانكليزى


عبد الحميد الزهراوى


الشيخ احمد طبارة


جلال بخارى

دمشق وفى بيروت .

(وكان من بين هؤلاء ، من كان عضواً فى مجلس الاعيان ، مثل عبدالحميد الزهراوى ، ومن كان من اعضاء مجلس النواب مثل شفيق المؤيد ، ومن كان صحفياً من الطبقة الاولى مثل عبدالغنى العريسى ، ومن كان شاعراً مثل : رفيق رزق سلوم . كان كثيرون منهم من رجال السياسة والنفع . وكان قسم آخر منهم من (المثاليين) .

وبعد الاشارة الى حزب اللامركزية فى مصر وفى سورية ، ينقل الكاتب الكلام الى المسألة القانونية ، فيقول :

(ان اظهار الحقيقة فيما اذا كان ديوان الحرب قد خرق او لم يخرق القانون والعدالة امر يتعلق بالحقوقيين . ولكن لماذا رؤى - فى ذلك الحين - من الضرورى التزام سياسة بطش وارهاب اساسية فى سوريا ؟ ان سر ذلك قد دفن فى التراب مع جمال باشا ، الذى قتل فى احد شوارع تفليس برصاصات الارمن) . وبهذه الصورة . يترك فالح رفقي آتاى المسألة معلقة ، دون أن يبدى رأياً صريحاً فيها .

كتاب علي فؤاد اردن

ولكن الجنرال (علي فؤاد اردن) يعطينا فى كتابه معلومات اوسع وادق من ذلك . تساعد على تكوين فكرة صريحة وصحيحة عن مبلغ مسؤولية جمال باشا نفسه فى هذه القضية . لأنه يعلمنا بأن معظم احكام الاعدام التى اصدرها ديوان الحرب كان مخالفاً لرأى رئيسه واعضائه ومنافياً لاقتناعهم الوجدانى . وهذا ما يقوله في هذا الشأن :

(في شهر نيسان ١٩١٦ جاء الى مقر اركان الجيش في اوتيل فيكتوريا بدمشق المقدم شكرى بك رئيس ديوان الحرب بعالية ، وقال : ان محاكمة

المتهمين انتهت ، وهيئة الديوان كونت فكرة صريحة عن حقيقة القضايا . انها مقتنعة بأن عدد الذين يمكن الحكم عليهم بالاعدام لا يتجاوز الثلاثة أو الاربعة على اكثر تقدير . ومع ذلك رأت الهيئة ان تعرض الامر على قائد الجيش قبل ان تكتب قرارها النهائي فى هذا الشأن وكذلك جاء رئيس الديوان ومعه قائمة باسماء المتهمين ، وقد كتب حذاء كل اسم رأى هيئة الديوان فى الحكم الذى يجب أن يصدر في حقه) .

(وبما أن علي فؤاد أردن كان يعرف اتجاهات جمال باشا الفكريه ، ولا يجهل روح العنف والقسوة التى كان يتصف بها فقد قال لشكرى بك رئيس الديوان : عندما تعرض القائمة على الباشا - تضرع اليه لكى لا يتشدد فى الاحكام واذ اقتضى الامر قل له ارجوك يا باشا فكر فى التاريخ .

(وذهب شكرى بك من غرفة رئيس الاركان الى غرفة جمال باشا ولكنه عاد بعد خمس دقائق وهو مصفر الوجه ، وحكى ما حدث : « يظهر أن الباشا كان قد اطلع على القضية بواسطة رجاله الموجودين فى عاليه ولذلك عندما دخل عليه شكرى بك سأله بلسان جاف : ماذا ؟ واجابه شكرى بك : ان ديوان الحرب انهي المحاكمات ودون رأيه فى هذه القائمة وأنا جئت للعرض والاستئذان وقدم القائمة التى كان يحملها . ولكن جمال باشا تناول الورقة منه ودون أن يقرأ ما هو مكتوب فيها ، أخذ يكتب حذاء كل اسم الحكم الذى يريده هو : اعدام ، اعدام ، اعدام . . .

ولكن رئيس ديوان الحرب رأى أن يعمل بتوصية علي فؤاد ، فقال : يا باشا ارجوك فكر فى التاريخ . ولكن جمال باشا صاح فى وجهه قائلا : التأريخ ؟ فليتحطم على رأسك . . .

وبعد ذلك عاد شكرى بك الى عالية . وصدرت احكام الاعدام على عشرين شخصاً ، من ديوان الحرب ، وفقاً لاوامر الباشا » . انتهى . .



سامی العظم



عبد الغنی العریسیّ



محمود العجم



أمين لطفى الحافظ



محمود المحمصانى



نايف تللو



شکری عسلی



رشدی الشمعة

(الفصل التاسع)

المسألة الارمنية - مقدمة تاريخية

نفضل نحن رجال تركيا الفتاة بلاجدال - الارمن - وخصوصاً الثوار منهم على اليونانيين والبلغاريين ذلك لأنهم اصفى خلقا وأشد باساً واكثر صراحة من العنصرين الآخرين وهم فوق ذلك أوفياء في الصداقة والعداوة . وفي يقيننا ان سياسة روسيا هي وحدها المسؤلة عن وجود العداوة بين العنصرين التركي والارمني فقبل ستين عاماً أو بعبارة أخرى قبل الحرب الروسية التركية في سنة ١٨٧٧ ١٨٧٨ بعشر سنوات لم يسمع أحد مطلقا بوجود نزاع ديني بين هذين العنصرين اواي اختلافات ملية بين المسلمين والمسيحيين . ولقد عاش الارمن والاتراك فى الاناضول والروملي والاستانة بل فى طول الدولة التركية وعرضها متجاورين وساد بينهم الوفاق حتى ان تاريخ ذلك العهد خلا بتاتاً من ذكر شيء اسمه المسألة الارمنية . وكانت الصداقة بين الاتراك والأرمن فى الشؤن العائلية لاحد لها . فمن ذلك ان التركي كان اذا غادر قريته في آسيا الصغرى لشؤون خاصة اومصلحة شخصية عهدالى جيرانه الارمن برعاية اسرته ومباشرة شؤونه والعناية بحقوقه فقاموا بذلك خير قيام ولذلك كان الارمن يبدون من جهتهم نفس هذه الثقة في جيرانهم الاتراك .

ولم يكن فى الاناضول ولا فى الروملي ولا فى الاستانة ارمني واحد يتكلم بالارمنية لان اللغة التركية كانت تعلم فى المدارس بالحروف الارمنية وفى الكنائس نفسها كان القداس يقام باللغة التركية . وكانت المناصب الحكومية

مفتوحة للارمن وكنا نعتبرهم اكثر الرعايا العثمانيين ولاء واشدهم اخلاصاً .

فلما افل نجم بكوات كردستان على ايدى الاتراك لم ينشيء الارمن الذين كانوا تحت سيادتهم ولاية مستقلة لأنفسهم . والحق انهم ذاقوا الامرين تحت الحكم الكردي . فليقول السفير مورجنتا وكما يشأ وليجهد نفسه ما اراد - كما يفعل الآن لاخفاء الوقائع التاريخية . ولكن الحق الذي لاجدال فيه هو انه كما كان العدل وعدم التعصب سر تكوين الدولة العثمانية واتساع اطرافها في زمن وجيز كذلك كانت المروءة والصداقة التي ابدتها تركيا حيال الارمن السبب فى اكتساب ثنائهم وعرفانهم للجميل . فكانت نتيجة ذلك كله ان الشعبين لبثا خمسة قرون دون ان يثور بينهما نزاع ما كما ان كل ارمني جعل اللغة التركية لغته واتبع التقاليد والعادات القومية التركية . وعندما سمح السلطان الفاتح محمد خان للبطريركية الارثوذكسية بالبقاء فى الاستانة بعد سقوطها في ايدي العثمانيين ومنح اليونانيين (لا بتأثير ضغط خارجي بل بدافع المروءة وعلو الهمة والكرم المحض) عدة من الحقوق تسمى (الامتيازات الدينية) أنشا ايضاً بطريركية ارمنية فى عاصمة مملكته ليؤكد ضمان حقوق الامة الارمنية - التي كانت تعتبر اقلية - بين مسلمي الاناضول - بل منح الارمن مثل الحقوق والامتيازات التي خولها لليونانيين .

ويعتمد ماندلستام في الصفحة الـ ١٩٠ من كتابه على ملاحظات احد المؤرخين الذي بلغت به الوقاحة الحد انه عزا كرم اخلاق الاتراك ونخوتهم برغم الحقائق التاريخية التي لا جدال فيها الى ازدرائهم بكل ما هو مسيحي لأنهم كانوا يعتبرونه رجساً !

فى عام ١٤٦٢ ميلادية اى في الوقت الذي لم تكن تكونت في اى جهة

من جهات أوروبا فكرة (حقوق الاقليات) سمح احد السلاطين المسلمين وهو في اوج عزه ببقاء البطريركية اليونانيه في الاستانة ثم منح اليونانيين (كامتيازات دينية) سلسلة من الحقوق الشخصية تتعلق بالزواج والوراثة والتعليم ! بل انه انشأ في عاصمة ملكه بطريركية اخرى لامة اخرى كانت ترسف في الاصفاد والاغلال في أبان الحكم الكردي ومنحها مثل تلك الحقوق والامتيازات ! وبالرغم من كل ذلك لا يستحي اناس امثال ماندلستام من ان يعزو ذلك السخاء والتسامح الى شعور الازدراء والاحتقار لكل ما هو مسيحي فيالله من هذا التعصب والظلم !

ألم تكن تلك الحقوق التي منحها سلطان تركي ذو شوكة وصولة وكلمة نافذة في القرن الخامس عشر من المثل الاعلى لتطبيق مبادئ (حقوق الاقليات) التي سعى الرئيس ولسون طويلا للحصول على اعتراف العالم المتمدين بها - ؟

وهل اصبحت تلك المبادىء معترفاً بها في معاهدة سان جرمان (التي ترفض حكومتا رومانيا ويوغوسلافيا قبولها) الى الحد الذي تنطوي عليه تلك الحقوق التي منحها الفاتح الاسلامي للمسيحية ؟

ان الارمن ليدركون انهم مدينون لهذه الامتيازات وحدها في بقاء ملتهم وقوميتهم . فقد امكنهم بدلا من الحيف والذل الذي ذاقوه من أيدي الاكراد ان يعيشوا على اتم صفاء مع الاتراك وخصوصاً مع الحكومة التركية فلماذا يستشهد ماندلستام الذي يستقي معلوماته مما كتبه زارسكي وآخرون بالآلام والكوارث التي كان الارمن عرضة لها قبل القرن التاسع عشر على عهد الاضطهاد الاقطاعي في زمن بكوات الاكراد ؟ ولماذا لا يتذكر بؤس الامة الفرنسية في عهد الاضطهاد الاقطاعي قبل نشوب الثورة الفرنسية ؟ وقد لا يكون

من اللازم ان يذهب الالمان الى ذلك العهد البعيد . فهل كانت حالة فلاحي روسيا اكثر رخاء من حالة الارمن في تركيا .

ان ماندلستام لا يتردد في الاعتراف بأنه من اشد انصار الثورة الروسية تحمساً . فهل غاب عنه اننا انفسنا نعرف الشيء الكثير عن الكتاب الثورية الروسية وعن جور اصحاب الاموال الروس على فلاحيهم الى عهد قريب ؟ فاذا بلغت به الوقاحة الى حد الادعاء بأن تلك الكتابات كانت مبالغاً فيها ففي وسعنا ان نثبت له بلا تردد بانه انما يتكلم عن الهوى .

واني اكرر من جديد بأن الاتراك والأرمن عاشوا جميعاً الى ما بعد حرب القرم في سنة ١٨٥٦ متجاورين معاً على اتم صفاء ولم يعرف عن الاتراك انهم ارتكبوا امراً مخلا ضد جيرانهم الارمن . فلما نظر الروس الى المملكة العثمانية بعين الجشع أخذوا يحسبون ان من حسن السياسة ان يجعلوا العناصر المسيحية في الروملي آلات صماء لقضاء وطرهم .

واني احسب ان الانسان ليعجب اذ يرى ماندلستام بعد ان قال في صفحة ٣٠٠ من كتابه ان الحكومة الثورية الروسية تؤيد كل التأييد جميع الاجراءات التى اتخذتها روسيا القيصرية لمساعدة الامم المسيحية ضد التعسف التركي) يقول : - (ان الفلاح الروسي الذي هو نفسه ضحية اكبر جور طالما ذهب الى ميدان القتال لانقاذ اليونانيين والبلغاريين والصربيين) ! ولم يكن ذلك كله الا نتيجة تلك السياسة المشهورة التي اثارت ثائرة الخوف والكراهة في سائر جهات المعمورة وهي السياسة التى نرجو من صميم افئدتنا لخير الانسانية ان يختفي شبحها وشبح القيصرية الى الابد .

وينبغي أن نعترف قطعاً بأن النزعات الوطنية التى أخذت تتطور وتنتشر

حوالى منتصف القرن التاسع عشر كانت سبباً مباشراً في ان الشبان الارمن النازحين الى اوروبا وامريكا طلباً للعلم او الرزق اشربت نفوسهم تلك الحالة العقلية فجعلت الكثيرين منهم يسعى لتصبح امته فى حال اكثر رخاء واكثر استقلالا في نشاطها السياسي . فان ذلك التطور جعل لفت نظر الساسة الروس وجعلهم ينظرون اليه كأنه هبة من الهبات الآلهية ومن ذلك الحين لم يدعوا وسيلة من الوسائل لتحريض الارمن على حكومتهم .

وما بزغ فجر القرن التاسع عشر حتى شرع السلطان محمود الثاني فى اتخاذ اجراءات شديدة لاعادة النظام في مملكته حتى يقضى على الفوضي الادارية والعسكرية التي ضربت اطنابها على اثر الاحكام السيئة التى حلت فى مائتى العام السالفتين . فألغى الانكشارية وضيق سلطة بكوات الاناضول والروملي حتى امحى اثرها كما انه حدد سلطة بكوات كردستان .

ولكن بينما كان ذلك السلطان المنكود الحظ مجداً فى اعادة النظام الى بلاده اذ رأى نفسه وجها لوجه تجاه مصاعب لاعدلها : رأى اليونانيين قد اصبحوا طوع دسائس (الانتيكى هيتريا) وهى جماعة قامت بمساعدة الذهب الروسي فعاني السلطان المتاعب الكثيرة في سبيل ارضائهم . ورأى نفسه من جهة اخرى بعد ان هاجمه الروس والفرنسيون والانجليز واغرقوا اسطوله في مضطراً الى الأعتراف باستقلال اليونان . رأى كذلك محمد على باشا حاكم مصر العام قد ثار ضده بايعاز الفرنسيين . اذ كان يحدث نفسه بالعرش التركي وقد نجح فعلا بالاستيلاء على قسم كبير من البلاد لغاية كوتاهية . !

فمن الذي يستطيع اذن ان يوجه قوارص اللوم الى حكومة كانت هذه متاعبها في الداخل وفى الخارج او أن يتهمها بالتراخ والتقصير فى اتخاذ الوسائل

اللازمة لصيانة مصالح رعاياها كافة فضلا عن الارمن ؟

ولكن حكومة السلطان عبد المجيد منحت الأرمن رغم ذلك امتيازات واسعة حتى ان ماندلستام نفسه لم يسعه الا الاعتراف بتلك الحقيقة واطرائها فقد قال في الصحيفة ٩٠ من كتابه ما نصه : ـ « ان الارمن حصلوا في عام ١٨٦٣ على دستور تام يخولهم حق انتخاب مجلس اعلى يكون مقره في الاستانة مؤلف من ٤٠٠ عضو ينتخب الاهالي ١٢٠ منهم » .

فهل من المستطاع ان يخطر للرئيس ولسن علاجاً انجع من هذه لحفظ حقوق الاقليات ؟ فالحكومة العثمانية بدون اي ضغط من الخارج منحت الارمن ذلك الدستور لأن الولاء الذي اظهروه في الماضي اكسبهم عطف الحكومة الى حد انها لم تتردد لحظة واحدة في منح الدستور (للامة الارمنية المخلصة) . وكان من المنتظر ان يكون عملها ذلك فاتحة عهد سعيد جديد . ولكن روسيا اتخذت ذلك الدستور ذريعة للتدخل في الشؤون الارمنية .

وكان بعض عصاة الارمن قدموا مساعدتهم للروس في ابان الحرب الروسية التركية في عام ١٨٥٦ مما ترتب عليه احتفاظ الروس فيما بعد بعلاقاتهم مع ارمينيا وعدم اهمالهم انتهاز فرصة ما في تشجيع الثوار الارمن. فأخذت النتيجة تظهر بسرعة مدهشة حتى انه لم يمض على منح الدستور اكثر من أربع سنين حتى نشبت الثورة الارمنية الاولى في الزيتون في عام ١٨٦٧ ولقد كان بالطبع لهذه الثورة المسلحة الارمنية الأولى أسوء وقع في نفس الحكومة العثمانيـة . ومما زاد الطين بلة وضع ارمن الروس والاناضول المصاعب في سبيل الجيوش التركية خلال الحرب الروسية التركية في عام ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ ـ .

ويعتبر نرسيس افندي بطريرك الأرمن الذي ذهب في ذلك الحين الى

سان اسطفانو للحصول على مساعدة القيصر لقضية الاستقلال الارمني اكبر مسؤول عن فقدان الثقة التي كانت موضوعة في الارمن منهم وضياع اللقب الذي لقبهم به الاتراك وهو (الامة الصادقة) .

وادرك ساسة الروس ادراكا تاماً ان كل أمل في التدخل في شؤون تركيا الداخلية قد انقضى بعد اعلان استقلال بلغاريا . ولكن حكومة روسيا الامبراطورية رغبة منها في الاحتفاظ بذلك الحق وضعت في معاهدة سان اسطفانو مادة خاصة لمصلحة الارمن وسجلتها بشكل آخر في معاهدة برلين .

ومن ثم توترت العلاقات بين الارمن والاتراك والاكراد . ثم انشأت اللجنة الثورية الارمنية فروعاً سرية منظمة لها في كافة مدن المملكة العثمانية بل في جميع القرى الصغيرة . فظلت هذه الفروع السرية تعمل بلا ملل ولا انقطاع لاثارة الارمن ضد الاتراك والاكراد وجعلت تطالب بانشاء وطن ارمني ممتاز مكون من ست ولايات من ولايات الاناضول الشرقية . وكانت الحكومة والاهالي الاتراك والاكراد على علم تام بتلك الدسائس .

واذ كان الارمن مصرين على انشاء دولة مستقلة يملون فيها اراداتهم على الاتراك والاكراد الذين فاقوهم عداً كان من الامور الطبيعية أن يبذل هؤلاء كل ما في استطاعتهم لاحباط ذلك المشروع . اى ان الاكراد والاتراك ايقنوا ان هذه الخطة بحذافيرها ليست الاذريعة من جهة روسيا لالتهام شطر كبير من الاناضول آهل بالغالبية الكردية التركية . لذلك جعلوا ينظرون الى ارمينيا كأنها الافعى وقد سلطتها روسيا عليهم . وفي كانون الثاني سنة ١٨٨٠ قدمت الدول الاوروبية الى الباب العالي بناء على ضغط روسيا المتوالي وعلى اثر ثورات ارمنية عديدة مذكرة خاصة بالاصلاحات الارمنية . واتفق ان

البلغاريين كانوا في ذلك الوقت مجدين فى ضم الروملي الشرقي . وكانت روسيا كلما حاولت الحكومة تسوية احدى المشاكل المهمة سواء كانت داخلية أم خارجية تضرب على نغمة المسألة الارمنية . فاضطر السلطان عبد الحميد الثاني الى تسوية النزاع بالتسليم ببعض الامور .

ثم بلغت المشكلة الارمنية أشدها فيما بين سنتي ١٨٩٤ و ١٨٩٦ - اذ ظهرت القلاقل والاضطرابات فى كل جهات مما أدى الى زيادة الاحقاد بين العناصر الثلاثة التي عاشت فى صفاء تام جنباً الى جنب ستة قرون الى حد انها كانت تصبح وتمسى وهي متحفزة لانقضاض بعضها على بعض وتلطيخ ارض الاناضول بل والاستانة بدمائها .

ولا يمكن لماندلستام وامثاله الذين يبغضون الاتراك ان ينكروا ان الاتراك في خلال ذلك الوقت العصيب لم يشعروا باى حقد على الارمن حتى ان كثيراً منهم جعل ينافس بعضهم بعضاً في حمايتهم . وفي الاستانة نفسها اظهر كثير من الاسر التركية صداقة كبرى ازاء جيرانهم الارمن بايوائهم في منازلهم لانقاذهم من مخالب الموت . بل ان عداً ليس بالقليل من وجهاء الدولة ابدوا امتعاضاً شديداً للمذابح الارمنية فى الاستانة التي أقدم عليها الحمالون في الكمرك ولم يدخروا وسعاً فى سبيل وقفها وصدها .

وان العالم بأسره ليعلم جيداً الاجراءات الشديدة التي اتخذها المشير فؤاد باشا لحماية الارمن في حى قاضي كوى حتى ان ماندلستام نفسه قرر بأن فؤاد باشا لم ينج بغضب رؤسائه فيما بعد الا بسبب صداقته للارمن ! ولكن لا يوجد فى الاستانة شخص واحد الا وهو يعرف ان هذه الدعوى محض افتراء

وفي خلال هذه السنوات الثلاث التي جرت فيها المذابح قتل الارمن

عدداً غير قليل من الاكراد والاتراك واصبح الفريقان يتسابقان الى ابتكار أشد الوسائل للتعذيب والانتقام . ولم تتم الغلبة للاتراك الا لقلة عدد الارمن ولو كانت لهؤلاء الغالبية العددية لأربأ عدد القتلى الاتراك والاكراد على قتلى الارمن . وأوضح دليل على ذلك عدد الاتراك الذين ذبحهم اليونانيون فى شبه جزيرة المورة . ولما لم تكن المذابح واقعة الا فى اولئك التعساء المنكودى الحظ اعني المسلمين من الاتراك وغيرهم لم يقم شاعر كلورد بيرون او شاتو بريان ينوح ويندب مصرعهم ! ثم انقضت تلك الحوادث الدامية دون ان تترك وراءها سوى مجرد ذكرى في التاريخ العثماني . وقد استنكرت تلك الحوادث أيما استنكار واعتبرتها تتضارب وما كنت آراه من الآراء بخصوص الادارة السياسية . ذلك لأني استهجن فكرة استقدام الجماهير لقمع الحركات الثورية وتدبير المذابح . اذ مثل تلك الاعمال من شأنها ان تشوه سمعة الامة التي تلجأ اليها وتلطخ تاريخها .

ويشترك في هذا الرأي جميع الوطنيين الذين يلقبون بثوار (تركيا الفتاة) فانهم استنكروا حوادث ١٨٩٤ ـ ١٨٩٦ ـ التي وقعت في ارمينيا واعتبروها غلطة سياسية خطيرة ارتكبها عبد الحميد الثاني على أمل اطالة مدة حكمه الاستبدادي بهذه الطريقة القاسية . وهذا هو الذي حدا بأحمد رضا بك واخوانه الذين كانوا مشردين فى اوروبا وقتئذ الى مد ثوار الارمن بمساعدتهم الفعلية . اما الثوار الآخرون ـ مثلى ـ الذين كانوا موجودين فى تركيا فكان هذا رأيهم ايضاً . فانهم لم يترددوا فى ابداء سخطهم على عبد الحميد للضرر البليغ الذي لحق القضية التركية وخصوصاً العثمانية من جراء تلك المذابح .

ثم اخذت الحالة في شكلها الحقيقي تبدو لبعض النابهين من الثوار الارمن

فانهم راوا أرمن القوقاز يسامون الخسف فى نفس الوقت الذي لم تدخر فيه روسيا وسعاً للحصول على استقلال الارمن المقيمين فى تركيا ! وفي مقابل التعهد بعدم انشاء خطوط حديدية فى شرقى الأناضول وعد القيصر السلطان عبد الحميد فعلا بمنع الارمن الذين فروا الى القوقاز بعد ثورة ١٨٩٦ من العودة الى تركيا ! ! .

وليس أدل من ذلك على نيات روسيا حيال تركيا فيما لاجدال فيه ان التعليم والرخاء المادى هما الركنان الاساسيان لسعادة الامم . ولا يقوم الرخاء الاعلى المواصلات كالسكك الحديدية والطرق . فالروس كانوا يطالبون بادخال الاصلاحات لسعادة وصيانة الولايات الآهلة بالارمن وفي الوقت نفسه كانوا يلحون علينا بعدم انشاء السكك الحديدية التي بها تحقق المطالب التي طلبوها منا !

فماذا كان رد ماندلستام على مسلك روسيا هذا ؟ ان كل رده لم يتجاوز الطعن المنصب على الكاتب الاوروبي الذي لفت انظار المنصفين الى خطة روسيا وما قال أحدان الشتائم تقوم مقام البراهين وانما يلجأ اليها السفهاء اذا اعوزتهم الادلة . فالالعوبة المزدوجة التي كان الساسة الروس يلعبونها حدت بعقلاء الارمن الى اعمال الروية . فلم يجدوا مندوحة من سؤال انفسهم السؤال الآتي (لو حصلت ارمينيا على استقلالها الذاتي الاتقع كالسائمة تحت نير روسيا الذي هو اسوأ من الحكم التركي أضعافاً مضاعفة) ومن ثم بذلت الجمعيات الثورية التركية اقصى جهدها في حمل (جمعية الدشنقزيتين) وهى اكثر الجمعيات الارمنية اعتدالا واحسنها نظاماً على الاعتراف بالاصلاحات اللازمة لجميع الجنسيات فى المملكة العثمانية وهي الاصلاحات التي كانت سائر الجمعيات تعمل للحصول عليها.

ولا يجرأ ماندلستام أن يقول : ـ اني اختلقت تلك العبارات فان

(جمعية الدشنقزيتين) اشتركت فى في المؤتمر العام الذي عقده حزب الاتحاد والترقى فى باريس سنة ١٩٠٧ ونشرت برنامجها فظهر انه مشابه للاصلاحات التي كنا ننشدها . ووعدت الجمعية ان تعمل بجد واجتهاد مع جمعية الاتحاد والترقى . وكثيراً ما حادثني مالوميان افندي (مجنوني) أحد زعماء جمعية الدشنقزيتين فى الاستانة فى عام ١٩٠٨ عن الخطر الرومي المحلق فوق رؤوس الارمن .

ولكن وجد بين الجمعيات الثورية الارمنية جماعة يسمون (بالخنجاكيين) و (الخنجاكيين المصلحين) واغلب زعمائهم اجراء لروسيا - رفضوا كل تفاهم مع الجمعيات التركية وراحوا يسعون لانشاء دولة ارمنية تحت حماية روسيا

والى ممثلى تلك الجماعات الروسية وللنقود التي بذرها شمالا ويميناً قناصل روسيا الذين كان لهم ضلع كبير فى التشكيلات الثورية يرجع السبب فى ان الحزب الديني نفسه شرع يقول: ان حماية القيصر الرومي خير من حماية الخليفة الاسلامي

تلك كانت حالة الثوار الارمن والاتراك عندما نشبت ثورة عام ١٩٠٨ وقد اعتمدت جمعية الاتحاد والترقي السرية المكونة في سلانيك كبرنامج لسياستها الداخلية الدستور الذي وضعه (مدحت باشا) على أساس الاعتراف بالتبعية العثمانية وجعل الادارة لامركزية فى الوقت نفسه . ولكن الجمعيات المقدونية البلغارية من جهة أخرى كانت ميالة الى اللامركزية السياسية بدون التقيد بالتبعية العثمانية . وحذت حذوها الجمعيات المقدونية اليونانية تحت زعامة (الاتينكي هيتريا) وجمعية الحرب الوطنية المقدونية والجمعيات الثورية الالبانية والارمنية والعربية (فالادارة اللامركزية) كان المراد بها الاستقلال الذاتي الادارى في داخل المملكة العثمانية لسائر الجهات الآهلة بالجنسيات الوطنية المختلفة . فلو ان جمعية الاتحاد والترقي كان رأيها كرأي اعدائنا في الخارج وجل غاية هؤلاء تمزيق

المملكة العثمانية حتى انهم لم يقفوا عند حد في سبيل دس الدسائس لما احجمت لحظة واحدة عن قبول مبدأ (الاستقلال السياسي أو القضائي) الذي يعتبر الأمير صباح الدين من اكبر انصاره . ولكن فرنسا كانت تمني نفسها بسورية وانجلترا تؤمل فى الاستيلاء على العراق وشبه جزيرة العرب بأسرها وروسيا تتحين الفرص المناسبة لازدراد ولايات الاناضول الشرقية والبلغاريون والصربيون يطمحون الى تقسيم مقدونيا والنمساويون والايطاليون يرغبون فى تجزئة البانيا واليونانيون يحلمون بادماج جزر الارخبيل فى مملكتهم - فهل كان يصعب على تلك الامم لو ان تلك الجهات كلها اعطيت (اللامركزية السياسية) ابتلاعها الواحدة بعد الاخرى ؟ هل كان مبدأ اللامركزية عندنا يقوى على صدمات الحوادث اكثر من اللامركزية فى النمسا ؟ فهل فقدت عناصر التشيكوسلوفاك او الكروات او السلافيين الأمل فى الانسلاخ بتاتا من النمسا ؟ هل كان سلطان حكومتنا المركزية ونفوذها يكونان اشد فعلا واعظم اثراً من سلطان الحكومة النمساوية ونفوذها في حماية الولايات المستقلة ضد اعداء اكثر عدداً واشد جشعاً ؟ ليس ثمة جهة تمتعت بقسط كبير من الاستقلال الاداري كما تمتعت به جزيرة كريد ومع ذلك هل نجحنا في حمل الكريديين على العدول عن السعي للانضمام الى اليونان ؟ لقد كان لجزيرة قبرص مركز خاص قبل الاحتلال الانجليزي ومع ذلك ألم نسمع الحكاية نفسها طاماً بعد عام ونرى تلك الرغبة القديمة رغبة الانضمام الى اليونان .

وهل استطعنا أن نمنع البلغار من الاستيلاء على الروملى الشرقى مع انه كان متمتعاً بنصيب كبير من الاستقلال الذاتي الادارى ؟ وهل لقيت انجلترا اى صعوبة في احتلال مصر التي كانت في طليعة ولاياتنا الممتازة ؟ هل احجم

الانجليز عن وضع ايديهم على الكويت - التابعة للخلافة العثمانية منذ قرون عديدة - بعد ان اعلنوا ان الشيخ مبارك الصباح قبل الحماية الانجليزية ؟ ام هل وجدت انجلترا اى صعوبة فى اعتبار العراق واقعة في دائرة نفوذها بدعوى ان الاهالى المحليين متطلعون الى الحماية الانجليزية ؟ أفلا يمكن ان يقال اذن نفس هذا القول من فرنسا حيال سوريا ؟ وهل نستطيع ان ننظر الى مقدونيا والبانيا بغير العين التي نظرنا بها الى الروملي الشرقى اوالى البوسنه والهرسك

ولا اظن ان المتشبعين الفكرة (اللامركزية السياسية يستطيعون ان يجيبوا اجابة منطقية مرضية على كل هذه المسائل . واني لاؤكد لهؤلاء الذين يتهموننا بتهمة العمل على اتباع (سياسة تركية محضة) بأن سياستنا لم تكن تركية بل (سياسة الاتحاد العثماني) . ولو كانت اللامركزية مبدأنا لاتبعت جمعية الاتحاد والترقى السياسة (التركية) ذلك لأننا كنا نطالب وقتئذ بنفس الاستقلال الذاتي المحلى لسائر الولايات التي يتغلب فيهــا العنصر التركي اسوة بالولايات الأخرى . اذن فالذين يسمون انفسهم (اتراك) فقط ليسوا في الواقع الا من انصار (اللامركزية) لانهم فى الحقيقة انما يؤيدون السياسة التركية المحضة . ومن جهة اخرى نحن الالى كانت سياستهم ترمي الى الاتحاد العثماني قد كان مبدؤنا الاساسي بقاء سلطة الحكومة المركزية على الولايات على ما كانت عليه دون نقص ما مع منح الادارة المحلية في الوقت نفسه اوسع سلطة ممكنة وذلك طبعاً مع عدم المساس مطلقا بوحدة الجيش .

وقد ادركت تركيا الفتاة ان الاتراك وحدهم - دون الجنسيات العثمانية المختلفة التى كانت تجاهد لترقية شؤونها - كانوا فى عزلة تامة وبلا زعماء مطلقا فبدأوا بدورهم - واسوة بالعناصر الاخرى - بالعمل للبعث القومي الكبير

نخطوا خطوات واسعات فى سبيل نشر التعليم والتربية والاخلاق . وبالطبع ما كان لجمعية الاتحاد والترقي ان تقيم العقبات فى طريقهم ولا اظن ان انصار اللامركزية كانوا يرغبون من جهتهم فى مقاومة مجهودات الاتراك .

فهل يمكن اذن الادعاء بأن (تتريك) الامم المختلفة كان المقصود من الطلب القاضي بجعل اللغة التركية اللغة الرسمية في المملكة العثمانية ؟ وهل كنا عاملين على (تتريك) الامم الاخرى عندما قلنا انه ينبغي تحسين ادارة التعليم العام فى جميع انحاء المملكة ووضعه تحت اشراف الحكومة .

لقد تأسست فى الاستانة عقب اعلان الدستور عدة جمعيات وطنية مثل (اتحاد العرب) و (جمعية المساعدة) (المتبادلة الشركسية) و (النـــادي الكردي) و (النادي الالباني) وغيراولئك فلماذا يقال : ـ ان انشاء (وطن عثماني) معناه ان حكومة الاتحاد كانت لها مآرب فى (تتريك) الامم الاخرى مثلا ـ اذا تكلمت عن نفسي شخصياً قلت انني عثماني اولا ولكن ذلك لا ينسيني انني تركي ولا يمكن لشيء مطلقا أن يزعزع اعتقادي ان الشعب التركي هو العمود الفقري للمملكة العثمانية . فان العامل الاخلاقي والتمديني التركي هو الذي يوثق وحدة المملكة ويقويها . هذا لأن الآمبراطورية لم تكن بادىء عهدها الامن صنع الاتراك .

وان أردت برهانا على ذلك فانظر الى الحالة المحزنة التى نرى أنفسنا فيها الآن . انظر الى العرب الذين ثاروا ضدنا املا في الحصول على استقلالهم فأين هم اليوم ؟ وقد أشرت الى هذه المسألة من قبل .

الم تقع مصر تحت السيطرة الانجليزية على اثر خروجها عن الاتحاد العثماني ؟ اولم تروا مصر الفتاة كلما جأرت بالاحتجاج على تلك السيطرة هوت

عليها يدانجلترا الحديدية ؟ وليست منطقة الساحل السورية او اللبنانية بكافية لسد جشع فرنسا لانها ترغب في احتلال المنطقة الداخلية أيضاً .

فهل يجترى احد فى تلك البلاد أن يفوه بكلمة العثمانية ؟ كلا ! بل الامر بالعكس انك لتسمع دائماً عبارة (لقد تخلصنا بحمد الله من النير التركي) ! تجرى على السنة لفيف من الخونة يعيشون من فضلات الحكومه . ولكن الصوت الذي انبعث أخيراً من انحاء الاناضول - تلك البلاد التى يقدسها الاتراك ويعبدونها - ليصيح بان (الامبراطورية العثمانية) ما زالت على قيد الحياة وان ابناءها الامجاد المقيمين في تراقية الغربية - ذلك الركن التركي الصغير - لم يسأموا الجهاد فى سبيل العودة الى حضيرة الوطن . وبالجملة كل الاتراك - اينما كانوا - يكافحون ويناضلون لاثبات قوميتهم ويجدون ملاذاً فى الاسم العثماني الجليل . واننا نناشدكل راغب فى الاحتفاظ بالوحدة العثمانية أن يعرف الواجب المفروض عليه اداؤه وهومعاضدة الاتراك ومؤازرتهم وتنمية عددهم واعطاؤهم مكانهم الخليق بهم تحت الشمس .

وارجوا لا يعتبر ذلك الخروج البسيط عن الموضوع لغواً وحشواً لانني انما اردت به نشرارائى الخاصة .

فعملا بالدستور اعربت جمعية الاتحاد والترقي المركزية عن رغبتها في ادماج كل الجمعيات السياسية الثورية المختلفة في الامبراطورية فى جمعية واحدة يطلق عليها اسم (جمعية الاتحاد العثماني السياسية) ولادراك تلك الغاية وجهنا اولا اهتمامنا الى الجمعيات الثورية البلغارية ففتحنا باب المفاوضات مع ساندنسكي وشبرنو مكسيف واخوانهما واردنا ان يكون الاعتراف بالتبعية العثمانية قاعدة للمفاوضات فرفض الفريق الآخر بتاتاً التحول عن خطتهم وطلبوا استقلال

مقدونيا الذاتي ولا يعلم الا الله مقدار ما اعترضنا من المصاعب في تلك المؤتمرات التي اشتركت فيها انا وطلعت بك بصفتنا مندوبين . ولن أنسى ما حييت ذلك اليوم الا يوم الذي قضيته مع ساندنسكي في القرى البلغارية - منليك - تبرك - عثمانلي جمعه - البملا - وقت الانتخابات الاولى . ولكني بالرغم من ذلك امكننا التفاهم معهم اكثر من الجمعيات الثورية الاخرى لأن الجمعية البلغارية المقدونية رفضت بتاتاً العدول عن برنامجها .

واقترح يوناني حضر الى سلانيك المفاوضة باسم جمعية (الاثنيكي هيتريا) بضم جزيرتي كريدوساموس الى اليونان ومنح الجزر الاخرى استقلالا اداريا ذاتيا وما يسمى بمقدونيا اليونانية امتيازات واسعة . وتعويض تركيا عن ذلك بمحالفة تعقدها اليونان معها . فرفضنا تلك الاقتراحات طبعاً لاننا لم نطالب بعقد معاهدة تركية يونانية بل طلبنا انضمام يوناني تركيا الى جمعية الاتحاد والترقي لتحقيق فكرة الاتحاد العثماني .

وفي آب سنة ١٩٠٨ انتقلت جمعية الاتحاد والترقى المركزية موقتاً الى الاستانة حيث بدانا المفاوضات مع الامير صباح الدين والجمعية الارمنية على قاعدة المبادىء السابقة . وكنت انا وطلعت بك وبهاء الدين شاكر بك نمثل حزبنا وكان الدكتور رشاد نهاد نائباً عن الامير صباح الدين ومالوميان افندي وشاريكيان افندي نائبين عن الارمن . فبين لهم كل منا بدوره مضار مبدأ اللامركزية على المملكة العثمانية . وكانت آراء الامير صباح الدين مشابهة لآراء (جمعية الاشنقزيتين) . وكادت اجوبة كل منها تكون متماثلة .

ومن المدهش ان الدكتور نهاد طلب الينا منح امتيازات أوسع مما طلبته الجمعية الثورية الارمنية وابى الاعتراف بمضار الامتيازات المنشودة . واخيراً

اقترح مالوميان افندي باسم جمعية الدشنقزيتيين الاقتراح التالي وهو : -

(أن تعمل جمعية الدشنقزيتيين يداً بيد مع جمعية الاتحـــاد والترقي للمحافظة على دستور الامبراطورية العثمانية . اما فيما عدا ذلك فان كلا من الجمعيتين تحتفظ بحريتها في العمل سواءاً أكان لتحقيق برنامجها الاساسي اوفى اختيار الوسائل . ومعنى ذلك ان تحتفظ جمعية الدشنقزيتيين بتشكيلاتها الثورية في تركيا مع هذا الفارق الوحيد وهو ان تلك التشكيلات التي كانت سرية الى الآن تصبح علنية كجمعية سياسية ويعمل اعضاؤها فى رابعة النهار جهراً)

ولم تكن لنا يومئذ مندوحة عن قبول ذلك الاقتراح . وبالاختصار لم تنجح بعد مساع مستمرة وتضحيات هائلة استغرقت ثلاثة اشهر أو اربعـــة فى ادماج الجمعيات الثورية للفرق الأخرى في جمعية الاتحاد والترقى لأن أماني الطرفين كانت متناقضة وغايتهما متباينة . فقدأرادت الجمعيات المذكورة أن تنشرن جهاراً نهاراً دعوتها الخبيثة لطلب الاستقلال الذاتي ثم الاستقلال الكلى وهي الدعوة التي كانت يدعى لها حتى الآن فى الخفاء وكانت عرضة لاكبر الاخطار . وقد كان الداعون اليها يملون أنفسهم بواسطتها بان سيصلوا الى تحقيق غاياتهم فى وقت اقرب . ولكننا أردنا من جهة أخرى ان تكسب جمعية الاتحاد والترقي نفوذ الجمعية المشتركة التي تمثل سائر الجمعيات الثورية للعناصر العثمانية محتذين حذو المملكة العثمانية التي لم تصر الى ماصارت اليه الا باشتراك اولئك العناصر المختلفة بالأتحاد العثماني ليصبح الدستور في مأمن من أى خطر .

فكما ان الجمهوريين في فرنسا يؤيدون اختلافاتهم الحزبية ويتحدون جميعاً حتى يكونوا صفا واحداً ضدالعدو متى رأوا الجمهورية مهددة بالخطر كذلك أرادت جمعية الاتحاد والترقي المؤلفة من جميع الجمعيات الثورية السابقة أن

تطلب الى جميع اعضائها القيام صفا واحداً ضد اي اعتداء ولوكان بسيطا على الدستور . وكما ان الجمهوريين في فرنسا يتألفون من رجال اختلفت آراؤهم ومذاهبهم السياسية ومن بينهم اشياع الاحزاب المتباينة أرادت جمعية الاتحاد والترقي ان تكون مكونة من مختلفي الآراء السياسية بحيث تمثل فيها الاحزاب بأسرها دون ان يكون في ذلك ضرر ما على نزعات اعضائها القومية اوالدينية.

ولم يكن بين الاحزاب السياسية المختلفة التي كانت أمانيها وطنية محضة حزب واحد قد قبل هذا البرنامج الاعلى لأن تلك الاحزاب كانت في الواقع تتلقى التعليمات والوحي من الخارج ولم يكن الاشخاص الذين فاوضونا الامجرد صور . وبهذه الطريقة ظلت جمعية الدشنقزيتيين التي كانت اكثر الجمعيات ميلا الينا وكانت تخشى فعلا سقوط أرمينيا فى ايدي روسيا محتفظة بتشكيلاتها واعلنت نيتها فى مواصلة الجهاد لتحقيق أمانيها السياسية . اما جماعة حنجا كي الارمن والحنجا كيين المصلحين فقد رفضوا بتاتا مفاوضتنا أومفاوضة زعمائهم فى الاستانة وفضلوا أن تكون علاقاتهم بالسفارة الروسية بصورة علنية .

وفي عام ١٩٠٩ قررت وزارة حسين حلمى باشا بايعاز جمعية الاتحاد والترقي ارسال لجنة تحقيق الى الولايات الشرقية لتسوية الخلافات الزراعية التي شجرت في تلك الولايات بين الارمن والاتراك والا كراد . وعين غالب بك العضو بمجلس الاعيان وبالمحكمة الادارية العليا رئيسا لتلك اللجنة التي تكونت منه ومن عضوين تركيين وآخرين ارمنيين . وكان الصاغ زكى بك التابع لهيئة أركان الحرب احد العضوين التركيين وكانت صلاته بجمعية الدشنقزيتيين حسنة اثناء اقامته فى اوروبا . وكنت انا العضو الثاني . وطلب زعماء الدشنقزيتيين مرة اخرى ان اكون احداعضاء تلك اللجنة ذلك لأنهم عرفوا من المفاوضات

السابقة أن آرائي كانت معتدلة لا تحيز فيها ووقر في نفوسهم ان قراراتي ستكون بالنسبة لكوني عضواً في الجمعية المركزية بمنجاة من اعتقادات الجمعية .

فارتحت لاقتراحهم ذلك وغادرت سلانيك قاصداً الاستانة . ومع ذلك قد قوبل اقتراح الحكومة بالمعارضة العنيفة في مجلس المبعوثين من مندوبي الولايات الشرقية الذين حاجوا بأن ارسال لجنة تحقيق كهذه هو بمثابة اعتداء على سلطة الحاكم العام الدستورية .

واذ اظهر فريد باشا وزير الداخلية وقتئذ ضعفاً متناهياً في المجلس في الدفاع عن خطة الحكومة فقد لبثت اقتل الوقت في الاستانة الى أن وقعت حوادث ١٣ نيسان سنه ١٩٠٩ المشهورة . فبعد هذه الحوادث طرح الاقتراح في زوايا النسيان نهائياً وفي نهاية مايس سنة ١٩٠٩ عينت حاكما لاسكدار .

حادث أطنة وما بعده

في نفس الوقت الذي نشبت فيه ثورة ١٣ نيسان بقصد القضاء على زعماء جمعية الاتحاد والترقي واشياعهم كانت اطنة تعج بمذبحة تركية ارمنية مروعة

واذ عينت حاكما لاطنة حوالي منتصف آب سنة ١٩٠٩ أي بعد ذلك الحادث بأربعة أشهر استطيع ان اقول : انني اقدر انسان على تحري الاسباب السيكولوجية التي أدت الى تلك المذبحة التي تعتبر من أسوء الفجائع في تاريخ الدستور العثماني .

فان الأهالي الملكيين في كل ارجاء المملكة اصبحوا بعد اعلان الدستور من العناد والتمرد بحيث صار من المتعذر على كل انسان عظيما كان أو حقيراً حتى الحاكم العام نفسه ان يكبحوا جماحهم : فان لفظة (حرية) اولها الجمهور

والصحف على غير وجهها وحسب كل انسان انه صار في حل من ارتكاب ما يشاء اينما يشاء بلا حساب ولا عقاب . واذ ذاك أصبح كثير من الولاة وعدد من رجال الشرطة والموظفين القضائيين الذين ساموا الاهالي الخسف والارهاق خلال الحكم الحميدي عرضة للاعتداءآت الشنيعة غير القانونية . وكم طاف الشوارع والطرقات رجال لم يسمعوا من قبل اعلان الدستور حتى باسم جمعية الاتحاد والترقي مدعين انهم (ابطال الحرية) وذهبوا الى أبعد مدى حتى انهم منعوا موظفي الحكومه من القيام بما يجب عليهم . وان مذكراتي عندما كنت عضواً في الجمعية المركزية عن الايام الاولى التي اعقبت اعلان الدستور لمشحونة بأمثال تلك الحوادث .

ولم تتراخ الجمعية في بذل كل ما في وسعها لوقف تلك الاعتداءآت وحماية كل انسان مذنباً كان او بريئاً من المهاجمات غير القانونية . ولكيما تسير الجمعية الجمهور على السنن الاصلي في منهاجها عهدت الى بعض المبعوثين المخصوصين بالسفر لتكوين فروع في الجهات التي لم تكن انشئت فيها بعد فروع لها . الا انه لم يحسن ويا لسوء الحظ اختيار اولئك المبعوثين . فان بعضهم القي بنفسه في تيار الفوضى الذي جرف الاهالي ونسي الغرض الاصلي الذي يرمي اليه قانونها وهو الاحتفاظ بسمعه الحكومة ونفوذها في الارياف .

وعقب ذلك ظهور لفيف من الساسة سموا انفسهم بمعارضي (جمعيـــة الاتحاد والترقي) . فاتخذوا من التأويل الغريب الضار الذي اولت به لفظـة (الحرية) في الصحف سلاحاً لمهاجمة الجمعية وايقاع البلاد في الفوضي التامة ولما كانت الحكومة مجردة من كل نفوذ وسلطة في عاصمة المملكة نفسها كان من السهل تقدير الحال في الارياف . فان الاشخاص الذين اخفقوا في الحصول

على مراكز مهمة فى الجمعيات المحلية التى انشأتها جمعية الاتحاد والترقي انشأوا فروعا للجمعيات السياسية المختلفة التى تكونت تدريجاً في الاستانة واخذوا يثارون لانفسهم بتلك الطريقة .

وبينما المسلمون والاتراك منشقين على انفسهم اذا بالطوائف المسيحية تعمل بلا انقطاع بواسطة جمعياتها لتحقيق مناهجها .

وانك لترى فى ولاية اطنة الاغلبية للاتراك . ويليهم الارمن ثم العرب (ويعرفون باسم العرب العشاقي) ثم اليونانيون . ويبلغ عدد سكان الولاية ٥٥٠ الف منهم ١٠٠٠٠ ارمني و٢٠٠٠٠ ـ ٢٥٠٠٠ عربي عشاقي و١٠٠٠٠ ١٥٠٠٠ يوناني والباقي اتراك . وقد لبث اولئك الاقوام الذين تنحصر اعمالهم فى الزراعة عدة قرون فى سلام ووئام ، ومما لا جدال فيه ان ولاية اطنة هي ولاية تركية حتى قبل مجيء العثمانيين بزمن بعيد فان هؤلاء اخذوها عنوة من الاسرة التركية التى كانت تحكمها وقتئذ المسماة بأسرة (رمضان او غله اي) ومع ان التاريخ يذكر ان مملكة ارمنية يقال لها كليكيا كانت موجودة في تلك الجهة على عهد الصليبيين، يقول المحققون ايضاً ان عدداً كبيراً من الاتراك استوطن تلك البلاد حوالي ذلك الوقت وان بكوات الاتراك الاقطاعيين لم يستمرئوا مرعى تلك المملكة .

فمعظم الارمن القاطنين فى ولاية اطنة الآن اصلهم من ديار بكر وسيواس ومعمورة العزيز . وقد تركوا ديارهم في خلال القرن التاسع عشر طمعاً فى الرزق والكسب . اما الارمن الذين يصح ان يقال حقاً انهم مولودون في اطنة فيجدهم الانسان في مدينة (حاجين) الواقعة على حدود الولاية الشمالية وفي بضع قرى بالقرب من سيس اشهر سنجق قوزان وفى دورت يول وعلى شواطىء

خليج أسكندرونة وبعض القرى المجاورة .

اما العرب العشاقي فهم فريق من الأهالي الذين نقلوا من سنجق اللاذقية على عهد حكومة السلطان عبد العزيز لزراعة سهل اطنه الذي كان وقتئذ في غاية الخصوبة ولم يكن آهلا بالسكان .

وقد لبث الاتراك والارمن - كما سبقت الارشارة الى ذلك - كما لبث بقية السكان بعضهم مع بعض على أتم صفاء ولم يكن أحد يتوقع ان يشجر أي خلاف بينهم . ولم يقع شيء ما في ولاية اطنة أبان الاضطرابات والمذابح التي حدثت في سنة ١٨٩٤ - ١٨٩٦ . وعمل الاتراك والارمن جميعاً لمنع انتشار القلاقل الى اقليمهم . ولم تخل مجهوداتهم من النجاح .

وماكاد الدستور يعلن حتى انشأ ارمن اطنة فروعاً لجمعيات الهشنقزيتيين والحنجاكيين المصلحين معارضة للجمعيات السياسية التركية التي كانت في دور التكوين أو بعبارة اخرى واصلت تلك الفروع بصفة علنية العمل الذي كانت تقوم به الجمعيات سراً .

وكان قس اطنة وقتئذ شاباً كثير الاطماع يدعي بموشيج افندي وكان أيضاً زعيم جماعة الحنجاكيين المصلحين . وكان معروفا بين الارمن بالدعارة والفسق . ولو صدق الانسان ماتقوله فيه الارمن لحكم بلا مبالغة بان الرجل كان جماع الغرائز الذميمة .

فعلى اثر اعلان الدستور جعل المونسنيور موشيج يعتبر نفسه زعيم اطنه الديني والسياسي . ولقد سمعت ان ذلك القس استخفه الطيش ودفعته الوقاحة الى توهم ضعف الحكومة فأتى امراً نكراً فى حضرة الحاكم العام فى اجتماع عقده المجلس الاداري وغادر القاعة وهو يحتدم غضباً بعد ان هدد بلطم وجه

قائد جندرمة الولاية . بل لقد اخبرني كثير من الارمن ان عدداً من خدمة الكنائس أتباع المونسنيور موشيج وصلت بهم الوقاحة وقتئذ الى ان يعلنوا جهاراً بان لا يمضي زمن طويل حتى يتخلص الارمن من النير التركي .

وان من العدل ان اقول : ان مندوب الدشنقزيتيين لم يكن له ضلع فى الاعمال التي قام بها المونسنيور موشيج ومابرح يلفت نظر مبعوثي جمعية الدشنقزيتيين في الاستانة الى نتائج اعماله السيئة .

ولم يقنع المونسنيور موشيج بكل ذلك . بل ارسل الى اوروبا في طلب البنادق والمسدسات اللازمة لتسليح الارمن . وكانت الحكومة في ذلك الوقت قد اباحت الاتجار بكل شيء حتى الاسلحة وجلبها من الخارج . وقد صرح المونسنيور موشيج في جميع الجهات (بأن الارمن أصبحوا مسلحين لا يخيفهم تكرار مذابح سنة ١٨٩٤ وانه لو حدث شيء لو احد منهم لقتل فى مقابله عشرة من الاتراك) فهذه التصريحات مضافاً اليها اعمال المونسنيور المذكور اضطرت الاتراك الى اتخاذ اجراءات مماثلة .

وهنا تبدأ مسؤلية حكومة اطنة في ذلك الوقت . فان الاعتذار بالضعف لا يمكن قبوله من اي حكومة اذ انها متى تبين لها ان هياجا ليس بمشروع كهذا الهياج الذي يقوم به المونسنيور موشيج اخذ يؤثر التأثير الشيء في الاهالي المحليين، تعين عليها ان تلقى القبض عليه وعلى اتباعه فوراً وايضاً على كل تركي يظن فيه الرغبة في احداث القلاقل وان تشرع تواً فى عمل تحقيق قانوني وان تهدد - اذا اقتضي الحال - باعلان الحكم العرفي فى الولاية باسرها .

ولكن الصدر الاعظم حسين حلمي باشا لم يكن ليجرأ على اتخاذ وسائل شديدة في الاستانة ولذلك كان هو اول من وجهت اليه الاهانات الجارحة من اعضاء

الجمعية المحمدية في الطريق المؤدي الى الباب العالي اثناء تشييع جنازة الصحفي حسان فليمى بك . فأول واجب على الحكومة هو ان تفهم الشعب ان ثمة بوناً شاسعاً بين الحرية والفوضى . ولكن المملكة العثمانية لم تكن لها وياسوء الحظ حكومة كهذا فى اواخر عام ١٩٠٨ واوائل ١٩٠٩ ـ .

وكان جواد بك هو الحاكم العام لأطنة وقتئذ . ولقد كان والحق يقال مثال الاستقامة بيد انه كان أيضاً لسوء الحظ مثال الضعف الاداري . فلم يكن كفوءاً بحال ما لتحمل الاعباء التي تلقى على عاتق وال كوالى اطنة اما قائد الفرقة فكان مصطفى رنيزى باشا وهو جندي خير وصل في ايام صباه بعظيم مجهوداته الى درجة رفيعة وظل طول حياته متمسكا بالتقاليد الوطنية الشريفة . غير انه ليس فى الامكان ان يقال ـ ان مثل ذلك الضابط الطاعن فى السن والمجرد من كل سلطة شرطية كان حائزاً للصفات المطلوبة في شخص حاكم اطنة العسكري .

وكان آصف بك هو متصرف جبل بركات . وكان شديد الخوف رعديداً حتى انه ليفزع من ظله . ولطالما ادهشني ان ارى مثل ذلك الشخص فى منصب وكيل الحاكم .

وفى اوائل سنة ١٩٠٩ راجت اشاعة فحواها ان الارمن سيثورون على الاتراك ويبيدونهم على بكرة ابيهم في القريب العاجل . وانهم يتحينون الفرصة المناسبة ومتى حانت سمحوا لفصائل من اساطيل الدول الاوروبية باحتلال الولاية وعندئذ يشرعون فى انشاء دولة ارمنية . ولقد تثبت الاتراك من صحة تلك الاشاعات الى ان ادى لهم الحال ان كثيراً من عليتهم نقلوا اسرهم الى امكنة حريزة حصينة .

وقد وصل الى سمعي ان بعض اعضاء جمعية المحمدي ارسلوا خصيصاً من الاستانة الى اطنة يحذرون الاهالي من الثورة الارمنية المنتظرة ولكن لم أوفق مطلقا للتثبت من صحة تلك الاشاعة .

وما وافى شهر نيسان سنة ١٩٠٩ حتى صارت العلائق بين الفريقين متوترة وبات كل فريق يخشى أن ينقض عليه الفريق الآخر فى أي لحظة .

وما زال الامر كذلك حتى بزغت شمس يوم ١٤ نيسان فبدأت (حادثة أطنة) بايعاز من المونسنيور موشيج باعتداء الارمن . وغدت أطنة وطرسوس وحميدية ومسمس وأرزيني ودورت يول وعزرلي بل كل الجهات التى يقطنها الارمن مسرحا لمذبحة مروعة يعجز القلم عن وصف هولها . وقد ظهرت الحكومة بمظهر العجز المتناهى حتى في عاصمة الولاية فذهبت في ساعة حيرتها هذه الى حد اثارة الغوغاء فى تلك الجهات لمنع اعتداء الارمن على الاتراك .

فلما وصلت الانباء بأن أرمن دورت يول المسلحين أخذوا يقتربون من أرزيني أشهر مدن سنجق جبل بركات لم يجرأ المتصرف آصف بك على مغادرة غرفته . بل أخذ يبرق الى سائر قرى اللواء بالبرقيات المثيرة مثل قوله :

(لقد أصبح المسلمون مهددين بخطر الابادة فمن الواجب على كل رجل يحب وطنه وامته أن يهرع الى السلاح وأن يبادر فى الحال الى سنجق جبل بركات)

ولم يكن ثمة ريب فى ان أرمن دورت يول كانوا يريدون بالزحف على أرزيني ذبح الاتراك القاطنين في جبل بركات . بيد انه كان من الخطأ الذي لا يمكن التجاوز عنه أن يحبس المتصرف نفسه في حجرته ويوحى للاهالي بأن يفعلوا ما يشاؤون لأن الناس حين يرون الخطر محدقاً بهم لا يكتفون بدفع المعتدين والاثخان فيهم قتلا وجرحاً بل قد يتناولون العزل من السلاح والعجزة

كالنساء والشيوخ والاطفال ثم يختمون عملهم بتحريق المدن والقرى والضياع .
وذلك لعمرى هو ما وقع بالفعل .

تلك كانت اسباب الحوادث الاولى فى اطنة . أما الحوادث التي وقعت بعد ذلك بعشرة أيام وكانت قاصرة على مدينة أطنة فسببها طلقـــات نارية أطلقها بعض شبان الارمن على معسكر الجنود . فترتب على ذلك أن ازدادت المذبحة سوء على سوء .

والذى أراه ان المونسنيور موشيج هو المجرم الحقيقي ولكن الحاكم يشاركه فى الجريمة لانه لا بد ان يكون قد عرف مبلغ خطر ذلك الرجل فلم يتخذ العدة اللازمة لكبح جماحه . فقد كان من الخطاء البين أن يسمح بانتزاع زمام الحكم من يده فى مثل ذلك الوقت العصيب وأن يظهر ذلك الضعف الشائن حيال غوغاء أو غلت فى القتل والسلب

أما الامر الثابت فهو مارسخ في نفوس الاتراك والمسلمين قبل وقوع تلك الحوادث بشهرين أو ثلاثة واستقر في أذهانهم ان لا فرق فى ذلك بين طبقات الجمهور والدوائر السياسية فى ولاية أطنة وهوان الارمن كانوا كل يوم تصل اليهم اسلحة جديدة للقيام بمذبحة أخرى ومن أجل ذلك يرون انهم أمسوا فى خطر شديد . ومما أعان على رسوخ تلك العقيدة لهجة التحدي والتطرف التى استعملها المونسنيور موشيج .

وليست الاسباب السيكولوجية التى بسطتها هنا هي رأيي الخاص . بل شاركني فيها الماجور دوتي ويلى القنصل الانجليزي في أطنة . واني لشديد الاسف من أن ذلك العظيم الشريف الذي أظهر منتهى البسالة فى وقائع الدردنيل وضحى بحياته خدمة لبلاده ليس موجوداً الآن فيؤيد اقوالي .

ولقد قص علي المستر تشامبرز المبشر الامريكي والمستر كريستن مدير كلية طرسوس الامريكية نبأ الفظائع المروعة التي ارتكبها الاتراك وعرب العشاق في اثناء المذابح بيد انهما أثبتالي بان المونسنيور موشيج هو المحرض الاول والاصل الفعال في المذبحة .

وقد قتل في تلك المذبحة ١٧٠٠٠ - أرمني و ١٨٥٠ تركي . وان هذه الارقام لتدل على ان الارمن لو كانت لهم الاغلبية لانعكست الآية ولفاضت أرواح الاتراك على شفار سيوف الارمن وتساوي الفريقان في ارتكاب الفضائع ولم يحجم الارمن لحظة عن الفتك بالنساء وذبح الاطفال . وقد قابلهم الاتراك بالمثل وتملكت الشعبين سورة الغضب فتساووا في الانتقام . ولما عينت حاكما عاما لأطنة وضعت الحكومة تحت تصرفي ٢٠٠٠٠٠ جنيه مجيدى . وقد تقرر في ان ينفق نصفها في اعادة بناء بيوت الارمن والاتراك في المدن والقرى المحترقة وأن يعطى النصف الآخر قرضا للتجار الارمن وفعلتهم وزراعهم لمساعدتهم على استئناف أعمالهم على شرط الا تسدد تلك القروض قبل مضي عشرة اعوام .

فانشأت في أطنة لجنة للتعمير تحت رئاستي . وكانت مشتملة على عدد من الاجانب كالمبشر الامريكي المستر تشامبرز وكثير من الوطنيين واغلبهم من الارمن

وبفضل الاجراءات التي اتخذتها لم يمض سوى أربعة أشهر من يوم وصولي اليها حتى تم بناء جميع البيوت الارمنية في الولاية ولم تبق ثمة دار لأسرة صغيرة الا وقد فرغ من بنائها . وبالجملة ماكادت تمضي خمسة اشهر أو ستة حتى استأنف الارمن اعمال التجارة والزراعة والصناعة وامحى ولو ظاهراً كل اثر للعداوة السالفة بينهم وبين الاتراك .

وان ماندلستام لكاذب في الدعوى التي ادعاها وخطها في صفحة ٢٠٥

من كتابه اذ يقول : - ان مذنبي المسلمين لم يشنق منهم سوى تسعة اشخاص ممن لاحيثية لهم . وهي دعوى لا ترتكز الا على ما خطه أحد متحيزى اليونانيين المسمى ادوسيدس المعروف بشدة حقده على الاتراك .

اذ انني بعد وصولى اليها باربعة أشهر أمرت باعدام ما لا يقل عن ثلاثين من المسلمين اثبتت المحكمة العسكرية اداناتهم . وبعد يومين أعدم فى ارزين سبعة عشر شخصاً آخرون كان من بينهم أعضاء أسر عريقة معروفة في أطنة مثل مفتي قضاء باغيس الذي أحبه حبا جماً الاتراك المقيمون فى حيه .

وقد نجح المونسنيور موشيبج بعد هذه الحوادث بيومين في الهرب الى اسكندرونة على ظهر باخرة اجنبية واني لشديد الاسف على فراره من يدى ولقد استحق ان يحكم عليه غيابياً بالاعدام . ولو وقع فى يدي لامرت بشنقه امام مفتى باغيس .

ولم ينكر الارمن انفسهم قدرما بذلته من المجهودات في مصلحتهم واعادة املاكهم اليهم وقتما كنت حاكما عاما فى اطنة . ولقد شهد بذلك كثير من الاجانب من فرنسيين وانجليز وامريكيين وروسيين جاؤوا الى أطنة وهنأوني على ما فعلت . ولا تزال الدار التى انشأتها لقبول الاطفال الذين يتمتهم حوادث أطنة وتربيتهم قائمة .

الاصلاحات

عند ما تركت ادارة بغداد في آب سنة ١٩١٢ (وكنت قد أرسلت اليها من أطنة) وعدت الى الاستانة كانت المملكة العثمانية تجتاز دوراً من أشد الادوار فى تاريخها . فقد كنا اولا فى حرب طاحنة مع ايطاليا . وثانيا كانت

بلغاريا والصرب والجبل الاسود واليونان قد تحالفن علينا وجعلن يتحرشن بنا ويتلمسن سببا لاعلان الحرب علينا . وثالثا كانت البانيا ثائرة . ورابعا كانت الصحف العربية تقذف الحمم على الحكومة مطالبـــة بالاصلاحات في الولايات العربية . وخامساً كان البطريرك الارمني يرسل الى الباب العالى المذكرة تلو المذكرة مطالباً بالاصلاحات فى ارمينيا . وسادساً - وهو أشد ما واجهنا من الاخطار - تكونت جمعية من الضباط واطلقت على نفسها اسم (جمعية محررى الضباط) وجعلت غايتها نشر الفوضي والاضطرابات فى الجيش . ومن أجل هذا يمكن ان يقال بحق ان الجنود المرابطة في الدردنيل وفى ازمير والبانيا تمردت واضطرب نظامها

وكان على رأس الحكومة وقتئذ وزارة الغازي مختار باشا وبين هذه المتاعب كلها نشبت الحرب البلقانية . فانتهز ساسة روسيا فرصة هزائمنا الحربية وشرعوا فى العمل . فحرضت فرنسا العرب المطالبة بالاصلاحات في سوريا وبعث البارون فون جيرس سفير روسيا في الاستانة المسألة الارمنية من مرقدها مرة اخرى وارسل الى وزير الداخلية المذكرة التالية بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٩١٢ وهى : -

« منذ حوادث ١٨٩٤ - ١٨٩٦ - التي لاتزال عالقة بالاذهان عندما كانت آسيا الصغرى والاستانة ينهمر منها الدم من جراء المذابح الارمنيـة الوحشية لم تتحسن الحالة بشكل ما . فلم تنفذ بعد الاصلاحات التي اقرها السلطان عبد الحميد في يوم ٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٩٥ بناء على الحاح روسيا وفرنسا وانجلترا . وقد اخذت المشكلة الزراعية تزداد حرجاً من يوم الى آخر. وذلك لأن معظم الضياع قد استولى عليها الاكراد وان السلطات بدلا من منع تلك

المصادرة غير القانونية تحمي المغتصبين وتساعدهم . وقد اجمعت التقارير الواردة من قنصلياتنا على ارتكاب الاكراد لأعمال السلب كما تشير الى الابتزاز الذي لامثيل له وقتلهم الارمن وتحويلهم النساء الارمنيات عنوة عن دينهن . اما الاشرار فقلما يعاقبون كما يقضي القانون . وان المذكرة التي قدمها بطريرك الارمن فى الاستانة للباب العالي ولوزير الداخلية لهي صورة حقيقية للبؤس والاضطهاد اللذين يتعرض لهما رعايا السلطان الارمن .

(فدوام هذه الحالة هو السر في ان الشعب الارمني اصبح الآن اكثر تطلعاً الى روسيا وان القنصليات الروسية في ارمينيا لشهيدة على حقيقة الشعور العام هناك . فالارمن يطالبون بادخال الاصلاحات تحت اشراف روسيا بل هم يطلبون الاحتلال الروسي . ويتوسل كاثوليك الارمن بروسيا (حاميـــة المسيحيين في الشرق من قديم الزمان) ويسألونها باسم العلي الاعلى أن تأخذ تحت حمايتها الاهالي الارمن البؤساء المقيمين في ارمينية تركيا . وعندى ان المسألة الارمنية لعظيمة الاهمية بالنسبة لروسيا واطلب ان تعمل الحكومة كل ما ينبغي عمله لمعالجة الاحوال . واني ارى ان الاحتلال سابق لاوانه واشير بادخال الاصلاحات . ولكن ذلك لا ينسيني الاهمال المخزى الذي قوبل به الامر العالى الصادر في سنة ١٨٩٥ . وعلى ذلك اني ألح بان يكون ادخال الاصلاحات تحت اشراف روسيا الفعلي اوالموظفين الاوروبيين . ونظراً لحالة الفوضي السائدة في تركيا اليوم ينبغي الا يغفل ذلك الاحتمال وهو ان الاصلاحات قدلا يكون لها الاثر المطمئن المطلوب فتضطر جنودنا وقتئذ الى احتلال تلك الجهة)

وقد كان كاثوليك اتشميازن في روسيا ارسلوا باغوص نوبار باشا في اوائل عام ١٩١٢ الى الوزارات الاوروبية بمهمة المطالبة بالاستقلال الذاتي

الاداري لارمينية تركيا . ولم تكن هذه الاجراءآت الاجزء من السياسة الروسية

فما اقرب اوجه الشبه بين المنحى الذي نحته روسيا (الذي ارادت به اخفاء نياتها الحقيقية حيال الارمن) والسياسة التي كانت فرنسا تتبعها في سورية

فقد صرح احد مسلمي بيروت والعضو بالمؤتمر العربي الذي التأم في باريس في اول عام ١٩١٣ للمسيو بيشون وزير الخارجية بما نصه : -

(ان غرضنا الوحيد برغم عقدنا المؤتمر في باريس مازال الحصول على الاصلاحات للولايات العربية من الحكومة العثمانية وحدها . فنحن لا نريد في سورية احتلالا او حماية فرنسية !) .

ولكي يبين ان فرنسا ليس لها مآرب خفية في سورية ابرق المسيو بيشون بنص ذلك التصريح الى المسيو بومبار السفير الفرنسي في الاستانة . وحوالي ذلك الوقت نفسه صرح الروس في يوم ١٥ مايس ١٩١٣ بمثل هذا التصريح بألفاظ تكاد تكون مشابهة لالفاظ باغوص نوبار باشا .

على ان ما قلته هنا يؤيده الخطاب التالي المؤرخ ١٣ مايس الذي ارسله المسيو اسفولسكي سفير روسيا في باريس الى المسيو ساز و نوف وزير خارجية روسيا اذ جاء فيه : -

« ان باغوص نوبار باشا اكد مراراً - ان ارمن تركيا لا نية لهم مطلقاً في الخوض في مسألة الاستقلال او في التغييرات الدستورية ! بل ان غرضهم الوحيد هو الحصول على الاصلاحات التي اوصت بها روسيا وفرنسا وانجلترا . والمنصوص عليها في معاهدة برلين وهي اصلاحات ظلت حتى الآن كمية مهملة » .

وعندي ان هذا التوارد العجيب في خواطر المصلحين العرب والارمن

لدليل كاف على السياسة التي كانت روسيا وفرنسا تنتهجها بقصد تمزيق تركيا .

واخيراً لم يحل يوم ٢٢ مايس سنة ١٩١٣ حتى اخذ وزير خارجية روسيا يخطو اول خطوة في مسألة الاصلاحات الارمنية . ففي البرقية المرسلة فى ذلك التاريخ الى السفير الروسي فى برلين طلب المسيو سازونوف الى الحكومة الالمانية ان تنضم الى الدعوة الدولية المراد ارسالها الى الباب العالي ويوافق تاريخ تلك الدعوة اليوم الذي وجدت الحكومة العثمانية نفسها فيه - بعد ان اصبحت عاجزة عن استمرار القتال - مضطرة الى توقيع الصلح الابتدائي في لوندرا والاعتراف بخط اينوس ميديثيا حداً بين تركيا وبلغاريا .

وحوالي ذلك الوقت ايضاً بدأت المظاهرات الوطنية الارمنية فى الاستانة تأخذ شكلا غير مألوف . فان الارمن احتفلوا احتفالا كبيراً بذكرى اكتشاف احرف الهجاء الارمنية وقد بلغت بهم الوقاحة الى حد ان ينثروا في الشوارع - ورق السكونفيتي - ذلك الورق الرفيع الذي ينثر فى الاعياد والافراح وعليه علمهم الوطني . فاحتملنا ذلك كله بصبر وثبات واخذنا العدة اللازمة لمنع وقوع حوادث مكدرة . وكنت وقتئذ الحاكم العسكري للاستانة . فذهبت بناء على دعوة من الارمن الى حديقة طشيوز والقيت فيها خطاباً مسهباً اثنيت فيها اطيب الثناء على الامة الارمنية .

اما الطريق الذي سلكه وزير خارجية روسيا فهو انه سلم الى مندوبي الدول العظمى فى الاستانة صورة من مشروع جديد قائم على المشروع الذي اقرته الحكومة العثمانية في سنة ١٨٩٥ فوافقت علية فرنسا وانجلترا بلا تردد ولا توان . وكانت المانيا الدولة الوحيدة التي اقترحت ان ترسل الى الباب العالي دعوة لتعيين مندوبين مفوضين يشتركون في اعمال اللجنة التي تؤلف

من مندوبي السفراء . بيد ان روسيا ضربت بذلك الاقتراح عرض الحائط . وفي النهاية أمكن الحصول على موافقة المانيا على انشاء لجنة من مترجمي السفارات تشكل لدراسة المسألة الارمنية . وبهذه الصفة منعت الدولة المختصة الوحيدة (تركيا) من ابداء رأيها .

وقبل ان تبدأ اللجنة اعمالها كانت روسيا قد جهزت فعلا مشروعا للاصلاحات وضعه المسيو ماندلستام المترجم الاول للسفارة الروسية . واني اترك لضمير واضع المشروع وذمته الحكم فيما اذا كان في استطاعته - وهو يتذرع بالاحتفاظ بحقوق احدى الاقليات في مملكة عظيمة - ان يوفق بين حياته وبين تقديم مشروع كهذا الى دولة مستقلة ! ونظراً لعظم اهمية المشروع الروسي اثبته هنا بنصه : -

المشروع الروسى

الاستانة في ٨ كانون الثاني سنة ١٩١٣ (الكتاب البرتقالي رقم ٥٠) .

مشروع الاصلاحات الارمنية لواضعه م . ا . ماندلستام المترجم الاول للسفارة الروسية في الاستانة المستند الى ما يأتي : -

اولا - المذكرة التي قدمها سفراء فرنسا وروسيا وانجلترا في الاستانة بشأن الاصلاحات الارمنية في نيسان سنة ١٨٩٥ .

ثانياً - مشروع الاصلاحات الادارية لولاية ارمينيا لواضعيه سفراء فرنسا وانجلترا وروسيا في نيسان سنة ١٨٩٥ .

ثالثاً - الامر العالي الشاهاني الخاص بالاصلاحات الارمنية الصادر في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٩٥ .

رابعاً - مشروع قانون الولايات لتركية اوروبا الذي وضعته اللجنة الاوروبية فى ١١ - ٩٣ آب سنة ١٨٨٠ .

خامساً - قانون الولايات الصادر في سنة ١٩١٣ .

سادساً - الاوامر والمفاوضات الخاصة بسوريا .

١ : اولا - تتألف ولاية واحدة من الولايات الست الآتية وهى : - اضروم ووان وتبليس وديار بكر وخربوط وسيواس مع استثناء بعض جهات الحدود مثل حكيارى والقسم الجنوبي من جهات سيواس وبسيركس وملانياس والجهات الواقعة فى الجنوب الشرقي لسيواس .

ثانياً - تنقسم الولاية اداريا الى ثلاثة اقسام سنجق وقضاء وناحية .

ثالثاً - ترتب الابرشيات بشكل يسمح بتكوين الجماعات الوطنية المتجانسه من الوجهة الاتنوغرافية .

(راجع المادة الاولى فى مذكرة السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمادة السابعة من مشروع الحلفاء الموضوع فى عام ١٨٩٥) .

٢ : ينبغي ان يكون الحاكم العام لولاية ارمينيا من الرعايا المسيحيين العثمانيين ويحسن ان يكون اوروبيا يعينه جلالة السلطان لمدة خمسة اعوام وتقره الدول العظمى

(راجع المادة الـ ١٧ من معاهدة برلين . والمادة الاولى من النظام الكريدي سنة ١٨٩٦ . والاوامر والمفاوضات الخاصة بلبنان والمادتين الثانية والسادسة من مذكرة السفراء الثلاثة الموضوعة سنة ١٨٩٥ ومقدمة دكريتو الاصلاحات في ارمينيا الصادر بتاريخ ٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٩٥ النقطة الاولى)

٣ : اولا - الحاكم العام هو رئيس السلطة التنفيذية فى الولاية . وله الحق التام في تعيين واستبدال كافة السلطات الادارية المحلية . وهو الذي يعين ايضاً قضاة الولاية

ثانياً - يكون رجال الشرطه والجندرمة رهن اوامر الحاكم العام .

ثالثاً - تبقى القوات العسكرية تحت تصرف الحاكم العام - لو اراد ذلك - لحفظ النظام في داخل الولاية .

(راجع المــادة الاولى من اوامر لبنان سنة ١٨٩٤ والمواد الـ ٢٠ والـ ٣٥ والـ ٤٤ من مشروع اللجنة الاوروبية سنة ١٨٩٤ والمواد الـ ٢٠ والـ ٢٥ والـ ٢٦ من دكريتو ادارة الولاية سنة ١٩١٣) .

٤ : يساعد الحاكم العام للولاية مجلس ادارة ذو سلطة استشارية تامة مؤلف من

أ - رؤسا الابرشيات الادارية للجمعيات الدينية .

ب - والرؤساء الروحانيين للجمعيات الدينية .

ج - والمستشارين الفنيين الاوروبيين المعينين من قبل الحكومة الشاهانية لمساعدة رؤساء الابرشيات الادارية .

د - وستة مستشارين قضائيين (ثلاثة مسلمين وثلاثة مسيحيين) ينتخبون من بين اعضاء مجلس الولاية .

(راجع المادة الـ ٤٩ من مشروع اللجنة الاوروبية سنة ١٨٨٠ والمادة الـ ٦٠ من دكريتو ادارة الولاية ١٩١٣؛ والمادة الـ ٦١ من دكريتو تشرين الأول سنة ١٨٩٥) .

٥ : اولا - يتساوي عدد الاعضاء المسلمين والمسيحيين في مجلس الولاية .

ثانياً - ينتخب اعضاء مجلس الولاية بالاقتراح السرى فى القضاء بواسطة الكليات الانتخابية التي ستتكون فيما بعد .

ثالثاً - في كل قضاء من اقضية الولاية يحدد عدد المقاعد المعينة للعنصرين الاسلامى والمسيحي . وينبغي ان يكون هذا - بقدر مايتفق مع المبدأ المنصوص

عنه في الفقرة الاولى من هذه المادة ـ مناسباً لعدد هذا القضاء .

(راجع المادة الثانية من الاوامر والمفاوضات الخاصة باعادة تنظيم لبنان سنة ١٨٦١ والفقرة الـ ٥ من المادة الـ ٣ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمادة الـ ٦٩ من مشروع اللجنة الاوروبية سنة ١٨٨٠ والمادة الـ ١٠٣ من دكريتو سنة ١٩١٣) .

٦ : اولا ـ ينتخب مجلس الولاية لمدة خمسة اعوام على ان يجتمع مرة كل عام ويظل مجتمعاً مدة شهرين ويمكن مد أمد الاجتماع اذا شاء الحاكم العام .

ثانياً ـ يمكن دعوة المجلس لاجتماع فوق العادة وذلك اما بناء على اشارة الحاكم العام مباشرة أو على طلب ثلثي الاعضاء .

ثالثاً ـ للحاكم العام حق حل المجلس . وفى هذه الحالة ينبغي اجراء الانتخابات في خلال شهرين وان يجتمع المجلس الجديد في خلال اربعة اشهر من تاريخ الامر بالحل .

رابعاً ـ يصدر الامر بحل المجلس او انعقاده باسم جلالة السلطان .

(راجع المواد الـ ٨٢ ـ ٧٥ من مشروع اللجنة الاوروبية سنة ١٨٨٠ والمواد الـ ١١١ والـ ١١٥ والـ ١٢٥ من الأمر الصادر من الولاية سنة ١٩١٣)

٧ : اولا ـ مجلس الولاية هو السلطة التشريعية لجميع مصالح الولاية .

ثانياً ـ تكون سلطة مجلس الولاية في المسائل التشريعية والمالية مماثلة على الاقل للسلطة المنصوص عليها فى المواد الـ ٨٢ والـ ٩٣ من مشروع اللجنة الاوروبية سنة ١٨٨٠ .

ثالثاً ـ ترسل القوانين التي يسنها المجلس الى الاعتاب السلطانية للمصادقة عليها وينبغي ان تم المصادقة عليها او رفضها فى خلال شهرين .

والا اعتبر سكوت الحكومة دليل على الموافقة .

(راجع المواد الـ ٨٢ والـ ٩٣ من مشروع اللجنة الاوروبية سنة ١٨٨٠ والمواد ١٢٣ والـ ١٢٤ والـ ١٢٨ والـ ١٣٥ من الامر الصادر من ادارة الولاية سنة ١٩١٣) .

٨ : اولا - يكون المتصرف رئيسا لمجلس ادارة السنجق . ويتألف هذا المجلس من زعماء السنجق الاداريين والرؤساء الروحانيين للعناصر المختلفة وستة اعضاء (ثلاثة مسلمون وثلاثة مسيحيون) ينتخبون من مجلس ادارة الاقضية

ثانيا - يكون القائمقام رئيسا لمجلس ادارة القضاء . ويتألف هذا المجلس من زعماء القضاء الاداريين والزعماء الروحانيين للعناصر المختلفة واربعة اعضاء (اثنان مسلمان واثنان مسيحيان) ينتخبون من مجلس ادارة الناحية .

ثالثاً - تعين سلطة تلك المجالس طبقا للمواد الـ ١١٥ والـ ١١٦ والـ ١٣٠ والـ ١٤٠ من مشروع اللجنة الاوروبية لسنة ١٨٩٦ .

(راجع المواد الـ ١١٤ والـ ١١٦ والـ ١٣٨ والـ ١٤٠ من مشروع اللجنة الاوروبية سنة ١٨٨٠ والمادة الـ ٦ من الامر الصادر في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٩٥ والمواد الـ ٦٢ والـ ٦٥ من الامر الصادر فى سنة ١٩١٣)

٩ : اولا - تعين حدود النواحي بصفة تضمن بقدر المستطاع تكوين ناحية قائمة بذاتها من القرى التي تقطنها طائفة واحدة .

ثانياً - يعين لكل ناحية مدير يساعده مجلس ينتخب الاهالي اعضاءه بحيث لا ينقصون عن اربعة ولا يزيدون عن ثمانية . والمجلس هو الذي ينتخب المدير ومساعده للعضوية . ويتعين ان يكون المدير من الطائفة التي تكون الغالبية الاتنولوجية . واما مساعده فيكون من الطائفة الاخرى .

ثالثاً - وفي النواحي التي فيها اخلاط من السكان مثل الاقليات بنسبتهم العددية بشرط الا يقل عددها عن ٢٥ اسرة .

رابعاً - تعين سلطات النواحي طبقا للمواد الـ ١٦٣ والـ ١٦٨ من مشروع اللجنة الاوروبية سنة ١٨٨٠ .

(راجع المواد الـ ١٦٧-١٦٨ من مشروع اللجنة الاوروبية سنة ١٨٨٠ والمواد الـ ٧ والـ ٩ من مشروع الاصلاح الذي وضعه السفراء الثلاثة في سنة ١٨٩٥ والمواد الـ ٧ والـ ٩ من الامر الصادر في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٩٥ ؟)

١٠ : اولا - يوجد في كل ناحية قاض للصلح يعينه الحاكم العام ويكون من ابناء دين غالبية سكان الناحية .

ثانياً - ويفصل هذا القاضي : -

آ - في القضايا الجنائية (بدون استئناف) في الجرائم التي تدخل ضمن دائرة العقوبات البسيطة التي هي من اختصاص الشرطة مع حق الاستئناف في الجرائم التي لا تزيد عقوبتها عن ٥٠٠ قرش او حبس ثلاثة اشهر .

ب - وفي القضايا المدنية (بدون استئناف) . في جميع القضايا المدنية والتجارية التي لا تتجاوز قيمتها مبلغ ١٠٠٠ قرش مع حق الاستئناف في مثل تلك القضايا متى كانت القيمة لا تتجاوز مبلغ ٥٠٠٠ قرش .

ثالثاً - وفي محكمة قاضي الصلح تكون في نفس الوقت محكمة تحكيم ولها ان تعين محكمين - اذا طلب المتخاصمان منها ذلك - للفصل في الخصومات التي تتجاوز مبلغ ٥٠٠٠ قرش . ويكون حكم المحكمين غير قابل للاستئناف .

رابعاً - وتشتمل محاكم السناجق على محكمة مدنية واحـدة مكونة من رئيس وقاضيين تدفع الحكومة مرتبيهما (احـدهما مسلم والآخر مسيحي)

ويعينها الحاكم العام . وتكون محكمة السنجق (أ) بمثابة محكمة اول درجة في القضايا المدنية والتجارية التي تزيد قيمتها على مبلغ ٥٠٠٠ قرش . (ب) بمثابة محكمة استيناف فى القضايا المدنية والتجارية التي فصل فيها قاضي الصلح فى محكمة الناحية

خامساً - يستبدل القسم الجنائي من محكمة السناجق بمحكمة جنايات عليا متنقلة . وتتكون هذه المحكمة من رئيس (ينتخب من بين اعضاء محكمة الاستئناف الاسمى من محكمة السنجق) وعضوين (احدهما مسلم والآخر مسيحي) تنتخبهما محكمة الاستئناف نفسها من بين قضاة الصلح في السنجق .

سادساً - تلتئم تلك المحاكم الجنائية العليا بالتوالي فى الاقضيـة التي تستدعي وجودها .

سابعاً - يوجد قاضي للتحضير في كل قضاء . فبمجرد وصول رئيس محكمة الجنايات العليا في القضاء يعرض عليه قاضي التحضير الوثائق الخاصة بالقضايا المنظور فيها والقضايا التى لم تتم بعد . فاذا رأي الرئيس خللا اواهمالا لا مبرر له وجب عليه ان يخطر رئيس محكمة الاستئناف في الحال .

ثامناً - تفصل محكمة الجنايات العليا - مع حفظ الحق في الاستئناف فى الاحكام التى حكم بها قضاة الصلح فى القضايا الجنائية وتكون بمثابة محكمة اول وآخر درجة فتفصل فى القضايا المتعلقة بالجرائم او الجنح المعاقب عليها بغرامة تزيد على ٥٠٠ قرش او الحكم بالحبس مدة تزيد على ثلاثة اشهر ،

تاسعاً - يجب ان توجد على الاقل ست محاكم استئناف . وتتألف كل منهن من رئيس واحد القانونيين المتمرنين يعينها الحاكم العام وعدد من الاعضاء يكفى لنظر المسائل المدنية المعروضة عليها ولمدحاكم الجنايات العليا بالرؤساء . ولمحكمة الاستئناف حق الفصل متى حضر العدد القانوني وهو الرئيس وعضوان من الاعضاء

عاشراً ـ تشكل المحاكم التجارية حيثما تقضي الضرورة . وفي الجهات التي توجد فيها تلك المحاكم لا يحق للمحاكم المدنية الفصل في القضايا التجارية

احد عشر ـ تعين سلطات المحاكم الشرعية بصفة دقيقة . ويجب على الحاكم العام ان يحول دون اعتداء هذه المحاكم على السلطات القضائية الأخرى في الولاية . ولا يجمع قضاة المحاكم الشرعية بين وظيفة القضاء فيها وبين الرئاسة في المحاكم الأخرى الموجودة في الولاية .

(راجع المواد الـ ٢٩ والـ ٣١ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمواد الـ ١٢٥ والـ ٢٣١ من مشروع اللجنة الاوروبية سنة ١٨٨٠) .

١١ : اولا ـ تؤلف قوة من الشرطة والجندرمة في الولاية ويكون نصف الجنديين من الاهالي المسلمين والمسيحيين .

ثانياً ـ يعهد بتنظيم تلك القوة ورئاستها الى الضباط الاوروبيين الموجودين في الخدمه التركية .

ثالثاً ـ تؤلف قوة من الشرط في النواحي ويعين الحاكم العام الشرط ولكنهم يكونون تحت اوامر المدير .

(راجع المواد الـ ١٨ ـ ٢٦ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمادة الـ ٢٤ من الامر الصادر في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٩٥) .

١٢ : يؤدي الجندون الذين هم من اهالي الولاية خدمتهم العسكرية في الولاية في زمن السلم . وتحل كوكبة الفرسان الخفيفة الكردية (حميدية سابقا) .

(راجع المادة الـ ٢٥ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمادة الـ ٢٨ من الامر الصادر في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٩٥) .

١٣ : اولا ـ موظفو الادارة والقضاء يجب ان يكون انتخابهم على قاعدة

المساواة في العدد بين المسلمين والمسيحيين .

ثانياً ـ عند تعيين حكام السناجق (المتصرفين) والاقضية (قائمقام) يجب مراعاة الطوائف ومصالحها .

(راجع المادة الـ ٥ من الامر الصادر في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٩٥)

١٤ : اولا ـ الاهالي المستوطنون لهم الحق فى التصويت ويمكن انتخابهم .

(راجع المادة الـ ٢٤ من الجزء الثامن من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمادة الـ ٢٧ من الامر الصادر فى ٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٩٥)

١٥ : اولا ـ كل القوانين والاوامر والبرامج والنشرات الرسمية والبيانات ينبغي ان تنشر بلغات الولايات الثلاث التركية والارمنية والكردية .

ثانياً ـ كل الطلبات والعرائض وجميع الوثائق الموجهة الى السلطات الادارية اوالقضائية يجب ان تكون باحدى لغات الولاية الثلاث بناء على رغبة الجماعات المطلقة .

ثالثاً ـ يجوز للخصم استعمال لغته فى الدفاع عن نفسه امام المحاكم .

رابعاً ـ تصدر الاحكام باللغة التركية وتلحق بها ترجمتها بلغة الخصم المختص

(راجع المادة الـ ٤٠ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمادة الـ ٢٢ من مشروع اللجنة الاوروبية سنة ١٨٨٠ والنشرة التي ارسلتها وزارة الداخلية الى الولايات بخصوص اللغة العربية فى ٦ نيسان سنة ١٩١٣ : ـ

١٦ : اولا ـ لكل طائفة فى الولاية الحق في انشاء المدارس الخاصة وتعهدها على خلاف أنواعها .

ثانياً ـ ويجوز لها فرض الضرائب على رعاياها لفائدة اولئك المدارس .

ثالثاً ـ يكون التعليم في تلك المدارس باللغة الوطنية .

رابعاً ـ للحاكم العام حق الاشراف على اولئك المدارس عملا بمقتضي القواعد المنصوص عليها فى قوانين الولاية

خامساً ـ تعليم اللغة التركية في جميع المدارس الخصوصية يكون اجبارياً

(راجع المادة الـ ١٤ من مشروع اللجنة الاوروبية سنة ١٨٨٠) .

١٧ : تضع لجنة خاصة برئاسة الحاكم العام الشروط التي تعاد بمقتضاها الاراضي التي انتزعت من الارمن بلاحق او يعوضون عنها اما بأراض اخرى او بثمنها .

(راجع المادة الـ ٢٦ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمادة الـ ٢٩ من الامر الصادر فى ٢٠ ـ تشرين الاول سنة ١٨٩٥) .

١٨ : حقوق الامة الارمنية وامتيازاتها المخولة لها بموجب الامر الاساسي الصادر في سنة ١٨٦٨ والارادات الشاهانية يعترف بها كافة .

(راجع المادة الـ ١١ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٠) .

١٩ : لا يسمح لمهاجرى المسلمين بالتوطن في داخل حدود الولاية .

٢٠ : تصدر بناء على القواعد السالفة الذكر قواعد خاصة تكفل مصالح الارمن القاطنين فى خارج الولاية وخصوصاً في كليكية .

(راجع المادة الـ ١٢ من مذكرة السفراء سنة ١٨٩٥ والمادة الـ ٤ من مقدمة الامر الصادر في تشرين الاول سنة ١٨٩٥) .

٢١ : تضع لجنه خاصة مكونة من ممثلى الحكومة العثمانية والدول العظمى نص أمر التشكيل للولاية وكذلك القواعد الخاصة المشار اليها في المادة الـ ٢٠ من المشروع الحاضر .

٢٢ : على الدول العظمى تنفيذ هذا المشروع .

(راجع المادة الـ ٨ من مذكرة سنة ١٨٩٥ والمادة الـ ٣٢ من الامر

الصادر فى تشرين الاول سنة ١٨٩٥ والمادة الـ ١٠ من الاوامر الصادرة لجزيرة كريد سنة ١٨٩٦) .

ولا اظن ان يوجد من يرتاب مطلقاً فى انه لا يمضى على قبول ذلك المشروع عام واحد حتى تقع ولايات ارضروم وقوقاس ووان وتبليس وديار بكر ومعمورة العزيز تحت حماية روسيا او على الاقل تصبح مرتعاً لجيوش الاحتلال الروسية

ولطالما بذل المندوب الالماني جهده فى غضون المفاوضات للاحتفاظ بحقوق الحكومة العثمانية ووجهة نظرها بينما المندوب الروسي كان يسعى لاحباط تلك الجهود

وكان ممثلا فرنسا وانجلترا يؤيدان زميلهما الروسي فى آرائه كما كان الممثل الايطالى والممثل النمساوي يتظاهران بتأييد الممثل الالماني فى نظرياته .

وقد ظلت اللجنة منعقدة من يوم ٣ كانون الثاني الى يوم ٢٣ منـــه . وبالرغم من اجتماعاتها المتتالية لم تبرم امراً لأن روسيا كان غرضها الاكبر انفاذ المشروع بلا تغيير ولا تبديل بينما المانيا كانت ترغب في حماية الحكومة العثمانية الى اقصى حد مستطاع . وفي ايلول سنة ١٩١٣ تمكن البارون جيرس سفير روسيا من حمل البارون فانجينهم السفير الالماني فى الاستانة على قبول مشروع اساسي يحتوى على ست نقاط . ومن ثم بدأت المفاوضات بين سعيد حليم باشا الصدر الاعظم ووزير الخارجية والسفيرين السالفى الذكر .

ولما اطلعنا على تلك النقاط الست تبين لنا ان الحكومة العثمانية تستطيع تنفيذها بدون حاجة الى ضغط من الخارج . وعلى ذلك وضعنا برنامجاً واسعاً للمملكة جمعاء واخطرنا به بواسطة سفرائنا الدول العظمى .

وبمقتضى ذلك البرنامج تقسم المملكة الى ستة (تفاتيش) عامة اثنان منها للولايات الاناضولية الشرقية .

ولاحباط الدسائس الروسية اردنا ان يشرف الانجليز على هاتين الجهتين فطلبنا الى توفيق باشا سفيرنا في لوندرا ان يسأل السير ادوارد غراي ـ هل توافق انجلترا على هذا الرأي وهل تستطيع ان ترسل موظفين انجليزيين فأجاب بان انجلترا توافق على ذلك . فبادر الصدر الاعظم بتقديم الطلب رسمياً وقد كان من المحقق ان يقضى على الدسائس الروسية متى وافقت انجلترا على ذلك الاقتراح . غير انا لم نلبث ان ورد الينا ان انجلترا لا تستطيع بدون موافقة روسيا تعيين موظفين لشرقى الاناضول فاضطررنا عندئذ الى العدول عن ذلك اذ تهدم ما بنيناه من الآمال التي عللنا بها انفسنا وتحققنا ان انجلترا قد تخلت عنا وتركتنا ضحية المطامع الروسية .

فعدنا ادراجنا لاستمرار المفاوضات مع سفيري روسيا والمانيا . وفي ٨ شباط سنة ١٩١٤ امضيت بين سعيد حليم باشا والمسيو جلكيفتش القائم باعمال السفارة الروسية الاتفاقية النهائية الآتية :

(الاتفاقية الروسية التركية المؤرخة في ٨ شباط سنة ١٩١٤)

الكتاب البرتقالى رقم ١٤٧

اتفق كل من سعادة مسيو قسطنطين جلكيفتش القائم بأعمال السفارة الروسية وصاحب الدولة الامير سعيدحليم باشا الصدر الاعظم ووزير الخارجية على انه فى نفس الوقت الذي يعين فيه مفتشان لولاية الاناضول الشرقية يرسل الباب العالى الى الدول العظمى المذكرة الآتية : ـ

(يعهد للمفتشين الاجنبيين بادارة الاقليمين اللذين سيتكونان من ولايات الاناضول الشرقية . فيشرف اولهما على ولايات ارضروم وطرابزون

وسيواس ويشرف ثانيهما على ولايات وان وبتليس وخربوط وديار بكر .

ولهما الاشراف على الأدارة الملكية والقضاء والشرطة والجندرمة في هذين الاقليمين . واذا لم تكف الشرطة لحفظ النظام فللمفتش اذا أراد - ان يستخدم القوة العسكرية الموجودة للقيام بشؤون وظيفته وفيها اذا اقتضت الحال ان يفصلا الموظفين غير الملائمين أما لعدم كفاءتهم او اسوء سلوكهم وان يسلما للعدالة الموظفين المتهمين بارتكاب الجرائم . ولهما الحق في ترشيح كبار الموظفين قبل أن يعينهم جلالة السلطان . وفى حالة فصل الموظفين يجب عليهما أن يرسلا تلغرافياً في الحال الى الوزراء المختصين تقريراً بملخص اسباب الفصل ثم يردفانه بتقرير او فى خلال اسبوع ويكون مصحوباً بالاوراق الرسمية اللازمة .

وفي المسائل المهمة التى تقتضي بتأسريعاً يكون لهما الحق في وقف الموظفين القضائيين الذين لا يمكن فصلهم على شرط ان يبادرا باحالة المسألة على وزارة الحقانية

وفى القضايا التى تقع المسؤلية فيها على الوالي وتقتضي اتخاذ قرارات حاسمة يجب على المفتشين اخطار وزير الداخلية برقياً وهذا الاخير يبادر بعرض الامر على مجلس الوزراء ليبت فى الموضوع فى مدة أربعة أيام على اكثر تقدير من وصول البرقية .

الخلافات الزراعية يبت فيها تحت اشراف المفتش شخصياً . بعد تعيين المفتشين توضع بمساعدتهما مذكرتان ضافيتان عن واجباتهما وحقوقهما . اذا ظلت وظيفة المفتش خالية لمدة عشرة اعوام فمن حق الباب العالي الاعتماد على مونة الدول العظمى فى تعيين مفتش جديد . وتكون القوانين والفرمانات والمنشورات العامة بلغة كل من الاقليمين السالفين وللخصوم الحق - بحسب ما يتراءاى للمفتش - فى استعمال لغاتهم امام المحكمة او أية سلطة ادارية . وتصدر

الاحكام باللغة التركية - مصحوبة بقدرمايستطاع - بصورة ترجمتها بلغة الخصم

مقادير التبرعات للمدارس المقدمة من العناصر الوطنية المختلفة تحدد طبقاً للضرائب التي كانت مفروضة على المدارس من قبل . ولا تضع الحكومة الشاهانية اى عقبة فى سبيل الطوائف الدينية اذا ارادوا الاشتراك فى مساعدة مدارسهم

على كل عثماني فى زمن السلم ان يقضي مدة خدمته العسكرية ضمن دائرة التفتيش الموجود فيه منزله . ويجند الباب العالي - الى حين صدور اعلان آخر - فصائل من القوات الحربية الموجودة في نواحي المملكة للخدمة فى اطراف اليمن والعسير ونجد بنسبة عدد سكان تلك الجهات . وسيجند فوق ذلك جنوداً من سائر ارجاء المملكة للخدمة في الاناضول .

تحول كتائب حميدية الى فرسان احتياطي . وتبقى اسلحتها فى المستودعات الحربية ولا تصرف الا في وقت التعبئة او المناورات . وتكون الكتائب تحت قيادة القائد الموجود فى الاقليم . وفي زمن السلم ينتخب قادة الكتائب والفصائل والسرايا من الضباط العاملين فى الجيش العثماني الشاهاني . ويقضي رجال هذه الكتائب عاما واحداً فى الخدمة العسكرية . وعليهم ان يجيئوا للكتيبة بخيلهم وسروجهم تامة . وكل رجل - بقطع النظر عن نسبته ودينه - يكون في دائرة التجنيد هذه وتتوفر فيه الشروط السابقة يمكن الحاقه بالكتائب السالفة الذكر وفي زمن الحرب والمناورات يعاملون معاملة الجنود النظاميين .

سلطة المفتش تكون مطابقة لنصوص القانون الصادر فى ١٣ آذار سنة ١٩١٣ تجري عملية الاحصاء العام تحت اشراف المفتشين بأقرب فرصة - وفي ظرف سنة من الآن اذا تيسر - لمعرفة حقيقة الاحوال فيما يختص بالدين والجنسية واللغة في كل من الاقليمين . والى حين حلول ذلك الميعاد يتألف

(المجلس العمومي) و (لجان الولاية) لكل من (وان) و (بتليس) من عدد متساو من المسلمين وغير المسلمين . واذا لم يتم الاحصاء في ولاية ارضروم خلال عام ينتخب اعضاء (المجلس العمومي) فيها بنفس الطريقة المتبعة في الولايتين الاخيرتين .

اما في ولايات سيواس وخربوط وديار بكر فينتخب الاعضاء بنسبة عدد الاهالي . ولتسهيل تنفيذ هذه الاجراءات يحدد عدد الناخبين المسلمين – الى حين اتمام الاحصاء الجديد – طبقاً للكشوف القديمة وعدد الناخبين غير المسلمين طبقاً لكشوف الابرشية . وفي الوقت نفسه اذا حالت اى صعوبة دون اتباع ذلك النظام الانتخابي المحلي فللمفتشين الحق في ان يقترحا تقسيم الناخبين للمجالس العمومية في ولايات سيواس وخربوط وديار بكر بطريقة تكون اكثر ملاءمة لحاجات واحوال الولايات المذكورة الحاضرة . وفي سائر الولايات التى تنتخب فيها (المجالس العمومية) بواسطة التصويت النسبي لا بد من وجود من يمثل الاقليات في (لجان الولاية) .

اما مجلس الادارة فيكون عدد اعضائه المسلمين متساويا لعدد غير المسلمين كما كانت الحال في الماضي . ويترك للمفتشين اتخاذ ما يريانه ملائماً لانتخاب الشرطة والتجنيد للجندرمة بمثل تلك النسبة في كل من الاقليمين . وتراعي مسالة النسبة بقدر المستطاع عند التعيين للوظائف الرسمية الأخرى .

واعترافا بهذه الاتفاقية نضع نحن الموقعين على هذا امضاءاتنا واختامنا

(الامضاء) جلكيفتش　　　　(الامضاء) سعيد حليم

حرر بالاستانة في ٨ شباط سنة ١٩١٤

ولقد هللت روسيا لتلك الاتفاقية واعتبرتها فوزاً سياسياً مبيناً . ويكفى

لقدر اهميتها أن نثبت الفقرات الآتية من البرقية المطولة التى أبرقها جلكيفتش الى المسيو سازونوف وزير الخارجية وهي : ـ

(فقانون ٤ شباط سنة ١٩١٤ يدل اذن بلاريب على افتتاح عهد جديد وسعيد في تاريخ الشعب الارمني . ويمكن مقارنته من حيث الاهمية السياسية بفرمان سنة ١٨٧٠ ـ الذي أسست بمقتضاه اكبرخسية (نيابة) بلغاريا وحرر البلغاريون من الاشراف اليوناني ولابد ان يشعر الارمن ان هذه الخطوة الاولى قد اتخذت في سبيل تحريرهم من النير التركي .

اما اتفاقية ٨ شباط سنة ١٩١٤ فانها في الوقت نفسه لعلى جانب عظيم من الاهمية بالنسبة لمركز روسيا الدولى . فقد امضاها الصدر الاعظم شخصياً ومندوب روسيا وتحتم على تركيا ان تقدم للدول العظمى مذكرة وضعت محتوياتها بصفة محكمة . فموقف روسيا في المسألة الارمنية اصبح معترفاً به رسميا كما ان المادة الـ ١٦ من معاهدة سان استيفانو قد صودق عليها الى حد ما وستؤثر هذه الظروف بلا شك تأثيراً حسنا في موقف روسيا الدولي بل انها لتضع هالة حول رأس قيصرها في عيون مسيحي الشرق الاوسط . وقد تغلب السفير الامبراطورى على مصاعب غير عادية في سبيل الوصول الى الاتفاق مع الباب العالي . اذ كان عليه ان يحسب من جهة حساب رغبة الارمن الطبيعية في ادخال أوسع ما يستطاع من الاصلاحات ومن جهة اخرى حساب معارضة الباب العالي الشديدة وكان قد بذل اقصى جهد لاحباط الاصلاحات المنشودة وقاوم كل النقاط المهمة الواردة في المشروع . اما من حيث المانيا فان تفاهمها معنا يحقق غايتين . الاولى انها ستقنع الباب العالي بانها بموافقتها على الاصلاحات المعتدلة التى لا حيف فيها عليه قد دفعت عن الحكومة العثمانية غائلة اصلاحات ابعد

غوراً من الاصلاحات السابقة . والثانية انها ستسعى لاكتساب عطف الارمن الذي يهمها جداً من اجل كليكية التي يعتبرها الارمن انها واقعة في دائرة نفوذهم . فمنهج المانيا اذن كانت تعوزه الصراحة . وليست مساعدتها للارمن الامجرد (بلف) . أما الحقيقة فهي - ان الساسة الالمان كانوا نصحاء لتركيا أوفياء . (الامضاء) جلكيفتش

فأنت ترى ان القائم بأعمال السفارة الروسية يعتقد أن مشروع الاصلاح الارمني ليس الا الخطوة الاولى فى سبيل احتلال روسيا لارمينيا . واني لاظنه انه قد أصاب كبد الحقيقة فيما رآه . ولا يسعني أن اكتم استغرابي ودهشتي لنشر تلك الفقرات في الكتاب البرتقالي مع انها تنم تماما عن مرامي روسيا حيال أرمينيا . الست محقاً اذا قلت : - لقدشاء المولى أن يعترف المعترف بذنبه

أما هي تجاه أرض القوقاز فقدغيرت سياستها معهم تغييراً تاما فانها بعد أن رأت ان الارهاق الذي نزل بالارمن هناك لم ينتج الا اثارة الشك والارتياب في صدور الثوار الارمن الحقيقيين ضدها اضطرت الى العدول عن تلك السياسة الخرقاء وردت الاملاك التى صادرتها الى ديرأعيان وأعلنت العفو العام عن جميع مجرمي الارمن السياسيين وتظاهرت بالصداقة الكبرى للارمن . وقد نجحت تلك السياسة الجديدة حتى فى اكتساب ثقة أولئك الثوار من الارمن الذين كانوا حتى الآن يبغضون روسيا .

وبعد الحركة التي قام بها باغوص نوبار باشا في أوروبا وعلى الاخص قبل منتصف سنة ١٩١٣ طلبنا بالحاح الى زعماء جمعية الدشنقزيتيين أن يشدوا أزرنا في سبيل مقاومة مساعي روسيا لاصلاح أرمينيا . فان الحرب البلقانية كانت قد وضعت أوزارها واصبح فى وسعنا ألا نمكن الاكراد من مجاوزة الحد

ونضمن للارمن حياة السلام فى بلادهم . فما كان جوابهم الا أن قالوا ما معناه (الآن وقد تدخلت الدول العظمى في المسألة لا يمكننا الوقوف على الحياد)

أما الحكومة العثمانية فقد عقدت النية على تنفيذ الشروط التي تضمنتها اتفاقية ٨ شباط سنة ١٩١٤ كلها بتمام العناية والأجتهاد مع كونها مؤلمة محضة لها ومرضية لروسيا وعلى هواها ولكن الحكومة الروسية لم يكن ليعجزها ان توجد مصاعب جديدة . لأن غايتها الا يستتب السلام مطلقاً فى شرقي الاناضول . وللوصول الى تلك الغاية تجد وتسعى اولا لبسط حمايتها على ارمينيا وبعد ذلك تثير فى أوروبا روح العطف على الارمن ثم تثير حفائظ بكوات الاكراد وعلى الاخص ذوى النفوذ من شيوخ العشائر وتدفعهم لمقاومة الحكومة والارمن على السواء . وبناء على هذه الخطة التي أحكم وضعها أيدت الحكومة الروسية من جهة عبد الرزاق بك بدرهاني الشهير وامدته بالاموال الطائلة ومنته باعادة الحكم الكردي فى شبه جزيرة سينا ومن جهة اخرى توصلت بواسطة قنصلها فى تبليس الى تهييج الشيخ ن . ن والخروج على الحكومة . فيختلق المسيو ماندلستام مايشاء ولكنه لا يستطيع اخفاء تلك الحقائق وبينما مسألة الاصلاحات الارمنية تتطور هذا التطور اذا بالحرب العالمية قد اندلعت السنتها . فأدركت الحكومة العثمانية أن تحالفها مع المانيا لا بد أن يجرها عاجلا او آجلا الى امتشاق الحسام . واذ توقعت استحالة المضي فى الاصلاحات الداخلية والاشتغال بالامور الثانوية في خلال سنى الحرب العصيبة رأت ان اطالة امد اشراف المفتشين الاجنبيين اللذين سبق تعيينها لولايات الاناضول الشرقى صارت غير لازمة .

ومما لاريب فيه ان املنا الوحيد كان تحرير انفسنا عن طريق الحرب العالمية من كل القيود والامتيازات التي طالما هدمت استقلالنا وجعلته اسماً بلا

مسعى لنعيش في المستقبل احراراً مستقلين كسائر الشعوب الحرة المستقلة فندخل في بلادنا وبمحض ارادتنا الاصلاحات التي تحتم المقتضيات المحلية ادخالها وكما ان الغرض الاسمى الذي كنا نرمي اليه انما هو ان نلغي الامتيازات ونقذف بنظام لبنان الاساسي من حالق كذلك كنا نريد بمسألة الاصلاحات الارمنية أن نتخلص من الاتفاقية التي حملنا ضغط روسيا على ابرامها .

وقد ذكرنا في فصل سابق اننا انما خضنا غمار القتال أملا في أن نحيا في المستقبل حياة حرة مستقلة خليقة بشعب أبي .

واذ كانت هذه نياتنا لم يكن لاتفاقية الاصلاحات التي انتزعتها منا انتزاعا روسيا عدوتنا الوراثية أي معنى آخر . ولا أقصد بذلك اننا لم يكن فى نيتنا ادخال الاصلاحات فى بلادنا كلا بل كنا على العكس قد استقر قرارنا على الاصلاحات الاسياسية بعد أن ثبت لدينا اننا لا نستطيع الحياة بدونها .

ولكننا نظرنا الى مسألة الاصلاحات من هذه الوجهة وهى انه يجب القضاء على القيصرية التي ظلت مدة قرنين كالحسام المصلت فوق رؤوسنا لتخمد نهائياً نار الدسائس التي كانت تتأجج خفية في داخل بلادنا . وهذه الغاية لا يمكن ادراكها ما لم نخض غمار الحرب العالمية بكل ما نستطيع من قوة وبطش وعلى ذلك قررنا ارجاء الاصلاحات الداخلية الى ما بعد انتهاء الحرب وتوجيه كل قوي الشعب الى الحرب نفسها . ولم نفضل ابلاغ زعماء جمعية الدشنقزيتيين وجهة نظرنا هذه .

وفي النهاية اشتركنا فى الحرب اشتراكا فعلياً ، وبعد اعلانها بأيام عينت لقيادة الجيش الرابع . ثم غادرت الاستانة قاصداً سورية . ومن وقتئذ صرت لا أعرف شيئاً ما عن احوال ولايات شرقي الاناضول ولا ما هي الاسباب التي

رأت الحكومة نفسها ازاءها مضطرة الى نفي الارمن كافة . ولم يكن لي دخل في المفاوضات التي جرت في الاستانة بل لم يؤخذ رأيي في صددها وكان منشور الحكومة للولايات هو اول ما نمي الي من الاخبار بأن الارمن قد نفوا موقتا الى العراق - حيث كلفوا بالاقامة فيها الى ان تضع الحرب اوزارها .

وقد وصلت الي من القائد العام تعليمات تقضي باتخاذ الاجراءات اللازمة لحماية الارمن من كل اعتداء اثناء اجتيازهم للمنطقة الواقعة تحت قيادتي وكان نفيهم تحت أشراف السلطات المدنية . ذلك هو كل ما علمته عن تلك المسألة . وكنت في ذلك الوقت مشغولاً بتنظيم خط المواصلات بين بوزانتي وحلب باعتبار ان ذلك هو الطريق الاوحد الذي يمكن أن تسلكه الجنود المراد ارسالها الى سورية حوالي أواخر سنة ١٩١٥ للاشتراك في حملة القناة الثانية . وكذلك كان متعينا علي اتخاذ الاجراءات الناجعة للحصول على المؤن اللازمة .

وقد غضبت جد الغضب عندما علمت ان الارمن المنفيين سيجتازون بوزانتي في طريقهم عن جبال طوروس واطنة الى حلب خشية أن يحصل عبث بخط المواصلات لأن أقل عبث به ربما كان له اسوأ تأثير واكبر ضرر بحملة القناة

ولا تزال الخطابات التي دارت بيني وبين القائد العام في ذلك الصدد محفوظة في سجلات الجيش وسيعرف الخاص والعام متى نشرت انني آثرت توطن الارمن في اقليم قونية وانقره وقسطموني على ارسالهم الى العراق .

ولما كنت لا استطيع معارضة الحكومة في قرار وافق عليـــه مجلس المبعوثان فضلا عن ورود تعليمات صريحة الي بألا أقيم العقبات في طريق اجتياز مهاجري الارمن لاطنة وحلب الى العراق رأيت نفسي مضطراً الى الاذعان ولقد سمعت بين آن وآخر بوقوع حوادث اعتداء على اولئك المهاجرين

في معمورة العزيز وديار بكر . ولكن الهجرة كانت تحت اشراف السلطات المدنية ولم تكن للجيش علاقة ما بها . ولم تقع حوادث اعتداء في منطقة نفوذي كما حدث في المناطق الاخرى نظراً للاوامر المشددة التي اصدرتها بهذا المعنى .
وقد وصلت الي شكاوي عديدة بان السلطات المدنية فيما بين بوزانتي وحلب أصبحت عاجزة عن امداد المهاجرين بالمؤونة اللازمة حتى ان كثيراً منهم بات في عسر شديد على طول الطريق . سافرت لساعتي من حلب قاصداً بوزانتي لمعاينة الحالة بنفسي وأمرت بان يصرف للمهاجرين الخبز من مستودعات الجيش وكلفت اطباء خط المواصلات بتعهد مرضاهم .
وبالجملة قد بذلت اقصى ما في استطاعتي لمساعدتهم مدة نفيهم وهم بذلك ليشهدون كما يشهد به غيرهم من منصفي الاجانب . وارى انا اكتفي الان بالاشارة الى ما وضع من الاوامر والمفاوضات التي سجلت في كتاب لبسيتز . الذي يتضمن شيئاً من التقارير الرسمية من وزارة خارجية المانيا بخصوص المسألة الارمنية فان كل البرقيات التي ارسلتها الى الاستانة او الى حكام الجهات او الى الولايات قد جمعت في سجلات الجيش الحربية وسيعلم الجمهور متى اطلع عليها الشيء الكثير عن اعمالي وكيف كانت كلها قائمة على الاعتبارات الانسانية الخالصة.
ولما وصلت الى السلطات المدنية بعد نفي أرمن الاناضول - الاوامر بنفي جميع الارمن من أطنة وحلب عارضت فيها معارضة شديدة . ولم اكتف بذلك بل كتبت تقريراً مفصلا عن هذه المسألة وبعثت به الى الاستانة وقد ذكرت فيه انني لا أرى ضرورة ما لذلك العمل الذي لا بد ان يؤثر تأثيراً سيئاً في المركز الاقتصادي والمركز الزراعي بصفة خاصة المنطقة التي يرابط فيها الجيش الرابع ولكني وقد أمرت بالا أتعرض لما لا يعنيني او أدخل في شؤون

السلطات المدنية بل امدها بالمساعدة فقط - هل كنت استطيع ان احول دون تنفيذ هذه الاوامر او أن اقفها ؟

ولما كنت موقناً بأن في جمع مهاجري الارمن في العراق سينالهم من الكروب الوانا رأيت ان احول كثيراً منهم في ولايتي بيروت وحلب . فنجحت بعد الاحتجاجات الشديدة التي ارسلتها الى الاستانة في الحصول على الاذن بما طلبت وبهذه الوسيلة استطعت ان أبقي في هاتين الولايتين زهاء (١٥٠٠٠٠) مهاجر .

واقسم انني لأمقت التحدث عن نفسي واكره الاطناب في المساعدة التي قدمتها الى اولئك الايامي واليتامى . لأني اعد ذلك تمدحا بالمناقب وتباهياً بالمزايا الادبية لتلك الاعمال التي لم يدفعني الى القيام بها الا باعث الانسانية المحضة . ولكني واعداؤنا الاجانب لا يزالون يعتبروني - بالرغم مما بذلته من المساعدة - المسؤول ادبياً عن تلك الحوادث بل ان تلك الحكومة الهزيلة التي انشئت في الاستانة منذ عقد الهدنة ذهبت الى حد الحكم علي بالاعدام بتهمة المسؤلية الادبية عن المذابح والنفي - أرى الواجب يقضي علي بالدفاع عن نفسي بذكر بعض التفصيلات لحقيقة الواقع . فالرأي العام يعلم علم اليقين ان لا علاقة لي مطلقاً بحوادث النفي او المذابح الارمنية . وكما انني لم تكن لي صلة ما بالمفاوضات السالفة الذكر الخاصة بنفي الارمن كذلك كنت بريئاً براءة الذئب من دم ابن يعقوب من اصدار أوامر الذبح . بل كثيراً ما حلت دون وقوعها وقدمت ما استطعت من المساعدة للمهاجرين وقت نفيهم .

ولرب سائل يقول : - لو كنت في الاستانة وقتئذ واشتركت في المحادثات التي دارت وعلمت بما كان يجري خلف جيشنا في شرقي الاناضول - أفلا

كنت توافق على النفى ؟ وهو سؤال لا أستطيع الاجابة عليه الآن . ولكن أعتقد ان زملائي عند ما قر قرارهم على نفى الشعب الارمني وهو ما اثار عليهم سخط العالم المتمدين بأسره لم يفعلوا ذلك الا مدفوعين بعوامل قوية . ولا ارتاب في أنهم سينفعون غلتنا ويزيلون ماعلق ببعض النفوس من الريب والشكوك عند ما ينشرون للملأ صحيفة أعمالهم قريباً .

واني اعتقد اعتقاداً جازماً أن الارمن كانوا قد دبروا ثورة من شأنها تعريض مؤخرة جيشنا فى القوقاز لاشد الاخطار لو وقعت بل ربما أدت في ظروف خاصة الى ابادته على بكرة أبيه - فبناء على ذلك اثر زملائي نقل الشعب الارمني بأسره الى جهة أخرى بحيث يؤمن شره على ان يعرضوا المملكة العثمانية للمحن والخطوب الفوادح ويجلبوا عليها الطامة الكبرى فيكون احتلال روسيا لآسيا الصغرى بأسرها أول رزاياها .

أما ما وقع من الحوادث فى خلال النفى فينبغي ان يعزي الى الاحقاد التي تغلغلت في نفوس الاتراك والاكراد والارمن فى اثناء سبعين عاماً وتبعة ذلك انما تقع على السياسة الروسية التي حولت الشعوب الثلاثة التي عاشت القرون الطويلة معا في صفاء وهناء الى اعداء الداء بعضهم لبعض . حقاً لقد اثارت الآثام التي ارتكبت خلال النفى فى سنة ١٩١٥ ثائر السخط الشديد ولكن ما ارتكبه الارمن فى غضون ثورتهم ضد الاتراك والاكراد لا يقل عنها قسوة بل يفوقها فظاعة وغدراً . على انه مهما يكن الباعث على ارتكاب تلك الجرائم فقد كان ينبغي الحيلولة دون وقوعها بكل وسيلة . لذلك رأت الحكومة ان النفى العام هو الوسيلة الفعالة المعجلة لصيانة الاهالي الاتراك والاكراد والجيش بل لحفظ كيان الولايات العثمانية السياسي . ولكنها من جهة أخرى مهدت بهذه

الوسيلة للاتراك والاكراد طريق الآثام والاجرام أفلا كان في الامكان تسوية المسألة بطريقة اخرى ؟ اولا كان فى الاستطاعة حماية المنفيين من أن يعتدي عليهم معتد في الطريق ؟ اننا لا يمكننا أن نبت في هذه الامور الا بعد معرفة ما استند اليه اولئك الذين دبروا أمر النفى والذين نفذوه . وعلى كل حال اني استطيع ان اقيم واضح الدليل على ان المنطقة التي كان جيشي مرابطاً فيها لم يرتكب فيها شيء من هذه الجرائم ولم يقع فيها سوى بضع حوادث شاذة معدودة .

وأما من حيث الاثر الذي أحدثته حوادث الاعتداء فلم يكن لعمري منظر فرار الاتراك من ديار بكر عن طريق حلب واطنه الى قونية ومن ارضروم وأرزنجان الى سيواس من وجوه الروس والفظائع والآثام التى ارتكبها الارمن ضدهم بأقل سوءاً ووحشية منه . ولكن اولئك التعساء المنكودى الحظ لم يكونوا الا مسلمين ولم يكن ثمة مبشر الماني او أمريكي يشهد مصرعهم فيرسل الى بلاده التقارير الضافية بالآلام التى تكبدوها والاهوال التى قاسوها والغصص التى تجرعوها !!

فلنفرض جدلا ان الحكومة العثمانية نفت مليونا ونصف مليون من الارمن من ولايات الاناضول الشرقية وان زهاء ٦٠٠٠٠٠ منهم قد مات او قتل في الطريق اوسقط ضحية الجوع والتعب فهل يدري احدكم قتل من الاكراد والاتراك فى ولاية طرابزون وارضروم ووان وبتليس بصورة تقشعر منها الابدان بأيدي الارمن عندما زحف الجيش الروسي على تلك الولايات ؟ اني لاقرر هنا بأن عدد من قتل من الاكراد والاتراك ليربي كثيراً على مليون ونصف مليون . فان جاز أن يكون الاتراك مسؤلين عن المذابح الارمنية

فلماذا لا يكون الارمن مسؤلين عن المذابح التركية ؟ ألأن الاتراك والاكراد ليسوا في نظر الانسانية او فى نظر ماندلستام ومرجعتها واضرابهما باكبر قيمة من الذباب ؟

واني أناشد القراء أن يمعنوا النظر ملياً في التقريرين الروسيين الآتيين فان الناظر فيهما يدرك تمام الادراك مبلغ ماتغلغل في نفوس الارمن من الحقد على الاتراك ويرى أعمال التهور والعدوان التي أمعنوا فى ارتكابها ضد مواطنيهم المسلمين.

(مذكرة رسمية روسية) (مركز ادارة الجيش الروسى المتقهقر)

مذكرة الليفتانانت كولونيل توارد وخلييوف عن حوادث الاعتداء التي ارتكبها الارمن ضد الاهالي الاتراك فى ولاية أرضروم وما جاورها من مبدأ نشوب الثورة الروسية الى ان استردت الجنود التركية قلعة ارضروم فى ٢٧ شباط سنة ١٩١٨ .

مقـــدمة

في خلال الحرب ظهر ما بين الاتراك والارمن من العداء المعروف فى سائر الاندية الاوروبية بمظهر يعجز الوصف . فمن الامور المسلم بها ان الارمن لا يطيقون الاتراك ومن اجل ذلك دفعوا بأنفسهم الى ان يظهروا بمظهر الشهداء وان يثبتوا في أذهان العالم بأن مدنيتهم الراقية وعقيدتهم المسيحية هما السبب في انهم يذهبون ضحية لأعمال القسوة والوحشية التى لامثيل لها :

ولكن روسيا التى هى دون سائر الدول الاوروبية على أتم اتصال بالارمن لها رأي خاص في الطريقة التي يفهم بها الشعب الارمني معنى المدنية والاخلاق فلقد عرفتهم روسيا بالشح والشره والتطفل وعدم القدرة على المعيشة الاعلى أسلاب الغير . فالفلاح الروسي يعلم جيداً ما يدور فى خلد الامة الارمنيـة .

ولطالما سمعت كثيراً من الجنود الروس يقولون : - (لقد أساء الاتراك الى الارمن ولكن كان يجب عليهم ان يجعلوا اساءتهم تلك بطريقة اخرى فيستأصلوا شأفتهم ولا يتركوا ارمنياً واحداً على قيد الحياة) .

فان الارمن من الوجهة الحربية لا قيمة لهم مطلقا . ولقد كان الدور الذي لعبته جنودهم الملتحقة بالجيش الروسي تافهاً جداً نظراً لأنهم كانوا على الدوام يؤثرون الخدمة اليدوية في مؤخرة الجيش وان كانت حقيرة على الخدمة في خط القتال . وان في حوادث الفرار المتكررة منهم وجرحهم لأنفسهم لأسطع دليل على جبن ذلك الشعب ونذالته وعدم صلاحيته بتاتاً للاعمال الحربية

بيد ان سير الحوادث من بدء الثورة الروسية الى حين استرداد الجنود التركية لمدينة ارضروم يفوق الحسبان ويزيد بمراحل عما كان يتصور وقوعه من ذلك الشعب . وقد رأيت بعيني رأسي بعض الحوادث وسمعت بالبعض الآخر من شهود عيان أثق برواياتهم .

في سنة ١٩١٦ عندما احتلت الجنود الروسية مدينة ارضروم لم يسمح لأرمني واحد بدخول المدينة او الدنو من ضواحيها . ولما كانت قيادة الفيلق الأول الذي احتل المدينة بيد القائد كاليكين لم يؤذن لأي فرقة عسكرية تشتمل على عناصر أرمنية بالذهاب الى تلك الجهة . ولكن الحال تبدلت بعد نشوب الثورة الروسية وعدل عن هذه الاحتياطات . فانتهز الارمن تلك الفرصة لمهاجمة ارضروم وضواحيها وشرعوا يسلبون المنازل وينهبون القرى ويذبحون الأهالي .

ولم يجرأ الارمن مطلقا خلال الاحتلال الروسي على الامعان التحول ف بأعمال القسوة والوحشية وانما كانوا يقتلون وينهبون فى طى الخفاء . ولكن

لم تحل سنة ١٩١٧ حتى شرعت الجمعية الثورة الارمنية - ومعظمها من الجنود في تفتيش المنازل تفتيشاً عاماً بدعوى نزع سلاح الاهالي .

ولما كان ذلك التفتيش بلا اشراف تحول سريعاً الى نهب عام منظم على ايدي الجنود وقد ظهر أن شر الجنود الارمنية واقسامهم وقت النهب هم اجبنهم عن ملاقاة العدو في ميدان القتال .

وبينما انا ذات يوم اجوس شوارع المدينة ممتطياً جوادي اذ رأيت لفيفاً من الجنود الروسية قد حرضهم جندي ارمني ودفعهم الى سحب شيخين هرمين تركيين قد ناهزا السبعين من العمر . وكان ذلك الجندي في حالة تشبه الجنون اذ أخذ يضرب هذين الشيخين بسوط كأنه شواظ من نار بلا شفقة فحاولت ان أحمل الجنود على معاملتهما بشيء من الانسانية فذهبت محاولتي عبثاً ثم شخص الي ذلك الجندي وصاح مهدداً اياي بسوطه قائلا : - (أيجرؤ مثلك على حماية قاتلينا) ؟ وأقبل نحونا كثير من الارمن فانضموا الى صاحبهم فصرت في موقف حرج ازاء الجنود الروسية الذين كانوا وقتئذ ينتهزون اي فرصة لضرب ضباطهم بل والفتك بهم . ولكن ما لبث الحال ان تحولت الى الضد عند ما ظهر عسس من الضباط اذ اطلق الارمن ارجلهم للريح وشرع الجنود الروس يسحبون الشيخين برفق .

ولما اخذت جنود الصف الروس تعود الى ديارها خشينا ان ينتهز الارمن الباقون في خط القتال او النازحون الى ارضروم فرصة خلو تلك الناحية من اولئك الجنود فيعتدوا على الاهالي الاتراك قبل وصول وحدات الجنسيات الاخرى . ولكن احيانهم اكدوا انه لن يقع شيء من ذلك واعربوا عن رغبتهم الشديدة في السعي للتوفيق بين الشعبين وقالوا لنا - انهم سيعملون بعض

امور ملائمة تكفل نجاح مسعاهم .

والواقع انهم اخذوا يحولون مجري الحوادث في الحال بما يؤيدعواهم فان المساجد التي كانت حولت الى ثكنات قد طهرت من جديد واعيدت الى ما كانت عليه ونزعت منها الصبغة العسكرية . ثم شكلت فرقة المليشيامن الاتراك والارمن ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل اخذ الاخيرون يلحون فى عقد محاكم عسكرية لمعاقبة مرتكبي حوادث الاعتداء ضد الاتراك !

وسيظهر فيما بعد أن تلك المناورات كلها لم تكن الالذر الرماد في العيون ولتحويل الانظار عن اعمال الغدر التي وضعت خفية بحكمة ودهاء . فان الاتراك ألذين التحقوا بالمليشيا ما عتموا أن ضاقوا بها ذرعا بعد ان رأوا معظم الذين عينوا للقيام بأعمال العسس فى جنح الظلام اختفوا بطريقة غريبة فلم يقفوالهم على اثر وان الاتراك الذين اختيروا للعمل في الحقول اختفوا ايضاً دون ان يتركوا وراءهم اثراً . حتى ان اعضاء المحكمة العسكرية انفسهم صاروا يخشون الحكم بالعقوبات خوفاً على ارواحهم . فاستمر القتل والنهب حتى لقد قتل بكير حاجي افندي عين اعيان ارضروم في عقرداره فيما بين آخر كانون الثاني واول شباط . فاضطر القائد او ديشليتز ان يصدر الى الضباط المشرفين على الجنود امراً بالقبض على القاتل فى خلال ثلاثة ايام . ولكن امره هذا ذهب صيحة في واد وانحن القائد العام باللائمة على قواد الكتائب الارمنية ووبخهم عدة مرات اشد تدبيخ على الفوضي التي ضربت اطنابها بين رجالهم وناشد وجهاء الارمن والفت نظارهم الى الفظائع التي ارتكبتها الجنود ومنها اختفاء نصف العمال الاتراك الذين اختيروا للعمل فى الحقول . وقال لهم : ـ (ان الارمن اذا كانوا يتبغون حقاً التمتع بادارة الاراضي المحتلة فعليهم اقامة البرهان على

انهم اهل لذلك العمل وأما تلك الجرائم فليست الامسبة لسمعة الشعب الارمني ولما كانت الحرب ما زالت قائمة ولم يكن مؤتمر الصلح قرر شيئاً بمنح الارمن تلك الارض كان الواجب عليهم ان يسلكوا في عامة احوالهم مسلكا يدل على انهم امة خليقة بالحرية .

فما كان جواب الزعماء الارمن الا ان قالوا - ان شرف شعب بأسره لايدنس بهذه الجرائم التي ترتكبها اقلية لاحيثية لها . وقالوا - ان عقلاء الارمن باذلون اقصى مجهوداتهم لوضع حد لهذه الاعمال الانتقامية ضد الجور التركي الذي ارهقهم في الزمن الماضي . ثم قالوا انهم مشغولون بسن قانون شديد لمعاقبة المذنبين وانهم سينفذونه بمنتهى السرعة وبالعدل والمساواة فما هو ان مضى على تلك التأكيدات المتكررة زمن يسير حتى علمنا بالمذبحة التركية في ارزنجان . ولقد سمعت بأذني التفصيلات الآتية من القائد العام اوديسيلدز ولم تكن المذبحة بتحريض من العصابات بل الذي دعا اليها طبيب المدينة ومتعهد توريدات الجيش . وحيث اني اجهل اسماءهما اكتفى بذكر التفصيلات المذكورة كما رواها القائد وهي :-

« قتل نيف وثمانمائة من الاتراك العزل من السلاح . وكان الارمن قد حفروا حفراً عظيمة قذفوا فيها بجثث اولئك الاتراك المساكين بعد ان ذبحوهم ذبح البقر . وقد باشر احد الارمن عملية الذبح وجعل يعد هؤلاء الضحايا المنكودي الحظ . فصاح بملء فيه - (لقد قذفنا في تلك الحفرة بسبعين جثة ومازالت تسع عشر جثث اخرى فهلموا !) واذ ذاك ذبح عشرة اشخاص آخرون لسد الفراغ ثم اهيل التراب عليهـــا . واراد متعهد توريدات الجيش ابتكار شيء يسلى به نفسه . فحبس ثمانين من اولئك الضحايا التعساء في منزل

واحد يخرجهم منه الواحد تلو الآخر بعد تهشيم جماجمهم بيده » .

ولما فرغ الارمن من مذبحة ارزنجان اخذوا يتسللون الى ارضروم وكان احد الضباط الروس الذي تولي بيضعة من المدافع حماية مؤخرة الجيش المتقهقر من مهاجمات الاكراد قد حاول ان يقود كتيبة ارمنية الى خط القتال . ولما لم تكن لها رغبة فى ذلك نكصت على اعقابها ثم اشعلت النار فى المنزل الذي كان الضباط الروس مقيمين فيه - يريدون بذلك التخلص منهم ومن اوامرهم . غير ان الضباط نجوا بعد لأى ما من انيات الموت بعد ان فقدوا امتعتهم كلها .

وحرقت العصابات الارمنية في طريقها من ارزنجان الى ارضروم كل ما مرت عليه من القرى الاسلامية وذبحت سكانها .

وفى اثناء التقهقر الروسى الى ارضروم استخدم الاكراد وغيرهم من الاهالى المسلمين فى تلك الجهة سواقين لعربات الذخيرة . ولم يكن فيهم رجل واحد معه سلاح . وما كادوا يقتربون من ارضروم ويتركهم الضباط الروس فى طلب الراحة حتى هب الارمن وامعنوا فيهم قتلا وتمثيلا ولما ازعج الضباط الروس صراخ اولئك البؤساء وثبوا من مراقدهم وهرولوا اليهم فقابلهم الارمن بمسدساتهم وانذروهم بسوء المصير اذاهم اجترؤوا على التدخل . وكانت اعمال القتل هذه مصحوبة بفظاعة ووحشية قلما سمع مثلها .

وقد اعلن ميد يضاني ضابط الطوبجية الروسي على ملأ من الناس فى نادي الضباط بأرضروم انه شهد بنفسه المنظر الآتي وهو : -

ان ارمنياً جرح احد السواقين الاكراد جرحاً بليغاً حتى خر على الارض يعالج سكرات الموت فحاول الارمني وقتئذ ان يزج العصا التي كانت

في يده في حلقوم فريسته . ولكن فكي الصريع كانا قد انطبقا ويبسا فلم يستطع هذا الوحش الضاري ان يتمم فعلته السوأي فازداد في وحشته فانهال على فريسته ضرباً ورفساً في بطنه حتى قضي عليه .

وقد اخبرني القائد او ديشبليدز نفسه بان الاتراك الذين لم يستطيعوا الفرار من قرية عليجي ذبحوا ذبح الانعام وانه رأي بعيني رأسه عدداً من جثث الاطفال وقد فصلت عنها رؤوسها بالآت غير حادة ومثلمة .

وقص علي الليفتننت كولونيل جزيا ذنوف وكان قد عاد من قرية عليجي يوم ٢٨ شباط اي بعد المذبحة بثلاثة اسابيع ما رآه بعيني رأسه وهو :

(كان ارتفاع كومة الجثث في صحن المسجد طول رمحين وكانت خليطاً من جثث الرجال والنساء والاطفال وعجائز وأفراد في مختلف العمر فأخذ جزيا زنوف فتاتين من بنات الارمن اللاتي في مصلحة التلفون وذهب بها الى صحن المسجد واراهما الفظائع التى اجترحها مواطنوها وقال لهما – وهو يكاد يتميز من الغيظ والجزع – اهذه الاعمال تصح المباهاة بها ؟ ولقد استولت عليه الدهشة والذهول حتى كاد يفقد صوابه ويقتله الغيظ لما تبين له منهما – ان هذا المنظر الفظيع المروع لم يحرك لهما عاطفة ولم يترسخطهما بل جعلتا تضحكان ضحكا عالياً . فانهال عليهما بالسب والشتم واللعن وصرخ فيهما قائلا ان الارمن رجالهم ونساءهم هم اجبن شعوب الارض قاطبة واكثرهم وحشية وخسة ونذالة وان اغراق فتاتين من فتياتهم المهذبات في الضحك لمنظر يروع الانسانية وتقشعر منه الابدان ويقف لهوله شعر رأس احد الضباط لأوضح دليل على وحشية ذلك الشعب . فلما سمعت الفتاتان هاته الكلمات تكلفتا ان تتظاهرا بالتأثر وقالتا – ان ضحكهما كان ضحك ذهول . ولكنه لم يقبل

منها ذلك بعد الذي رآه منها) .

وقد حدثني متعهد ارمني لفرقة خط المواصلات في عليجي - فقال : -
في يوم ٢٧ شباط صلب الارمن امرأة تركية على حائط من الحيطان وهي حية ثم شجوا رأسها وبقروا بطنها ونكسوها فجعلوا رأسها الى الارض ورجلها الى السماء .

وفي اليوم السابع من شباط ابتدأت المذبحة الكبرى في ارضروم . فقد قبض جنود الطوبجية الارمن في الطريق على ٢٧٠ من الاهالي وصلت شهوة الانتقام في نفوسهم الشريرة على حبسهم في الحمام بعدان جردوهم مما عليهم من الثياب . فبذلت جهد الطاقة حتى تمكنت من انقاذ مائة من اولئك المنكودي الحظ وكانوا لايزالون احياء . وقدزعموا أن الجنودهم الذين اطلقوا سراحهم وكان المسؤل عن تلك الضربات احد ضباط الصف الارمن المشاة المسمى (بكرابيدوف) الذي كان يخدم مع الطوبجية . وفي مساء اليوم نفسه قتل عدد كبير من الاتراك في شوارع المدينة . وفي اليوم الـ ١٢ من شباط اطلق الارمن النار على عشرة من الفلاحين المسلمين العزل من السلاح في محطـة ارضروم . وقد اراد الضباط انقاذهم ولكن الجنود هددوهم بالقتل .

وقد اعتقلت في ذلك الوقت ارمنيا قتل تركيا بلا مسوغ . وامر القائد العام بمحاكمته امام محكمة عسكرية . ولما كان القانون المعمول به من قديم الزمن ينص على ان القاتل عقابه القتل اخبر احد ضباط الارمن القاتل بأنه سيعدم عقاباً على جريمته فصاح القاتل صياح المستغرب قائلا : - (اصحيح هذا ؟ ! وهل يشنق ارمني من اجل تركي ؟ ! ! وهل سمع احد بمثل هذه الغرائب)؟

واشعل ارمن ارضروم النار في خان تركي . وسمعت في اليوم الـ ٢٧

من شباط ان أهالي قرية (طيبه كوى) الواقعة فى كتيبة الطوبجية قد أبيدوا على بكرة أبيهم رجالا ونساء واطفالا . فقابلت فى ذلك اليوم (اندرانك) الذي ارسلته حكومة القوقاز الى ارضروم بصحبة الدكتور زواريف لاعادة النظام والسكينة واخبرته بالمذبحة وطلبت اليه أن يبحث عن المسؤلين عنها ولم اسمع الى الآن بنتيجة هذا الطلب . وكان قدوعدعلناً في كازينو ضباط الطوبجية أيضاً باعادة النظام ولكنه لم يف بوعده وظل الحال كما هو .

الا ان القلاقل قد خفت نوعا ما فى المدينة . أما في القرى فقد عادت السكينة طبعاً وكيف لاوقد أبيد من فيها من الاهالي ؟ ولكن اعتقال الاهالي الاتراك فى ارضروم قد استؤنف من جديد لما بدأت الاعمال الحربية تنذر باقتراب الجيش التركي من عليجي وكثرت حوادث الاعتقال بصفة خاصة فى يومي ٢٦ و٢٧ شباط . وفى ليلتي ٢٦ و٢٧ شباط فلت الارمن من رقابة الضباط الروس وقاموا بمذبحة اخرى ولكنهم ما لبثوا أن اسلموا سوقهم للريح عند ما علموا بقدوم الاتراك . ولم تك تلك المذبحة وليدة ساعتها بل كانت مدبرة من قبل . فانهم جمعوا من قبض عليهم وقتلوهم الواحد تلو الآخر وجعلوا يتفاخرون علنا بأن غنيمتهم في تلك الليلة جاوزت ٣٠٠٠ قتيل تركي !

وكان عدد المكلفين منهم بالدفاع عن المدينة قليلا حتى انهم ولو الادبار من امام جيش تركي مؤلف ومكون من ١٥٠٠ مقاتل ومدفعين . ومع ذلك كان عدد من قتلهم الارمن في ليلة المذبحة كثيراً جداً .

ولقدكان في وسع الطبقات المتعلمة من الارمن منع هذه المذبحة ولكنهم لم يفعلوا فوقر فى الاذهان اذن ان تلك الطبقات لعبت فى تلك الجرائم دوراً يفوق كثيراً الدور الذي لعبته العصابات وان المسؤلية الكبرى على كل حال

يجب ان تقع عليها فان الطبقات العالية لها تأثير كبير على الدهماء . وكانت كتيبتي مكونة من الضباط الروسيين والجنود الارمنية . ومع اننا لم يكن لدينا وسيلة للأخذ على أيديهم قد استطعنا ان نحملهم على الطاعة لاوامرنا جميعها . فلم يجترؤوا على السلب والنهب علناً حتى انه لم يقتل في ليلة المذبحة خادم واحد من الخدم الاكراد الذين كانوا في الثكنات مع انها كانت غاصة بعدة فصائل من تلك الكتيبة على انه لم يكن موجوداً سوى ضابط نوبتجي روسي واحد في حين ان اربعين من الخدمة الاكراد كانوا وسط مئآت من جنود الارمن .

ولست اريد ان اقول ان الامة الارمنية كلها بلا استثناء كانت سواء في تلك الجرائم بل كان منها من لم تكن له يد فيها . فلقد قابلت عدداً من الارمن فألفيتهم يستنكرون وقوعها ومنهم من احتج عليها بالفعل لا بالقول فقط . ولكني مع ذلك ارى نفسي مسوقاً الى القول ـ بأن امثال هؤلآء ليسوا الا افراداً قليلين جداً ومواطنوهم يظنون بهم الظنون ويتهمونهم بالخيانة والسعاية ضد الاماني الوطنية . وهناك فريق من الارمن يتظاهر ببغضه تلك الاعمال الوحشية ويمقتها ولكنه يقرها في الخفاء . ومنهم فريق آخر التزم الصمت حيال كل زجر وتعقيب . ولكن اغلب الارمن لا يسمع الانسان منهم الا قولهم في الرد عليه (انكم روسيون على كل حال فلا يمكنكم ان تفهموا اماني الشعب الارمني) وتراهم تارة يحاولون الدفاع عن انفسهم قائلين : ـ (وهل عامل الاتراك الارمن في الماضي معاملة غير هذه ؟) وهي كلها حوادث تدل اوضح دلالة على ماهية أماني الشعب الارمني وولعه على اختلاف طبقاته بسفك الدماء .

ولم يكن في استطاعة أحد ان يحول دون وقوع هذه الفجائع . لقد

زرع الارمن الريح دون ان يتبصروا في العواقب او يظنوا انهم سيحصدون زوبعة

تحريراً بارضروم في ١٦ شباط سنة ١٩١٨ . الامضاء

الليفتننت كولونيل توارد وخليبوف القومندان الموقت لحاميتي ارضروم وديفبوين وقائد كتيبة المهندسين والطوبجية .

مذكرة رسمية مقدمة من كتيبة الطوبجية الثانية التابعة للحامية الروسية في ارضروم .

فى منتصف شهر كانون الاول سنة ١٩١٧ جلا الجيش الروسي في القوقاز عن الاماكن التي كان احتلها من قبل ثم شرع بدون وصول تعليمات من مركز القيادة العليا وبدون أوامر قائد من القواد في الانسحاب والتقهقر وتولت كتيبة الطوبجية للحامية حماية مؤخرة الجيش . وتخلف من الفصائل التي كانت مرابطة فى قلعة ديفى بونيو وكتيبة الطوبجية فى ارضروم اربعون ضابطاً فقط . وقد قضى عليهم الواجب ان يقفوا بجانب مدافعهم حتى بعد ان تركتهم جنودهم . وكان في القلعتين نيف واربعمائة مدفع تركت لعدم وجود وسائل لنقلها . فرأي الضباط ان الشرف والواجب يحتمان عليهم الانتظار ريثما يصلهم الاذن من القيادة العليا اما بترك المدافع واما بالاستمرار في الدفاع حتى تأتيهم الأمدادات . وبهذه الطريقة تكون (كادر) الكتيبة الطوبجية الثانية من ضباط الكتيبة الاولى .

وما كاد يتم انسحاب الجيش الروسي حتى تشكلت فى ارضروم لجنة اطلقت على نفسها اسم (اللجنة الثورية الارمنية) . وفى الوقت نفسه بعث قائد الجيش الى الكتيبة الثانية الطوبجية من كتاب الحامية باربعمائة من الارمن غير المدربين ففر معظمهم ولم يمكن استخدام الباقين الا فى حراسة بطاريات القلعة

وقبيل انسحاب الجيش - اى لما فقد الاتصال بين روسيا وفيما وراء القوقاز - تألفت في تفليس حكومة وقتية سمت نفسها « لجنة ما وراء القوقاز » فأعلنت انها لاتنوي بتاتاً ايجاد حكومة مستقلة لما وراء القوقاز بل ان هـذه البلاد ستبقى فى المستقبل كما كانت فى الماضي تابعة لروسيا ولـكن تتولى اللجنة تمثيل الحـكومة المركزية ريثما يستتب النظام .

وفي يوم ١٨ كانون الاول سنة ١٩١٧ أصدرت اللجنة منشوراً عاما قالت فيه : - ان الجيش الروسي المبعثر سيتألف بدله جيش جديد على اساس قوى يتكون من ثلاثة فيالق الاول روسي والثاني كرجي والثالث مسلم ومن بضع فصائل من العناصر الثانوية كالجراكسة والأوس وغيرهم . وظلت طوبجية قلعتى ارضروم ودبفى بونيو وحدها محافظة على شعارها القديم « أى مكونة من جنود العناصر المختلفة » الى أن يبت فى أمر تلك الوحدة المؤلفة من ضباط روسيين وجنود ارمن . وقد كان جليا ان هذه الوحدة التي كان (كادرها) من الروس وقيادتها بأيدي الروس لا يمكن الادعاء بأنها وحدة أرمنيـــة . وفضلا عن ذلك لم يصل الينا اى أمر عن الصبغة الارمنية لهذه التشكيلة التى كانت لاتزال تعتبر روسية نظراً لأن ضباطها كانوا من الضباط العاملين الذين خدموا في الجيش الرومي واستولوا على مرتباتهم من الخزينة الروسية. اضف الى ما تقدم أن مذهب الجيش لم يكن ارمنيا بل روسياً وان الصلوات كانت تتلى بواسطة الـكهنة الروس وهو دليل آخر على صبغة الوحدة الروسية .

ومن حين انسحاب الجيش - الذى بدأ من شهرين - لم يمكن اعادة النظام بين الجنود الذين جعلوا يفرون من الصف ويقومون بأعمـال السلب والنهب ويهددون ضباطهم بالقتل وكانوا بالجملة في تمرد تام . وقد عين الـكولونيل

توركوم - وهو بلغاري أرمني كايزعمون - قائداً لارضروم .

وفي منتصف شهر كانون الثاني سنة ١٩١٨ قتل ارمن كتيبة المشاة وجيها من وجهاء الاتراك في ارضروم في عقر داره ونهبوا منزله . فجمع القائد العام أو ديشيلدز قادة الفصائل وطلب اليهم اقتفاء أثر مرتكبي هذه الجريمة الشنعاء والقبض عليهم في مدة لاتتجاوز ثلاثة ايام . التفت الى الضباط الارمن قائلا : (ان هذه المسألة تمس شرف الشعب الارمني . فيجب عليكم اذن ان لا تقصروا فيما هو واجب والا تدعوا وسيلة من الوسائل للعثور على الجناة ان كان يهمكم حسن سمعتكم لدى العالم) .

ثم قال : - (واذا لم يوضع حد لهذه الاعتداءات التي تقع المسؤلية فيها على عاتق الارمن فلا مندوحة لي من توزيع السلاح بين الاهالي المسلمين ليتمكنوا من الدفاع عن انفسهم واموالهم) . فرد الكولونيل توركوم على هذا الاتهام بلهجة الموتور قائلا : - ليس من العدل في شيء وجعل امة بأسرها مسؤلة عن جرائم بضعة افراد منها) . ثم اقترح قادة الفصائل تشكيل محكمة عسكرية لمعاقبة القاتل بالقتل . فأجابهم او ديشيلدز بانه قد اتخذ فعلا الاجراءات اللازمة .

واني لأذكر وما عهدى بذا كرتي تخونني - ان الكولونيل توركوم استعرض جنوده في يوم ٢٥ كانون الثاني وامر باطلاق واحد وعشرين مدفعاً ليوقع في روع الاهالي سطوته الحربية . والقى وقتئذ خطابا بالارمنية ألحن فيه باشد اللائمة على القائد او ديشيلدز واعلن فيه استقلال ارمينيا قائلا : انه انما استلم اعنة الحكم بصفة كونه رئيساً للدولة الجديدة . وبعد ان اصغى القائد الى هذا البيان من (رئيس الدولة الجديدة) أصدر امره بابعاد

الـكولونيل توركوم من ارضروم .

وحسب هذا العمل دليلا على ان الحـكومة الروسيـة كانت مصممة ـ كلفها ماكلفها ـ على عدم انشاء دولة ارمنية مستقلة . وقد نمى الي ان هيئة اركان الحرب الروسية صرحت للارمن مرات متواليات بأن اعطاءهم السلاح والذخيرة ومواد الحزب الاخرى اولا من مستودعات الجيش فى ارضروم ثم من المستودعات الاخرى لم يكن الا بصفة وقتية نظراً لعدم وجود جنود اخرى وقتئذ . وان هذه الاسلحة انما هي عارية لدى الارمن فلا مندوحة من ردها متى طولبوا بذلك .

وفي تلك الايام كان الارمن يرتكبون اروع الآثام وافظع اعمال القتل ضد الاهالي الاتراك الفقراء بالقرب من ارزنجان . وكان الاتراك عزلا من السلاح مجردين من كل وسائل الدفاع . فما كاد الارمن يسمعون باقتراب الجنود الاتراك حتى اعملوا في الاهالي القتل والسلب من جديد ثم فروا فى اتجاه ارضروم .

وتؤكد تقارير القائد العام المدعمة بشهادة الضباط الذين شهدوا الحادث ان الارمن ذبحوا نيفا وثمانمائة من الاتراك فى ارزنجان وبهذا ثاروا لأحد شركائهم الاوغاد وكان قد قتله احد الاتراك جزاء وفاقا في اثناء دفاعه عن نفسه . وفضلا عن ذلك قد استأصل الارمن اهـالى قرية عليجى القعساء بالقرب من ارضروم ذبحاً حتى النساء والاطفال .

وفى اليوم السابع من شباط نمى الي خبر الحادثة الآتية وهى : ـ

(كنت اخبرت ان رجال المليشيا والجنود الارمن فى المدينة يسوقون مئات من المسلمين الى جهات غير معلومة . فلما سألت عن السبب قيل لى ان

اولئك الرجال يستخدمون لتنظيف السكة الحديد من الثلج المتراكم عليها .
فارتحت حين سمعت ذلك الرد . بيد ان القصة الآتية تثبت ان الحقيقة كانت
على العكس مما قيل) .

فلقد اخبرني تليفونياً حوالى الساعة الثالثة الملازم الثاني ليسكى احد
الضباط التابعين لكتيبتي ان شرذمة من الجنود الارمن اعتدوا على خمسة
من الاتراك في الطريق . وانهم ساقوهم الى ركن من اركان الثكنة ثم انهالوا
عليهم بالضرب المبرح بلا شفقة حتى كادوا يقضون عليهم . وقد قوبل
الضابط الروسي الذي اراد ان يحول بينهم وبين اولئك التعساء بالتهديد
والوعيد . واذ ذاك ثارت ثائرة احد الضباط الارمن وكان حاضراً وانضم
الى تلك الغوغاء وحاول منع ليسكى من التدخل . وما كدت اسمع بذلك حتى
اسرعت الى مكان الجريمة ومعى ثلاثة من الضباط . وبينما انا فى الطريق اذ
قابلت الضابط الذي حادثني ومعه ستاورسكى محافظ ارضروم وهما يبحثان عن
صديق لهم من الاتراك قبض الارمن عليه . فاخبرني ليسكى ان الجنود قد
احتلوا مدخل الثكنات وهم شاهرون سلاحهم يحولون دون ولوجه . ولكنني
واصلت المسير . فرأيت عند اقترابي منها اثنى عشر تركياً يغادرونها فراراً
وقد تولاهم الذعر والوجل . فاستوقفت أحدهم وسألته ما شأنهم فاعياني فهم
اقواله فاستحال علي ادراك مراده . وبعد عناء طويل دخلت الثكنة . فتساءلت
في الحال عما صار اليه امر الاتراك الذين قبض عليهم في الطريق فاكدلى
الجنود ان ليس ثمة واحد من اهالى المدينة الملكيين فى الثكنات . ولكنني
لم اعبأ بقوله بل اخذت بنفسي في تفتيش كل جهة وكل زاوية من زواياها
وبعد لأى ما عثرت فى الحمام على سبعين من الاتراك ذهبوا ضحية القسوة

الوحشية التي يندر وجود مثلها . فأمرت توا بعمل تحقيق ثم امرت بالقاء القبض على ستة من الارمن المسؤلين عن هذه الجريمة المروعة . وقد علمت في خلال التحقيق ان ارمنيا - لم يمكنني تحقيق شخصيته - قد اطلق النار على احد المسلمين التعساء لا لذنب سوى وجوده على سطح احد المنازل المجاورة للثكنات . فلم يسعني الا ان امرت فوراً باطلاق سراح ذلك المسكين الذي كان ضحية ذلك الاعتداء الفظيع . اما تفاصيل التحقيق وسجلاتي الخاصة ومن ضمنها بيان اسماء المسلمين الذين امكنني انقاذهم فقد فقدت اثناء استرداد الأتراك لمدينة ارضروم في يوم السابع والعشرين من شباط . ولكن هذه الحادثة يمكن التثبت من صحتها لسؤال الاتراك انفسهم الذين ما فتئوا يكيلون لنا الحمد والثناء اينما قابلناهم . وفضلا عن ذلك فان على بك بوبوف سكرتير المحافظ ستار وسكى الذي كتب البيان والبروتوكول يستطيع بلا مراء تمييز الاشخاص المذكورين .

واظهر التحقيق ان المدعو (كراجيدوف) احد التلاميذ الارمن والملحق بكتيبة الطوبجية هو المحرض على هذا العدوان . فانه في اثناء تفتيشه القاسي لمنازل الاتراك الذي قام به ومعه عدد من الجنود الارمنية المدربين على مثل تلك الاعمال تمكن من الاستيلاء على كثير من الاثاث والامتعة المنزلية . فالقي القبض على كراجيدوف وآخرين من الجنود الارمن . وقد ابلغت القائد العام بحضرة زينالوف مندوب الحكومة ومساعده تلك الحوادث في مساء اليوم نفسه . وفي اليوم نفسه قتل الارمن اكراداً آخرين واشعلوا النار في احدى الخانات . ورددت الالسن ارتكاب حوادث قتل عدة في خلال تلك الايام في ارضروم وضواحيها . وقد قبضت بنفسي على ارمني قتل

عدة اتراك بالقرب من طفطة وسلمته الى القومنـدان . وذاع فى المدينة أن الاتراك الذين اكرهوا على العمل فى الحقول لم يعودوا الى منازلهم ولا يعرف شيء عن مصيرهم . وقد أبلغ رجال الشرطة القائد العام امر اختفائهم .

ثم طلبنا الى القائد العام فى التقرير الذي رفعناه بمناسبة اجتماع عقده الضباط ان يأذن لنا بمغادرة قلعة ارضروم اذ لا فائدة من مقامنا بها واستحالة منع الارمن من ارتكاب الجرائم حتى لقد خشينا ان تلوث سمعتنا . فاخبرنا اوديشيلدز بوصول برقية لاسلـكية من القائد وهيب باشا قائد الجيوش التركية يقول فيها : ـ أنه كلف باقامة حامية في ارزنجان واستمرار الزحف الى أن يتصل بالجنود الروسية . وقـــد قال وهيب باشا : ـ ان تلك هي انجع وسيلة لوضع حد للاعمال الوحشية التي يقوم بها الارمن ضد الاهالي الاتراك .

ثم شرعت لجنة ما وراء القوقاز بعد ذلك في عرض الصلح على الحكومة العثمانية . فأجاب القائد التركي بقبول الاقتراح قائلا : ـ انه ابلغه الى حكومته موصيا بقبوله . وقد طلبنا الى القائد اوديشيلدز ان يفتح باب المفاوضـة مع جيجتشكوني رئيس لجنة ما وراء القوقاز والقائد العام لبيدنسكي .

فجاء فى الرد ما معناه ـ ان انذاراً نهائيـــاً ارسل الى المجلس الوطني الارمني بطلب وقف الفظائع الارمنية فى الحال ولوضع حد نهائي لهذه الفجائع وان الدكتور زوار ييفر واندرانك قد ارسلا الى ارضروم كمندوبين . اما فيما يتعلق بطلب الضباط فان المندوبين يشيرون عليهم بالبقاء في مناصبهم ريثما يصل رد الحـكومة العثمانية على اقتراحات الصلح . ثم اعرب مجلس ما وراء القوقاز شكره للضباط على ما ادوه من الخدم واعلن ان روسيا لو اصبحت مهددة بخطر جديد فان الضباط لن يتأخروا عن تأدية الواجب الى اللحظة الاخيرة .

واصدر القائد العام امراً يومياً أوصي فيه الضباط بعدم مغادرة مراكزهم قائلا - انه رغبة في صيانة شرفهم وحفظ ارواحهم سينفذ أقصى عقوبة على الجناة من الارمن . وعلى هذا ابقينا في ارضروم لا لغرض سوى الدفاع عن مصالح روسيا وتحت اشراف القائد العام وحده . وقدعلمنا ان الحكومة العثمانية تقبلت بقبول حسن اقتراح لجنة ما وراء القوقاز وارسلت ردها بهذا المعنى وان مفاوضات الصلح ستبدأ في طرابزون فى اليوم السابع عشر من شباط .

واكد قائدنا للضباط أن ليس ثمة نية ما في مناصرة الجنود التركية فى ارضروم ريثما يبرم الصلح ووقتئذ يبت بمقتضى شروط الصلح فيما اذا كانت الاسلحة ومواد الحرب الاخرى تنقل الى روسيا او تسلم نهائياً الى الحكومة التركية

اما اذا حاولت الجنود العثمانيـــة ان تحتل ارضروم لاى ما سبب قبل توقيع الصلح فينبغي تعطيل المدافع بطريقة منظمة وانسحاب الجنود والضباط الى داخل روسيا . وستصدر الاوامر الخاصة بهذه الاجراءات قبل ذلك باسبوع على الاقل .

واخذت الحاجه الى الدفاع عن انفسنا ازاء اعتداءات الاكراد الى حين ابرام الصلح تزداد وضوحاً بتوالي الايام فان الحكومة العثمانية كانت قد اعلنت فى خلال الهدنة انها غير مسؤلة عن اعمال الاكراد الذين اصبحوا احرار فيما يفعلون وغير خاضعين لقانون ما . فقرر القائد في اواخر كانون الثاني تعزيز خط المواصلات فيما بين ارضروم وارزنجان بعدد كاف من المدافع لصد هجمات الاكراد الذين حاولوا نهب المستودعات الموجودة على طول خط المواصلات المذكور . وعهد الى ضابط معه مدفعان بحراسة كل من النقطتات الاهمية الفنية . فلما انسحب الارمن من ارزنجان وارضروم سحبوا المدافـع

معهم . وفي اليوم العاشر من شهر شباط وضع مدفعان في كل من الامكنة الممتدة
على طول الخط من بويوك كيريمدلي الى طرابيزون لغاية اريب ميشان كما نصبت
المدافع في سائر الاحياء المهمة في المدينة للغاية نفسها . ونظراً الى احتمال قيام
الاكراد بالهجوم من ناحية بالان دوبخنو نصبت المـــدافع ايضاً بين بوابتي
القرظ وخربوط . غير ان هذه المدافع التي لم تنصب الا لصد هجمة محتملة من
الاكراد - وكانت بالفعل غير كافية - تصبح طبعاً لاقيمة لها بالمرة امام جيش
منظم مزود بالمدفعية الحديثة اذ تكفي بضع طلقات منه لاسكاتها نهائياً . وفي
منتصف شباط جمعت المدافع المنصوبة في النقط البعيدة وسلمت الى المستودع
الرئيسي فلم يبق إلا اتخاذ الاجراءات نفسها حيال المدافع الموجودة في النقط
القريبة . وصدرت الاوامر بجمع المدافع في بالان دوبخنو ولكنها لم تنفذ
أصلا . أما النقط التي كان من المحتمل استعمالها ضد الاكراد فظلت المـدافع
منصوبة فيها . وعلى كل لم يتوقع احد ان تقوم الجنود التركية في القريب العاجل
بهجوم ما . لأن قوتها المعنوية لم تكن تسمح لها باستئناف الزحف قبل حلول
فصل الصيف . وفي الثاني عشر من شباط قتلت العصابات الارمنية المسلحة اثنى
عشر تركياً في رابعة النهار بالقرب من المحطة . فحاول ضابطان روسيان اثارت
ثائرهما هذه الاجترآت الدنيئة أن يمنعا ذلك ولكنهما اضطرا ازاء تهديد
العصابات الى العدول عن رأيهما وترك الضحايا وشأنهم .

واذ ذاك اعلن القائد العام وجود حالة حصار في اليوم التالي (١٣ شباط)
وعقد محكمة عسكرية لمجازاة القاتل بالقتل كما تقضي بذلك قوانين سائر البلاد .
وقد عين الكولونيل موريل قائداً لقلعة ارضروم وأرمني آخر لرئاسة المحكمة
العسكرية . وفي اليوم نفسه غادر القائد العام والقائد جيراسيموف المدينة لتحديد

موعد مناسب ـ اذا اقتضي الامر ـ لسحب المدفعية . وتخلفت في ارضروم للاشراف على مدفعية الحامية . وتألفت هيئة أركان حرب الكولونيل موريل من الضباط الروس فحسب بينما كان الكابتن شناوراد جونانت الكتيبة .

بيد ان الكولونيل موريل غير خطته على اثر رحيل القائد العام اذ أعلن ان الدفاع عن أرضروم سيستمر الى آخر لحظة وحظر على سائر الضباط ومن يقدر على حمل السلاح من الاهالي الخروج من المدينة ولما عرضت على المحكمة العسكرية رغبة بعض الضباط فى الاستفادة من ذلك الاذن أجاب احد الاعضاء وهو ارمني يدعى سوخوينان بجفاء وغلظة قائلا : ـ (لأقطعن اربا اربا كل من يحاول مغادرة المدينة ولآمرن القوات الارمنية فى كو برى كوى وحسن كيل بالقبض على كل من تحدثه نفسه بالفرار ولا حضرته امام المحكمة العسكرية ما لم يكن لديه جواز) ولما كان هو الشخص الوحيد الذي عهد اليه اعطاء تلك الجوازات أدركت ـ اننا قد اصبحنا في شرك يصعب جدا التخلص منه وان المحكمة العسكرية وحالة الحصار صارت اشد خطراً على الضباط الروس انفسهم منها على العصابات .

ولم تخف وطأة الاجرام فى المدينة وظل الاهالي الاتراك المساكين العزل من السلاح عرضة لاعتداءات الارمن المتوالية . فلم يجدوا ملاذاً الا في ظل الضباط الروس الذين لم يكن فى استطاعتهم أن يمدوهم الا بالشطر القليل من الحماية . ولقد اضطر بعض الضباط بزعامتي الى الالتجاء للقوة لانقاذ حياة تركيين حاول الارمن نهبهما فى الطريق . وأطلق مهندس حربي يدعى كاريف النار على ارمني حاول الفرار بعد ان نهب أحد الاتراك فى الشارع فى رابعة النهار . وهكذا ظل الوعد بمعاقبة رجال العصابات الذين يقتلون المسلمين

العزل من السلاح كغيره من الوعود حبراً على ورق .

وخوفاً من اغضاب الارمن ودفعهم الى الانتقام لم تجرأ المحكمة العسكرية على معاقبة آرمني واحد بالرغم انها لم تشكل الا بناء على رغبة الارمن انفسهم وفضلا عن ذلك لقد توقع الاتراك من قبل بأن المحكمة العسكرية التي انما شكلت من العنصر الارمني فقط ان تقدم بمجال من الاحوال على معاقبة احد من مواطنيها . وهنا تبينا صحة المثل القائل - (ان الذئب لا يعض اخاه) . وما أسرع ما فر الارمن القادرون على حمل السلاح ومعهم زوجاتهم محتجين بضرورة حمايتهن .

ثم نمى الي ان احد صف الضباط المسمى كاراجيدوف قد اطلق سراحه من السجن بغير اذني . فسألت الكولونيل عن ذلك - فقال - ان التحقيق الجديد أثبت براءة المتهم ! ومع انني كنت انا وضابطان آخران شهود اثبات في هذه القضية لم يدع احد منا نحن الثلاثة لسماع اقواله في ذلك التحقيق الجديد الغريب . فساءني رد الكولونيل موريل وكتبت تقريراً بالحادث من جديد وسلمته هو والتفاصيل الى الكولونيل الكساندروف . وهكذا مضى القاتل الذي قبضت عليه بنفسي في جهة طافطا بلا عقاب .

وكان الكولونيل موريل يخشى تمرد الجنود التركية المقيمة في ارضروم وقد وصل الى تلك المدينة في اليوم الـ ١٧ من شباط اندرانك ومعه الدكتور زافريف مساعد مندوب المنطقة المحتلة . واذ كنا نجهل الشؤون الارمنية جهلا تاماً لم يدر بخلدنا مطلقاً ان اندرانك هذا كان نفسه احد المجرمين الذين حكمت عليهم الحكومة العثمانية بالاعدام . ولم اقف على هذه الحقيقة الا من محادثتي للقائد التركي أول مرة في اليوم الـ ٧ من آذار . وقد طلع علينا اندرانك

ببدلة فريق روسي وهو يحمل على صدره وسام فلا ديمير من الطبقة الرابعة وصليب القديس جورج من الطبقة الثانية وكذلك الصليب الحربي للقديس جورج من الطبقة الثانية . وكان بمعينه رئيس اركان حربه الكولونيل الروسي زنكوفيتش . وقبل وصول بليلة اخبرنا الكولونيل موريل بأنه بناء على الاوامر التي وصلت اليه من اندرانك في برقيته المرسلة من كوبري كوي ينبغي استخدام الرشاشات لقتل كل الجبناء الذين يحاولون الفرار من أرضروم . وعلى أثر وصوله تسلم اندرانك قيادة القلعة واصبح الكولونيل موريل مرءوساله ونحن مرءوسين لموريل .

وفي اليوم الذي وصل فيه اندرانك ذبح أهالي قرية طيبه كوي - التابعة لقيادتي - على بكرة ابيهم رجالا ونساء واطفالا . وقد بلغني الضابط الحرس خبر تلك الفاجعة فبلغته في الحال الى اندرانك في اول محادثة لنا فأصدر الامر وأنا حاضر بارسال عشرين فارساً الى طيبة كوي - للقبض على الجناة - وان لم يمكن القبض عليهم جميعا فعلى واحد ولم اعرف الى الآن ماذا كانت النتيجة ؟

ثم ظهر فجأة في ارضروم من جديد الكولونيل توركوم وكولونيل المدفعية الارمني المسمى دولوخانوف . فكان اول ما قاله لي - انه بصفة كونه مفتش المدفعية سيكون من الآن فصاعداً رئيساً لي . فاجبته بأني بصفة كوني قائد فرقة لست بحاجة الى رئيس والا اضطررت الى ترك الخدمة . واذ ذاك تقرر أن يباشر الاعمال الادارية لمدفعية الحامية بحيث لا تكون تعليماته لي موقعة باسمه بل تكون باسم اندرانك كما كانت من قبل . وفي ذات يوم حاول أيضاً الملازم الارمني جان بولاديان الذي كان يقود طابور المدفعية تحت اشرافي

ان يتدخل فى شؤوني . ذلك اني امرت بنقل المدافع كلها وأنوار الاستكشاف ومولدات الكرباء الى مؤخرة الجيش فاعترضني بقوله ـ انه لايستطيع أن يسمح بنقل مادة من هاته المواد نظراً لأن الأرمن قد صحت عزيمتهم على الاستيلاء على سائر المناصب الادارية في دائرة القيادة وانهم ربما استخدموا الضباط الروس للتنفيذ فقط . بل هم يرغبون استخدامهم بدون أن يشعروا (الضباط) في توطيد استقلال ارمينيا . ولوأدرك الضباط الروس الغرض الذي يراد استخدامهم لتحقيقه لما تردد معظمهم فى الاستقالة ولأصبح الارمن وليس لديهم الا النذر اليسير من الضباط . وتدل البيانات التالية التي قام بها الكابتن بليات القائد الموقت للكتيبة السابعة من مدفعية القوقاز الجبلية على مبلغ تخوف الارمن من استقالة الضباط الروس . فانهم عندما اعلموا ان تلك الكتيبة كانت على اتم استعداد للانسحاب الى صارى قاميش في اليوم الـ ٧ من شباط القوا القبض على القائد قبل ذلك بيومين . ومع أنهم ارغموا بناء على الاوامر الصادرة من مركز قيادة الجيش على اطلاق سراحه قد كرروا المحاولة ثلاث مرات

وهدد أرمن ارضروم مركز القيادة باغراق المدينة في بحر من الدماء اذا سحبت المدافع . فلم يجد القائد مناصاً من الغاء أمر السحب . ثم حاول بعضهم الوصول الى تفاهم مع قائد الكتيبة السابعة المدفعية . فاتفقنا سراً على ان الارمن اذا حاولوا التشديد على ضباط المدفعية الروس واقترحوا بطريق رسمي انضمام الضباط الى القضية الارمنية كان لنا أن نتبادل وقتئذ المساعدة فيما بيننا وبينهم . وكانت لدينا كميات هائلة من مواد الحرب والمدافع والرشاشات عدا العدد العديد من الضباط . وسعى ضباط المدفعية الجبلية أن تكون سكناهم في المدينة بعضهم بجوار بعض كما فعلنا نحن معشر مدفعية الحامية في الحي التركي

حيث ظل مركز قيادتنا منذ احتلال المدينة .

ولما وصل اندرانك الى جانب الكولونيل موريل أخذت المخاوف من تمرد أهالي أرضروم تزداد يوماً بعد يوم . فأمر القائد بأن يعهد بقلعة مجيدية الى احد الضباط الروس الاكفاء للاشراف على اطلاق النار فيما لو حصل تمرد وهو ما يحتمل وقوعه على اثر القبض على مثيرى القلاقل . ثم وصلت الينا جميعاً الاوامر بمغادرة الحي التركي والانتقال الى الحي الارمنى . ولما كنا قد لبثنا فى الحي المذكور زهاء عامين وكانت خطتنا نحو الاهالى المسلمين خطة قوية مبنية على العطف عليهم تبادرالينا أن في الامر سراً وان التعليمات السابقة تدعو الى الاستغراب الشديد .

فصرح ضباط المدفعية الروس أجمعون بأنهم انما آثروا البقاء فى الخدمة لمقاتلة عدو شريف فلا يمكنهم بحال من الاحوال أن يوافقوا على اطلاق النار على النساء والاطفال لأن من الجلى ان الارمن سيتذرعون بدعوي التمرد المنتظر لصب قنابلهم على الحي التركي . أما الانتقال الى الحي الارمنى فأمر متعذر عمليا لأسباب ثلاثة : - أولها - ان من المستحيل اتمام النقل في المهلة المحددة ثانيها - ان انسحاب الضباط الروس من الحي التركي سيعقبه بلا ريب مذبحة جديدة . ثالثها - نظراً لتوتر العلائق بينهم وبين الارمن منذ زمن بعيد فمن المخاطرة المحضة ان يلقى الضباط الروس انفسهم فى احضانهم .

ورفض الاقتراح أيضاً ضباط المدفعية الجبلية الذين لم يكونوا تابعين (لكادر) مدفعية الحامية . وفى النهاية شرع الارمن الذين وجدوا أنفسهم مضطرين الى تنفيذ اعمالهم السافلة وحدهم وبلا مساعدة فى القبض على بعض المهيجين المزعومين

وإذ كان اقتراح الكولونيل موريل رمى المدينة بالقنابل اقتراحاً ذامعنى رأيت من اللازم أن اعقد اجتماعاً من الضباط الذين تحت قيادتي . فاجتمعنا مرتين في خلال ثلاثة أيام . فحضر الاجتماع الاول جميع ضباط المدفعية الموجودين في ارضروم هذا عدا ضابطين انجليزيين وصلا حديثاً والكولونيل موريل والكولونيل زنكوفيتش والكولونيل دولوخانوف والكولونيل توبركوم واندرانك والدكتور زافرييف . وكان غرضنا من دعوة الضابطين الانجليزيين هو تهيئة الفرصة اللازمة لهما ليريا بانفسهما العلائق الموجودة بين الضباط الروس والقيادة الارمنية وليقفا أيضاً على ما لدى الروس من الوسائل لمنع الارمن من ارتكاب الاعمال الوحشية وبذلك يستطيعان متى عادا الى بــــلادهما تعزيز ملاحظاتهما بالأدلة الحسية .

ونظراً لانني لم يكن لدي مواصلات تليفونية أو تلغرافية أشرف عليها اشرافاً خاصاً مما جعلني اعتقد تماماً ان البرقيات التي أرسلها لن تصل الى أصحابها رأيت أن انتهز فرصة ذلك الاجتماع لاشرح باسهاب تام كل ما حدث بمرأى مني وما حدثني به الثقاة من الاعمال الوحشية والفظائع التي ارتكبها الارمن فبينت للحضور مبلغ التمرد الضارب أطنابه بين الجنود الارمن وذكرت عدة حوادث سمعتها من فم القائد أوديشيلدز نفسه . ثم ختمت خطابي بهذه العبارة (نحن معشر الضباط الروس الذين تخلفنا في أرضروم لم نمكث فيها لكيما نضع ملابسنا العسكرية رهن اشارة الارمن فتكون بمثابة ستار يخفون وراءه جرائمهم المروعة كلا بل فعلنا ذلك طوعاً لاوامر رؤسائنا لحماية مصالح روسيا فقط . فان لم تقف الفظائع الارمنية في خلال اقامتنا بأرضروم فان كل ضابط روسي سيلح في مغادرة المدينة واعتزال منصبه) . وقد ضرب على هذه النغمة عدد

من الضباط الذين اعتلوا منصة الخطابة بعدي .

ثم قام اندرانك للرد فقال : ـ أن الارمن سيظلون أبد الدهر حافظين جميل روسيا وانهم ليسوا الاجزءاً لا يتجزأ من سكان روسيا الكبرى وانهم لا غاية لهم البتة الاخدمة المصالح الروسية . أما من حيث المذابح التي يزعمون أن الارمن ارتكبوها فليست سوى نتيجة للعداوة المستحكمة بين الارمن والاتراك من قديم الزمن . ثم ذكر للحاضرين بأن الغرض الاول من مهمته في أرضروم هو وضع حد لتلك الجرائم فاذا ما اخفق في رد الارمن الى الصواب فانه أول من يغادر المدينة ودارت المناقشات في هذا المجتمع بواسطة أحـــد المترجمين . ولما سئل اندرانك ـ هل يسمح للضباط بمغادرة المدينة اذا أرادوا ؟ ـ أجاب بانه : ـ (يستحسن أن يغادرها كل ضابط عديم الثقـة بنفسه وانه يبذل لترحيل أمثال أولئك الضباط كل المساعدة الممكنة) وصرح الكولونيل زنكوفيتش أمام الحاضرين بأنه ـ وقد ثبت لديه ان وجود الضباط الروس في ارضروم انما هو لخدمة مصالح روسيا قد اعتزم البقاء فيها لهذا الغرض . وفي النهاية قر رأي الضباط على المكث مدة عشرة ايام أخرى وان يعدلوا سلوكهم طبقاً لما يأتي به المستقبل من الحوادث التي قد تؤيد وعود اندرانك أو تدحضها وكان هذا الاجتماع في اليوم الـ ٢٠ أو الـ ٢١ من شباط . ولم يمر الا قليل من الزمن حتى أعرب الكولونيل دولوخانوف لي ولغيري من الضباط الروس عن شدة استغرابه لعين الاحتقار بل الاستفظاع التي ينظر بها الضباط الروس الى الارمن . وفي اليوم التالي اعلن أندرانك باعلانات كبيرة مكتوبة بالتركيـة ولصقت بجدران المدينة ـ ان كل من يقتل ارمنيا او مسلماً يقبض عليـه في الحال ويساق الى المشنقة وان الاتراك يمكنهم مباشرة اعمالهم بلا ادنى خوف

وانه في حالة اختفاء احد الاتراك المكلفين بالعمل في الحقول تكون المسؤلية على عاتق الشرذمة المنوط بها الاشراف على العمل . وبينما انا اجوب الشوارع في اليوم التالي على صهوة جوادي ومعي جان بولاديان اذ رأينا عدداً من الناس يقرأون الاعلانات . فأكد لهم جان بالتركية - ان الأهالي المسلمين ماداموا ممتنعين عن القيام بثورة لاخوف عليهم من الارمن . فكان جوابهم ان المسلمين لم يرتكبوا زهاء عامين جرائم مطلقاً وانهم لارغبة لهم في ارتكابها في المستقبل وكل ما يطلبونه هو ان لا يقتل المسلمون العزل من السلاح المحرومون من كل وسائل الدفاع عن انفسهم بلا مسوغ . فطلبت الى الكابتن ان يخبرهم بأنني انا قائد المدفعية الروسية وان يؤكد لهم بأنني وسائر زملائي الروس نشعر بعطف شديد تجاه الاهالي المسلمين واننا سنظل في المستقبل - كما كنا في الماضي - ساهرين على حياة اولئك النساء . فأيد بعض الاتراك الموجودين وعلى الاخص ثلاثة منهم كلماتي اذ قالوا : - نعم انك لأنت الذي انقذت حياتنا اثناء مذبحة ٧ شباط . وكان جان بولاديان الذي قام بالترجمة بينهم وبيني عضواً في اللجنة الارمنية .

وفي الاجتماع الثاني حضر الضباط الروس فقط ولم يسمح لاجنبي سوى الدكتور زافرييف بحضوره . ودارت المناقشة حول النقطة الآتية الخاصة ببذل المساعي لتحديد صفة الكتيبة الثانية المدفعية من قوات الحامية في ارضروم فانها ليست - كما يدعي الارمن - كتيبة ارمنية بل كتيبة روسية . وليس بين ضباطها ضابط واحد تطوع للخدمة في الصفوف الارمنية بل لم يتفق احد منا على ذلك . فان كانت الكتيبة روسية فانا نصر على ان تتمتع بالاختصاصات الروسية . وان كانت ارمنية فانا نرغب ان يكون لنا الحق في مغادرة المدينة

متى اردنا للخدمة فى الجيش الروسي . وقد اتخذت حالة الحصار كذريعة للحيلولة بين الضباط الذين يريدون مغادرة المدينة وبين غرضهم واجبارهم على الخدمة في جبهة اخرى عدا جبهة القوقاز وان صحت من جهة اخرى الاشاعة التي تناقلتها الالسن بأن ماوراء القوقاز قد انسلخت من روسيا فيتعين حتماً منح الضباط الروس اجازة بالتغيب هذا اذا كنا لانريد ان نرى انفسنا غرباء فى بلد اجنبية .

وبعد المناقشة الطويلة وصلنا الى هذه النتيجة - وهى ان كل ضابط له الحق بمقتضي المنشور الذي بأيدينا ان يكتب طلباً بالانتقال الى احد الفيالق الروسية او أن يبقى رهين اشارة وزارة الحربية . وعلى ذلك وافقت على تقديم هذه الطلبات الى السلطات المختصة .

وحمي وطيس الجدال فى خلال الاجتماع حول ما صادفـه الضابط بوميلوف التابع للكتيبة السابعة من مدفعية القوقاز الجبلية من المتاعب . فقد طلب أن ينقل من الكتيبة الأرمنية الجديدة التي عين لهـا . فلما لم يفلح الكولونيل موريل فى تحويله عن عزمه اضاف العبارة الآتية :- الى صورة الطلب وهي - (ان الضابط المذكور قد رهن على عدم الكفاءة في القيام بواجباته فينبغي والحالة هكذا وضعه تحت تصرف هيئة أركان الحرب في ميدان القتال . وستصدر اليه الاوامر بمغادرة ارضروم فى خلال اربع وعشرين ساعة) ! وبهذا مست كرامة ضابط من خيرة الضابط وكفاءهم لا لذنب سوى امتناعه عن خدمة المصالح الارمنية ولتسرعه في اتهام الكولونيل موريل بالتحيز للقضية الارمنية ! .

وكرر الدكتور زافرييف اقوال اندرانك السابقة كلمة كلمة . فقال :-

(اننا ببقائنا في ارضروم الى حين ابرام الصلح انما نخدم المصالح الروسية .
ولعمري ليس من حق ضباط ينتمون الى شعب متمدين ان يحاجوا بمثل هذا المنطق الغريب كأن يقولوا لأنفسهم : ـ (مالنا وللتدخل فى شؤون الارمن والاتراك لنتركهم يسوون اختلافاتهم فيما بينهم ـ او يقتال بعضهم بعضاً ! فليس ثمة ما يضطرنا معشر الروس الى التدخل في شؤونهم ؟ فليذهبوا الى حيث لارجعة لهم !)

وبعد اتمام خطابه الذي لم يؤثر التأثير المطلوب ناشدنا الدكتور زافريف قائلا : ـ (اذا أردنا خدمة الانسانية فالواجب يقضي علينا بالبقاء فى ارضروم لنحول دون ذبح الاتراك) .

ولم يتحقق من الوعود التي قطعها اندرانك شيء كما ان المسلمين انفسهم لم يعيروها اهتماماً كبيراً او يثقوا بها . فقد ظلت ابواب الحوانيت موصدة وساد شعور الرهبة والفزع فلم يجرأ احد فى الحي الاسلامي على الخروج من داره . ولم يفتح من الحوانيت الا عدد يسير بالقرب من قاعة البلدية حيث اكثر لفيف من الاتراك التردد عليها .

ولم تتناول يد العدالة ارمنياً واحداً . وكأنما اراد الارمن خديعة الملأ التظاهر بان لاصلة لهم بما حدث من الفجائع فجعلوا يتساءلون عما اذا كان فى النية معاقبة الابرياء من اجل مجرد وعد قطعه اندرانك ! ولكن لما اجاب الضباط الروس بأنهم انفسهم سلموا للسلطات عدداً من مذنبي الارمن الذين ثبتت اذانتهم قوبلت حججهم هذه المفحمة بالصمت التام . واستمر القتل ولكن فى الخفاء وفى القرى النائية التي لاتقع عليها عيون الضباط الروس كما استمر اختفاء الاهالي الاتراك من القرى المجاورة لارضروم دون ان يسمع احد بمصيرهم .

وازدادت في المدينة حوادث الاعتقال بدعوى احباط التمرد المنتظر .

ولما سألت بتهكم عن مصير المعتقلين وعما اذا كانوا سيذبحون ذبح الأنعام اجابنى الكولونيل موريل قائلا : - ان بعضهم سينقل تحت الحراسة الكافية الى تفليس ويبقى آخرون فى ارضروم كرهائن ! وفى الشوارع جملت العصابات الارمنية المؤلفة من الفارين من الجيش تقتل المارة اما بدافع الخوف وأما لسلب مامعهم وفى كلتا الحالتين كان السبب هوالدافع الرئيس لارتكاب القتل . وقبل وصول اندرانك كانت الفصائل الارمنية تأبى التقدم الى جبهة القتال فلما وصل اخذت تذعن للاوامر ولكن لتفر ثانية من الميدان بجبن لامثيل له . ولطالما امتطى اندرانك جواده وحاول أن يعيدهم الى الصف ملوحا بسيفه ويده وعبثاً ما حاول . وكان وجوده فى مقدمتهم اقصى ما يبتغيه الارمن الملحقون بالمدفعية الروسية . وكأنما فاتهم ان مدفعية الحامية انما تقوم على عزيمة رجال المدفعية المتمرنين هذا عدا العدد الكافي من المشاة . ولكن كان من السهل ادراك غايتهم الخفية وهي التعلق بأذيال الفرار تحت حماية المدافع متى ازفت ساعة الانسحاب . وهو ما وقع بالفعل فيما بعد .

وقد تأخر موعد فتح المفاوضات في طرابيزون وعلمنا من هيئة أركان الحرب فى ارضروم بأنها ارجئت الى ٢٠ - او ٢٥ شباط بعد ان كان تقرر افتتاحها في اليوم السابع عشر منه وكنت اضطر لاختراق المدينة مرتين كل يوم نظراً لوجود اركان حربي فى طرف المدينة وسوء حالة المواصلات التليفونية

وفي خلال احدى الزيارات الرسمية علمت من الكولونيل موريل وهيئة اركان حربه بأن ليس ثمة جنود نظامية عثمانية بالقرب من ارضروم وان كل ما هنالك ليس الا بضع عصابات من الاكراد والفلاحين ومعهم شرذمة من

الجنود النظاميين وهم بقايا الجيش العثماني فى سنة ١٩١٦ - وقد قيل : - ان هؤلاء العصابات انما حشدها بعض الضباط العثمانيين الذين اقتربوا من ارضروم لحماية الاهالي وان كل ما لديها هو مدفعان جبليان تركهما الارمن اثناء فرارهم من ارزنجان . وانها اذا ارادت مواصلة الزحف فمن احـد طريقين طريق ارزنجان - اولتى - بيني او طريق القرظ - بالان دوجنو - ولا اعرف لماذا توقع الكولونيل موريل ان يكون الهجوم من جهة اولتي . فقلم الاستعلامات الذي كان تحت اشراف الارمن كان في حالة سيئة لانصراف عماله الى اعمال القتل في القرى وسرقة كل ما وقعت عليه عيونهم من الماشية هذا فضلا عن ان بلاغاتهم كان الكذب لحمتها والتضليل سداها . فان قالوا يوماً ان عسسهم هاجمته قوة من العدو تقدر بنحو ٢٠٠٠ مقاتل جزم الانسان بأن تلك القوة لم تزد في الواقع عن ٢٠٠ رجل ! ومن الغريب انهم لم يخجلوا ان يعتزموا بالفرار اما قوة لا تزيد عن ٣٠٠-٤٠٠ رجل في حين ان خسائرهم في تلك (المعركة) كانت قتيلا واحداً وجريحاً واحداً ! وفى ذات يوم بلغ ضابط أرمني تليفونياً ان قوة من العدو تبلغ ٤٠٠ مقاتل هاجمت كتيبة ارمنية ولكن ثبت فيما بعد ان تلك القوة كانت عبارة عن رجلين اعزلين من السلاح خرجا من قريتهما المجاورة ثم عادا في الحال الى منزليهما ! وفي طول الفترة التي اعقبت الجلاء عن ارضروم الى ان احتلها الاتراك لم ينجح العسس الارمن الا مرة واحدة فى اسر فارس تركي واحد ويغلب على الظن ان الذي عاقه عن الفرار امر قهري لا يدله به كالجليد او المرض .

وبعد الاجتماع الذي عقده الضباط ثاني مرة طلب بعضهم الانتقال الى مناصب اخرى . فلما عرضت طلباتهم هذه على الكولونيل موريل امتعض اشد

امتعاض وابي ان يسمح لهم بالرحيل ارتكاناً على حكم صادر من المحكمة . فلما لفت نظره الى ان المدافع ما زالت بأيدي الضباط الروس وان في استطاعتهم مقابلة تلك القسوة التي لا مسوغ لها باطلاق النار وان الطلبات هي فضلا عن ذلك قانونية فلا يمكنه بحال من الاحوال الادعاء بأنها محاولة للفرار وان خير مايفعله هو الاذعان لها - اجاب بأنه لايتردد في اعطاء الضباط - اذا أصروا - اوراقاً مدنسة لصحائفهم كالتي اعطاها للكابتن برمالوف . فقلت له : - (ان الضباط الذين يكرهون على البقـــاء فى الخدمة لا ينتظر منهم تأدية الواجب بالدقة المطلوبة) . فأجاب (بأنه لهذا السبب نفسه ارسل فى طلب ستين ضابطاً انجليزياً للحضور الى ارضروم وقد وصل اليه فعلا الرد الرسمي بالقبول) . ولقد سمعت فى اثناء تلك الزيارة بحادث آخر ذلك - ان جندياً روسياً او بولونيا مستخدما بوظيفة ناظر محطة فى ارضروم رفض العمل فقبض عليه من اجل ذلك وارغم على الاستمرار في تأدية واجباته . وقد امرت ضباطي ان تكون مساكنهم بعضها بجوار بعض بحجة ان ذلك يسهل تعميم الاوامر الصادرة والحقيقة ان ذلك لنكون اقدر على مساعدة بعضنا بعضاً اذا اقتضت الحال .

وكان الكابتن برمالوف قد رحل في اليوم الخامس والعشرين من شباط فسألته أن يعرج في صاري قاميش على القائدين فيشنسكي وجيراسيموف قائدي المدفعية فيخبرهما بالموقف الخطير الذي اصبحنا فيه حيال الارمن ويستحثهما على انقاذنا من تلك الورطه بأقصى السرعة .

وفى اليوم الـ ٢٤ من شباط رأيت طيارة تركية حلقت بقصد الاستكشاف فاستنتجت ان العدو قد وصل ارزنجان ان لم يكن جاوزها (الى ماماخاتوم) . وفى اليوم نفسه اخبرني الكولونيل موريل - انه تلقى (الاقتراحات) التركية

الخاصة بالجلاء عن أرضروم . ولقد اكدلي القائد التركي كاظم بك بعـد الاحتلال ان (الاقتراح) لم يكن قصاصة ورق لا قيمة لها بل هو انذار نهائي رسمي مذيل بامضائه وهو مايناقض ما ادعاه الكولونيل موريل من انه لم يكن سوى مجرد (بلف من القائد التركي) . وقد اذاعت قيادة القلعة في يومى ٢٤ و٢٥ شباط - بان الخطر ما زال بعيـداً وانه لم يظهر حتى ذلك الحين سوى العصابات الكردية بالقرب من تيكي ديريسي وانها وقفت زحفها فعلا على اثر وصول الكتيبة التي ارسلت لصدها . بل أذيع ان تلك الكتيبة قد صدت العدو الى بضعة كيلو مترات فيما وراء عليجي . وفى اثناء هذا كله وصلت الينا الانباء بان الكتيبة الارمنية في تيكي ديريسي قد هوجمت في اليوم الـ ٢٦ من شباط وان الذين نجوا من ايدي الاتراك سابقوا الريح فى الفرار تجاه ارضروم أما كتيبة عليجي فقد دارت عليها الدائرة وفرت هى ايضاً الى ارضروم .

وكان الكولونيل موريل قد أصدر الي التعليمات الشفوية باطلاق النار على العدو اذا هاجم ارضروم ولكني لم أر للعدو اثراً ذلك لأن طريق خربوط على طوله كان غاصا هو وطريق طرابزون بفلول الارمن وهي جادة في التقهقر الى ارضروم متراصة كما لو كانت فى ساحة التمرين . وفي أصيل ذلك اليوم علمنا أيضاً ان كتيبة من كتائب العدو ظهرت بالقرب من حوزكوى . فقدرت عددها بـ ١٥٠٠ مقاتل وقد تبينها فاذا هى كتيبة نظامية وليست باحدي العصابات الكردية .

وحاول اندرانك ان يلم شتات الفارين فيصد بهم العدو ولكن ماسرع ما اطلق هؤلاء الجبناء سوقهم للريح عند التقائهم بالاتراك . وهنا جعلت المدفعية تطلق وابل القنابل حتى منتصف الليل . ولما بدأ الهجوم الكردي

وتعين لنا العمل اقلع الضباط الروس عن فكرة الانسحاب وانبروا يؤدون واجباتهم بأمانه وشرف .

ولقد ذهبت جميع المساعي التي قمت بها لحمل مشاة الارمن الملحقين ببطارياتي في جهة بوبوك فير يميدي على الهجوم أدراج الرياح فانهم آثروا الامعان في الانسحاب الى جهة باب خربوط على الصعود ولم يفت الارمن الذين دارت عليهم الدائرة في تيكي ديريسي أن يسوقوا في هزيمتهم ما صادفوه من الماشية كما انهم لم يتوانوا في ذبح الاهالي العزل الاتراك الذي مروا بهم . وقد أخذ الزحف التركي على ارضروم القيادة الروسية بمباغته تامة . فتعليمات القتال لم تصدر بتاتاً وان صح انها صدرت فانني لم اسمع بها مطلقا . وكانت المهمة التي عهد الي القيام بها في منتهى البساطة وتنحصر في امطار العدو بوابل من القنابل ومنعه من اختراق منطقة الحصون المحيطة بالمدينة . اما المراكز الامامية فعززت بالمشاة والمدفعية الجبلية ولم تكن تحت اشرافي .

وفي خلال ذلك اليوم وجهت المليشيا الارمنية في المدينة اهتمامها الاول الى القبض على جميع الرجال المسلمين بما فيهم العجزة والمرضى وعند سؤالهم عن السبب في تلك الاجراآت اجابوا بأنهم أنما يجمعون الرجال ليزيلوا ما على سكة الحديد من الثلوج المتراكمة .

وفي المساء نمى الي ان طالباً ارمنياً يقود عصابة له قد عالج باب داري ودخلها عنوة رغم كتابة اسمي على الباب بدعوى التفتيش . ولما قاومت زوجتي ذلك المتطفل الوقح لم ينجح فيما حاوله كما اخفق في اعتقال صاحب الدار وهو رجل تركي طاعن في السن ومعه بعض الخدم من الاكراد . فاغتاظ ذلك الوغد من اجل هذا واطلق لسانه ببذيء القول وفحشه . ثم صاح هذا الطالب

قائلا : ـ ان هذا التفتيش انما يجري بناء على اوامر اندرانك . وعندئذ امرت بفتح باب سري بيني وبين صاحب الدار ليمكنـــه الالتجاء الي اذا عادوا للقبض عليه ثانية .

واعتدت في الايام الاخيرة الا ازور اندرانك وحاشيته الا يصحبة الكابتن بولكفتش رئيس قلم التعبئة ليكون شاهداً على علاقتي بهؤلاء الرجال. ففي ذات مساء ذهب معي الى اجتماع عقده الضباط . وكانت الجلسة قد فتحت قبل وصولنا بقليل وكان اندرانك والدكتور زافرييف والكولونيل زنيكوفتش والكونيل دولوخانوف بين الحاضرين . فما كدت أدخل حتى شرع زينكوفتش يقرأ بصوت جهوري البرقية الآتية من القائد العام او ديشيلدز وهي : ـ (لقد وصلتني من وهيب باشا قائد الجنود التركية برقية لاسلكية يقول فيها ـ ان لديه أوامر باحتلال ارضروم . فبادروا بتحطيم المـــدافع وسحب الجنود الامضاء اوديشيلدز) .

فلم يترك لنا هذا الامر الصادر في لحظة متأخرة فرصة لتحطيم المدافع وبعد ان سرى عن اندرانك غضبه عن عزمه على الدفاع عن ارضروم مـدة يومين آخرين ليتم تحطيم المدافع ثم ينسحب من القلعة . ولما ذكره الدكتور زافرييف بانه لم تتخذ الوسائل بعد للضرب على ايدي العابثين بالامن من الذين ازعجوا المدينة وان المسلمين بما فيهم الشيوخ المرضى ما زالوا ينزعون فى رابعة النهار من عقر دورهم ويرسلون الى جهات غير معلومة اجاب بأن الاوامر قد صدرت بالفعل لوضع حد لتلك الاضطرابات . ولكن هذه الوعود الجميلة ظلت كغيرها حبراً على ورق .

وبعد البحث في خير الوسائل لتنفيذ قرار اندرانك انسحبنا . اما من

جهة الدفاع عن ارضروم مدة يومين آخرين فقد كان في الاستطاعة فعلا المكث فيها اثنين واربعين يوما لا ضد الاكراد وحدهم بل ضد جيش نظامي وذلك نظراً لعدد الجنود التي كانت لدينا ومناعة المراكز الامامية .

واذا أعلنت القيادة العثمانية رسمياً في خلال مفاوضات الهدنة بأنها لا تعتبر نفسها مسؤلة عن اعمال الاكراد وجب علينا اتخاذ الاحتياطات اللازمه لصد الهجوم اذا حدثتهم نفوسهم به .

فلما عدت الى مركزي اصدرت الاوامر بتحطيم المدافع وقد كان في الاستطاعة تعطيلها في خلال يومين على كل حال . بيد أنى علمت من التقارير التي قدمها ضباطي بأن المشاة انتهزت فرصة الظلام فغادرت خنادقها وتعلقت بأذيال الفرار . فاطلعت الكولونيل على جلية الخبر فأكد لي ان ليس ثمة خطر ما نظراً لارسال الامدادات . فعدت الى داري حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وذهبت الى الفراش .

ولكنى سمعت بين الساعة الواحدة والساعة الثالثة طلقات رصاص فى المدينة ثم اصوات الارمن كما سمعت حركة تحطيم الابواب بالفؤوس واصوات الاستغاثة تتصاعد من المسلمين الذين هوجموا . فاستولت علي الحيرة لسببين : اولا لأن شرفنا اضحى مهدداً . لان كل من لم يشهد بنفسه اعمال الوحشية الدالة على الجبن التي كان اولئك الارمن (الذين يقاتلون في سبيل الحرية !) يأتونها ـ وبما تبادر الى ذهنه ان هذه الفظائع انما ارتكبت بأذن الضباط الروس وقتئذ نصبح شركاء في الجريمة مع اولئك الوحوش السفيه . وثانياً بما أن تعليمات القيادة العليا حظرت مقاتلة القوات النظاميه التركية وقد تكون النتيجة مخالفة اوامر القائد العام اذا وجد سوء التفاهم سبيلا الى نفوس المهاجمين

فلحل هاتين المسألتين قررت أن ابكر . في الصباح لزيارة الكولونيل موريل فاقترح عليه اتخاذ الوسائل الفعالة لمنع الأرمن من ارتكاب جرائم جديدة ولو أدى ذلك الى تصويب بعض مدافعنا عليهم وبهذا نضطرهم الى الاذعان لأوامرنا وثانياً أن نرسل سريعاً الرسل تحمل العلم الابيض الى قائد القوات التركية لاخباره بأن المدينة ستسلم اليه فى خلال يومين بدون اراقة دماء . وفضلا عن ذلك يتعين ايجاد كتائب من غير الارمن لقمع الاضطرابات بالقوة والحيلولة بين الارمن وبين ذبح الاتراك .

ولما ذهبت فى الصباح ومعى الكابتن بولكفتش لمقابلة الكولونيل موريل قابلت بالقرب من مستودع ذخيرة المدفعية الملازم الثاني الارمني المسمى باجرتونيان وهو الضابط الخفر فى ذلك المستودع فأخبرني بانه سينسف المستودع عند وصول امر الانسحاب فهو اذاً ينتظر ريثما تصل اليه الاوامر مني . فادهشني قوله هذا لان المستودع كان تحت ادارة الكولونيل دولوخانوف ولم يصدر أمر ما بنسفه . فقلت لهذا الملازم الارمني أن نسف المستودع ربما نشأ منه ضرر كبير للضباط الروس وللاهالى المسلمين ونصحت له بالعدول عن تلك الفكرة وفي النهاية نجحت فى اقناعه وانقذت الذخيرة .

وما كدت اقترب من مركز الكولونيل موريل حتى رأيت كل انسان مجداً في الهرب كما رأيت النار تشتعل في دار القنصل الاميركي الواقعة أمام مركزه بل رأيت الكولونيل موريل نفسه والكولونيل توركوم على ظهرى جواديهما متحضرين للفرار وأن متاعهما قد حمل على سيارة عدا المركبات العديدة الاخرى . وكانت الساعة السابعة فى الصباح فتساءلت عن السبب في كل ذلك فقيل لي - ان اوامر الانسحاب قد صدرت فى الساعة الخامسة صباحاً .

واستغرب القوم عدم علمي بها . ولعمري ان ذلك هو نفس ما كنت اخشاه فان الارمن قد تمكنوا من الهرب تحت حماية الضباط الروس ومدفعيتهم . غير انه بينما الضباط الروس كانوا يبذلون وحدهم أقصى الجهد في صدهجمات الاتراك اذا بالارمن قد اتسع لهم المجال في ذبح المسلمين ثم التعلق بأذيال الفرار . ولولا وصولي الى هنا لما سمع الضباط الروس بشيء من اوامر الانسحاب . فخطر لي ان اذهب الى قلعة مجيدية واحيي شجعان الارمن تحية الوداع بصب القنابل عليهم وهم جادون بالفرار على طول طريق القرظ وقد لبسوا الثياب الواقية من الرصاص . ولم يمنعني عن تنفيذ تلك الفكرة الا احتمال وجود بعض ابرياء الاتراك بينهم .

وقد ترتب أيضاً على خداع الناهبين الارمن وجبنهم أن المدافع لم يمكن تعطيلها . فلما عدت الى مركزي سمعت فى احدي الشوارع المظلمة أنين الالم والاستغاثة وطلقات رصاص شديدة واذ كنت بقرب منعطف الطريق لم استطع رؤية ما حدث ولكن آثار الدم فوق الجليد دلني على ان معركة كانت ناشبة هناك . فنزلت من مركبي لأواصل السير على الاقدام . فلما رأيت قائد المليشيا الارمني وهو على ظهر جواده يبرز من احد الشوارع الخلفية امكنني تصور الحادث الفظيع الذي وقع .

ولما عدت الى مركزي اصدرت الاوامر للبطاريات باعلان الانسحاب فى نفس الوقت الذي ينسحب فيه المشاة واعداد المركبات لضباط المدفعية . ولكني علمت ان خيالة المركبات قد عجلوا بالفرار في الليلة السابقة وان الفارين من الارمن ــ مع انهم مسلمون تماما ــ أخذوا خيل المركبات طالبين النجاة على ظهرها كل اثنين على حصان . ولقد هموا بسرقة خيولي ولكن السايس

قاومهم فلم يتمكنوا من سرقتها ولكنهم جرحوا واحداً منا برصاصة . فلم يبق لدينا من الخمسين مركبة سوى ثلاثة فقط فركبها بعض الضباط . وبعد ذلك بقليل علمنا ان الجيش العثماني دخل المدينة واذ ذاك أمكننا أن نتبين انه لم يكن مؤلفاً من عصابات كردية حشدت بطريق الاتفاق كما أوهمنا موريل بل من جنود نظامية . وانتهزت مشاة الارمن البواسل فرصة ارخاء سدول الليل فأمعنت فى الفرار في الطريق بين أرضروم والقرظ . واحسب ان الزوابع الاعاصير ما كانت لتستطيع ان تطهر ارضروم من الرجس الارمني بمثل هذه السرعة

ولم يمكن العثور فى الخنادق أو في المدينة على واحد من جرحى الارمن ولعمرى ان هذا الا برهان جديد على (البسالة والجرأة التي دافعوا بها عن ارضروم ! فكل الذين وقعوا فى الاسر هم الروس وحدهم . فللارمن اذن أن يفاخروا بالدور السلبي الذي لعبوه فى الدفاع عن المدينة .

وعند ما سمعت باحتلال الاتراك للمدينة توجهت ومعي المساعد الى دار القيادة لتقديم تقرير عن الحالة .

وكنت اينما سرت فى الشوارع يعرب لي الاتراك بطريقة مؤثرة عن عرفانهم للجميل حيث انقذت حياتهم . وكان شكرهم ذلك موجهاً الى جميع الضباط الروس اذ لولاهم لما وجدت الجنود التركية التي احتلت أرضروم تركيا واحداً حياً .

ولا بأس ان اثبت هنا ما ذكره الكاتب الروسي بترونيس عن الارمن اذ قال : - (انهم آدميون حقيقة ولكنهم فى ديارهم يمشون على اربع ! - كما يجب الا اغفل تغني الشاعر الروسي ليرمنتوف بمحامدهم وفضائلهم اذ قال مخاطباً احدهم : (انك عبد ونذل وجبان لأنك ارمني) .

أرضروم فى ٢٩ - نيسان سنة ١٩١٨ .

الامضاء

ليفتننت كولونيل توارد وخيلروف القوmندان
الموقت لقلعتي اوضروم وديفي بونيو
وقائد الاورطة الثانية لمدفعية الحامية
بأرضروم

والآن ايها القراء المنصفون ماذا عساكم انتم قائلون فى انسانية الارمن؟ كلا ! كلا ! اني اناشدكم الله الا تجوروا في الحكم على هذين الشعبين ! فلم يكن الذنب ذنبهم وانما الذنب ذنب السياسة الروسية التي حرضتهم بعضهم على بعض . فالسياسة الروسية كان اقصى غايتها ذبح التركي حتى اذا قضيت على ذلك المجد الوطني القـــديم الذي ينيف على الف عام سلبت التركي تراثه . تلك السياسة التي كان اشهى شيء لها السباحة في بحر الدم وتحريض الارمن على الاتراك . فماذا كانت نتيجة ذلك كله ؟ ! كانت النتيجة ان الاتراك قد رسخت فى افئدتهم هذه العقيدة وهى « يلزم ذبح الارمن على بكرة ابيهم لنأمن على حياتنا » بينما الارمن قالوا لانفسهم :- (للتخلص مما نحن فيه ينبغي ان نخنق الاتراك قاطبة حتى تعود لنا الاغلبيه) . ذلك هو الذي مهد الطريق للحوادث المفجعة التي شاهدناها . والتى ذهب ضحية لها ٦٠٠٠٠٠ ارمني و ١٥٠٠٠٠٠ تركي وكردي . والآن أقول :- ان السياسة الروسية واذنابها البلهاء امثال مورجنتاو ومن على شاكلته هي التى تحاول بلا خجل وبلا حياء القاء اللوم كله على عاتق الاتراك بما تملأ به صحف العالم من السخائم والاحقاد وتود لو اتيح لها القضاء على ذلك الشعب المجيد .

ان ماندلستام يؤكد ان الارمن فيما عدا ولاية (وان) لم يحاولوا بتاتاً الشروع فى الثورة ! ولقدقلت آنفاً : - انى لاعلم لي بما وقع من الحوادث فى ولايات الاناضول الشرقية ولا في مؤخرة جيشنا في القوقاز . ولكنى من جهة اخرى كنت على علم تام بما جريات الاحوال في المنطقة التى كانت تحت قيادتي فالحوادث التى وقعت فى نصف سنة ١٩١٥ في جهتى الزيتون واورفه لم تكن سوى عصيان ارمنى مسلح . ولم تكن القلاقل التى حدثت فى جهـــة موسى بابا الا جزءاً من تلك الثورة المنظمة . وعندي ان الامور التي لاتقبل جدلا هوانه في الوقت الذي بلغت فيه حملة الدردنيل منتهى الشدة نزع الارمن الى الثورة بناء على اوامر القائدين العامين الانجليزي والفرنسي فى شرقي البحر المتوسط ولا ريب في انهما حسبا ان الثورة الارمنية اذا بدأت من رين الخنزير فى خليج الاسكندرونة وانتشرت الى دورت يول ومن ثم الى موسى بابا وحلب وعينتاب واورفه وزيتون فلابد ان تقضي حتما الى سلخ سوريا من آسيا الصغرى ! وفضلا عن ذلك ان الارمن الذين اعدوا معدات الثورة في تلك الجهات قبل ذلك الوقت بزمن طويل لم يقعدهم عن تنفيذ خططهم الا انتظار وصول التعليمات اليهم بالشروع فى العمل .

فهل في استطاعة السلطات المسؤلة في الحكومتين المذكورتين الادعاء بان اقوالى هذه لا اساس لها ؟ وانى ارى بعد ان وضعت الحرب اوزارها ان من الشجاعة ان توضع الحقائق الخاصة بهذا الموضوع كما هي امام الجمهور .

واذا كان ماندلستام لايزال مصراً على رأيه من ان تلك الحوادث لم تكن مطلقاً محاولة للشروع في الثورة بل انها كانت مجرد مقاومة والتجاء الى السلاح للدفاع المسوغ عن النفس فلامندوحة لي من ان اؤكد له ان حلفاءه

الضباط الانجليز والفرنسيين الذين دبروا تلك الثورة سيعتبرون كلامه هذا مجرد لغو وهذيان ! ذلك هو رأيي واعتقادي في المذابح الارمنية . على ان الحرب اذا كانت انتهت بفقد المملكة التركية لسورية والعراق وشبه جزيرة العرب وهي أثمن درر التاج العثماني فان تركيا تستأنف الجهاد من جديد للحيلولة دون ضياع الاناضول تلك الاراضي المقدسة التي أصبحت كل ما تبقى للشعب التركي . فان كان ثمة تعزية لتركيا البائسة على ما ضحته في خلال الحرب العالمية من الضحايا التي تنيف على ثلاثة ملايين فهذه التعزية هي ان القيصرية عدوتنا الوراثية قد تلاشت من الوجود وانمحى أثرها .

وعلى اثر ما وقع في القوقاز نشهد اليوم بين الدول التي انشئت حديثاً تكوين جمهورية أرمنية . ولكننا واثقون من جهة اخرى ان الارمن الاتراك وعلى رأسهم صافن افندي بطريرك الاستانة لن يقفوا عند حد لاثارة خواطر الاتراك الذين لا يعارضون بحال ما في انشاء جمهورية ارمنية مع اتخاذ اجيادزم واريفان قاعدتين لها على شرط بقاء الجمهورية المذكورة في صفاء تام مع جمهوريتي اذربيجان والكرج التي تكونتا من العناصر الوطنية المختلفة في جنوبي القوقاز وكذلك مع المملكة العثمانية بصفتها المالك الوحيد لآسيا الصغرى الذي لا جدال في ملكيته وعدم التطلع بعين الطمع الى ما هو ملك ثابت لتلك المملكة

وفوق كل شيء اني انصح للارمن الاتراك اذا أرادوا العيش في سلام وهناء وعلى الاخص لمصلحة الاتراك ان يعدلوا نهائياً عن تلك الأماني المستحيلة التي طالما عللوا بها نفوسهم وهي ان تصبح ولايات أرضروم وتبليس ووان وديار بكر ومعمورة العزيز يوماً ما جزءاً من ارمينيا .

ففي اليوم الذي يقوم فيه الدليل على أن الأرمن عدلوا فعلا عن تلك

الاماني المستحيلة يستطيعون العيش في صفاء ووئام مع مواطنيهم الاتراك والاكراد . ولعمري ان الطريق دائماً مفتوحة لمن يريد منهم التجنس بالجنسية الارمنيـة فقط على شرط أن يبقى في الجمهورية الارمنية بالقوقاز . أما الذين يؤثرون منهم التوطن في تركيا فعليهم أن يبرهنوا قبل كل شيء على انهم عثمانيون صادقون وأن يحجموا عن القيام بالمساعي التي قد تثير الشكوك في ولائهم ولا معنى كذلك من الآن فصاعداً لوجود جمعية الدشنقزيتيين - أو جمعيـة الهنجاق أو الجمعيات الاخرى بين أرمن تركيا . لأن وجود مثل تلك التشكيلات في نظري مضر بأكثر من القوقاز .

والآن أرى ان واجب جمهوريات القوقاز الثلاثة والمملكة العثمانيـة كذلك هو ان تعاون كل منهن الاخرى وأن يوجه الجميع اهتمامهم الى تعمير الاراضي المخربة واعادة تنظيم الادارة وتوطيدها . وثم واجب آخر أمام تلك الدول الاربع - الا وهو اتخاذ كل الوسائل اللازمة لمنع السيل الروسي من غمر جبال القوقاز وهو ما يمكن صده اذا عقدت هؤلاء الولايات بينهن تحالفاً دفاعياً وان صافن أفندي بطريرك الارمن ليعلم اكثر من أي شخص آخر مقدار ما اكنه في صدري من شعور الصداقة حيال الأرمن .

وبهذه المناسبة اذكر ان صافن أفندي جاء الى زيارتي فى فندق سراي بيرا عند عودتي الى الاستانة فى كانون الاول سنة ١٩١٥ وسلمني مذكرة من البطريركية شكرتني فيها باسم الامة الارمينية باسرها .

واني وقد نمى الي انه سمح لنفسه بأن يستعمل كآلة في الدسائس التي يدسها البطريرك اليوناني في الاستانة أناشده بصفتي صديقاً للارمن أن ينعم النظر في النصيحة التي ذكرتها هنا فقد تعنعه دراستـه للمزايا التي تعود على



الارمن من تنفيذ اقتراحاتي هذه من أن يصبح العوبة في أيدي ذلك البطريرك

فاذا لم نعقد - كما قلت آنفا - نحن أمم الشرق الادنى الاربع محالفة دفاعية رسمية ضد روسيا واذا لم نتعاون في انشاء جمهورية في شمال القوقاز وضمها الى تحالفنا فلا ريب في أننا سنقع تحت نير روسيا التي ما فتئت منذ سنين تمنى نفسها بوضعنا تحت سلطانها .

وما يدرينا لعل اليوم الذي يفلت فيه العرب والفرس التعساء الذين وقعوا تحت سلطان الانجليز والفرنسيين من قبضة حكامهم الحاضرين وينضمون الى تحالفنا يكون قريباً ؟

ان أمم الشرق الادنى لا يمكنهم أن يعيشوا احراراً الا اذا أصبحوا مطلقي التصرف في مصيرهم .

واني لعلى يقين من ان هذه الامنية السياسية التي أبسطها امام ساسة تركيا وأرمينيا والكرج واذربيجان متى تحققت تحول في أقل من عشرين عاماً الشرق الادنى - الذي يعتبر حتى الآن مهد الدسائس والقلاقل - الى فردوس من الفراديس وصار في مركز يصبح معه مستقلا تماماً عن الاجنبي .

وعندي ان هذه الامنية العظيمة الاهمية للاتراك الذين هم الاغلبية في المملكة العثمانية - فاذا أرادت الاقلية الأرمنية أن تظل عثمانية فكل ما عليها اقامة الدليل على انها - مثل الارمن منذ ٧٠ عاماً ليست مدفوعة الا بشعور الولاء والاماني العثمانية الصحيحة . هذه هي في اعتقادي الطريقة المثلى الوحيدة التي يمكن اقتراحها لدفن الماضي الملوث بالدماء ولاحياء مستقبل باهر سعيد . واني ومواطني لعلى استعداد للمناقشة مع من يشير بتسوية أنجح من هذه .

٢١ شعبان سنة ١٣٤١ - الموافق ٨ نيسان سنة ١٩٢٣ . « انتهى »

MEMORIES

OF

JAMAL PASHA
Al-Saffah

AL-BASRI,s PUBLICATION HOUSE

BAGHDAD 1963

AL-BASRI,s PRESS TEL 89279

PRICE 350 FILS الثمن ٣٥٠ فلس

مطبعة دار البصري ـ بغداد (تلفون ٨٩٢٧٩)

